JOJO MOYES

جوجو مويز

الفتاة التي تركتها

THE GIRL YOU LEFT BEHIND



الكاتبة الأكثر مبيعًا على قائمة نيويورك تايمز



رواية | ترجمة: نهلة الدربي

الفتاة التي تركتها

THE GIRL YOU LEFT BEHIND





إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
The girl you left behind
- العنوان العربي: الفتاة التي تركتها

- ترجمة: نهلة الدريني
- تحرير: أحمد حسين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2024م
- رقم الإيداع: 15856/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-299-7



JOJO MOYES

جوجو مويز

الفتاة التي تركتها

THE GIRL YOU LEFT BEHIND



ترجمة : نهلة الدربي



الجزء الأول



1

بلدة سان بيرون St.Peronne
أكتوبر 1916

كنت أحلم بالطعام، خبز الباجيت الفرنسي الهش بلباب شاهق البياض، لا تزال تتصاعد منه أبخرة الفرن والجبن السائح الذي تتسلل أطرافه باتجاه حواف الصحن، حبات عنب وخوخ داكنة عبقة مكدسة في أوعية تفوح رائحتها في الهواء. هممت بمد يدي والتقاط واحدة حينما أوقفتني أختي. غمغمت قائلة: «ابتعدي عني».

- صوفي. استيقظي.

أستطيع تذوق طعم الجبن وكنت على وشك أن آخذ قدرًا من جبن الريبلوشون وأفرده على قطعة كبيرة من ذلك الخبز الساخن ثم ألقي بحبة عنب في فمي، أكاد بالفعل أتذوق حلاوته الشديدة وأشم رائحة الطعام الغنية.

ولكن ها هي يد أختي تقبض على معصمي وتمنعني من تناول الطعام، بدأت الصحون تختفي والروائح تنعدم، مددت يدي نحوها ولكنها أخذت تتلاشى كفقاعات الصابون.

- صوفي.
- ماذا؟
- لقد أمسكوا بأوريلين!



تقلبت على جانبي وطرفت بعيني، كانت أختي تعتمر قبعة قطنية (مثلما أفعل) كي تشعرها بالدفء. كان وجهها شاحبًا برغم ضوء الشمعة الخافت، وحدقتا عينيها متسعتين من الصدمة.

بدأت أستعيد صفاء ذهني. ترامت إلى مسامعنا أصوات الرجال بأسفل وهم يصيحون بأصوات ترتد من ساحة الفناء بأرضيتها الحجرية مما جعل الدجاج يقرقر في حظائره. وفي ظلمة الليل الكثيفة، راح الهواء في الخارج يتحرك بإصرار رهيب. اعتدلت جالسة في فراشي وأنا أجذب رداء نومي حول جسدي وأجاهد كي أضيء الشمعة الموضوعة على طاولة الفراش الجانبية.

تقدمتها وأنا أتعثر نحو النافذة ونظرت إلى أسفل على ساحة الفناء لأرى الجنود الذين كانت تكشفهم أضواء سياراتهم وأخي الأصغر وهو يضع ذراعيه حول رأسه في محاولة لتفادي أعقاب بنادقهم التي انهالوا بها ضربًا عليه.

- ماذا يجري؟

- لقد علموا بشأن الخنزير.

- ماذا؟

- لا بد أن أبلغ عنا السيد سول، سمعتهم يصيحون وأنا في غرفتي ويقولون إنهم سيأخذون أوريلين إن لم يخطرهم بمكانه.

قلت: «لن يتفوه بشيء».

سرت الرعشة في أوصالنا ونحن نسمع صراخ أخينا، وبالكاد عرفت أختي حينها؛ فقد بدت أكبر من سنوات عمرها الأربعة والعشرين. أدركت أن وجهي يعكس كل مخاوفها. لقد حدث ما كنا نخشاه.

همست هيلين قائلة، وقد اختنق صوتها من شدة الهلع: «لقد أتوا بصحبة القائد. إذا ما عثروا عليه فسيقبضون علينا جميعًا، تعلمين ما يجري في مدينة أراس، سيجعلوننا عبرة للآخرين، ماذا سيحدث للأطفال؟».

تسارعت الأفكار في ذهني، وخوفي من أن يعترف أخي قد شل تفكيري. أحطت كتفي بشال، وتسللت على أطراف أصابعي نحو النافذة ونظرت خارجها باتجاه الفناء. إن وجود القائد يوحي بأن الأمر ليس مجرد مجموعة من الجنود الثملة التي ترغب في التنفيس عن إحباطاتها في شكل تهديدات

وضربات؛ نحن في مشكلة حقيقية. إن وجوده يعني أننا ارتكبنا جريمة ينبغي أن تؤخذ على محمل الجد.

علا صوت هيلين، وارتفع من الخوف وهي تقول: «سيعثرون عليه، لن يستغرق الأمر سوى دقائق ثم...».

اجتاحت عقلي الهواجس وأغمضت عيني، ثم فتحتهما وقلت: «اذهبي إلى أسفل، وادعي عدم معرفتك بشيء واسأليه عن الخطأ الذي اقترفه أوريلين، تحدثي إليه. شتتي انتباهه. امنحيني فقط بعض الوقت قبل أن يدلفوا إلى المنزل».

- ماذا ستفعلين؟

أمسكت بذراع أختي وقلت لها: «اذهبي، ولكن لا تخبريهم شيئًا، أتفهمين؟ انكري كل شيء».

ترددت أختي في الذهاب، ثم ركضت نحو الردهة ورداء نومها يتمايل وراءها. لست أدري إن كنت قد شعرت من قبل بمثل هذه الوحدة التي اعترتني في تلك الدقائق القليلة، والخوف يطوق عنقي، وأنا أحمل مصير أسرتي بين يدي. هرعت نحو حجرة مكتب الأب وعبثت بأدراج مكتبه الضخم وأنا أقذف بمحتوياته -من أقلام قد جفت، وقصاصات ورق، وقطع من ساعات محطمة، وفواتير قديمة- على الأرض وحمدت الله حينما وجدت أخيرًا ما كنت أبحث عنه. هرعت إلى الطابق السفلي وفتحت باب القبو وهبطت سريعًا سلالم الدرج الحجري البارد وأصبحت الآن أخطو في ظلام أحتاج معه بالكاد إلى وهج الشمعة المتمايل. أزحت مزلاج القبو الخلفي الثقيل -الذي كان مكتظًا يومًا ما حتى السقف ببراميل البيرة والنبيذ ذي الجودة العالية- وأزحت أحد البراميل الخالية جانبًا وفتحت باب فرن الخبز القديم المصنوع من الحديد الصلب.

نظر الخنزير الصغير -الذي لم يكتمل نموه- بعينين نصف مفتوحتين يملؤهما النعاس، ونهض على قدميه ونظر إليَّ من خلال فراشه المصنوع من القش وراح يصدر نخيرًا. لقد أخبرتك بالطبع أمر الخنزير، لقد استطعنا تخليصه خلال الاستيلاء على مزرعة السيد جيرارد. كان بمنزلة هدية من الله، لقد ضل الطريق وسط الفوضى وتجول بعيدًا عن الخنازير الصغيرة الأخرى، التي كانت تحمل على ظهر شاحنة الألمان وسرعان ما اختبأ وراء تنورات

الجدة بولين الثقيلة. مكثنا لأسابيع ونحن نسمنه على الجوز والنفايات على أمل أن ينمو إلى حجم يكفينا جميعًا لتناول بعض اللحم. إن تخيل ذلك الجلد المقرمش واللحم الطري هو ما جعل قاطني فندق الديك الأحمر Le Coq Rouge يواصلون العيش خلال الشهر الماضي.

سمعت أخي وهو يصرخ مرة أخرى بالخارج، ثم صوت أختي وهي تتحدث بنبرة متعجلة قلقة قطعتها اللهجة الحادة للجندي الألماني. نظر إليَّ الخنزير بعينين تفيضان بالذكاء والفهم كما لو أنه يدرك مصيره بالفعل.

همست قائلة: «آسفة يا صغيري، ولكن تلك هي الوسيلة الوحيدة». ثم مددت يدي لأسفل نحوه.

أصبحت بالخارج في غضون دقائق. أيقظت ميمي وأخبرتها أنه يجب أن تأتي معي على أن تلتزم الصمت، كانت الطفلة قد مرت بالكثير خلال هذا الشهر فأطاعتني دون سؤال. رفعت بصرها إليَّ وهي تحمل أخاها الرضيع، نهضت من الفراش ووضعت راحتها في يدي.

كان الهواء قارصًا مع قدوم الشتاء، ورائحة دخان الخشب الذي أشعلناه لفترة وجيزة في الليلة السابقة لا تزال عالقة في الجو. رأيت القائد من خلال المدخل الحجري المقوس للباب الخلفي وترددت، فلم يكن السيد بيكر الذي نعرفه ونحتقره. كان هذا أقل حجمًا، حليق الذقن، هادئًا. واستطعت حتى من خلال الظلام أن ألمح في وجهه أمارات الذكاء وليس الغباء الممزوج بالقسوة وهو ما جعلني أشعر بالخوف.

نظر القائد الجديد إلى أعلى متأملًا النوافذ، ربما يرى إن كان هذا المبنى يوفر مأوى أكثر ملاءمة من مزرعة فورييه حيث ينام كبار ضباط الألمان. إنني أشك في أنه يعرف أن تلك النقطة المرتفعة ستمنحه موقع مراقبة يكشف البلدة بأكملها. فهناك إسطبلات للخيول وعشر غرف نوم منذ أن كان منزلنا من أكثر فنادق بلدتنا ازدهارًا.

كانت هيلين تجلس على الأرض المعبدة بالحصى تحمي أوريلين بذراعيها.

رفع أحد الجنود بندقيته، ولكن القائد رفع له يده وقال لهما بلهجة آمرة: «انهضا». نهضت هيلين مسرعة وتحركت للخلف مبتعدة عنه، ورأيت وجهها الذي كساه الخوف.

شعرت بميمي تحكم قبضتها على يدي وهي ترى أمها على تلك الحال، فضغطت على يدها مهدئة إياها رغم الخوف الذي يجتاحني. تقدمت نحوهما وأنا أقول بصوت يتردد في أرجاء الفناء: «ما الذي يحدث هنا بحق السماء؟».

حوَّل القائد بصره نحوي وأدهشته نبرة الصوت؛ سيدة شابة تسير خلال المدخل المقوس المؤدي إلى فناء المزرعة تمسك بتنورتها طفلة صغيرة ورضيعٌ آخر مدثر في ردائه تضمه إلى صدرها. مالت قبعة النوم قليلًا فوق رأسي ولباس نومي القطني الذي بليَ بدرجة تلحظ معها بالكاد أن هناك قماشًا فوق جسدي. ابتهلت ألا يسمع ضربات قلبي.

وجهت حديثي إليه مباشرة قائلة: «ما المخالفة التي من المفترض أننا اقترفناها حتى يأتي رجالك ليعاقبونا عليها الآن؟».

أظن أنه لم يسمع امرأة تتحدث إليه على هذا النحو منذ آخر مرة غادر فيها وطنه. كان الصمت الذي أطبق على الفناء مغلفًا بالشعور بالصدمة. واستدار أخي وأختي -اللذان يفترشان الأرض- ناحيتي ليرياني على نحو أفضل مدركين ما سيودي إليه هذا التمرد.

- من أنتِ؟

- السيدة ليفيفر.

أدركت أنه يتأكد من وجود خاتم الزواج، ولكنه ليس بحاجة إلى القلق؛ فشأني كشأن معظم النساء حولنا، فقد بعته منذ فترة طويلة مقابل الحصول على الطعام.

- سيدتي، وصلتنا معلومات بأنكم تأوون ماشية بشكل غير قانوني.

كانت لغته الفرنسية مقبولة توحي بأنه تقلد مناصب سابقة في الإقليم المحتل، وصوته هادئ. كان رجلًا لا يرهبه أي أمر مفاجئ.

- ماشية؟

- أخطرنا مصدر موثوق بأنكم تحتفظون بخنزير في الفندق. وتدرين أنه طبقًا للتعليمات، فإن إخفاء أي ماشية عن الإدارة تكون عقوبتها السجن.

ثبت بصري على وجهه وقلت: «وأنا أعرف من الذي أخبركم بهذا الأمر، إنه السيد سول، أليس كذلك؟». تصاعدت الدماء إلى وجنتي، وكان شعري معقودًا

على شكل جديلة تدلت فوق كتفي، أشعرتني وكأن هناك مسًّا كهربيًّا انتهى بوخز في مؤخرة عنقي.

استدار القائد ونظر إلى أحد أتباعه، فأخبره بإيماءة بأن ما قيل صحيح.

- كان السيد سول -سيدي القائد- يأتي مرتين على الأقل في الشهر في محاولة لإقناعنا بأننا في غياب أزواجنا بحاجة إلى مستوى الراحة الذي سيقدمه لنا، ولأننا اخترنا ألا نستغل عطفه المزعوم، فما كان منه إلا أن رد لنا ذلك في شكل إشاعات أطلقها علينا وتهديد يفقدنا حياتنا.
- إن السلطات لا تتحرك إلا إذا كان المصدر موثوقًا به.
- أستطيع أن أقول لك سيدي القائد بأن تلك الزيارة توحي بخلاف ذلك.

كانت النظرة التي حدجني بها غير مفهومة، استدار فجأة وسار باتجاه باب المنزل، واتبعته وأنا شبه متعثرة في تنورتي في محاولة للحاق به. أدرك أن مجرد الحديث إليه بجرأة قد يعد جريمة، ومع هذا، وفي تلك اللحظة، لم أعد أخشى شيئًا.

- انظر إلينا أيها القائد، هل يبدو علينا أننا نلتهم اللحم، أو لحم الضأن، أو شرائح الخنزير؟

التفت نحوي وعيناه تتحركان باتجاه معصمي الهزيل الذي كان واضحًا تحت أكمام ردائي. كنت قد فقدت قرابة 2.5 سم من محيط خصري العام الماضي فقط.

- هل امتلأت أجسادنا بشكل غريب بسبب الكميات السخية من الطعام في الفندق الخاص بنا؟ لم يتبق لدينا سوى ثلاث دجاجات من أصل دستتين؛ ثلاث دجاجات يسعدنا أن نحتفظ بها ونطعمها حتى يتسنى لرجالك أخذ بيضها، بينما نحن نقتات على ما تعده السلطات الألمانية من وجبات طعام؛ وهي حصص متناقصة من اللحم والدقيق، وخبز مصنوع من الحصى والنخالة؛ سيئ لدرجة أننا حتى لا نستخدمه في إطعام الماشية.

بلغ المدخل الخلفي، وصوت كعبيه يتردد على البلاط الصخري. تردد لهنيهة ثم واصل سيره حتى بلغ الحانة ثم صاح وهو يصدر أمرًا لجنوده. ظهر أحد جنوده من العدم وناوله مصباحًا.

- لا يوجد لدينا لبن لنطعم أطفالنا، فهم يبكون من الجوع، لقد مرضنا من نقص التغذية، ومع هذا تأتي هنا في منتصف الليل لترهب امرأتين وتتهجم على صبي بريء، وتضربنا وتهددنا لأنك سمعت إشاعة من رجل عديم الأخلاق كنا نطعمه؟

كانت يداي ترتعشان، ورأى هو الرضيع يتلوى، فأدركت أنني انفعلت وأطبقت عليه بشدة. تراجعت خطوة إلى الخلف وعدلت من وضع الشال ورحت أدندن له ليهدأ، ثم رفعت رأسي، ولم أستطع إخفاء الغضب ورنة المرارة في صوتي.

- فلتفتش منزلنا أيها القائد. اقلبه رأسًا على عقب ودمر القليل مما بقي، فتش المباني الخارجية أيضًا؛ تلك التي لم يأت عليها رجالك بعد لتلبية احتياجاتهم الخاصة، وحينما تجد ذلك الخنزير الوهمي، فليهنأ رجالك بتناوله.

وأطلت النظر إليه لفترة أطول مما كان يتوقعها، واستطعت أن ألمح من خلال النافذة أختي وهي تمسح جراح أخي بتنورتها محاولة إيقاف الدماء التي تدفقت منها وثلاثة جنود ألمان يقفون حولهما.

اعتادت عيناي الظلام الآن ورأيت أنني استطعت أن أثبت خطأ القائد، كان رجاله -الذين ملأ الشك أعينهم- ينتظرون أوامره. كان بمقدوره أن يأمرهم بتجريد المنزل عن آخره وإلقاء القبض علينا جميعًا كي ندفع ثمن فورة غضبي غير العادية، ولكنني أعرف أنه كان يفكر في سول وما إذا كان قد نجح في تضليله. لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذي يستطيب احتمالية رؤية نفسه مخطئًا.

حينما كنت أنا وإدوارد نلعب البوكر، كان يضحك ويقول لي إنني منافس صعب لأن وجهي لا يفصح أبدًا عن كنه مشاعري الحقيقية. حدثت نفسي كي أتذكر تلك الكلمات الآن؛ فهذه أهم لعبة سألعبها على الإطلاق. أطلنا النظر إلى بعضنا بعضًا؛ أنا والقائد. شعرت لفترة وجيزة بأن العالم كله لا يزال يدور حولنا؛ أستطيع سماع دوي أصوات البنادق على الجبهة، وسعال أختي، ونبش الفقراء عن الطعام، والدجاج الهزيل منزعج في حظيرته. تلاشى كل ذلك حتى

واجهنا أنا وهو بعضنا بعضًا، وكل منا يراهن على الحقيقة. أقسم إنني كنت أسمع دقات قلبي.

- ما هذا؟

- ماذا؟

حمل المصباح لأعلى، فكشفت الإضاءة الخافتة باللون الذهبي الباهت عن تلك اللوحة التي رسمها لي إدوارد في بداية زواجنا. وكنت أنا فيها -في السنة الأولى من زواجنا- بشعري الكثيف اللامع الذي يتدلى على كتفي، وبشرتي الصافية النضرة، أحدق إليها بهدوء المحبوب. كنت قد أحضرتها من مخبئها منذ عدة أسابيع وأنا أخبر أختي بأن تحل عليّ اللعنة إذا ما كان الألمان سيقررون ما الذي ينبغي أن أنظر إليه في منزلي.

رفع المصباح إلى أعلى قليلًا حتى يستطيع أن يراها بوضوح. حذرتني هيلين قائلة: «لا تضعيها هنا صوفي، سوف تجلب لنا المتاعب».

وحينما استدار نحوي أخيرًا، بدا وكأنه اضطر إلى إبعاد عينيه عن اللوحة. نظر إلى وجهي، ثم إلى اللوحة ثانية.

- لقد رسمها زوجي.

لا أدري لم شعرت بالحاجة لأن أقول له ذلك.

ربما كان اقتناعي بحقي في أن أظهر استيائي، ربما كان الفرق الواضح بين الفتاة في الصورة والفتاة الواقفة أمامه، ربما كان السبب الطفلة الشقراء الباكية التي تقف عند قدمي، من المحتمل أنه حتى القادة -الذين أمضوا عامين في احتلالنا- قد يسأمون من مضايقتنا بسبب مخالفات تافهة.

أمعن النظر طويلًا في الصورة ثم نظر إلى قدميه.

- أعتقد سيدتي أننا أوضحنا أفكارنا لبعضنا بعضًا، ولكن لم ينته حديثنا بعد، لكني لن أزعجك أكثر من هذا الليلة.

لمح بعض أمارات الدهشة على وجهي، بالكاد حاولت أخفيها، ورأيت أنها أرضت شيئًا بداخله. ربما كان كافيًا بالنسبة له أن يعرف بأني اعتقدت أنني هالكة لا محالة. هذا الرجل ذكي ولماح. عليّ أن أحترس منه.

- أيها الرجال.

استدار جنوده -في طاعة عمياء كعهدهم دائمًا- واتجهوا إلى الخارج نحو سيارتهم، وزيهم الرسمي يرتسم كخيالات في أضواء مصابيحها الأمامية، اتبعته ووقفت خارج الباب مباشرة، وكان آخر ما سمعته منه أمرًا للسائق بأن يتجه إلى المدينة.

انتظرنا المركبات العسكرية وهي تشق طريقها عائدة عبر الطريق، ومصابيحها الأمامية تكشف طريقها خلال السطح الملآن بالحفر. بدأت هيلين ترتجف ونهضت على قدميها، وهي تضغط بيد مضطربة على جبهتها، وعيناها مطبقتان بقوة. وقف أوريلين بجانبي بصعوبة، وهو يمسك بيد ميمي شاعرًا بالحرج من دموعه الطفولية. انتظرت حتى خبت آخر أصوات المحركات التي كانت تئن فوق التلال كما لو كانت تحتج هي الأخرى.

تحسست رأسه قائلة: «هل أصبت؟».

جروح سطحية وكدمات. أي نوع من الرجال أولئك الذين يهاجمون صبيًّا أعزل؟

انتفض من الألم وهو يقول: «إنها لا تؤلم، لم ينجحوا في تخويفي».

قالت أختي: «اعتقدت أنه سيلقي القبض عليك، بل سيلقي القبض علينا جميعًا».

شعرت بالخوف حينما رأيتها على هذا النحو؛ فكأنما تتأرجح على حافة هوة سحيقة.

جففت عينيها من الدموع ورسمت ابتسامة على وجهها وهي تنحني كي تحتضن ابنتها وقالت: «الألمان السخفاء، لقد أخافونا، أليس كذلك؟ وأمك أيضًا سخيفة لأنها شعرت بالخوف».

راقبت الطفلة أمها في صمت ورصانة. أتساءل أحيانًا هل يمكن أن أرى ميمي تضحك ثانية؟

أردفت قائلة: «أنا آسفة، إنني على ما يرام الآن، فلنذهب إلى الداخل. ميمي، لدينا القليل من اللبن سأدفئه لك».

مسحت يديها في ردائها الملطخ بالدماء، ثم مدت يدها نحوي لتحمل الرضيع وهي تقول: «أتريدين أن أحمل جين عنك؟».

بدأت أرتجف بشدة كما لو أنني أدركت لتوي كم كان ينبغي أن أكون خائفة حينها. شعرت بوهن في ساقي التي تتسرب قواها وعلى وشك أن تهوي على الأرض المعبدة بالحصى، وشعرت بحاجة ملحة إلى الجلوس وقلت لها: «نعم أعتقد أنه عليك ذلك».

مدت أختي يدها ثم أطلقت صيحة قصيرة، فقد كان يستكين بداخل الأغطية الخنزير الصغير بأنفه الوردي ذي الشعر الكثيف المتدثر بعناية حتى لا يتعرض لهواء الليل البارد.

قلت: «إن جين نائم بالأعلى».

دفعت بيدي نحو الحائط كي أظل واقفة في مكاني.

نظر أوريلين من فوق كتفيها. وراحوا جميعهم يحدقون إليه.

- يا إلهي!

- هل مات؟

- لنستخدم الكلوروفورميد. لقد تذكرت أن أبي كان لديه زجاجة منه في مكتبه حينما كان يجمع الفراشات. أعتقد أنه سيستيقظ، لكن علينا أن نجد مكانًا آخر لنخفيه حال عودتهم مرة أخرى، وتعرفون جيدًا أنهم سيعودون مرة أخرى.

ابتسم أوريلين ابتسامة نادرة، ماكرة تدل على الفرح، وانحنت هيلين نحو ميمي كي تريها الخنزير الصغير الغائب عن الوعي، ثم ابتسمتا ابتسامة عريضة. راحت هيلين تلمس أنفه وهي تضغط بيدها على وجهها كما لو أنها لا تصدق ما تحمله في يدها.

قالت وهي لا تزال غير مصدقة: «تحملين الخنزير أمامهم؟ لقد جاؤوا إلى هنا وأنت تحملينه أمامهم هكذا بوضوح؟ ثم تعنفينهم لمجيئهم هنا؟».

قال أوريلين الذي بدا أنه استعاد فجأة بعضًا من ثقته بنفسه: «تحتضنيه هكذا بوضوح، تحملين الخنزير بكل وضوح».

جلست على الأرض الملأى بالحصى وشرعت في الضحك، ضحكت حتى شعرت بقشعريرة تسري في جسدي ولا أدري إن كان هذا ضحكًا أم بكاءً، وأمسك أخي -الذي ربما انتابه الخوف من أن أكون قد أصبت بنوبة هستيرية-

بيدي وجلس مستكينًا بجانبي. كان في الرابعة عشرة من عمره، وأحيانًا تثور ثائرته كالرجال، وأحيانًا أخرى يشبه الأطفال في احتياجه إلى الطمأنينة.

كانت هيلين لا تزال غارقة في أفكارها وقالت: «لو أدري من أين أتيت بكل هذه الشجاعة صوفي. أختي الصغيرة! من الذي جعلك هكذا؟ كنت تخافين كالفأر حينما كنا صغارًا. كنت مثل الفأر».

لم أكن واثقة من أني أعرف الإجابة.

وبعد أن عدنا مرة أخرى إلى داخل المنزل حيث انشغلت هيلين بوعاء اللبن وشرع أوريلين في غسل وجهه المسكين الذي تعرض للضرب، وقفت أنا أمام اللوحة.

لوحة تلك الفتاة -التي تزوجها إدوارد- وهي تنظر إليّ وعلى وجهها تعبير لم أعد أعرفه، ولكن رآه هو قبل أن يدركه أي أحد؛ تعبير يشي بالمعرفة، وتلك الابتسامة التي توحي بالإشباع الذي تحصل عليه وتمنحه في الوقت ذاته. تعبير يوحي بالكبرياء. حينما رأى أصدقاؤه الباريسيون أن حبه لي -حبه لبائعة- أمر غير قابل للتفسير، ابتسم لأنه كان قد رأى ذلك بالفعل.

ولم أدرِ قط إن كان يفهم أن كل هذا كان بسبب وجوده.

وقفت وأطلت النظر إليها -عدة ثوان- وتذكرت كيف كان شعور تلك الفتاة الخالي من معاني الجوع والخوف ولا يستنزف تفكيرها سوى تلك اللحظات الخاصة التي يمكن قضاؤها مع إدوارد. ذكرتني الفتاة بأن العالم قادر على أن يهب الجمال، وأن هناك أشياء -كالفن، والبهجة، والحب- كان يمتلئ بها عالمي بدلًا من الخوف، وحساء نبات القراص، وحظر التجوال. لقد رأيته في تعبيرات وجهي. ثم أدركت ما فعلته لتوي، فقد ذكرني بقوتي، بما تبقى بداخلي كي أحارب به الآن.

أقسم لك إدوارد إنك حين تعود سأكون مرة أخرى الفتاة التي رسمتها.

***



2

كانت قصة الخنزير الصغير قد انتشرت في معظم أنحاء سان بيرون بحلول موعد العشاء، وشهدت حانة الديك الأحمر تدفقًا مستمرًّا من الزبائن على الرغم من أنه لم يكن لدينا الكثير لنقدمه بخلاف قهوة الشيكوريا[1]: فواردات الجعة غير منتظمة، ولدينا القليل من زجاجات النبيذ باهظة الثمن. كان من الغريب عدد الأشخاص الذين جاؤوا لزيارتنا لمجرد أن يتمنوا لنا يومًا سعيدًا.

قال العجوز رينيه وهو يضحك بملء شدقيه ممسكًا بظهر أحد المقاعد ويذرف دموع الضحك: «وعنفتِه بشدة وطلبت منه المغادرة؟». وقد طلب أن يسمع القصة للمرة الرابعة، وفي كل رواية كان أوريلين يجملها أكثر حتى وصل أنه كان يحارب القائد بالسيف بينما أصيح أنا: «سحقًا لك».

تبادلنا الابتسامات أنا وهيلين التي كانت تنظف أرضية المقهى، لم أعد أبالي شيئًا. فلم يتبق لنا في مدينتنا مؤخرًا سوى القليل الذي يمكن أن نحتفل به.

قالت هيلين بينما كان رينيه يغادر المقهى وهو يرفع قبعته لتحيتنا: «يجب أن نتخذ حذرنا، فهذه القصة تنتشر بشكل كبير».

وشاهدناه يهتز من الفرح مجددًا وهو يعبر مكتب البريد وتوقف هنيهة ليجفف دموعه.

---

(1) الشيكوريا هو نبات يعبأ ويحمص وتصنع منه القهوة.

قلت في لا مبالاة: «لن يتفوه أحد بشيء، فالجميع يكرهون هذا الألماني، علاوة على ذلك، فالجميع يريدون قطعة من لحم الخنزير، ومن غير المحتمل أن يبلغوا عنا قبل أن يصل طعامهم».

لقد نُقل الخنزير بحذر إلى المنزل المجاور في الساعات الأولى من الصباح. اكتشف أوريلين منذ عدة أشهر -وهو يقطع أحد براميل الجعة القديمة من أجل استخدامها كحطب للنيران- أن الشيء الوحيد الذي يفصل قبو النبيذ الأشبه بالمتاهة عن الجيران -آل فوبرت- هو جدار من الطوب ذو طبقة واحدة، فأزحنا بحرص بعضًا من قطع الطوب بمساعدة أبناء فوبرت وأصبح هذا بمنزلة طريق للهرب كملاذ أخير. حينما أوى آل فوبرت شابًا إنجليزيًا وجاء الألمان إلى منزلهم دون سابق إنذار وقت الغسق، ادعت السيدة فوبرت عدم الفهم لتعليمات الضباط حتى تمهل الشاب الإنجليزي وقتًا كافيًا ليتسلل إلى القبو ومنه إلى منزلنا. لقد فتشوا كل قطعة في منزلها، حتى إنهم نظروا حول القبو، ولكن في الضوء الخافت لم يلاحظ أحد أن البلاط كان به ثغرات على نحو مثير للريبة.

هذه هي قصة حياتنا؛ حالات تمرد بسيطة، وانتصارات صغيرة، فرص ضئيلة كي نسخر من المعتدين، مراكب صغيرة طافية من الأمل وسط بحر من الشك، والحرمان والخوف.

قال العمدة وهو يجلس إلى إحدى الطاولات بالقرب من النافذة: «قابلت القائد إذًا». أشار إليّ بالجلوس بينما كنت أقدم له بعض القهوة. في اعتقادي دائمًا أن حياته أصبحت لا تحتمل أكثر من أي فرد آخر في البلدة منذ الاحتلال؛ فهو يمضي وقته في مفاوضات مستمرة مع الألمان كي يمنحوا مدينتنا ما تحتاج إليه، ولكنهم يأخذونه كرهينة بشكل دوري كي يجبروا أبناء البلدة المتمردين على تلبية رغباتهم.

قلت وأنا أضع قدح القهوة أمامه: «لم يكن تعارفًا رسميًا».

مال برأسه ناحيتي وهو يقول بصوت خفيض: «لقد أرسل القائد بيكر إلى ألمانيا ليشرف على أحد معسكرات التعذيب، من الواضح أنه كان هناك بعض المخالفات في دفاتره».

- ليس ثمة دهشة في ذلك، فهو الرجل الوحيد في فرنسا المحتلة الذي تضاعف وزنه.

كنت أمزح، ولكن مشاعري نحو رحيله كانت متضاربة، فمن ناحية كان بيكر قاسيًا وعقوباته مفرطة تحدث بسبب عدم الأمان والخوف من ألا يظن رجاله أنه قوي بما يكفي، ولكنه كان غبيًّا –يغفل الكثير من أعمال المقاومة بالبلدة- لدرجة تمنعه من بناء أي علاقات يمكن أن تساعده.

- فما رأيك إذًا؟

- بشأن القائد الجديد؟ لا أدري. أعتقد أنه يمكن أن يكون أسوأ. إنه لم يحطم المنزل –حيث كان بمقدور بيكر أن يفعل- لمجرد أن يثبت قوته، ولكن...

استأنفت وأنا أجعد أنفي: «ولكنه ذكي، علينا أن نكون أكثر حذرًا».

ابتسم لي، ولكن ليس بعينيه وقال: «كالعادة دائمًا سيدة ليفيفر أفكارك تتجانس مع أفكاري».

تذكرت حينما كان العمدة شخصًا مرحًا صاخبًا شهيرًا بأنسه؛ فقد كان صوته هو الأعلى دائمًا في أي تجمع من تجمعات البلدة.

- ألن يصل شيء هذا الأسبوع؟

- أعتقد أنه سيكون هناك بعض من اللحم المقدد، والقهوة والقليل من الزبد. آمل أن نعرف الحصص الغذائية الدقيقة في وقت متأخر اليوم.

نظرنا خارج النافذة. كان العجوز رينيه قد بلغ الكنيسة، وتوقف ليتحدث إلى الكاهن، ولم يكن من الصعب تخمين ما يتحدثان بشأنه، وحينما شرع الكاهن في الضحك وتضاعفت انحناءة رينيه للمرة الرابعة لم أستطع كتم ضحكتي.

- أليست هناك أي أخبار عن زوجك؟

استدرت نحو العمدة وأنا أقول: «لا شيء منذ أغسطس الماضي حينما وصلت إليَّ بطاقة بريدية. كان بالقرب من مدينة أميان. ولم يقل فيها الكثير».

قال في البطاقة البريدية المكتوبة بخط يده المتعرج البديع: «*أنت نجمتي الهادية في هذا العالم المليء بالجنون*». ظللت مستيقظة لمدة ليلتين يعتريني القلق بعدما تسلمتها حتى أوضحت لي هيلين أن «العالم المليء بالجنون» قد

ينطبق أيضًا على عالم قد يعيش فيه المرء على الخبز الأسود شديد الصلابة الذي يحتاج المنجل إلى قطعه، ويحتفظ فيه بالخنازير في فرن الخبز.

قال: «آخر بطاقة بريدية جاءت من ابني كانت منذ ثلاثة أشهر. إنهم يمضون قدمًا نحو مدينة كامبريه، ومعنوياتهم مرتفعة».

- آمل أن يكونوا بخير. كيف حال لويزا؟

- لا بأس بها.

ولدت ابنته الصغرى مصابة بالشلل؛ فهي تعاني تأخرًا في النمو ولا تستطيع أن تتناول سوى أنواع معينة من الطعام، وعندما بلغت الحادية عشرة كانت تمرض كثيرًا، وما يحافظ على صحتها هو اهتمام أهل بلدتنا الصغيرة بها، وإذا ما حصلنا على بعض اللبن أو الفاكهة المجففة تذهب كمية إضافية إلى منزل العمدة.

- حينما تسترد قوتها مرة أخرى أخبرها أن ميمي تسأل عنها، وهيلين تحوك عروسة لعبة من أجلها تشبه عروسة ميمي تمامًا، وقالت إنهما قد تكونان أختين.

ربت العمدة على يدها قائلًا: «أنتما فتاتان غاية في الكرم أحمد الله أنكما عدتما إلى هنا في الوقت الذي كان بإمكانكما أن تمكثا بأمان في باريس».

- ليس هناك ضمان بأن الألمان لن يتقدموا نحو الشانزلزيه قريبًا، علاوة على ذلك لم يكن بمقدوري أن أترك هيلين هنا بمفردها.

- لم تكن لتتخطى كل هذا من دونك. لقد صرت شابة رائعة. باريس أهل لك.

- بل أنا أهل لزوجي.

- فليحفظه الله، وليحفظنا جميعًا.

ابتسم العمدة ووضع قبعته فوق رأسه ونهض مغادرًا المكان.

كانت بلدة سان بيرون -حيث ظلت عائلة بيسيت تدير فندق الديك الأحمر لعدة أجيال- من أوائل المدن التي وقعت في يد الألمان في خريف 1914. اعتزمنا أنا وهيلين على أن يظل الفندق مفتوحًا، وكان والدانا قد توفيا منذ فترة طويلة وزوجانا على الجبهة. لم نكن الوحيدتين اللتين قامتا بأعمال الرجال؛ فالمحلات والمزارع المحلية، والمدارس تديرها النساء بصورة شبه

كاملة، يساعدهن كبار السن والصبيان. وبحلول عام 1915 لم يكن هناك بالكاد أي رجل في البلدة.

قمنا بعمل جيد في الشهور الأولى مع الجنود الفرنسيين الذين يمرون عبر البلدة وكذلك البريطانيين خلفهم. كان الطعام لا يزال وفيرًا، والموسيقى والهتاف يصحبان القوات الزاحفة، ومعظمنا لا يزال يعتقد أن الحرب ستنتهي في غضون أشهر قليلة على أسوأ تقدير. كانت هناك إشارات قليلة للأعمال الفظيعة التي ترتكب على بعد مئات الأميال؛ كنا نعطي الطعام للاجئين البلجيكيين الذين يتسكعون بلا وجهة وأمتعتهم تتمايل فوق العربات، وبعضهم لا يزال بالنعال والملابس التي كانوا يرتدونها حينما غادروا موطنهم. ومن حين لآخر، كنا نسمع دوي البنادق إذا ما هبت الرياح من الشرق. وبالرغم من أننا ندرك أن الحرب قريبة منا، لم يصدق سوى القليل منا أن سان بيرون -مدينتنا الصغيرة التي نفخر بها- يمكن أن تنضم إلى تلك المدن التي وقعت تحت حكم الألمان.

ولكن الدليل على خطأ اعتقادنا جاء مصاحبًا لصوت إطلاق النيران في صباح يوم هادئ بارد من أيام الخريف. حينما خرجت كل من السيدة فوجير والسيدة ديرين في نزهتهما الصباحية المعتادة في الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة إلى المخبز ولقيتا مصرعيهما بالرصاص وهما تعبران الطريق.

أزحت الستائر على الأصوات الصادرة، واستغرق الأمر مني عدة دقائق لأستوعب ما رأيت؛ جثّتا السيدتين -وهما أرملتان وصديقتان معظم عمرهما البالغ سبعين عامًا- مسجاتان على الطوار وغطاء رأسيهما مائل جانبًا وسلتا الخبز الفارغتان مقلوبتان عند أقدامهما، وبركة من الدماء اللزجة تحيط بهما في شكل دائرة كاملة كما لو أنها جاءت من كيان واحد.

ادعى الألمان فيما بعد أن القناصين هم من أطلقوا عليهما الرصاص وأن ذلك كان رد فعل انتقاميًا. (من الواضح أنهم كانوا يقولون ذلك في كل قرية يأخذونها). ولو أن الألمان أرادوا إثارة المزيد من التمرد في البلدة، ما كانوا ليفعلوا أفضل من قتل هاتين السيدتين المسنتين. ولكن الغضب لم يتوقف عند هذا الحد، فقد أشعلوا النيران في مخازن الحبوب وأسقطوا تمثال العمدة لوكلير. وبعد مرور أربع وعشرين ساعة ساروا في تشكيلات في شارعنا

الرئيسي بخوذهم البيكلهاوبه[1] التي تلمع في أشعة الشمس الشتوية ونحن نقف خارج منازلنا ومحلاتنا نرقبهم في صمت ممزوج بالصدمة، وأعطوا أوامرهم بأن يخرج ما تبقى من رجال في البلدة حتى يعرفوا أعدادهم.

أغلق أصحاب المتاجر والأكشاك متاجرهم وأكشاكهم ورفضوا خدمتهم، وادخر معظمنا الطعام؛ كنا ندرك أنه يمكننا أن نحيا. أعتقد أننا صدقنا أنهم ربما يتراجعون عندما يواجهون مثل هذا العناد ويتجهون إلى قرية أخرى، لكن القائد بيكر أصدر أمرًا فيما بعد بأن أي صاحب متجر يتأخر عن فتح متجره خلال ساعات العمل الطبيعية سيطلق عليه النيران. فبدأ المخبز، ومحل الجزارة، وأكشاك السوق وحتى مطعم الديك الأحمر الواحد تلو الآخر في إعادة فتح أبوابهم. ودفعت مدينتنا الصغيرة دفعًا للعودة على مضض لحياة كئيبة يملؤها التمرد.

وبعد مرور ثمانية عشر شهرًا، لم يتبق سوى القليل لنبتاعه، وانعزلت سان بيرون عن جيرانها، وحرمت من الأخبار واعتمدت على تقديم المعونات بشكل غير منتظم تكملها مؤونة السوق السوداء باهظة الثمن حينما تتوافر. كان من الصعب في بعض الأحيان أن يصدق المرء أن فرنسا الحرة تعرف ما كنا نعانيه. كان الألمان هم الوحيدون الذين يأكلون بشكل جيد، فأحصنتهم (التي هي أحصنتنا بالأساس) أنيقة وسمينة وتأكل القمح المطحون الذي من المفترض أن نستخدمه في صنع الخبز. وقد أغاروا على أقبية النبيذ الخاصة بنا واستولوا على الطعام الذي تنتجه مزارعنا.

ولم يكن الطعام هو الشيء الوحيد الذي يستولون عليه، فكل أسبوع يستقبل أحدنا الطرق المخيف على الباب، وتستولى الجنود على قائمة من الأشياء: ملاعق، ستائر، صحون للطعام، قدور، أغطية. وأحيانًا يأتي جندي أولًا للتفتيش ويدون ما قد يرغبون فيه ثم يعود بقائمة محددة بذلك فيما بعد. وقد يكتبون سندات إذنية التي من المفترض أن تستبدل بالنقود، وليس ثمة أحد في سان بيرون عرف إن كان هناك شخص قد استرد نقوده.

- ماذا تفعلين؟

---

(1) قبعة عسكرية ألمانية ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ميلاديًا.

- إنني أنقل هذه.

ثم أمسكت باللوحة ونقلتها إلى مكان هادئ بعيد عن أعين العامة.

سأل أوريلين وأنا أعيد تعليق اللوحة وأعدل من وضعها على الحائط حتى استوت: «من هذه؟».

التفت نحوه وأنا أقول: «إنها أنا ألا تعرف؟».

ضاقت حدقتاه وهو يقول: «يا إلهي!».

لم يقصد إهانتي؛ فالفتاة التي في اللوحة كانت تختلف تمامًا عن تلك المرأة النحيفة الحادة ذات البشرة الشاحبة والأعين المتعبة القلقة التي كانت تنظر إليَّ يوميًا من خلال المرآة.

- هل رسمها إدوارد؟

- نعم، حينما تزوجنا.

- لم أر رسوماته من قبل، ولكنها... ليست كما توقعت.

- ماذا تعني؟

- في الواقع، إنها غريبة، الألوان غريبة، لقد رسم بشرتك باللونين الأزرق والأخضر، الناس ليس لديهم بشرة خضراء وزرقاء! انظري إنها تتسم بالفوضى، إنه لا يلتزم بالحدود.

اتجهت نحو النافذة وقلت له: «أوريلين، تعال إلى هنا. انظر إلى وجهي ماذا ترى؟».

- تمثال؟

لكزته وقلت: «لا. انظر، انظر جيدًا إلى ألوان بشرتي».

- إنك شاحبة فقط.

- أمعن النظر جيدًا؛ انظر إلى أسفل عينيَّ، إلى تلك التجاويف في عنقي. لا تخبرني بما تتوقع أن تراه، ولكن انظر جيدًا وأخبرني بالألوان التي تراها بالفعل.

حدق أخي إلى عنقي، وجال ببصره ببطء حول وجهي ثم قال: «أرى لونًا أزرق أسفل عينيك؛ أزرق وأرجوانيًا، ولونًا أخضر يَسري أسفل عنقك، ولونًا

برتقاليًا. فلنطلب الطبيب إذًا. وجهك به ملايين من الألوان المختلفة. إنك تشبهين المهرج».

قلت: «كلنا مهرج، ولكن إدوراد يرى ذلك بوضوح أكثر من أي فرد».

هرع أوريلين إلى الطابق الأعلى ليفحص نفسه في المرآة ويعذبها بشأن الألوان الأزرق والأرجواني التي حتمًا سيجدها، وهو ليس بحاجة إلى أي أعذار هذه الأيام، فهو شغوف بفتاتين على الأقل ويمضي معظم وقته في حلاقة بشرته الناعمة الشابة بشفرة حلاقة أبي الحادة القديمة في محاولة يائسة للتعجيل بالتقدم في العمر.

قالت هيلين وهي تتراجع إلى الخلف لتمعن النظر بها: «ولكن؟».

- ولكن ماذا؟

- إنها مخاطرة أن نضعها بأعلى، عندما مر الألمان بمدينة ليل أحرقوا أنواع الفنون التي اعتبروها تخريبية، ورسومات إدوارد مختلفة تمامًا. من أين لك أن تعرفي أنهم لن يحطموها؟

هيلين تشعر بالقلق. إنها قلقة بشأن رسومات إدوارد ومزاج أخي؛ وقلقة أيضًا بشأن الخطابات واليوميات التي أكتبها على قصاصات الورق وأحشو بها ثقوب العمدان.

- إنني أريدها هنا حيث يمكنني رؤيتها، لا تقلقي فالباقي بأمان في باريس.

لم تبدُ مقتنعة.

- أريد أن أرى الألوان هيلين، أريد أن أشعر بالحياة، لا أريد أن أنظر إلى نابليون أو صور أبي المملة للكلاب الحزينة ولن أسمح لهم...

ثم أشرت إلى الخارج حيث يقف الجنود الألمان وقت راحتهم يدخنون السجائر بجوار النافورة وأردفت قائلة: «بأن يقرروا لي ما الذي ينبغي أن أنظر إليه في منزلي؟».

هزت هيلين رأسها كما لو أنني شخص أحمق عليها أن تجاريه، ثم ذهبت بعد ذلك لتلبي طلبات للسيدة لوفر، والسيدة ديورانت اللتين حضرتا -برغم ملاحظتهما عادة أن قهوة الشيكوريا التي أقدمها لهما يبدو مذاقها وكأنها معدة من مياه المصرف- لسماع قصة الخنزير الصغير.

نتشارك أنا وهيلين الفراش ليلًا ونحن نحيط بميمي وجين، وفي بعض الأحيان يكون الطقس شديد البرودة حتى في أكتوبر لدرجة أننا نخشى أن نجد الأطفال متجمدين في ملابس النوم، لذا كنا نلتصق ببعضنا بعضًا. كان الوقت متأخرًا، ولكني أدرك أن أختي ما زالت مستيقظة، وكان ضوء القمر يتسلل عبر الثقوب في الستائر، وبالكاد كنت أرى عينيها مفتوحتين ومثبتتين على نقطة بعيدة. وخمنت أنها تتساءل عن مكان زوجها في تلك اللحظة، هل يقيم في مكان كمنزلنا أم أنه يتجمد في أحد الخنادق ويتطلع إلى القمر نفسه.

وعلى مسافة بعيدة أخطرنا دوي مكتوم أن هناك معركة دائرة من بعد.

- صوفي؟

- نعم.

كنا نتحدث بهمس خافت.

- هل تساءلت من قبل كيف سيكون الحال... إذا لم يعودا؟

كنت أرقد هناك في الظلام.

كذبت وقلت: «لا، لأنني أعرف أنهما سيعودان ولا أريد للألمان أن يحصلوا على لحظة خوف مني».

قالت: «ولكني تساءلت، أحيانًا أنسى هيئته، إنني أنظر إلى صوره، ولكني لا أتذكر أي شيء».

- لأنك تنظرين إليها مرارًا، في بعض الأحيان أعتقد أن الصور تبلى من تكرار نظرنا إليها.

- لكني لا أستطيع تذكر أي شيء؛ رائحته، صوته. إنني لا أتذكر مشاعره وهو بجانبي كما أنه لم يوجد بالأساس. ثم أعود وأفكر ماذا لو هذا هو الحال؟ ماذا لو لم يعد مرة أخرى؟ ماذا لو كتب علينا أن نمضي بقية حياتنا هكذا كل خطوة نمضيها يحددها لنا رجال نبغضهم؟ لست واثقة بأنني... لست واثقة بأنني أستطيع أن...

اتكأت على مرفقي ومددت يدي من فوق ميمي وجين لأمسك بيد أختي وقلت: «نعم تستطيعين، جين- ميشيل سيعود، وستكون حياتك أفضل، وفرنسا ستعود حرة، ستعود الحياة لما كانت عليه، بل أفضل مما كانت عليه».

كانت مستلقية في صمت، بدأت أرتجف الآن تحت الأغطية، ولكني لم أجرؤ على الحراك، لقد أشعرتني بالخوف حينما تحدثت على هذا النحو، بدا الأمر كما لو أن هناك عالمًا كاملًا من الأهوال يجول في رأسها وعليها أن تحارب ضده ضعف ما يتعين على بقيتنا.

قالت بصوت خافت مضطرب كما لو أنها كانت تغالب دموعها: «أتعلمين، بعدما تزوجت جين-ميشيل، كنت سعيدة للغاية، وأشعر بالحرية لأول مرة في حياتي».

أدري ما تعنيه؛ فقد كان أبي سريعًا في استخدام حزامه وحادًّا في استخدام قبضته، وكانت البلدة تعتقد أنه أكثر أصحاب الحانات عذوبة وخلقًا، وأحد أعمدة مجتمعنا؛ العجوز الطيب فرانسوا بيسيت المستعد دومًا بنكاته وكأسه. ولكننا كنا نعرف حدة طبعه. والشيء الوحيد الذي نأسف عليه هو أن أمي رحلت قبله فما تمتعت بسنوات قليلة بعيدًا عن سيطرته.

- يبدو الأمر كما لو أننا نستبدل بلطجيًّا بآخر، في بعض الأحيان أشك أننا سنمضي باقي عمرنا نخضع لإرادة شخص آخر. وأنت صوفي أراك تضحكين، وأراك عنيدة، شجاعة، تضعين اللوحات، وتنهرين الألمان ولا أدري من أين أتى كل هذا، إنني حتى لا أستطيع أن أتذكر كيف كان شعور عدم الخوف.

استلقينا في صمت، أكاد أسمع دقات قلبي، كانت تعتقد أنني لا أشعر بالخوف، ولكن لا شيء كان يخيفني سوى مخاوف أختي. بدت عليها علامات ضعف جديدة في الشهور الأخيرة وظهر الإجهاد حول عينيها. ضغطت على يدها، لكنها لم تضغط على يدي في المقابل.

تقلقلت ميمي بيننا ووضعت يدها على رأسها. سحبت هيلين يدها بعيدًا عن يدي وبالكاد تبينت هيئتها وهي تتقلب على جنبها وأعادت يد ابنتها برفق تحت الأغطية. ومن العجيب أنني شعرت بالاطمئنان من هذه الحركة،

فاستلقيت مرة أخرى وأنا أسحب الأغطية لتلامس ذقني حتى أتوقف عن الارتجاف.

قلت والصمت يلف المكان: «لحم الخنزير».

- ماذا؟

- فقط تخيلي ذلك. الخنزير المشوي، الجلد المتبل بالملح والزيت، يُطهى حتى يتكسر بين أسنانك، فكري في طيات الدهون الناعمة الساخنة ذات اللون الأبيض، واللحم الوردي الذي يتفسخ بسهولة بين يديك مع كمبوت التفاح. هذا ما سنأكله في غضون أسابيع. هيلين، فكري فيما سيكون عليه مذاقه الطيب.

- الخنزير؟

- نعم الخنزير، حينما أشعر برجفة، أفكر في ذلك الخنزير، وبطنه السمين الضخم. أتخيل أذنيه الصغيرتين المقرمشتين، وأفخاذه الندية.

كدت أسمع ابتسامتها.

- صوفي، إنك مجنونة.

- فكري به هيلين، ألن يكون لذيذًا؟ هل يمكن أن تتخيلي وجه ميمي ودهن الخنزير يسيل على ذقنها، كيف سيكون شعوره في بطنها الصغير؟ ألك أن تتخيلي سعادتها وهي تحاول انتزاع جلد لحمه من بين أسنانها؟

ضحكت رغمًا عنها وقالت: «لست واثقة إن كانت تتذكر مذاق لحم الخنزير».

قلت: «لن يستغرق الأمر كثيرًا لنتذكرها، مثلما لن يستغرق الأمر كثيرًا لتتذكري جين-ميشيل. في يوم من الأيام سيدلف من الباب، وستلفين ذراعيك حوله، وستألفين رائحته، وشعورك به وهو يطوق خصرك كما تألفين جسدك تمامًا».

كدت أسمع أفكارها وهي تبحر بها قدمًا عند تلك اللحظات، ولكني أعدتها للوراء مرة أخرى. انتصارات صغيرة.

قالت بعد فترة: «صوفي، هل تفتقدين الجنس؟».

قلت: «كل يوم يمر، أفكر فيه ضعف ما أفكر في الخنزير».

سادت هنيهة من الصمت ثم انفجرنا في الضحك. ثم -لم أدرِ لِمَ- كنا نضحك بشدة حتى إننا أطبقنا بأيدينا على وجهينا حتى لا نوقظ الأطفال.

كنت أعرف أن القائد سيعود مرة أخرى. في الواقع مرت أربعة أيام قبل أن يفعل. كانت السماء تمطر بشدة -تمطر سيولًا- فجلست أعداد الزبائن القليلة أمام الأقداح الفارغة يتطلعون إلى الفراغ عبر النوافذ التي تكثف عليها البخار، وفي ركن الحانة جلس العجوز رينيه والسيد بيلير يلعبان الدومينو، وكلب السيد بيلير -الذي اضطر أن يدفع للألمان رسومًا للحصول على حق اقتنائه- يرقد بين أقدامهما. يجلس العديد من الأشخاص هنا يوميًّا حتى لا يضطرون للبقاء بمفردهم مع مخاوفهم.

كنت أبدي إعجابي بشعر السيدة أرنو الذي صففته لها أختي مؤخرًا عندما انفتح الباب الزجاجي وخطا إلى داخل الحانة يسير بجانبه اثنان من الضباط، وفجأة خيم الصمت على الغرفة التي كانت تعج بجو دافئ من الألفة الممزوجة بعذب الحديث. خرجت من خلف النضد وجففت يدي في المريلة.

لا يزور الألمان حانتنا إلا من أجل الاستيلاء على الأشياء، فهم يترددون على حانة بلانك -التي تقع في نهاية البلدة- وهي أكبر وربما أكثر محاباة، وقد أوضحناها جليًّا من قبل أنه ليس لدينا مكان مبهج من أجل القوة المحتلة. وتساءلت عما سيسلبونه منا الآن. إن كان لدينا عدد أقل من الأقداح والصحون، فعلينا أن نسأل الزبائن المشاركة.

- السيدة ليفيفر.

أومأت برأسي، وكنت أستشعر نظرات الزبائن المسلطة نحوي.

- لقد تقرر أن تقدمي الوجبات لبعض ضباطنا، فليس هناك مساحة كافية في حانة بلانك لرجالنا القادمين كي يأكلوا بشكل مريح.

استطعت أن أراه بوضوح لأول مرة، لقد كان أكبر مما تخيلت، ربما في أواخر الأربعينيات، بالرغم من أنه من الصعب تخمين عمر الرجال المحاربين، فإن جميعهم أكبر مما يبدون عليه.

قلت: «أخشى أن ذلك سيكون مستحيلًا سيدي القائد، فنحن لم نقدم وجبات في هذا الفندق لأكثر من ثمانية عشر شهرًا، فنحن بالكاد لدينا مؤنة

كافية لإطعام عائلتنا الصغيرة، وليس بمقدورنا توفير الطعام بالمستوى الذي يطلبه رجالك».

- أعي ذلك تمامًا، سيكون هناك مخزون كافٍ يصل بداية الأسبوع القادم، وأتوقع أن تعدِّي وجبات ملائمة لجنودنا، فأنا أعرف أن هذا الفندق كان مكانًا راقيًا في يوم من الأيام، وأنا واثق من أن الأمر يقع في نطاق قدراتك.

سمعت أختي من خلفي وهي تلتقط أنفاسها وأدركت أنها شعرت بما شعرت به، فالخوف الشديد من وجود الألمان في فندقنا الصغير قد قلل من حدته. الفكرة التي ظلت لشهور تطغى على كل ما عداها؛ فكرة الطعام. سيكون هناك بقايا الطعام، وعظام لصنع المرق، وكذلك روائح الطعام، ولقيمات مسروقة، وحصص إضافية من الطعام، وشرائح لحم وجبن تقتطع خلسة.

أردفت قائلة: «ولكنني لست واثقة إن كانت الحانة ملائمة لكم سيدي القائد، لقد جردنا من كل وسائل الراحة».

- أنا من يحكم على المكان الذي يشعر فيه رجالي بالراحة. أود أن ألقي نظرة أيضًا على الغرف، فربما أوفر سكنًا لجنودي هنا.

سمعت العجوز رينيه يغمغم: «يا إلهي».

- نرحب بك لرؤية الغرف أيها القائد، لكنك ستجد أن من سبقوك لم يتركوا لنا سوى القليل. فالأَسِرة، والأغطية، والستائر وحتى الأنابيب النحاسية التي تغذي الأحواض جميعها في حيازة الألمان بالفعل.

أعرف أنني خاطرت بإغضابه، فقد أعلنتها واضحة في حانة مزدحمة أن القائد يجهل أفعال رجاله وأن ذكاءه -بقدر ما ترامى إلى مدينتنا- ضعيف، ولكن كان من المهم أن يراني أهل مدينتي عنيدة ومكابرة. فاستضافة الألمان في حانتنا سيجعلني أنا وهيلين عرضة للنميمة والشائعات المغرضة، فكان من المهم أن يرانا الآخرون ونحن نبذل أقصى ما في وسعنا لردعهم.

- مرة أخرى سيدتي أنا من يحكم إن كانت غرفكم ملائمة أم لا، من فضلك أريني إياها.

ثم أشار إلى رجاله بالبقاء في الحانة. سيخيم صمت تام على المكان حتى بعد أن يغادروا.

عدلت من وضع كتفي وخرجت ببطء نحو الردهة، ومددت يدي لآخذ المفاتيح كما أفعل دائمًا، وشعرت بأعين الجميع في الحجرة مصوبة نحوي وأنا أغادرها. كانت تنورتي تلتف حول ساقي، وخطوات الألماني الثقيلة تتبعني، فتحت الباب الذي يؤدي إلى الممر الرئيسي (كنت أغلق كل الأبواب، فقد كان معروف عن اللصوص الفرنسيين سرقة أي شيء لم يُصادَر من جانب الألمان).

كانت رائحة هذا الجزء من المبنى عفنة ورطبة؛ لقد مرت شهور منذ أن أتيت إلى هنا. صعدنا الدرج في صمت، حمدت الله أنه يسير خلفي ببضع خطوات، وتوقفت بالأعلى وانتظرته حتى يخطو داخل الممر، ثم فتحت الحجرة الأولى.

مر وقت قبل أن أرى الفندق على تلك الحالة مما دفعني إلى البكاء. كانت الغرفة الحمراء مصدر فخر فندق الديك الأحمر في يوم من الأيام؛ غرفة النوم التي أمضيت بها أنا وأختي ليالي زفافنا، الغرفة التي استضاف فيها العمدة كبرى الشخصيات الزائرة، فقد كانت تشتمل على فراش كبير ذي أربع قوائم، ورسومات جدارية بلون أحمر قانٍ، ونوافذها الضخمة تطل على حدائقنا الرسمية، والأثاث جلب من قصر في مدينة غَسْقُونية، وغطاء الفراش من الحرير ذي اللون الأحمر الداكن وارد الصين. وكانت تحتوي أيضًا على شمعدان ذهبي ومدفأة ضخمة من الرخام تشعلها خادمة الغرف كل صباح وتظل مشتعلة حتى الليل.

فتحت الباب ورجعت خطوة إلى الوراء حتى يدخل الألماني. أضحت الحجرة خاوية إلا من مقعد ذي ثلاث أرجل استقر في ركن الحجرة، وجردت ألواح الأرضية من السجاد وكان لونها رماديًا وقد علا التراب فوقها. اختفى الفراش منذ فترة مع الستائر وهي من بين أول الأشياء التي سرقها الألمان حينما استولوا على مدينتنا. وقد نزعوا المدفأة الرخامية من الحائط، وما سبب ذلك، لا أدري؛ ولا يبدو أنها ستستخدم في مكان آخر. أعتقد أن بيكر كان يبغي إضعاف معنوياتنا ويطمس كل معالم الجمال.

خطا خطوة إلى داخل الغرفة.

قلت: «توَخ الحذر وأنت تخطو».

نظر لأسفل ورأى ركن الحجرة حيث حاولوا انتزاع الألواح الأرضية الخشبية لاستخدامها كخشب للوقود في الربيع الماضي، ولكن المنزل كان متين البنية والألواح مثبتة بإحكام وقد يئسوا بعد محاولات استمرت لساعات لم يفلحوا خلالها سوى في انتزاع ثلاث لوحات خشبية طويلة. وقد كشفت الفتحة أسفلها -كانت عبارة عن فجوات مستديرة جراء الاعتداء- عن الكمرات الأرضية.

وقف القائد مكانه لدقيقة يحدق إلى الأرض.

ثم رفع رأسه وتجول ببصره في الحجرة. لم يحدث من قبل أن مكثت بمفردي في غرفة مع ألماني، وكان قلبي يدق بعنف. كنت أشم رائحة تبغ خفيفة تصدر عنه، وأرى زخات المطر على زيه الرسمي، نظرت إلى مؤخرة عنقه وأرخيت أصابعي عن المفاتيح وأنا على استعداد لأن ألكمه بقبضة يدي المسلحة إذا ما حاول مهاجمتي فجأة، فلن أكون أول امرأة تحتم عليها أن تدافع عن شرفها.

ولكنه استدار نحوي قائلًا: «هل جميع الغرف على هذا النحو السيئ؟».

أجبت: «لا، الأخرى أسوأ».

أمعن النظر فيَّ مدةً حتى كاد أن يحمر وجهي، ولكني رفضت أن يرهبني ذلك الرجل، فحدقت النظر أنا الأخرى إلى شعره الأشيب القصير، وكانت عيناه الزرقاوان الصافيتان تتفرسانني من أسفل قبعته، جعلت ذقني لأعلى وتعبيرات وجهي جامدة.

استدار أخيرًا وتجاوزني وهبط إلى الدرج ومنه إلى الردهة الخلفية. توقف فجأة وحدق النظر إلى أعلى نحو لوحتي وطرف بعينه مرتين كما لو كان قد لاحظ الآن أنني نقلتها من مكانها.

قال: «سأرسل لك أحدًا يخبرك بموعد تسلم الدفعة الأولى من الطعام».

ثم ذهب سريعًا خلال الممر عائدًا للحانة.

***



3

وكزتني السيدة ديورانت بإصبعها النحيفة في كتفي وقالت: «كان ينبغي أن تقولي لا».

انتفضت في مكاني. كانت تعتمر قبعة بيضاء مزركشة وشالًا أزرق كروشيه باهت اللون مثبتًا حول كتفيها. إن الذين يشكون من غياب الأخبار الآن -حيث إنه من غير المسموح لنا إحضار الصحف- من الواضح أنهم لم يمروا من طريق جارتي من قبل.

- ماذا؟

- تطعمين الألمان؟ كان ينبغي أن تقولي لا.

كان الصباح قارس البرودة وكنت ألف الوشاح حول كتفي ليصل إلى وجهي، فسحبته لأسفل كي أرد عليها.

- كان ينبغي أن أقول لا؟ وهل كنت ستقولين لا حينما يقررون احتلال بيتك، هل كنت ستفعلين سيدة ديورانت؟

- أنت وأختك تصغرانني في العمر ولديكما القوة لمحاربتهم.

- للأسف ليس لديَّ أسلحة نارية لكتيبة، ماذا تقترحين عليَّ أن أفعل؟ هل أبني الحواجز أمامنا هنا؟ أم ألقي عليهم الأقداح والصحون؟

استمرت في توبيخي وأنا أفتح لها الباب كي تعبر منه. لم يعد المخبز كما كان من قبل تفوح منه رائحة المخبوزات. كان لا يزال دافئًا من الداخل، ولكن

تلاشت منه رائحة خبز الباجيت والكرواسون منذ فترة طويلة. هذه الحقيقة البسيطة كانت تشعرني بالحزن في كل مرة أجتاز فيها عتبته.

- أقسم بأني لا أدري إلى أين تتجه بنا هذا البلد، لو كان أبوك قد رأى الألمان في الفندق...

من الواضح أن السيدة لوفير قد أُحيطت جيدًا بكل شيء.

وهزت رأسها في استنكار بينما كنت أقترب من النضد.

- كان سيفعل الشيء نفسه.

أسكتهما السيد أرماند الخباز قائلًا: «لا يمكنكما توجيه النقد للسيدة ليفيفر، فجميعنا كالدمى في أيديهم الآن. هل توجهين النقد لي سيدة ديورانت لأني أصنع لهم الخبز؟».

- أنا فقط أعتقد أنه ليس من الوطنية أن نقبل صفقتهم.
- من السهل قول هذا حينما لا تكونين في مكان من يتلقى الرصاصة.
- سيأتي المزيد منهم هنا إذًا؟ وسيشقون طريقهم عبر متاجرنا، ويأكلون طعامنا، ويسرقون ماشيتنا، أقسم إنني لا أدري كيف سنصمد هذا الشتاء.
- كما نفعل دائمًا سيدة ديورانت، بقوة عزيمتنا، وبروح الدعابة، وندعو الله أن يعطي الألمان –إن لم يفعل أبناؤنا الشجعان– ركلة ضخمة على مؤخراتهم.

غمز لي السيد أرماند وقال: «والآن أيتها السيدات بماذا ترغبن؟ لدينا خبز أسود منذ أسبوع، وخبز أسود عمره خمسة أيام وبعض الخبز الأسود من وقت غير محدد ونضمن خلوه من أي سوس».

قالت السيدة لوفير بأسى: «هناك أيام أعتبر فيها السوس من المشهيات المرحب بها».

- إذًا سأحتفظ لكِ منه في جرة مربى ملأى. صدقيني هناك العديد من الأيام التي نتلقى فيها حصصًا وافرة منه في الدقيق. كعكة بالسوس، فطيرة بالسوس، فطيرة البروفيترولس بالسوس؛ هذا بفضل كرم الألمان، نستطيع توفيرها جميعًا.

ضحكنا جميعًا، فلم يكن من المستحيل ألا نفعل، فالسيد أرماند ينجح في رسم الابتسامة حتى في أحلك الأيام.

أخذت السيدة لوفير الخبز ووضعته في السلة كرهًا، ولم يعدّها السيد أرماند إهانة؛ فهو يرى هذا التعبير مئات المرات في اليوم. كان الخبز أسود اللون مربع الشكل ولزجًا تنبعث منه رائحة عفن كما لو أنه تعفن لحظة خروجه من الفرن، كما أنه شديد الصلابة لدرجة أن كبرى السيدات كثيرًا ما يطلبن المساعدة من الصغار في تقطيعه.

قالت وهي تلف المعطف حولها: «هل سمعتم أنهم يريدون إعادة تسمية الشوارع في مدينة نوفيون؟».

- إعادة تسمية الشوارع؟
- أسماء ألمانية بدلًا عن الفرنسية.
- تلقى السيد دينان خبرًا من ابنه بذلك. أتدرون ماذا سيطلقون على شارع المحطة؟

هززنا رؤوسنا جميعًا بالنفي.

أغلقت السيدة لوفير عينيها لدقيقة كي تتأكد أنها سمعت الاسم صحيحًا ثم قالت في النهاية: «شارع باهنهوفستراسي».

- باهنوف ماذا؟
- أتصدقون هذا؟

علق السيد أرماند مستنكرًا: «لن يغيروا اسم متجري وإلا سأغير أسماء مؤخراتهم، هذا خبز، وهذا خبز. وهذا مخبز في شارع لو باستيد، كان هكذا وسيظل هكذا دومًا».

قالت السيدة ديورانت وقد تملكها الفزع: «هذا شيء فظيع».

- إنني لا أتحدث أيًا من الألمانية.

حدقنا النظر إليها جميعًا.

- إذًا كيف لي أن أجد طريقي في مدينتي وأنا لا أعرف أسماء الشوارع؟

انهمكنا في الضحك للحظات حتى إننا لم نلحظ الباب وهو يفتح، ثم خيم الصمت فجأة على المكان. التفت لأجد ليليان بيتون تدخل من الباب ورأسها عاليًا، ولكنها لم تقو على أن تنظر إلى عين شخص منا. كان وجهها ممتلئًا

عن المعتاد، وبشرتها الصافية مشدودة وملأى بالمساحيق. تفوهت بكلمة عامة: «صباح الخير». ومدت يدها في حقيبتها قائلة: «رغيفين من الخبز من فضلك».

كانت تفوح منها رائحة عطر باهظ الثمن، وشعرها مصفف لأعلى في شكل خصلات مموجة. وفي مدينة يعاني معظم نسائها من الإجهاد أو أنهن لا يملكن شيئًا لفعل أي شيء سوى الحد الأدنى من العناية الشخصية وقفت هي كالجوهرة المتلألئة. ولكن معطفها هو ما لفت انتباهي، فلم أمنع نفسي من التحديق إليه. كان أسود لامعًا مصنوعًا من أجود جلود مدينة استراخان وكثيفًا كالسجاد الفرو. وكان له البريق والملمس الناعم لشيء باهظ الثمن وجديد، وياقته ترتفع لتصل إلى وجهها كما لو أن عنقها الطويل يظهر من وسط العسل الأسود. رأيت السيدتين الكبيرتين قد لاحظتا وأصبحت تعبيرات وجهيهما جامدة بينما كانتا تتجولان ببصرهما لأسفل بطول المعطف.

غمغمت السيدة ديورانت: «واحد من أجلك والآخر من أجل الألماني؟».

التفتت نحو السيدة ديورانت وقالت: «واحد من أجلي وواحد من أجل ابنتي».

وهذه المرة لم يبتسم السيد أرماند، ومد يده أسفل النضد وعيناه لم تفارقا وجهها وبقبضة يديه الممتلئتين ألقى الرغيفين بعنف على سطح النضد. ولم يلفهما.

بسطت يدها بورقة النقود لكنه لم يأخذها من يدها، بل انتظر لبضع ثوان جعلتها تضعها على النضد ثم أخذها حينئذ بحذر شديد كما لو أنها ستصيبه بعدوى. ثم مد يده إلى درج النقود وألقى لها بعملتين باقي النقود في حين أنها كانت تمد يدها له.

نظرت إليه ثم إلى النضد حيث استقرت العملات المعدنية ثم قالت له: «احتفظ بها». وبنظرة غاضبة حدجتنا بها انتزعت الخبز وغادرت المحل.

- كيف لها أن تجرؤ على...

لا تكون السيدة ديورانت أكثر سعادة إلا حينما يغضبها سلوك شخص آخر، ولحسن حظها منحتها ليليان بيتون فرصتها الكبيرة لتمارس غضبها خلال الأشهر القليلة الماضية.

قلت: «أعتقد أنها يجب أن تأكل مثلها مثل أي شخص آخر».

- تذهب كل ليلة إلى مزرعة فوربيه. كل ليلة تعبر البلدة وتنطلق مسرعة كاللصوص.

قالت السيدة لوفير: «لديها معطفان جديدان، والآخر أخضر اللون. معطف أخضر صوف جديد تمامًا. من باريس».

- وحذاء من جلد الماعز. بالطبع هي لا تجرؤ على ارتدائه هكذا في وضح النهار، فهي تعلم أنها ستعدم إن فعلت هذا.
- لن تفعل تلك المرأة، وليس مع الألمان الذين يهتمون بها.
- مع هذا، عندما يرحلون ستكون هناك قصة أخرى أليس كذلك؟
- لا أريد أن أكون في مكانها، سواء هناك أحذية من جلد ماعز أم لا.
- أكره أن أراها تتبختر هكذا وهي تستعرض ثروتها في وجه كل شخص. من تظن نفسها هذه؟

راح السيد أرماند يشاهد السيدة الشابة وهي تعبر الميدان ثم ابتسم فجأة وقال: «لن أقلق أيها السيدات، ليس كل شيء يسير وفق هواها».

نظرنا نحوه.

- هل تحفظن السر؟

لا أدري لم كلف نفسه عناء السؤال، فهاتان السيدتان العجوزتان بالكاد تصمتان لمدة عشر ثوان في كل مرة.

- ماذا؟
- دعوني أقول تأكدن أن السيدة الراقية تحصل على معاملة خاصة لا تتوقعنها.
- لا أفهم.
- أرغفة الخبز الخاصة بها توضع بمفردها أسفل النضد، وهي تحتوي على مكونات خاصة، مكونات أعدكن بأنها لا توضع في أي من أرغفتي الأخرى.

اتسعت أعين السيدتين، ولم أجرؤ أن أسأل عمًا يعنيه الخباز، ولكن بريق عينيه أوحى بعدة احتمالات ولا أريد أن أستفيض في الحديث عنها.

- لا.

- سيد أرماند!

شعرتا بالصدمة، لكنهما شرعتا في الثرثرة مرة أخرى.

شعرت بالغثيان حينئذ، إنني لا أحب ليليان بيتون ولا ما تفعله، ولكن ذلك أثار حفيظتي.

- يجب أن أذهب الآن فهيلين...

تناولت الخبز ولا تزال ضحكاتهم تتردد في أذني، وهرعت نحو الفندق حيث بعض من الأمان النسبي.

وصل الطعام الجمعة التالية. البيض أولًا، دستتان سلمهما عريف ألماني شاب، وقد أحضره مغطى بغطاء أبيض كما لو أنه يسلم بضائع محظورة. ثم تبعه الخبز -أبيض وطازج- في ثلاث سلال. كنت قد توقفت عن تناول الخبز قليلًا منذ ذلك اليوم في المخبز، ولكن أن أحمل بين يدي خبزًا طازجًا، هشًا وساخنًا، جعلني ثملة من اشتهاء الطعام. كان عليَّ أن أرسل أوريلين إلى الطابق العلوي، فقد كنت أخشى ألا يستطيع مقاومة إغراء تناول قطعة منه.

وصلت فيما بعد ست دجاجات، وكان الريش لا يزال عالقًا بها، وصندوق خشبي يحتوي على كرنب، وبصل وجزر، وثوم بري. بعد ذلك جاءت جرار من الطماطم المحفوظة، والأرز والتفاح، واللبن والقهوة، وثلاث عبوات من الزبد، والدقيق، والسكر، وزجاجات نبيذ عديدة من الجنوب. تلقيت وهيلين كل عملية تسليم في صمت. وقد أعطى الألمان لنا نماذج مدونًا على أساسها كل كمية بدقة. فلن يكون هناك مجال يسمح للسرقة بسهولة؛ فالنموذج يتطلب أن نذكر بدقة الكميات التي استخدمناها. كما طلبوا منا أيضًا أن نضع بقايا الطعام في دلو لإطعام الماشية. وحينما رأيت ذلك أردت أن أبصق عليهم.

سألت آخر عريف: «هل سنعد هذا الليلة؟».

هز كتفيه ليوحي بعدم الفهم، فأشرت إلى الساعة وقلت: «اليوم» ثم أشرت بعدها إلى الطعام وقلت بالألمانية: «الكعك».

قال بالألمانية وهو يهز رأسه في حماس: «نعم، إنهم سيأتون في الثامنة».

قالت هيلين من خلفه: «إنهم يريدون أن يأكلوا في الثامنة».

كان عشاؤنا عبارة عن شريحة من الخبز الأسود مغطاة بطبقة رقيقة من المربى بجانبها بعض من شرائح البنجر، لذا فأن تكون مضطرًا لأن تشوي الدجاج، وتملأ المطبخ بروائح الثوم والطماطم، وفطائر التفاح فهو بمنزلة نوع من أنواع التعذيب. كنت خائفة في الليلة الأولى حتى أن ألعق أصابعي رغم أن مظهرها وعصير الطماطم يتساقط منها أو وهي ملتصقة بالتفاح كان شديد الإغراء. هناك مرات عدة -حينما كنت ألف المعجنات أو أقشر التفاح- أوشكت فيها على الإغماء من فرط اشتهائي الطعام. واضطررنا إلى إبعاد ميمي وأوريلين والصغير جين في الطابق الأعلى حيث كنا نسمع بين الحين والآخر صيحات الاعتراض.

كنت لا أريد أن أطهو للألمان وجبة جيدة، ولكني كنت خائفة ألا أفعل. ففي بعض اللحظات كنت أحدث نفسي قائلة وأنا أجذب الدجاج المشوي من الفرن وأسقيه بالعصير الساخن ربما أستمتع بمنظر الطعام، ربما أتلذذ بفرصة رؤيته مرة أخرى، وشم رائحته. ولكن تلك الليلة لم أستطع أن أفعل ذلك. ففي الوقت الذي دق فيه الجرس ليخبرنا بوصول الألمان، راحت معدتي تتمزق وبشرتي تتعرق من فرط الجوع، فكرهت الألمان كرهًا شديدًا لم أشعر بمثله من قبل أو منذ ذلك الوقت.

كان القائد أول شخص يدخل وقال: «سيدتي».

خلع قبعته التي تناثرت فوقها حبات المطر وأشار إلى الضباط لفعل الشيء نفسه.

وقفت وأنا أمسح يدي في المريلة ولا أدري ما أفعل وقلت: «سيدي القائد». ووجهي خالٍ من أي تعبيرات.

كانت الحجرة دافئة؛ فقد أرسل الألمان ثلاث سلال ملأى بالخشب حتى نتمكن من إشعال النيران.

تخلص الرجال من الأوشحة والقبعات التي يرتدونها وراحوا يستنشقون الهواء ويبتسمون في شغف، فرائحة الدجاج المشوي بالثوم وصلصة الطماطم قد تسربت وامتلأ بها الهواء المحيط.

قال وهو ينظر إلى الدجاجة: «أعتقد أننا ينبغي أن نأكل على الفور».

قلت: «كما ترغبون، سأحضر النبيذ».

فتح أوريلين عدة زجاجات في المطبخ، وخرج ممسكًا بيديه زجاجتين وهو متجهم الوجه؛ فالعذاب الذي تكبدناه هذه الليلة قد أغضبه هو بشكل خاص، وكنت أخشى -آخذة في الاعتبار عملية الضرب التي وقعت مؤخرًا- أن يودي به شبابه وطبيعته المندفعة إلى إيقاعه في المتاعب. أخذت الزجاجتين من بين يديه وقلت له: «اذهب وأخبر هيلين أن تأتي لتقدم العشاء».

- لكن.

زجرته قائلة: «اذهب».

سرت حول البار وأنا أصب زجاجات النبيذ، ولم أنظر إلى أي منهم وأنا أضع الكاسات على الطاولات رغم أنني كنت أشعر بأعينهم مسلطة علي. أخبرتهم في داخلي قائلة: «نعم انظروا إليَّ، انظروا إلى فرنسية هزيلة أخرى وهي تتضور جوعًا حتى الاستسلام لكم، أتمنى أن يفسد مظهري شهيتكم».

أحضرت أختي الأطباق الأولى وسط همهمات التقدير. وفي غضون دقائق كان الرجال يهجمون على الطعام وأدوات المائدة التي يستخدمونها تحدث جلبة في الأواني الخزف، وكانوا هم يصيحون بلغتهم.

أخذت أذرع الحجرة جيئة وذهابًا وأنا أحمل الصحون الملأى بالطعام وأحاول ألا أتنفس الروائح الشهية ولا أنظر إلى اللحمة المشوية التي تلمع وسط الخضراوات الزاهية.

أخيرًا قُدم الطعام لهم جميعًا، ووقفت أنا وهيلين خلف البار بينما قدم القائد نخبًا مطولًا بالألمانية. لا أستطيع وصف شعوري وأنا أسمع تلك الأصوات في منزلنا؛ وأراهم وهم يأكلون الطعام الذي أعددناه بإتقان، أو وهم مسترخون يضحكون ويشربون. فكرت بيأس بأني أعزز صحة هؤلاء الرجال بينما حبيبي إدوارد قد يعاني ضعفًا بسبب الجوع. وجعلتني هذه الفكرة – بجانب الجوع والإرهاق- أشعر ببعض اليأس.

أفلتت مني شهقة بكاء خافتة، فمدت هيلين يدها نحو يدي وضغطت عليها، وغمغمت قائلة: «اذهبي إلى المطبخ».

- إنني.

- اذهبي إلى المطبخ وسألحق بك حينما أعيد ملء هذه الكؤوس.

وهذه المرة فقط فعلت كما قالت أختي.

استمروا في تناول الطعام لمدة ساعة. جلسنا أنا وهي في صمت في المطبخ غارقتين في التعب وفي شتات أفكارنا. وفي كل مرة سمعنا فيها ضحكات مرتفعة أو هتافات حماسية نظرنا إلى أعلى، فقد كان من الصعب أن نفهم ما تعنيه.

ظهر القائد عند باب المطبخ وقال: «أيتها السيدتان».

نهضنا على أقدامنا.

أردف قائلًا: «كانت الوجبة ممتازة، آمل أن تحافظا على هذا المستوى».

أطرقت برأسي نحو الأرض.

- السيدة ليفيفر.

رفعت بصري رغمًا عني.

- إنك شاحبة، هل أنت مريضة؟

ابتلعت ريقي وقلت: «نحن على ما يرام».

شعرت بنظراته تحرقني، وبجانبي وقفت هيلين وأصابعها متشابكة وقد أصابها الاحمرار من المياه الساخنة التي لم تعد تعتاد عليها.

- سيدتي، هل تناولت الطعام أنت وأختك؟

اعتقدت أنه اختبار، وظننت أنه يريد أن يتأكد من أننا اتبعنا تلك النماذج الشيطانية بحذافيرها. وفكرت في أنه قد يزن بقايا الطعام ليتأكد من أننا لم نختلس قطعة من قشر التفاح ونضعها في أفواهنا.

- لم نلمس حبة من الأرز أيها القائد.

كدت أبصق عليه. آمل أن يفعل الجوع بك هذا.

طرف بعينه ثم قال: «إذًا ينبغي أن تأكلي، لا يمكنك أن تطهي جيدًا إذا لم تأكلي. ماذا تبقى من الطعام؟».

لم أستطع أن أتحرك. أشارت هيلين إلى صينية الشواء الموضوعة فوق الموقد. كان هناك أربعة أرباع من الدجاج استقرت فوقها ولا تزال محتفظة بحرارتها في حال طلب الرجال وجبة ثانية.

- إذًا اجلسا وتناولا الطعام هنا.

لم أستطع أن أصدق أن هذا ليس بفخ.

قال: «هذا أمر».

كاد يبتسم وهو يقولها، ولكني لم أجد الأمر مضحكًا فأردف قائلًا: «حقًا، هيا اشرعا في تناول الطعام».

- هل بمقدورنا أن نطعم الأطفال شيئًا؟ لقد مر وقت طويل منذ أن تناولوا أي نوع من اللحوم.

قطب حاجبيه قليلًا كما لو أنه لم يفهم ما قيل. كرهته، وكرهت نبرة صوتي وأنا أستجدي بقايا الطعام من ألماني.

حدثت نفسي قائلة: «حبيبي إدوارد، آه لو بإمكانك سماعي الآن».

قال في اقتضاب: «أطعما أطفالكما وأطعما أنفسكما».

ثم استدار وغادر الحجرة.

جلسنا في صمت وكلماته ترن في أذنينا.

ثم أمسكت هيلين بطرف تنورتها وركضت على الدرج وهي تصعد درجتين في كل خطوة. لم أرها تتحرك بهذه السرعة منذ شهور.

ظهرت بعد عدة ثوان وهي تحمل بين ذراعيها جين الذي لا يزال برداء نومه وأمامها أوريلين وميمي.

قال أوريلين وهو يحدق إلى الدجاجة وقد تدلى فمه مفتوحًا: «هل هذا حقيقي؟».

كل ما استطعت فعله أن أومأت له برأسي.

انقضضنا على هذا الطائر التعيس. أود أن أخبركم بأني وأختي سيدتان مهذبتان نأكل طعامنا برقة كما يفعل الباريسيون، نتوقف أثناء تناوله لنتحدث ونمسح أفواهنا بين اللقيمات. لكنا حينها كنا كالمتوحشين، مزقنا اللحم، واغترفنا الأرز بأيدينا، وأكلنا وأفواهنا مفتوحة، ولم أعد أهتم إن كانت هذه خدعة من جانب القائد أم لا. لم أتذوق شيئًا أشهى من تلك الدجاجة، وغمر الثوم والطماطم فمي بمتعة كنت نسيتها منذ زمن، وتشبعت أنفي بروائح يمكنني استنشاقها للأبد. صدرت منا أصوات خافتة تنم عن سعادتنا ونحن نأكل -أصوات عفوية غير مقيدة- وكل منا يغوص في عالمه الخاص من الرضى. وضحك الرضيع جين وغطى وجهه بالعصير، وراحت ميمي تلوك قطعًا من جلد الدجاج وتمتص الدهن من فوق أصابعها باستمتاع شديد. أكلنا

أنا وهيلين دون أن نتحدث بكلمة. كنا فقط نتأكد من أن الصغار لديهم ما يكفيهم من الطعام.

وعندما لم يتبق شيء، وجردنا كل عظمة من لحمها، وأفرغنا الصواني من آخر حبة أرز، جلسنا يحدق كل منا إلى الآخر، واستطعنا من خلال الحانة أن نسمع ثرثرة الألمان وقد علت أصواتهم مع استهلاكهم لمزيد من النبيذ وكانوا ينفجرون في الضحك بين الحين والآخر. ومسحت فمي بيدي.

قلت وأنا أغسلها: «يجب ألا نخبر أحدًا».

وشعرت بأني شخص ثمل أصبح فجأة متزنًا وأردفت قائلة: «وعلينا أن نتصرف وكأن هذا لم يحدث، فلو علم أحد أننا تناولنا طعام الألمان فسيعتبروننا خونة».

نظرنا إلى ميمي ثم إلى أوريلين ونحن نحاول أن ننقل لهما جدية ما نقول، أومأ أوريلين برأسه، وكذا ميمي. أعتقد أنهما قد يوافقان على التحدث بالألمانية للأبد في تلك اللحظات. جذبت هيلين منشفة صحون، وبللتها وشرعت في إزالة بقايا الأكل من على وجهَي الصغيرين.

قالت: «أوريلين، اصحبهما إلى الفراش وسنرتب نحن المائدة».

لم تصبه مخاوفي، بل إنه كان يبتسم. لقد سقطت كتفاه النحيفتان اليافعتان لأول مرة منذ شهور، أقسم إنه كاد يطلق صفيرًا بينما كان يحمل جين إن أمكنه ذلك، ولكني حذرته قائلة: «لا أحد يعلم».

قال لها بلهجة صبي في الرابعة عشرة من عمره ويعلم ببواطن الأمور: «أعرف هذا».

استرخى الصغير جين على كتفيه تحت غطائه الثقيل، فوجبته الأولى المتكاملة منذ شهور قد أتعبته. اختفيا عن النظر وهما يصعدان الدرج، وقد أوجعت قلبي أصوات ضحكاتهما حينما وصلا إلى أعلى.

كانت الساعة قد دقت الحادية عشرة حينما غادر الألمان. كنا نخضع لحظر التجوال لما يقرب من عام؛ فإذا هبط المساء، ولم يكن لدينا شموع أو مصباح غاز الأستيلين، كنا أنا وهيلين عادة نذهب إلى الفراش حيث اكتسبنا عادة النوم مبكرًا. كانت الحانة تغلق في السادسة منذ الاحتلال ولم نبق مستيقظتين لوقت متأخر منذ شهور. كنا متعبتَين، وكانت معدتانا تصدران أصوات كركبة بسبب صدمة الطعام الدسم بعد أشهر من التضور جوعًا.

رأيت أختي تتهاوى وهي تنظف مقلاة الشواء. لم أشعر بمثل هذا التعب من قبل، وعقلي ما زال يهفو لذكرى الدجاج؛ كان الأمر أشبه بالحياة التي دبت فجأة في الأعصاب التي تلفت منذ فترة طويلة، ما زلت أستطيع تذوقها وشم رائحتها، فهي محفورة في عقلي ككنز صغير متوهج. كنت قد أرسلت أختي إلى الطابق العلوي قبل أن يعود المطبخ نظيفًا مرة أخرى بفترة. أزاحت شعرها عن وجهها للخلف. كانت أختي غاية في الجمال. وحينما أرى كيف أضافت الحرب العمر إلى سنوات عمرها أتذكر وجهي وأتساءل ماذا سيقول عني زوجي.

قالت: «لا أريد أن أتركك بمفردك معهم».

هززت رأسي. لم أكن خائفة؛ فقد كانت حالتهم المزاجية مسالمة. فمن الصعب إثارة رجال أكلوا بشكل جيد. كانوا يشربون، ولكن الزجاجات المتوفرة لا تسمح إلا ربما بثلاث كؤوس لكل منهم؛ وهو عدد ليس بكافٍ كي يدفعهم إلى سوء التصرف. الله يعلم أن أبي لم يمنحنا إلا أقل القليل، ولكنه علمنا متى نشعر بالخوف. فيمكنني أن أرى غريبًا وأعرف من إطباقه على فكيه وحدقة عينه حينما تضيق النقطة التي سيؤدي عندها ذلك التوتر الداخلي إلى لحظات العنف. إلى جانب هذا، أشك أن القائد سيسمح بذلك.

مكثت في المطبخ لأنظف حتى نبهني صوت المقاعد التي كانوا يزيحونها إلى حقيقة أنهم يغادرون. سرت نحو الحانة.

قال القائد: «بإمكانك أن تغلقي الآن». حاولت ألا يبدو عليَّ الانزعاج.

- رجالي يعربون لك عن امتنانهم بالوجبة الرائعة.

نظرت نحوهم، أومأت برأسي إيماءة بسيطة. فلم أرغب أن أبدو ممتنة لمديح الألمان.

لم يبدُ أنه يتوقع استجابة، فوضع قبعته فوق رأسه، ومددت يدي في جيبي وسلمته إيصالات الطعام. نظر إليها ودفعها إليَّ مرة أخرى بشيء من الانفعال وقال: «لا أتعامل مع مثل هذه الأمور، أعطيها للرجال الذين سلموا الطعام، غدًا».

قلت: «آسفة».

لكنني كنت أدرك ما أفعله جيدًا، فجزء شرير بداخلي أراد التقليل من شأنه لرتبة عريف الدعم حتى ولو لفترة وجيزة.

وقفت هناك بينما كانوا يجمعون معاطفهم وقبعاتهم، وبعضهم كان يعيد وضع المقاعد -كبقايا من الأخلاق النبيلة- والبعض الآخر لم يبالِ -كما لو أنه من حقهم أن يتعاملوا مع أي مكان على أنه منزلهم. هكذا حدثت نفسي بأن هذا هو الوضع القائم، فقد كتب علينا أن نمضي فترة الحرب نطهو للألمان.

وتساءلت للحظة إن كان علينا أن نطهو بشكل سيئ درءًا للمتاعب، ولكن أمي كانت دومًا تؤكد لنا أن الطهي الرديء هو نوع من أنواع الخطيئة. ومهما كنا فاسدي الأخلاق حينها ومهما كنا خونة أعلم جيدًا أننا جميعًا سنتذكر تلك الليلة التي تناولنا فيها الدجاجة المشوية وفكرة أنه سيكون هناك المزيد منها جعلتني أشعر بالقليل من السعادة.

أدركت حينها أنه ينظر إلى اللوحة.

اعتراني خوف مفاجئ وأنا أتذكر كلمات أختي، فاللوحة كانت بالفعل زاهية للغاية في الحانة الصغيرة الباهتة والفتاة المشرقة التي تنظر في ثقة. كانت تبدو -رأيتها لتوي الآن- وكأنها تسخر منهم.

ظل يحدق النظر إليها، وشرع رجاله في مغادرة المكان. كانت أصواتهم عالية حادة ويتحركون بنشاط عبر المربع الخالي. كنت أرتجف قليلًا في كل مرة يفتح فيها الباب.

- إنها تشبهك.

صُدمت أنه استطاع أن يلحظ ذلك، ولم أرغب في أن أوافقه الرأي، فالأمر قد ينطوي على نوع من الألفة كونه يراني في تلك الفتاة. ابتلعت ريقي وابيضت مفاصل يدي إثر ضغطي عليها.

- نعم، كان هذا منذ فترة طويلة.

- إنها تشبه أعمال ماتيس قليلًا.

فوجئت بتعليقه مما جعلني أتحدث قبل أن أفكر فيما أقول.

- لقد درس إدوارد على يديه في أكاديمية ماتيس في باريس.

- أعرفها، هل صادفتِ رسامًا يدعى هانس بورمان؟

يبدو أنني أنا من بدأ الحديث، فقد رأيت نظراته تتحول إليَّ وهو يقول: «إنني شديد الإعجاب بأعماله».

هانس بورمان، أكاديمية ماتيس. إن سماع تلك الكلمات من فم قائد ألماني جعلني أشعر بالدوار.

أريده أن يرحل الآن، لا أرغب في أن يذكر تلك الأسماء، فهذه الذكريات ملكي أنا فهي بمنزلة عطايا صغيرة أستحضرها لأواسي بها نفسي في تلك الأيام التي أشعر فيها بثقل حياتي الحالية. لا أريد أن تتلوث أسعد أيام حياتي بملاحظات عابرة من فم ألماني.

- سيدي القائد، يجب أن أنظف المكان الآن إذا سمحت لي.

شرعت في تكديس الصحون وجمع الكؤوس، لكنه لم يتحرك. شعرت بعينيه مسلطتين على اللوحة كما لو أنه يسلطهما علي.

- لقد مر وقت طويل منذ أن دخلت في نقاش بشأن الفن.

بدا وكأنه يوجه حديثه إلى اللوحة. وأخيرًا وضع يديه خلف ظهره وحول بصره عن اللوحة ثم التفت نحوي قائلًا: «نراكِ غدًا».

لم أستطع النظر إليه وهو يمر أمامي.

قلت ويداي ممتلئتان: «سيدي القائد».

- عمت مساءً سيدتي.

حينما صعدت أخيرًا إلى الطابق العلوي كانت هيلين نائمة وهي مكبة على وجهها فوق الغطاء ولا تزال ترتدي الملابس التي تطهو بها الطعام. أرخيت المشد الذي ترتديه وخلعت عنها حذاءها وجذبت الغطاء فوقها، ثم صعدت إلى الفراش وراحت الأفكار تطن وتدور في رأسي حتى مطلع الفجر.

***

4

باريس 1912

- من فضلك آنسة.

رفعت بصري عن واجهة عرض القفازات وأغلقت الغطاء الزجاجي فوقها، ولكن الصوت تلاشى وسط الردهة الضخمة التي تمثل منطقة البيع الأساسية لمتجر لافام مارشيه La Femme Marché's.

- آنسة، إنني هنا! هل يمكنك مساعدتي؟

كنت سألاحظ وجوده، حتى لو لم يرفع صوته. كان طويل القامة ممتلئ البنية ذا شعر مموج تلتف بعض خصلاته حول أذنيه على خلاف موضة الشعر القصير التي يتبعها معظم الرجال المهذبين الذين يأتون إلينا. كانت ملامحه غليظة، ولكنها سمحة من النوع الذي يعدها أبي ملامح مزارعين. بدا الرجل على ما أعتقد وكأنه خليط يشبه الإمبراطور الروماني والدب الروسي[1].

حينما خطوت نحوه أشار باتجاه الأوشحة، ولكن ظلت عيناه مثبتتين عليَّ بل إنهما استقرتا لفترة طويلة لدرجة أنني نظرت خلفي خشية أن تلاحظ مشرفة البيع السيدة بورداين.

قال: «أحتاج مساعدتك في اختيار وشاح».

---

(1) هو رمز عالمي للدب البني الأوراسي، استخدم للدلالة على روسيا في الرسوم المتحركة والكاريكاتيرات والمقالات والقصص والمسرحيات منذ القرن السادس عشر.

- ما نوع الوشاح الذي تريده سيدي؟
- وشاح لسيدة.
- هل لي أن أعرف لون بشرتها؟ أو هل تفضل نوعًا معينًا من القماش؟

كان لا يزال يتطلع إلي، وكانت السيدة بوردابن مشغولة بتلبية طلبات سيدة تعتمر قبعة من ريش الطاووس، وإذا حدث ورفعت بصرها لأعلى من موقعها عند كريمات الوجه للاحظت على الفور احمرار أذنيَّ.

قال: «ما يناسبك». وأضاف: «فهي نفس لون بشرتك».

فرزت جميع الأوشحة الحريرية بعناية وزادت حرارة وجهي، وانتقيت واحدًا من الأوشحة المفضلة لدي؛ قطعة من القماش الفاخر خفيف الوزن كالريشة بلون أزرق داكن براق وقلت له: «هذا اللون يناسب معظم الأشخاص تقريبًا».

سألني قائلًا وهو يشير إلى عظمة الترقوة: «نعم... نعم ارفعيه لأعلى وضعيه بجانب عنقك».

نظرت باتجاه مدام بوردابن فقد كانت هناك توجيهات صارمة بشأن مدى رفع الكلفة مع العملاء عند تبادل الأحاديث القصيرة، ولست أدري إن كان وضع وشاح بجانب عنقي المكشوف يقع ضمن هذه التوجيهات. ولكن الرجل كان ينتظر. وترددت قليلًا ثم رفعت الوشاح ووضعته على مقربة من وجنتي. تفرسني طويلًا حتى بدا لي أن الطابق الأرضي سيختفي.

صاح قائلًا وهو يمد يده في جيبه ليخرج محفظته: «هذا هو ما أريده. جميل، لقد جعلت عملية الشراء يسيرة».

ابتسم ووجدت نفسي أبادله الابتسام، ربما كان بسبب ارتياحي لأنه توقف عن التحديق إلي.

قلت وأنا ألف الوشاح في ورق حريري: «لست واثقة بأنني...». ثم أطرقت برأسي حينما اقتربت مشرفتي وراقبتها وهي تحاول التوفيق بين هيئة هذا الرجل الرثة بعض الشيء وإجادة لغة لا تظهر إلا مع الثراء الفاحش.

- ينبغي أن تحصل على ترقية فلديها حس عالٍ.

قالت في عذوبة: «نحن نسعى دومًا سيدي للتأكد من أن المساعدين يحققون رضا العميل، لكننا نأمل أن جودة منتجاتنا تجعل كل عملية شراء مرضية. اثنان وأربعون فرانكًا».

أعطيته العلبة ثم راقبته وهو يتجول ببطء عبر الطوابق المكتظة في أكبر متجر بباريس. أخذ يستنشق زجاجات العطر، ويتفحص القبعات ذات الألوان البراقة معطيًا بعض التعليقات لمن يقدمون خدمات البيع أو أنه كان يمر فقط أمام المعروضات. شردت بفكري وأنا أقول لنفسي: ترى كيف سيكون الحال إذا ما تزوجت رجلًا كهذا؟ شخص تنطوي كل دقيقة معه على متعة حسية. ولكني عدت أذكر نفسي بأنه رجل يتمتع بحرية التحديق إلى البائعات حتى تحمر وجنتهن خجلًا. حينما بلغ الأبواب الزجاجية الضخمة استدار ونظر مباشرة نحوي، ثم رفع قبعته لنحو ثلاث ثوان كاملة ثم اختفى وسط نهار باريس.

قدمت إلى باريس في صيف عام 1910 بعد مرور عام على وفاة أمي وشهر من زواج أختي بجين ميشيل مونبلييه محاسب من القرية المجاورة، وحصلت على وظيفة بمتجر لافام مارشيه أكبر متجر في باريس وشققت طريقي من مساعدة أمين مخزن إلى مساعد بائع وأقيم في نزل المتجر الضخم.

كنت سعيدة في باريس بمجرد أن تعافيت من مشاعر الوحدة التي شعرت بها في البداية وجنيت بعض النقود التي جعلتني أنتعل حذاء بدلًا من تلك النعال التي تميزني كقروية. أحببت العمل هناك حيث كنت أُوجد في المتجر في الثامنة وتسع وأربعين دقيقة حينما تفتح أبوابه وتدخل السيدات الباريسيات الأنيقات بقبعات عالية وخصر شديد النحافة، يحيط بوجوههن الفراء أو الريش. عشقت فكرة التحرر من طبع أبي الذي ألقى بظلاله عليَّ طيلة فترة طفولتي. لم أعد أخشى السكارى أو الفاسدين في الدائرة التاسعة بباريس[1]. أحببت المتجر؛ فهو يمثل وفرة هائلة من الأشياء الجميلة. روائحه وواجهاته باعثة على النشوة، مخزونه المتغير الذي يجلب أجمل الأشياء وأحدثها من أركان العالم الأربعة: الأحذية الإيطالية، والأصواف الإنجليزية،

---

(1) الدائرة التاسعة من باريس، والمعروفة أيضًا باسم دائرة أوبرا، هي واحدة من 20 دائرة في العاصمة الفرنسية. تحتوي على العديد من الأماكن ذات الأهمية الثقافية والتاريخية والمعمارية. تشتهر بشوارعها الكبيرة التي تصطف على جانبيها القصور الخاصة وهناك أيضًا البنوك والمتاجر الأنيقة، والممرات الخفية التي تضم أروقة التسوق الساحرة ومتاجرها الباريسية الحصرية.

والكاشمير الإسكتلندي، والحرائر الصينية، وأحدث الصيحات من أمريكا ولندن. وبالطوابق السفلى تقدم قاعات الطعام الشوكولاتة من سويسرا، والسمك المدخن اللامع، والجبن الكريمي ذا النكهة القوية. إن قضاء يوم داخل جدران لافام مارشيه المزدحمة يعني أن تحظى يوميًّا بنظرات خاطفة إلى عالم شاسع أكثر إثارة.

لم تكن لديَّ أي رغبة في الزواج (فلم أرغب في أن تنتهي حياتي كأمي)، وفكرة أن أظل كما أنا دون زواج –مثل السيدة أرتويل الخياطة، أو مشرفتي السيدة بورداين– كانت تلائمني تمامًا.

بعد يومين سمعت صوته مرة أخرى وهو يقول: «أيتها البائعة- آنستي».

كنت ألبي طلب سيدة بزوجين من قفازات الأطفال الفاخرة. أومأت له برأسي واستأنفت لف مشترياتها بعناية.

لكنه لم ينتظر وقال معلنًا: «إنني بحاجة ملحة إلى وشاح آخر». أخذت السيدة القفازات من يدي وتأففت بصوت مسموع، ولو كان سمعها ما أبدى ذلك.

- أعتقد شيئًا أحمر اللون، شيء زاهٍ ناري. ماذا لديك؟

شعرت ببعض الضيق. فالسيدة بورداين تؤكد لي دومًا أن هذا المتجر هو قطعة صغيرة من الجنة؛ فينبغي أن يغادر العميل وهو يشعر أنه عثر على ملاذ مريح من الشوارع المزدحمة (حتى وإن كان هذا الملاذ يسلبهم نقودهم بكياسة). كنت أخشى أن تشتكي الزبونة، فقد ابتعدت وذقنها مرفوع.

قال بينما شرعت في فرز الأوشحة من داخل واجهة العرض: «لا، لا ليست تلك الأوشحة».

ثم أشار إلى أسفل من خلال الغطاء الزجاجي إلى حيث تستقر الأوشحة باهظة الثمن وقال: «هذا الوشاح».

أخرجت الوشاح، كان لونه أحمر قانيًا بلون الدم وكان يلمع بجانب يدي الشاحبة مثل جرح حديث.

ابتسم لما رآه وقال: «بجانب عنقك يا آنسة، ارفعي رأسك قليلًا. نعم هكذا».

شعرت بالثقة بالنفس وأنا أحمل الوشاح هذه المرة وكنت أدري أن مشرفتي تراقبني.

غمغم قائلًا وهو يمد يده في جيبه لكي يخرج النقود بينما أزحت أنا الوشاح سريعًا وشرعت في لفه في القماش: «لديك بشرة جميلة».

قلت وقد احمرت بشرتي حيث استقرت نظراته: «أنا واثقة من أن زوجتك ستسعد بالهدية».

نظر إليَّ حينها وقد تجعد الجلد حول عينيه وهو يقول: «من أين أصول عائلتك، من أين لك بتلك البشرة؟ هل أنت من الشمال؟ من مدينة ليل؟ أم من بلجيكا؟».

تظاهرت بأني لم أسمعه لأنه من غير المسموح لنا أن نناقش الأمور الشخصية مع العملاء وبخاصة الذكور منهم.

- أتعرفين ما وجبتي المفضلة؟ بلح البحر الممزوج بكريمة النورماندي[1]، وبعض البصل ومشروب الباستيس[2] ممم لذيذ.

ثم ضغط على شفتيه بأصابعه وحمل العلبة التي سلمتها إليه.

- أراك لاحقًا آنسة.

لم أجرؤ هذه المرة أن أراقب خطواته عبر المتجر، ولكن من الحرارة التي شعرت بها في مؤخرة عنقي أدركت أنه توقف ثانية لينظر إلي. شعرت بالغضب للحظات، ففي سان بيرون مثل هذا التصرف مستحيل. في بعض الأيام في باريس شعرت وكأنني أسير في الشوارع بثيابي الداخلية لعلمي كيف يشعر الرجال الباريسيون بحرية التحديق إلى الفتيات.

كان هناك بعض الهرج في المتجر قبل أسبوعين من يوم الباستيل[3]، فقد دخلت المغنية ميستانجيت إلى الطابق الأرضي. وقفت هناك بابتسامتها الباهرة وقبعتها التي تزينها الورود يحيطها مجموعة من التابعين والمساعدين كما لو أنها صورت ببراعة أكثر من أي شخص آخر. ابتاعت أشياء دون أن تتفحصها وكانت تشير بمرح إلى واجهات العرض وتدع مساعديها يجمعون الأصناف في أعقابها.

---

(1) مقاطعة نورماندي التي تقع شمال فرنسا، وجبة تشتهر بها.

(2) مشروب روحي وهو شبيه للعرق بشكل كبير وحتى يطلق عليه أحيانًا تسمية العرق الفرنسي وهو مقطر اليانسون.

(3) العيد الوطني الفرنسي.

نظرنا إليها من بين صفوف المتفرجين كما لو أنها طائر غريب ونحن مجموعة من حمام باريس الرمادي. بعت لها وشاحين؛ واحد من الحرير الكريمي والآخر نوع فاخر من الريش المصبوغ باللون الأزرق. استطعت أن أراه وهو يحيط بعنقها وشعرت بأنها نثرت عليَّ القليل من سحرها.

شعرت بعدم الاتزان في الأيام التالية كما لو أن جمالها الزائد وأناقتها جعلاني أدرك افتقاري إليهما.

في أثناء ذلك جاء السيد ثلاث مرات إضافية، وفي كل مرة كان يشتري وشاحًا ويتأكد من أنني أنا من سألبي طلبه.

قالت بوليت (من قسم العطور): «لديك معجب».

شهقت لولو (من قسم الحقائب والمحافظ) وهي تقول: «السيد ليفيفر؟ اتخذي حذرك، فقد رأته مارسيل من مكتب البريد في محطة مترو بيكال يتحدث إلى فتيات الشوارع، إنه حديث الشيطان».

ثم استدارت نحو النضد الخاص بها.

- آنسة؟

انتفضت والتفت للوراء.

مال إلى منضدة البيع وقال ويده الضخمة تغطي الزجاج: «لم أقصد أن أخيفك».

- أنا بعيدة كل البعد عن كوني خائفة سيدي.

تفرست عيناه البنيتان وجهي بتمعن، وبدا وكأن هناك حوارًا يدور بداخله ولم يكن بمقدوري الاطلاع عليه.

- هل تود أن ترى المزيد من الأوشحة؟

- لا، ليس اليوم. أود أن أسألك عن شيء.

تحركت يدي نحو ياقة قميصي.

- أود أن أرسمك.

- ماذا؟

- اسمي إدوارد ليفيفر، رسام، أرغب بشدة في أن أرسمك، فهلا سمحت لي بساعة أو ساعتين من وقتك؟

ظننت أنه يسخر مني، ونظرت إلى حيث تقدم لولو وبوليت خدمات البيع وأنا أتساءل إن كانتا تنصتان إلى ما يدور.

- لماذا... لماذا تريد أن ترسمني؟

لأول مرة أراه يشعر ببعض الخجل وهو يقول: «هل تريدينني أن أجيب عن هذا السؤال حقًا؟».

أدركت أنني بدوت كما لو أنني أرغب في سماع بعض الإطراء.

- آنستي ليس هناك شيء غير اعتيادي فيما أطلبه، بإمكانك أن تحضري مرافقة معك إذا رغبت. جل ما أريده... أعني أن وجهك يسحرني. فهو يظل عالقًا في ذاكرتي حتى بعد أن أغادر لافام مارشيه.

جاهدت كي أكبح رغبتي في لمس ذقني. وجهي أنا؟ ساحر؟

- هل ستكون زوجتك موجودة؟

قال وهو يمد يده في جيبه ويكتب شيئًا على قصاصة من الورق: «ليس لديَّ زوجة، ولكن لديَّ المزيد من الأوشحة».

مد يده إليَّ بالورقة ورأيتني أتلفت يمينًا ويسارًا كالمجرمين قبل أن أتلقفها منه.

لم أخطر أحدًا، بل لم أكن واثقة بما أجبت. ارتديت أفضل ثياب عندي ثم خلعته مرة أخرى. وفعلت ذلك مرتين. أمضيت وقتًا غير معتاد في تثبيت شعري، وجلست بجانب باب غرفتي لنحو عشرين دقيقة وأخذت أردد كل الأسباب التي لا تمنعني من الذهاب.

رفعت مديرة الفندق حاجبها حينما غادرت أخيرًا، كنت قد خلعت حذائي وأعدت انتعال نعلي مرة أخرى لأبدد شكوكها. وأخذت أحدث نفسي بينما كنت أسير في طريقي.

إذا علم مشرفوك أنك عملت كعارضة لرسام فحتمًا سيشككون في أخلاقك ومن الممكن أن تفقدي وظيفتك.

يريد أن يرسمني! أنا! صوفي! من سان بيرون النقيض لجمال هيلين.

ربما رأى في مظهري ما يدل على أني رخيصة مما جعله يثق بأني لن أرفض، فهو يرافق فتيات من بيكال.

ولكن ماذا أفعل في حياتي بخلاف العمل والنوم؟ هل سيكون الأمر بهذا السوء إذا ما سمحت لنفسي بخوض تلك التجربة؟

كان العنوان الذي أعطاني إياه يبعد شارعين عن النزل. سرت عبر الممر الضيق المرصوف بالحجارة ووقفت أمام عتبة الباب وتأكدت من الرقم وقرعت الباب. لم يجب أحد. سمعت صوت موسيقى يأتي من أعلى. كان الباب مفتوحًا قليلًا فدفعته ودخلت وصعدت ببطء عبر الدرج الضيق حتى وجدت نفسي أمام باب آخر وسمعت من ورائه صوت فونوجراف يصدر منه صوت امرأة تتغنى بكلمات الحب واليأس ورجل يبادلها الغناء. كان هذا الصوت الجهوري العميق صوته بلا شك. وقفت أنصت لدقيقة وابتسمت رغمًا عني وفتحت الباب.

رأيت حجرة شاسعة يغمرها الضوء. كان أحد جدرانها من الطوب الخالص والآخر يكاد يكون بالكامل من الزجاج، ونوافذها تمتد جنبًا إلى جنب بطول الحائط. أول شيء لفت انتباهي هو تلك الفوضى الغريبة فاللوحات مكدسة أمام كل حائط؛ والأوعية الملأى بفرش التلوين الجافة على كل سطح تحاول جاهدة أن تجد لها مكانًا وسط صناديق الفحم وحوامل اللوحات الملطخة بقطرات متجمدة من الألوان البراقة. رأيت أيضًا أقمشة الكانفاس، وأقلام رصاص، وسلمًا، وصحونًا بها بقايا طعام، وتتصاعد من كل مكان بالحجرة الروائح النفاذة لزيت التربنتين الممزوج بطلاء الزيت، وأبخرة التبغ المنتشرة وآثار روائح النبيذ اللاذع المعتق. كانت هناك كومة كبيرة من النقود موضوعة على مقعد خشبي، فالعملات والأوراق المالية مكدسة فوقه في فوضى. وفي منتصف كل هذا راح السيد ليفيفر يذرع الغرفة جيئة وذهابًا ممسكًا بإناء الفرش غارقًا في أفكاره يرتدي سروالًا فضفاضًا كالذي يرتديه الريفيون، كما لو أنه يبعد آلاف الأميال عن مركز باريس.

- سيدي؟

طرف بعينه مرتين كما لو كان يسترجع من أنا، ثم وضع إناء الفرش ببطء على منضدة بجانبه.

- أنت!

- نعم أنا.

هز رأسه كما لو كان لا يزال يواجه مشكلة في إدراك وجودي وقال: «رائع، تفضلي بالدخول، دعيني أجد لك مكانًا لتجلسي فيه».

بدا أضخم، فقد كان جسده واضحًا من خلال القماش الفاخر لقميصه. وقفت وأنا أتشبث بحقيبتي في ارتباك حينما شرع في إزاحة أكوام من ورق الصحف من فوق أريكة حتى أصبح هناك مساحة للجلوس.

- تفضلي بالجلوس، أترغبين في تناول مشروب؟
- بعض من الماء فقط، أشكرك.

لم أشعر بعدم الراحة وأنا في طريقي إلى هناك رغم خطورة موقفي، فلم أعبأ بقذارة المكان ولا الاستوديو الغريب، ولكني الآن شعرت بالمهانة وأني حمقاء بعض الشيء وهذا ما جعلني متوترة وغريبة.

- لم تتوقع مجيئي سيدي.
- سامحيني، فلم أكن أعتقد أنك ستأتين، لكني سعيد أنك فعلت، سعيد جدًّا.

ثم خطا إلى الوراء ونظر إلي.

استطعت أن أشعر بعينيه وهما تتجولان فوق تقاسيم وجهي، وعنقي، وشعري. جلست أمامه جامدة كياقة قميص.

انبعثت منه رائحة كريهة بعض الشيء، لم تكن مزعجة، ولكنها كانت نفاذة في مثل هذه الظروف.

- أواثقة من أنك لا ترغبين في تناول كأس من النبيذ؟ شيء يساعدك على الاسترخاء قليلًا.
- لا، أشكرك، إنني أريد فقط أن أبدأ، فلا أستطيع أن أمضي سوى ساعة واحدة؟

من أين أتيت بهذه القناعة. أعتقد أن جزءًا مني يريد أن يغادر للتو.

حاول أن يعدل من وضعي، وأن أضع حقيبتي جانبًا وجعلني أميل قليلًا نحو ذراع الأريكة. لكني لم أستطع. شعرت ببعض الإهانة دون أن أدري لِمَ.

وبينما كان السيد ليفيفر عاكفًا على العمل وينظر من وإلى حامل اللوحة ويتحدث بالكاد انتبهت شيئًا فشيئًا إلى أني لا أشعر بأني أحظى بالإعجاب أو الأهمية -حيث كنت أظن في قرارة نفسي أنني أستحق هذا- وبدا كما لو

أنه يرى ما يعتمل بداخلي بوضوح. فأصبحت وكأنني شيء موضوع لا يزداد أهمية عن الزجاجة الخضراء، أو ثمار التفاح في لوحات الطبيعة الصامتة بجانب الباب.

كان من الواضح أن الأمر لا يروق له أيضًا، ومع مرور الساعة ازداد استياؤه، وصدرت من فمه أصوات خافتة تنم عن إحباطه. جلست ساكنة كالتمثال أخشى أن أفعل شيئًا خطأ، لكنه قال أخيرًا: «آنستي دعينا ننهي هذا، لست واثقًا من وجود وحي الرسم معي اليوم».

اعتدلت في جلستي لأشعر بالراحة ورُحت أحرك رقبتي يمينًا ويسارًا وقلت له: «هل يمكن أن ألقي نظرة؟».

كانت الفتاة التي في اللوحة تشبهني حقًّا، ولكني شعرت بانقباض. فالفتاة بدت بلا روح وكأنها عروس من البورسلين، وتحمل تعبيرات تنم عن التجلد الشديد والتزمت المفرط لعمة عذراء. حاولت ألا أظهر مدى شعوري بالقهر.

- أظن أنني لست العارضة التي تمنيتها.

هز كتفيه قائلًا: «لا، لست أنت السبب، إنني... إنني بداخلي أشعر بالإحباط».

- أستطيع أن آتي ثانية يوم الأحد.

لا أعرف لم قلت هذا. فلم يبد الأمر وكأنني استمتعت بتلك التجربة.

منحني ابتسامة، كانت عيناه تفيضان رقة.

- هذا... كرم شديد منك... أثق بأنني أستطيع أن أنصفك في مناسبة أخرى.

لكن يوم الأحد لم يكن أفضل حالًا. لقد حاولت. حاولت بالفعل. تمددت على الأريكة واتكأت بذراعي فوق المسند وملت بجسمي جانبًا -مثل أفروديت المستلقية التي أراني إياها في أحد الكتب- وكومت تنورتي في شكل ثنايا فوق ساقي. حاولت أن أسترخي لتلين تعبيرات وجهي، ولكن في هذا الوضع آلمني المشد في خصري، وأفلتت خصلة من خصلات شعري من مشبكها فانتابتني رغبة عارمة لأمد يدي وأعيدها إلى مكانها. كانتا ساعتين طويلتين وشاقتين.

وقبل أن أرى اللوحة أيقنت من وجه السيد ليفيفر أنه يشعر بالإحباط.

قلت وأنا أحدق إلى تلك الفتاة ذات الوجه العابس التي كانت أقل جمالًا من ربة منزل متجهمة وهي تتحقق من وجود الغبار على أسطح الأثاث الفاخر: «أهذه أنا؟».

أعتقد أنه في هذه المرة شعر بالأسف نحوي، وظننت أنني أقل العارضات جمالًا.

قال في إصرار: «لست أنت السبب آنستي... أحيانًا يحتاج الوصول إلى جوهر الإنسان الحقيقي بعض الوقت».

ولكن كان هذا الأمر هو أكثر ما أزعجني، فأخشى أن يكون قد توصل إلى ذلك بالفعل.

كان يوم الباستيل هو اليوم الذي رأيته فيه ثانية. كنت أشق طريقي خلال شوارع الحي اللاتيني المزدحمة، وأمر أسفل الأعلام الضخمة بألوان الأحمر، والأبيض، والأزرق، وأكاليل الزهور العطرة المتدلية من النوافذ، أتمايل في سيري بين الحشود التي وقفت تشاهد موكب الجنود الذين يسيرون أمامهم رافعين بنادقهم فوق أكتافهم.

كانت باريس كلها تحتفل، وأنا في العادة أكون مكتفية بذاتي، ولكن في هذا اليوم شعرت بالضجر وبوحدة غريبة. حينما وصلت إلى الفندق توقفت؛ فأمامي كان شارع سوفلوت الذي أصبح عبارة عن كتلة دائرية من الأجساد المتلاحمة، وأضحت شوارعه الصخرية الممتدة مكتظة بالأشخاص الذين يرقصون -السيدات بتنوراتهن الطويلة وقبعاتهن العريضة- والفرقة الموسيقية تعزف خارج مقهى ليون. كانوا يتحركون برشاقة في دوائر ويقفون عند حافة الطوار ينظرون إلى بعضهم بعضًا ويتجاذبون أطراف الحديث كما لو أن الشارع أصبح قاعة رقص.

ثم وجدته هو يجلس وسط كل هذا، يحيط عنقه بوشاح ذي ألوان براقة. وكانت ميستانجيت -ومساعدوها يحومون حولها- تسند يدها إلى كتفه وهي تقول له شيئًا جعله ينفجر بالضحك.

نظرت إليهما بدهشة، ثم رأيته ينظر حوله -ربما مدفوعًا بحدة نظرتي- ورآني. هرولت سريعًا نحو أحد الممرات ثم انطلقت في الاتجاه المعاكس وقد

احمرت وجنتاي. اندفعت بين الراقصين، وأنا أسمع وقع حذائي على الأرض الحجرية. ولكن خلال ثوان دوى صوته خلفي قائلًا: «آنسة».

لم أستطع أن أتجاهله، فالتفت. نظر إليَّ لحظة كما لو أنه كان على وشك أن يعانقني، ولكن لا بد وأن شيئًا في سلوكي منعه من هذا، وبدلًا من ذلك لمس ذراعي ووجهني لأسير نحو مجموعة من الأشخاص وقال: «شيء رائع أن ألتقي بك».

شرعت في اختلاق الأعذار بكلمات متلعثمة، ولكنه ساعدني قائلًا: «لا عليك آنسة إنها إجازة عامة، فحتى أكثر الأشخاص اجتهادًا عليهم الاستمتاع بين الحين والآخر».

رفرفت الأعلام حولنا في نسيم ما بعد الظهيرة. كدت أسمع صوت خفقانها الذي يشبه خفقان قلبي غير المنتظم. حاولت أن أفكر في أسلوب مهذب كي أفلت منه، ولكنه قاطعني قائلًا مرة أخرى: «أعلم آنستي وهو شيء يدعو للخجل أنه على الرغم من معرفتنا فإني ما زلت لا أعرف اسمك».

قلت: «بيسيت، صوفي بيسيت».

- إذًا اسمحي لي أن أدعوك لمشروب آنسة بيسيت.

هززت رأسي بالموافقة، وشعرت بالضيق لأنه بمجرد قدومي إلى المكان فإنني أخبرته الكثير عن نفسي. نظرت خلفه إلى حيث لا تزال ميستانجيت تقف وسط أصدقائها.

مد ذراعه قائلًا: «ألا نطلب شيئًا؟».

في تلك اللحظة نظرت إليَّ ميستانجيت مباشرة.

اكتست تعبيرات وجهها -إن كنت محقة- ببعض لمحات من الضيق حينما مد ذراعه. هذا الرجل إدوارد ليفيفر لديه القدرة على جعل واحدة من ألمع نجوم باريس تشعر بأنها باهتة وغير مرئية وأنه قد فضلني عليها.

رفعت بصري إليه وقلت: «إذًا بعض الماء فقط، أشكرك».

عدنا للطاولة.

- عزيزتي ميستي، هذه صوفي بيسيت.

احتفظت بابتسامتها، ولكن كانت نظرتها جامدة وهي تمررها فوقي، وتساءلت إن كانت تتذكر أني كنت أنا من يساعدها في المتجر.

قال أحد أصدقائها من الرجال من خلفها: «نعال... يا له من شيء غريب».

شعرت بوخز في جسمي وأنا أسمع همساتهم الضاحكة فأخذت نفسًا وأجبت بهدوء: «ستمتلئ المتاجر بها في موسم الربيع، فإنها أحدث صيحات الموضة، موضة الريفيين».

شعرت بأطراف أصابع إدوارد تمس ظهري.

- أعتقد أن الآنسة بيسيت ترتدي ما يحلو لها ما دامت تتمتع بأجمل ساقين في باريس.

غرق أفراد المجموعة في صمت قصير حينما أدركوا مغزى كلمات إدوارد. أبعدت ميستانجيت عينيها عني وقالت بابتسامتها الخلابة: «سررت بمقابلتك، إدوارد عزيزي يجب أن أذهب فأنا مشغولة للغاية، اتصل بي على الفور، اتفقنا؟».

مدت يدها التي ترتدي بها قفازًا ليقبلها، واضطررت إلى إبعاد عيني عن شفتيه، ثم ذهبت مبتعدة بين الحشود كموجة تودع المياه.

جلست أنا وإدوارد، فمد مقعده كما لو أنه يتطلع إلى أحد الشواطئ بينما ما زلت أنا متصلبة من شدة الارتباك. مد يده بالمشروب دون أن يتفوه بكلمة وتعبيرات وجهه تحمل بعض الاعتذار الممزوج بضحكة مكتومة ولسان حاله يقول: هل أنت متأكدة؟ كانوا على قدر كبير من السخافة مما جعلني لا أشعر بالإهانة.

بدأت أشعر بالارتياح وأنا محاطة بالأشخاص الذين يرقصون في ابتهاج، والضحكات التي تعلو والسماء الزرقاء. وتحدث إليَّ إدوارد بلطف شديد وسألني عن حياتي قبل مجيئي إلى باريس، والسياسة داخل المتجر، وكان يتوقف عن الحديث بين الحين والآخر ليضع سيجارته في جانب فمه ويصيح قائلًا: «رائع» إلى الفرقة الموسيقية ويصفق بيده الضخمة عاليًا في الهواء. كان يعرف كل شخص تقريبًا لدرجة أنني فقدت تتبع عدد الأشخاص الذين يتوقفون ليلقوا عليه السلام، أو لدعوته لمشروب له؛ سواء فنانين، أو أصحاب متاجر، أو بعض السيدات المضاربات. شعرت وكأنني وسط مجموعة من الأمراء، فيما عدا أني كنت أرى نظراتهم تتجه نحوي متسائلين عما يمكن أن يفعله رجل بمقدوره مرافقة ميستانجيت مع فتاة مثلي.

تملكني الفضول ولم أستطع منع نفسي من أن أسأله: «تقول الفتيات في المتجر أنك تتحدث إلى العاهرات في شارع بيكال؟».

- نعم، والكثيرات منهن يمثلن صحبة رائعة.

- هل ترسمهن؟

أشار إلى رجل رفع قبعته نحونا وقال: «حينما أستطيع أن أدفع مقابل الوقت الذي يمضينه، فهن عارضات ممتازات، وبوجه عام لا يخجلن من أجسادهن».

- على العكس مني.

رأى وجهي يحمر خجلًا، وبعد تردد وضع يده فوق يدي كما لو كان يعتذر وقال في رقة: «آنسة، تلك الصور تمثل إخفاقي أنا لا إخفاقك أنت... لدي...». ثم غير دفة الحديث وقال: «أنت لديك سمات أخرى، فأنت تأسرينني، ولا تخشين الكثير».

وافقته قائلة: «أعتقد أني كذلك».

تناولنا خبزًا، وجبنًا وزيتونًا، كان أفضل زيتون تناولته، وتناول هو أيضًا مشروب الباستيس الكحولي وكان يتجرع كل كأس باستمتاع واضح. زحف وقت ما بعد الظهيرة، وتعالت الضحكات، وزاد تقديم المشروبات، وسمحت لنفسي بتناول كأسين من النبيذ وبدأت بالاستمتاع بذاتي. هنا وفي هذا الشارع، وفي هذا اليوم ذي الطقس العليل لم أعد تلك الريفية الغريبة، فتاة المتجر التي توضع في المنزلة الأدنى من التقدير والاحترام، بل تحظى بهما. لكني أصبحت شخصًا آخر محبًّا للاحتفالات أستمتع بيوم الباستيل.

دفع إدوارد الطاولة إلى الخلف ثم وقف أمامي وقال: «هل نرقص؟».

لم أستطع أن أفكر في سبب للرفض، فأمسكت بيده وتمايل بي في خضم الأجسام الراقصة. لم أرقص منذ غادرت سان بيرون. شعرت الآن بالنسيم يطوف حول أذني، وبثقل يده أسفل ظهري، وبخفة النعال على غير العادة في قدمي. كانت تفوح منه رائحة التبغ، واليانسون، وشيء ذكوري أصابني ببعض ضيق النفس.

لا أدري ما هو، لم أشرب كثيرًا، لذا لا أستطيع أن ألوم النبيذ. ليس الأمر أنه شديد الوسامة أو أن حياتي ينقصها عدم وجود رجل.

قلت: «ارسمني ثانية».

توقف ونظر إليَّ في حيرة. لا أستطيع أن ألومه؛ فأنا ذاتي أشعر بالحيرة.

- ارسمني ثانية اليوم. الآن.

لم يتفوه بشيء، بل عاد للطاولة، أخذ التبغ وشققنا طريقنا وسط الحشود وعبرنا الشوارع المكتظة حتى بلغنا الاستوديو الخاص به.

صعدنا الدرج الخشبي الضيق، وفتح الباب ودلفنا إلى الاستوديو المضاء. انتظرته حتى ألقى بمعطفه ووضع أسطوانة في الفونوجراف وشرع في مزج الألوان على اللوحة. وهو يدندن، بدأت أنا في حل أزرار قميصي، ونزعت الحذاء والجوارب، وخلعت تنورتي حتى أصبحت لا أرتدي إلا القميص الداخلي والتنورة القصيرة التحتية وجلست عارية حتى طرف المشد، وأزلت دبابيس شعري فانسدل على كتفي. وحينما استدار ورآني هكذا صدرت عنه شهقة.

طرف بعينه.

قلت: «تريدني على هذا النحو؟».

بدا التوتر على قسمات وجهه، ربما خشِي أن تخونني فرشاة ألوانه مرة أخرى. ثبت نظراتي ورفعت رأسي لأعلى. ونظرت إليه كما لو كان الأمر ينطوي على بعض التحدي. ثم سيطرت عليه النزعة الفنية وغرق في تأملاته لبياض بشرتي الذي لم يتوقعه وشعري الأحمر المفرود ونسِي كل مظاهر التمسك بالاستقامة.

- نعم، نعم حركي رأسك لليسار بعض الشيء من فضلك. ويدك ضعيها هناك، افتحي كفيك قليلًا. رائع.

راقبته بينما كان يرسم. تفحص كل ثنية في جسمي بتركيز شديد كما لو أنه من غير المقبول أن يخطئ في فهم أبعاده ثانية، وشاهدته وعلامات الرضى ترتسم على وجهه وشعرت أنه يعكس وجهي أنا. لا توجد أي حواجز الآن كما لو أنني ميستانجيت أو فتاة شارع من فتيات بيكال لا تخشى شيئًا ولا تخجل من جسدها. كنت أريده أن يتفحص جسدي، ثنايا عنقي، الجانب السفلي الخفي الذي يلمع من شعري. كنت أريده أن يرى كل قطعة مني.

وبينما كان يرسم، كنت ألاحظ ملامحه، والطريقة التي يهمهم بها لنفسه وهو يخلط الألوان في لوحة الرسم. رأيته وهو يمشي متثاقلًا كما لو كان أكبر

من عمره الحقيقي. ولكن كان هذا محض تصنع فهو أصغر وأكثر قوة من معظم الرجال الذين يأتون إلى المتجر. تذكرت كيف يأكل؛ بمتعة واضحة شرهة. كان يغني مع الأصوات المنبعثة من الفونوجراف، ويرسم حين يحلو له، ويتحدث لمن يريد ويقول ما يدور في ذهنه. إنني أريد أن أعيش مثل إدوارد في بهجة وأستمتع بأهم ما في كل لحظة وأغني حينما يحلو الغناء.

هبط الظلام، وتوقف لينظف فرش الألوان وتلفت حوله كما لو أنه لاحظ ذلك لتوه. أشعل الشموع ومصباح الغاز ووضعها حولي ثم تنهد حينما أدرك أن الظلمة قد هزمته.

قال: «هل تشعرين بالبرد؟».

هززت رأسي بالنفي، ولكنه اتجه نحو خزانة الملابس وجذب منها شالًا أحمر صوفًا زاهيًا ووضعه بحرص حول كتفي.

- لقد غاب ضوء النهار، هل تريدين أن تلقي نظرة؟

جذبت الشال حولي واتجهت نحو لوحة الرسم وقدماي عاريتان على الألواح الخشبية. شعرت وكأنني في حلم، كما لو أن حياتي الحقيقية قد تبخرت في تلك الساعات التي أمضيتها جالسة هناك. كنت أخشى أن أنظر وأبطل السحر.

أشار إليَّ كي أتقدم إلى الأمام قائلًا: «تعالي».

رأيت في اللوحة فتاة لم أعرفها، كانت تنظر إليَّ بتحدٍّ، شعرها النحاسي يلمع في الضوء الخافت، بشرتها فاتحة كالمرمر، فتاة تتحلى بثقة الطبقة الأرستقراطية الممزوجة بالغطرسة.

كانت غريبة تشع فخرًا وجمالًا. شعرت وكأنني أنظر في مرآة سحرية.

قال بصوت ناعم: «أعرف، أعرف أنك كنت قابعة هناك».

بدت عيناه متعبتين ومجهدتين الآن، ولكنه كان راضيًا. حدقت إليها لفترة أطول، ثم -ولا أدري لمَ- خطوت نحوه ورفعت يدي ببطء وأحطت وجهه بكفي فنظر إليَّ ثانية. قربت وجهي من وجهه وجعلته يطيل النظر إليَّ كما لو أنني استحوذت على كل ما يراه.

لم أرغب في أي علاقة حميمة مع رجل، فالأصوات الحيوانية والصرخات التي كانت تنبعث من غرفة والدي -حينما يكون والدي ثملًا في العادة- كانت

تفزعني، وكنت أشفق على أمي من الكدمات التي تعلو وجهها وصعوبة مشيها في اليوم التالي. لكن ما شعرته حيال إدوارد استحوذ على كياني ولم أستطع أن أزيح عيني من فوق شفتيه.

- صوفي.

بالكاد سمعته. قربت وجهه من وجهي أكثر، تبخر العالم من حولنا. شعرت بملمس شعيرات ذقنه النامية فوق راحتَيْ يدي، ودفء أنفاسه على بشرتي، وعيناه تتأملان عيني بشدة. أقسم حينها إنه لم يكن يرى سواي.

انحنيت للأمام -سنتيمترات قليلة- وهدأت أنفاسي وأطبقت بشفتي على شفتيه. تسللت يداه إلى خصري وأحكمهما عليه بشدة، والتقى فمي بفمه، واستنشقت أنفاسه الممزوجة ببقايا التبغ والنبيذ واستشعرت مذاقه الدافئ الندي. يا إلهي أريد أن يلتهمني. أغلقت عيني، اشتعلت الرغبة في جسدي وأصابته ارتعاشة، راحت يده تداعب شعري وهوى بفمه ليلثم عنقي.

دوت ضحكات المحتفلين في الشوارع وبينما كانت الأعلام ترفرف في نسيم الليل، شيء ما بداخلي تغير للأبد.

غمغم وهو يدفن رأسه في جسدي: «أوه، صوفي بإمكاني أن أرسمك في كل يوم من أيام حياتي».

على الأقل أعتقد أنه قال: «أرسم». وعند تلك المرحلة كان قد فات أوان الحرص.



5

بدأت ساعة جد رينيه جرينيه في الدق. وكما هو متفق عليه فهذا بمنزلة كارثة. فمنذ شهور، دفن رينيه الساعة أسفل حديقة الخضراوات التي تمتد بجانب منزله وبجوارها براد الشاي الفضي، وأربع عملات ذهبية والساعة التي كان يرتديها جده في الصدرية وذلك لمنع ذهابها في يد الألمان.

وسارت الخطة على ما يرام –حقًّا إن البلدة سحقت بأقدامها الأشياء الثمينة التي دفنتها على عجل أسفل الحدائق والممرات- إلى أن جاءت السيدة بولين مسرعة إلى البار في صباح يوم منعش من أيام شهر نوفمبر وقد قطعت عليه لعبة الدومينو اليومية بإخباره أن دقات مكتومة تصدر كل ربع ساعة من أسفل ما تبقى من الجزر المزروع.

همست قائلة: «أستطيع سماعها بأذني، فإن كنت أنا أستطيع سماعها فثق أنهم سيسمعونها».

قلت: «وهل أنت واثقة من أن هذا ما سمعتِه بأذنك؟ فقد أصبيت منذ وقت طويل».

قال السيد لافارج: «ربما كان هذا صوت السيدة جرينيه تتحرك في قبرها».

غمغم السيد رينيه: «لم أدفن زوجتي أسفل الخضراوات، فقد كانت ستجعلها أكثر مرارة وذبولًا».

انحنيت لأفرغ منفضة السجائر وأخفضت صوتي وأنا أقول: «سيكون عليك أن تحفر لتخرجها تحت ستار الظلام ثم تلفها في خيش الأجولة.

الليلة ستكون آمنة؛ فقد سلموا المزيد من الطعام من أجل وجباتهم وبوجود معظمهم هنا سيكون هناك القليل من الرجال في الخدمة».

مر شهر منذ أن بدأ الألمان في تناول وجباتهم في حانة الديك الأحمر، وكانت هناك هدنة غير مستقرة تم تسويتها على الأراضي المشتركة، فمنذ العاشرة صباحًا وحتى الخامسة والنصف، كانت الحانة الفرنسية ملأى بالخليط المعتاد من كبار السن والأشخاص الوحيدة. وكنت أنا وهيلين ننظف المكان ثم نطهو للألمان الذين يصلون قبل السابعة بوقت قصير متوقعين وجود الطعام فوق الطاولات بمجرد دخولهم من الباب. كانت هناك بعض المزايا من وراء ذلك؛ فحينما توجد بعض من بقايا الطعام -وهو ما يحدث عدة مرات في الأسبوع- كنا نتقاسمها (رغم أنه أصبح لا يوجد الآن إلا بقايا غريبة من اللحم والخضراوات بدلًا من وليمة الدجاج). ومع اشتداد برودة الطقس، شعر الألمان بمزيد من الجوع، ولم نكن أنا وهيلين على قدر كاف من الشجاعة كي نحتفظ ببعض الطعام. ومع هذا فحتى اللقيمات الضئيلة من الطعام الفائض صنعت فارقًا. فلم يعد جين يمرض كثيرًا، واكتسبت بشرتنا بعض النضارة، ونجحنا مرتين في تهريب جرة من الحساء -أعدت من العظام- إلى بيت العمدة من أجل لويزا المريضة.

وكانت هناك مزايا أخرى، فبمجرد أن يغادر الألمان الحانة في المساء نهرع أنا وهيلين إلى النار لنخمد الحطب المشتعل ونتركه في القبو حتى يجف، وكان يعني جمع البقايا نصف المحترقة لعدة أيام تشعل القليل من النيران في وقت النهار حينما يكون الطقس شديد البرودة. وفي الأيام التي كنا نفعل فيها هذا تمتلئ الحانة عن آخرها حتى وإن لم يكن هناك سوى القليل من الزبائن الذين يبتاعون شيئًا لتناوله.

لكن -وكما هو متوقع- كانت هناك جوانب سلبية، فالسيدتان ديورانت ولوفر قد قررتا أنه حتى لو لم أكن أتحدث إلى الضباط، أو أبتسم إليهم، أو أتصرف كما لو أنهم ليسوا سوى عبء كبير في منزلي فلا بد وأنني أتلقى منهم بعض الهبات. أستطيع أن أشعر بأعينهما مسلطة نحوي حينما أتسلم الواردات المعتادة من الطعام، والنبيذ والوقود. أدرك أننا محور نقاش محتدم في كافة أنحاء المنطقة.

ولكن عزائي أن حظر التجوال المسائي يعني أنهم لن يتمكنوا من رؤية الطعام الشهي الذي نطهوه للرجال، أو كيف أصبح الفندق مكانًا يعج بالأصوات المرحة والمناقشات الدائرة خلال ساعات المساء المظلمة.

تعلمنا أنا وهيلين التعايش مع أصوات اللهجات الغريبة في منزلنا. وتعرفنا على بعض منها؛ فهناك الطويل النحيف ذو الأذن الضخمة الذي يحاول دائمًا أن يشكرنا بلغتنا. وهناك أيضًا ذلك العابس ذو الشارب الرمادي الذي عادة ما ينجح في العثور على أي أخطاء ودائمًا ما يطلب الملح والفلفل أو المزيد من اللحوم. وعرفنا القصير هولجر الذي يشرب كثيرًا ويتطلع خارج النافذة وكأنه متردد بشأن ما يدور حوله. كنت أنا وهيلين نرد على تعليقاتهم بإيماءة ونحرص على أن نتعامل بأدب لا بود. في بعض الليالي -وللحق- كنا نجد بعض المتعة في وجودهم بالمكان. ليس وجود الألمان وإنما وجود بعض البشر. الرجال، والصحبة، ورائحة الطعام. كنا نشتاق للتواصل مع الذكور -مع الحياة- منذ فترة طويلة. ولكنْ هناك ليالٍ كنا نشعر فيها أن هناك شيئًا خطأ يحدث وذلك حينما يتوقفون عن الحديث، حينما يعلو وجوههم الضيق والتوتر وتدور المحادثات في همسات متلاحقة. كانوا ينظرون جانبًا نحونا كما لو أنهم يتذكرون أننا أعداؤهم، أو أنه بمقدورنا أن نفهم كل ما يقولونه.

كان أوريلين يتعلم منهم، فاعتاد أن يرقد على الأرض في غرفة رقم 3 وهو يلصق وجهه بين فجوات الألواح الخشبية على أمل أن يلمح يومًا ما خريطة أو بعض الإرشادات التي يمكن أن تمنحنا أي ميزة عسكرية. لقد أضحى بارعًا على نحو مدهش في الألمانية؛ فكان يقلد لكنتهم حينما يرحلون أو يقول شيئًا يجعلنا جميعًا نضحك، بل إنه أحيانًا كان يفهم بعض المقتطفات من أحاديثهم؛ كأي من الضباط في المستشفى أو كم عدد الرجال الذين قتلوا. شعرت بالقلق حياله، ولكني كنت أيضًا فخورة به لأن ذلك أشعرني بأن إطعام الألمان قد ينطوي على بعض الأهداف الخفية.

أما القائد فكان دومًا مهذبًا. يحييني -إن لم يكن بحرارة- فبلطف متزايد. يثني على الطعام دون أي محاولة للتملق، ويحكم السيطرة على رجاله الذين لا يسمح لهم بالإفراط في الشرب أو التصرف بأسلوب فيه تطاول.

ولعدة مرات كان يبحث عني لمناقشة الفن، ولم أكن أشعر بالارتياح للحديث معه على انفراد، ولكني شعرت بشيء من السرور حينما يذكرني بزوجي.

تحدث القائد عن إعجابه ببورمان وبأصول الرسام الألمانية، وباللوحات التي رآها في أكاديمية ماتيس والتي جعلته يطوق للسفر إلى موسكو والمغرب.

في البداية كنت أتحفظ في الحديث ثم وجدت نفسي لا أستطيع التوقف. فكل ما في الأمر أنه ذكرني بحياة أخرى وبعالم آخر. كان مبهورًا بنشاط أكاديمية ماتيس وتساءل إذا ما كان هناك تنافس بين الفنانين أم أنه حب صادق. كان يتمتع بأسلوب المحامين في الحديث؛ سريع، لماح، قليل الصبر مع أولئك الذين لا يستطيعون التقاط ما يعنيه على الفور. وأظن أنه راق له الحديث معي لأنني لم أشعر بالانزعاج منه. وأعتقد أن هذا جزء من شخصيتي، إنني أرفض أن أبدو خائفة حتى وإن كنت أشعر بهذا في داخلي وهذا بدوره وضعني في وضع جيد في محيط المتجر الباريسي الذي يتسم بالغطرسة، وقد نجح هذا النهج الآن أيضًا.

كان يكن إعجابًا خاصًا للوحتي الموضوعة في الحانة ويتطلع إليها كثيرًا ويناقش المزايا الفنية لاستخدام إدوارد للألوان ولمساته بالفرشاة حتى إنني استطعت أن أتناسى ارتباكي كوني موضوع اللوحة.

أفضى إلى أن أبويه لم يكونا على قدر من الثقافة، ولكنهما أثارا في داخله شغف التعلم وقال إنه يأمل أن يضيف إلى دراسته الفكرية بعد انقضاء الحرب وأن يسافر ويقرأ ويتعلم. كما باح لي ذات مساء أن زوجته تدعى ليزل وأن لديه طفلًا أيضًا، طفل يبلغ من العمر عامين لكنه لم يره حتى الآن (حينما أخبرت هيلين بهذا توقعت أن يبدو على وجهها بعض التعاطف، ولكنها قالت على الفور إنه ينبغي له أن يمضي وقتًا أقل في احتلال الدول).

أخبرني بكل هذا بصورة عابرة دون أي محاولة لطلب معلومات في المقابل. ولم يكن هذا نابعًا من الشعور بالأنانية؛ ولكن كان أكثر منه تفهمًا أنه باستيطان منزلي فإنه قد انتهك حياتي؛ وبالتالي فإن طلب ما هو أكثر سيكون بمنزلة عبء كبير. أدركت أن به بعضًا من تصرفات الرجال المهذبين.

ومع مرور أول شهر وجدت صعوبة متزايدة في وصف القائد بأنه ألماني همجي كما أفعل مع الآخرين. أظن أنني وصلت إلى القناعة بأن كل الألمان متوحشون لذا من الصعب تصورهم مع زوجات، وأمهات، وأطفال. وها هو ذا يأكل أمامي ليلة بعد ليلة، ويتكلم ويتحدث ويناقش الألوان والأشكال ومهارات الرسامين الآخرين كما يفعل زوجي. كان يبتسم بين الحين والآخر فترتسم

حول عينيه الزرقاوين التجاعيد العميقة كما لو أن السعادة كانت بالنسبة له شعورًا مألوفًا أكثر مما تبديه ملامحه.

لم أكن أدافع أو أتحدث عن القائد أمام الأشخاص في البلدة، وإذا ما حاول أحدهم أن يشركني في الحديث عن متاعب وجود الألمان في حانة الديك الأحمر، فكنت أجيب ببساطة أنني أدعو الله أن يأتي قريبًا اليوم الذي يعود فيه أزواجنا ويصبح كل هذا محض ذكريات.

ابتهلت ألا يلاحظ أحد أنه ليس هناك أي طلب مصادرة على منزلنا منذ أن أتى إليه الألمان.

قبل الظهيرة بوقت قصير غادرت الجزء الداخلي العتيق من الحانة وخطوت إلى الخارج بحجة نفض السجادة. كانت لا تزال هناك طبقة خفيفة من الثلوج على الأرض تكسوها بسطحها البلوري اللامع. ارتعشت وأنا أحمل السجادة لأمتار قليلة من الشارع الجانبي إلى حديقة منزل رينيه وهناك سمعتها؛ دقات مكتومة تشير إلى الثانية عشرة إلا ربع.

وحينما عدت وجدت تجمعًا متباينًا من كبار السن يشقون طريقهم خارج الحانة.

أعلنت السيدة بولين قائلة: «سنغني».

- ماذا؟

- سنغني لنحجب صوت الدقات حتى المساء، وسنخبرهم أنه تقليد فرنسي. أغانٍ من منطقة الأوفرن. أي شيء نستطيع تذكره، أنّى لهم أن يعرفوا؟

- هل ستغنون طوال اليوم؟

- لا، لا. مع دقات الساعة حينما يكون الألمان بالجوار.

نظرت إليها غير مصدقة.

- إذا ما حفروا من أجل ساعة رينيه صوفي، فسوف يحفرون البلدة كلها، لن أفقد جواهر أمي لتقع في يد زوجة ألماني. ثم لوت فمها في اشمئزاز.

- إذًا من الأفضل أن تذهبوا الآن، وحينما تدق الساعة معلنة عن منتصف نهار سان بيرون سنسمعها جميعًا.

كان الأمر مضحكًا. كنت أقف مترددة أمام عتبة الباب حينما تجمع مجموعة من كبار السن أمام الممر الضيق يواجهون الألمان الذين يقفون في الميدان وشرعوا في الغناء. تغنوا بأغاني الأطفال التي كنت أغنيها وأنا صغيرة وكذلك أغاني الراعي La Pastourelle، وBailero بيليرو، وعندما كنت صغيرًا Lorsque J'étais petit. وجميعها بأصوات مزعجة غير متناغمة. كانوا يغنون ورؤوسهم عالية جنبًا إلى جنب ينظرون جانبًا بين الحين والآخر إلى بعضهم بعضًا. بدا على رينيه علامات التجهم والقلق، وعقدت السيدة بولين يدها أمامها بخشوع كمعلمة يوم الأحد بالمدرسة.

وبينما كنت أقف ممسكة بمنشفة الصحون وأحاول ألا أبتسم، رأيت القائد يعبر الطريق وقال: «ماذا يفعل هؤلاء الأشخاص؟».

- صباح الخير أيها القائد.

- تعلمين أنه غير مسموح بأي تجمعات في الشوارع.

- هم بالكاد يشكلون تجمعًا، إنه احتفال سيدي القائد. عادات فرنسية. في تلك الساعة من شهر نوفمبر يغني كبار السن بسان بيرون أغاني شعبية للحماية من قدوم الشتاء.

قلت هذا بقناعة تامة. قطب القائد جبينه ثم نظر حولي نحو كبار السن. ارتفعت أصواتهم مرة واحدة في تناغم وخمنت أن الدقات بدأت من ورائهم.

قال وهو يخفض من صوته: «ولكن أصواتهم مفزعة، إنه أسوأ غناء سمعته في حياتي».

- أرجوك لا تمنعهم، إنها أغاني فلاحين بريئة كما تسمع، إنها تدخل السرور على بعض المسنين حينما يغنون أغاني وطنهم ولو ليوم واحد. من المؤكد أنك تتفهم ذلك.

- هل سيستمرون في الغناء هكذا طيلة اليوم؟

ليس التجمع هو ما يزعجه، لكنه مثل زوجي؛ يؤلمه بدنيًا أي نوع من الفنون لا يتسم بالجمال.

- احتمال.

وقف القائد ساكنًا وقد دربت حواسه على الغناء. اعتراني القلق فجأة؛ فإذا ما كان متذوقًا جيدًا للموسيقى بقدر تذوقه للرسم فربما يكتشف دقات الساعة أسفله.

فسألته بشكل مفاجئ: «أتساءل ماذا تريد أن تأكل الليلة؟».

- ماذا؟

- إن كان هناك طعام مفضل لديك، أعني أنني أعرف أن مكونات الطعام لدينا محدودة، لكن هناك أشياء عديدة يمكنني أن أعدها لك.

استطعت أن ألمح السيدة بولين وهي تحث الآخرين على الغناء بصوت مرتفع، ويداها تشيران خلسة إلى أعلى.

بدا القائد متحيرًا للحظة. ابتسمت ورأيت ملامح وجهه قد لانت لهنيهة وقال: «إنه...».

ثم قطع حديثه فجأة.

كان تيري أرتويل يركض عبر الطريق وشاله الصوف يتطاير وهو يشير خلفه قائلًا: «أسرى الحرب».

هرع القائد نحو رجاله الذين كانوا يتجمعون بالفعل في الميدان، ونسيني. انتظرت حتى ذهب بعيدًا ثم أسرعت نحو مجموعة كبار السن الذين يغنون. وجدت هيلين والزبائن داخل الحانة ينظرون من خلال النوافذ -عندما سمعوا جلبة بالخارج- وبعضهم خرج ووقف على حافة الطوار.

سادت هنيهة من الصمت، ثم ظهر نحو مئة رجل وهم يسيرون عبر الشارع الرئيسي في طوابير صغيرة منظمة. كان كبار السن مستمرين في الغناء بجانبي وقد تلعثمت أصواتهم في البداية بعض الشيء حينما استوعبوا ما يرون أمامهم ثم راحت أصواتهم تعلو في قوة وعزم.

لا يوجد أحد تقريبًا سواء رجل أو امرأة لم يتفرس بقلق وجوه الجنود الذين يسيرون بصعوبة من أجل وجه يعرفونه. لكن لا راحة ترجى من غياب المعرفة، أهؤلاء حقًا فرنسيون؟ لقد انكمشت أجسادهم وعلا الشحوب وجوههم وبدت عليهم علامات الهزيمة وتدلت الملابس من أجسامهم التي تعاني سوء التغذية، جروحهم ملفوفة في ضمادات قديمة قذرة. مروا أمامنا

على بعد سنتيمترات مخفضين رؤوسهم، والألمان يسيرون في مقدمتهم وفي الخلفية ونحن عاجزون عن فعل أي شيء سوى التحديق إليهم.

سمعت أصوات الغناء ترتفع في إصرار من حولي وبدت فجأة شجية متناغمة وهم يشدون: *أقف وسط الرياح وتحت المطر وأغني باليروليرو.*

شعرت بغصة في حلقي لمجرد فكرة أنه في مكان ما وعلى بعد أميال قد يكون إدوارد واحدًا من هؤلاء. شعرت بيد هيلين تمسك بيدي وأعرف جيدًا أنها تفكر فيما أفكر فيه.

ها هنا كل الحشائش تزداد نضرة
فلتُغنِّ باليرو
سآتي وأبحث عنك

تفحصنا وجوههم وقد تجمدت وجوهنا نحن. ظهرت السيدة لوفير بجانبنا، وبخفة الفئران شقت طريقها وسط مجموعتنا الصغيرة ودفعت بالخبز الأسود الذي جمعته لتوها من المخبز في يد واحد من تلك الهياكل البشرية، وقد تطاير شالها الصوف حول وجهها في تلك الرياح الشديدة. نظر الرجل لأعلى وهو لا يدري ما الشيء الذي وصل إلى يده، ثم صاح أحد الجنود الألمان الذين يتقدمونهم وضربه بمؤخرة بندقيته فأوقعه من يد الرجل حتى قبل أن يدرك ما أعطته إياه. سقط رغيف الخبز في مصرف المياه كقطعة حجر، وتوقف الغناء.

نظرت السيدة لوفير إلى الخبز ثم رفعت رأسها نحوهم وراحت تصرخ وصوتها يشق السكون: «أيها الحيوانات، أنتم أيها الألمان تريدون أن تجعلوا الرجال يتضورون جوعًا كالكلاب! ماذا دهاكم؟ أيها الأوغاد! أبناء العاهرات!». لم أسمعها قط من قبل تستخدم مثل تلك اللغة كما لو أن هناك خيطًا رفيعًا يقيدها قد انقطع وجعلها حرة طليقة.

اخترق صوتها السكون وهي تقول: «أتريدون ضرب أحدهم؟ فلتضربوني أنا! هيا أيها الوغد المجرم اضربني!».

شعرت بيد ميلين تضغط على ذراعي، وحاولت أن أجعل السيدة تهدأ، لكنها استمرت في الصراخ وهي تلوح وتلكز بإصبعها النحيفة الهزيلة وجه العسكري الشاب. شعرت فجأة بالخوف عليها. أخذ الألماني ينظر إليها وعلى وجهه تعبيرات غضب مكتوم وابيضت عقد أصابعه وهو يقبض بها على مؤخرة بندقيته وخشيت أن يهاجمها. كانت ضعيفة؛ وستتحطم عظامها العجوز إذا فعل.

وبينما كنا نحبس أنفاسنا انحنى والتقط رغيف الخبز من المصرف ودفع به إليها.

نظرت إليه كما لو أنه لدغها وقالت: «هل تعتقد أنني سأتناول هذا وأنا أعلم أنك أطحت به من يد أخ يتضور جوعًا؟ أتعتقد أنه ليس أخي؟ إنهم جميعًا إخوتي! إنهم أبنائي! تحيا فرنسا!».

ثم بصقت وعيناها العجوزتان تلمعان وهي تقول: «تحيا فرنسا».

اندفع كبار السن خلفي فجأة مرددين في همهمات: «تحيا فرنسا» وكأن هناك قوة خارجية حثتهم على ذلك وقد نسوا الغناء قليلًا.

نظر الجندي الشاب خلفه، ربما كان في انتظار تعليمات من رؤسائه، ولكن تشتت انتبهه بسبب صيحة في نهاية الطابور. فقد استغل أحد الأسرى الجلبة التي حدثت وانطلق من أجل الحرية. انسل الشاب من بين الصفوف -وذراعه موضوعة في حمالة كتف- ليفر هاربًا عبر الميدان.

كان القائد -الذي يقف بين اثنين من الضباط بجوار تمثال العمدة لوكلير المحطم- هو أول من رآه.

صاح: «توقف». زاد الشاب من سرعته فانزلق حذاؤه كبير الحجم من قدميه.

- توقف.

أسقط الأسير حقيبة ظهره وبدا وهو ينطلق بأقصى سرعة، وتعثر وهو يفقد فردة حذائه الأخرى لكنه بطريقة ما عدل وضعه، كان على وشك أن يختفي عند ناصية الشارع. استل القائد مسدسًا من سترته، وقبل أن أدرك ما فعله رفع ذراعه وصوب اتجاهه وأطلق النيران. سقط الشاب على الأرض بصوت مسموع. توقف العالم فجأة، وصمتت العصافير، وحدقنا جميعًا إلى الجسد المسجى بلا حراك على الحصى وصدر عن هيلين أنين مكتوم وبدت

وكأنها ستتجه نحوه، ولكن القائد أمرنا جميعًا أن نظل بالخلف. وقال شيئًا وهو يصيح بالألمانية فرفع رجاله بنادقهم وصوبوها باتجاه الأسرى الباقين.

لم يتحرك أحد منهم، ونظر الأسرى إلى الأرض، ولم تبد عليهم الدهشة للتبدل المفاجئ للأحداث. وضعت هيلين يدها على فمها وراحت تنتفض وهي تغمغم بشيء لم يمكنني سماعه، أحطت خصرها بيدي وكنت أسمع أنفاسي المتقطعة.

سار القائد مبتعدًا عنا باتجاه الأسير، وحينما بلغ مكانه انحنى نحوه وضغط بأصابعه على فك الشاب الملقى وقد لطخت بركة الدماء الداكنة المحيطة به سترته البالية ورأيت عينيه تنظران بلا تعبيرات عبر الميدان. ظل القائد جاثمًا على ركبتيه لدقيقة ثم نهض ثانية. تحرك الضباط الألمان نحوه، ولكنه أشار إليهم للانضمام إلى المجموعة. قطع الميدان عائدًا مرة أخرى وهو يعيد المسدس إلى سترته، وتوقف للحظة حينما مر أمام العمدة.

قال: «عليك إعداد الترتيبات اللازمة».

أومأ العمدة برأسه بالموافقة ولمحته وهو يجز على فكه.

صدرت صيحة عن الجنود الألمان فسارت طوابير الأسرى عبر الطريق مخفضي رؤوسهم وبكت نساء سان بيرون علنًا. تكوم جسد الشاب على بعد مسافة قصيرة من شارع باستيد.

وبعدما غادر الألمان بأقل من دقيقة أعلنت ساعة رينيه جرينيه مرور ربع ساعة بدقات حزينة شقت عنان الصمت.

كان الجو العام في الحانة هادئًا هذا المساء. لم يحاول القائد أن يفتح أي مجال للحوار وكذلك أنا لم أظهر أي انطباع بأني أرغب في هذا. قدمنا أنا وهيلين الوجبات، ونظفنا الأواني ومكثنا في المطبخ مبتعدتين بقدر الإمكان. لم تكن لديَّ أي شهية للطعام، فلم أستطع أن أمحو من مخيلتي صورة الشاب المسكين بملابسه الرثة التي تتطاير خلفه وحذاؤه الواسع يسقط من قدميه وهو يفر هاربًا إلى نهايته.

والأكثر من هذا أنني لا أستطيع أن أصدق أن الضابط الذي أخرج مسدسه وأصاب المسكين بلا هوادة هو ذاته الرجل الذي يجلس على مائدتي ويبدو حزينًا بسبب الطفل الذي لم يره ويهتف بالفن الذي يعرفه. شعرت بأني حمقاء كما لو أن القائد قد أخفى شخصيته الحقيقية. فالألمان لم يأتوا

من أجل المناقشات عن الفن أو الطعام الشهي؛ الألمان أتوا ليقتلوا أبناءنا وأزواجنا. إنهم هنا ليدمرونا جميعًا.

افتقدت زوجي بشدة في هذه اللحظة وشعرت بألم جسدي. لقد مرت ثلاثة أشهر منذ آخر مرة تلقيت منه رسالة، وليس لديَّ أدنى فكرة عما يجتازه الآن. وبينما نحن نعيش في تلك الفقاعة الغريبة من العزلة، كنت أقنع نفسي أنه بخير ومعافى، وأنه هناك في العالم الحقيقي يشارك زجاجة كونياك مع أحد رفاقه أو ربما يرسم على قصاصة ورق في ساعات الفراغ. حينما أغلق عيني أرى إدوارد الذي أتذكره منذ أيام باريس، لكن حينما أرى الألمان الحقراء يسيرون عبر الشوارع أجد من الصعب التمسك بخيالاتي. فربما قبض عليه ومصاب ويتضور جوعًا. ربما كان يعاني مثل أولئك الرجال الذين يعانون. ربما قتل.

اتكأت على حوض المياه وأغلقت عيني.

وفي تلك اللحظة سمعت صوت تحطم شيء. فانتزعت نفسي من أفكاري وهرعت خارج المطبخ. كانت هيلين تقف وظهرها لي ويداها مرفوعتان وعند قدميها صينية من الأكواب المحطمة، ورأيت القائد يمسك بعنق شاب صغير ويدفع به نحو الحائط وكان يصرخ في وجهه بالألمانية وقد تقلصت عضلات وجهه الذي يبتعد عن وجه الرجل بسنتيمترات قليلة.

كانت أيدي ضحيته مرفوعتين إلى أعلى في استسلام.

- هيلين؟

بدا وجهها شاحبًا وقالت: «لقد وضع يده عليَّ وأنا أمر أمامه. لكن... لكن القائد استشاط غضبًا».

التف الرجال الآخرون حولهما الآن يتوسلون إلى القائد ويحاولون جذبه بعيدًا، وقد انقلبت مقاعدهم وتعالت صيحات كل منهم في محاولة لأن يسمعهم القائد. كانت هناك جلبة في المكان كله، وأخيرًا بدا أن القائد سمعهم فأرخى قبضته عن عنق الشاب. هُيِّئَ لي أن عينيه التقتا عينيَّ سريعًا، وبينما كان يتراجع خطوة إلى الوراء دفع بقبضته ولكم الشاب بقوة في جانب رأسه فارتد وجهه نحو الحائط وصرخ قائلًا بالألمانية: «لا يمكنك لمس النساء».

دفعت بها نحو الباب وأنا أقول: «إلى المطبخ».

لم أتوقف حتى لالتقاط الزجاج المكسور، وسمعت الأصوات المتعالية والأبواب تغلق وهرعت وراءها عبر الممر.

- سيدة ليفيفر.

كنت أنظف آخر ما تبقى من أكواب متسخة، وقد ذهبت هيلين إلى الفراش؛ فقد أنهكتها أحداث اليوم أكثر مما فعلت بي.

- سيدتي؟

التفت نحوه وأنا أجفف يدي في المنشفة وقلت: «أيها القائد».

وصلنا إلى أننا نحصل على شمعة واحدة في المطبخ، وكان الفتيل غارقًا في بعض الشحم الموضوع في علبة سردين وبالكاد استطعت أن أتبين ملامح وجهه.

وقف أمامي وقبعته في يده وقال: «آسف بشأن الأكواب وسأحرص على أن يتم استبدالها».

- لا تهتم بهذا لدينا ما يكفي لندبر أمورنا.

أعلم أن أي أكواب جديدة سيتم مصادرتها من جيراننا.

- آسف بشأن... الضابط الصغير. أرجوك طمئني أختك بأن ذلك لن يحدث ثانية.

لم أشك في هذا، فمن خلال النافذة الخلفية رأيت الرجل يعاونه واحد من أصدقائه للوصول إلى مأواه وكانت هناك قطعة قماش مبللة محكمة على جانب رأسه.

اعتقدت أن القائد سيغادر المكان، لكنه وقف هناك، شعرت به وهو ينظر إلي. عيناه مضطربتان يكاد يطل منهما حزن.

- كان الطعام الليلة ممتازًا... ما اسم الوجبة؟

- الملفوف.

انتظر لأسترسل وحينما طالت فترة الصمت بشكل غير مريح أردفت قائلة: «قطع لحم وبعض الخضراوات والأعشاب ملفوفة في ورق الكرنب وتسلق في المرق».

نظر لأسفل باتجاه قدميه، ثم خطا بضع خطوات حول المطبخ وتوقف ولمس وعاء من الأواني المنزلية، وتساءلت في شرود إن كان سيأخذها.

- كان الطعام جيد جدًا، هذا رأي الجميع. لقد سألتني اليوم عما أريد تناوله. حسنًا نريد هذه الوجبة ثانية قبل مرور وقت طويل إن لم يكن ثمة مشكلة في ذلك.
- كما ترغب.

هناك شيء مختلف بشأنه الليلة، حالة من القلق اجتاحته. وتساءلت ما هو شعور أن تقتل رجلًا وهل إذا ما كان هذا الأمر بالنسبة لقائد ألماني لا يمثل غرابة أكثر من تناول قدح ثان من القهوة.

نظر إليَّ كما لو كان على وشك أن يتفوه بشيء، ولكني عدت لتنظيف الأوعية. سمعت من خلفه صوت أرجل المقاعد يجرها الضباط الآخرون استعدادًا للمغادرة. كانت السماء تمطر رذاذًا خفيفًا صغيرًا يتساقط على النافذة ويفترش عليها بشكل أفقي.

قال: «لا بد وأنك متعبة، سأغادرك بسلام».

حملت صينية عليها بعض الأكواب وتبعته حتى الباب، وما إن بلغه التفت نحوي ووضع قبعته فتوقفت عن السير.

- كنت أنوي أن أسأل كيف حال الرضيع.
- جين؟ إنه بخير وإن كان هناك بعض...
- لا أقصد هذا، أعني الرضيع الآخر؟

كدت أسقط الصينية من يدي، وترددت للحظة وأنا أجمع شتات نفسي، ولكني شعرت بالدماء تندفع عبر عنقي وأدركت أنه رآه.

حينما تحدثت ثانية جاء صوتي أجش، وثبت عينيَّ على الأكواب التي أمامي وقلت: «أعتقد أننا جميعًا نفعل كل ما نستطيع فعله في ظل هذه الظروف».

فكر في كلامي هذا وقال بهدوء: «احتفظي به، ومن الأفضل ألا يتعرض لهواء المساء هو أيضًا».

ثم أطال النظر إليَّ للحظة واستدار وغادر المكان.

***



ظللت مستيقظة في تلك الليلة بالرغم من إنهاكي الشديد، ورأيت هيلين تنام نومًا متقطعًا، وتغمغم ببعض الكلمات، وتمد يدها بشكل لا إرادي لتتأكد من وجود أطفالها بجوارها. في الخامسة صباحًا -وبينما كان الجو لا يزال مظلمًا- تسللت من فراشي ودثرت نفسي بعدة أغطية ونزلت إلى الطابق السفلي على أطراف أصابعي لأغلي بعضًا من الماء من أجل صنع القهوة. كانت غرفة الطعام لا تزال تعج بروائح الليلة الماضية؛ خشب موقد المدفأة، بقايا روائح اللحم التي جعلت معدتي تصدر أصواتًا من الجوع. صنعت لنفسي مشروبًا ساخنًا وجلست خلف البار أتطلع ببصري عبر الميدان الخالي بينما كانت الشمس تظهر في الأفق. وعندما تحول لون الأفق إلى البرتقالي المصفر ممتزجًا بزرقة السماء، أصبح من الممكن تبين أثر خفيف في الزاوية اليمنى البعيدة حيث سقط الأسير. هل كانت لهذا الشاب زوجة وطفل؟ أكانا يجلسان في تلك اللحظة يكتبان له الرسائل أم يصليان من أجل عودته سالمًا؟ تناولت رشفة من المشروب وأشحت بوجهي بعيدًا.

كنت على وشك أن أعود لغرفتي لأرتدي ملابسي حينما سمعت طرقًا على الباب جفلت وأنا أرى ظل شخص يتحرك خلف الستائر القطنية. جذبت الأغطية حول جسدي وأنا أنظر إلى ذلك الخيال محاولة أن أعرف من الذي يمكن أن يأتينا في تلك الساعة، أيمكن أن يكون القائد قد عاد ليعذبني من أجل ما عرفه؟ خطوت في هدوء نحو الباب ورفعت الستائر ورأيت ليليان بيتون تقف على الجانب الآخر. كان شعرها معقوصًا على هيئة خصلات

ملفوفة وترتدي معطفًا فرو استراخان أسود وتطل من عينيها مسحة حزن. نظرت خلفها بينما كنت أحل المزلاج العلوي والسفلي وفتحت الباب.

قلت: «ليليان؟ هل أنت؟ هل تريدين شيئًا؟».

مدت يدها في جيب معطفها وجذبت منه مظروفًا دفعت به إليَّ وقالت: «هذا من أجلك».

نظرت إليها وقلت: «لكن... كيف أمكنك أن...».

رفعت يدها الهزيلة وهزت رأسها.

لقد مرت شهور منذ أن تلقى أحد منا أي خطابات، لقد جعلنا الألمان في عزلة عن أي اتصال. أمسكت به وأنا لا أصدق. استعدت رباطة جأشي وقلت: «هلا تفضلت بالدخول؟ أتودين بعضًا من القهوة؟ لديَّ قليل من القهوة التي ادخرتها؟».

منحتني شبه ابتسامة وقالت: «أشكرك، يجب أن أعود لابنتي».

وقبل حتى أن أشكرها رأيتها تهرول مسرعة نحو الشارع بكعب حذائها العالي وقد أحنت ظهرها في مواجهة البرد.

أنزلت الستار وأعدت غلق الباب ثم جلست وفتحت المظروف وقد ملأ أذني صوته الغائب منذ فترة طويلة.

غاليتي صوفي:

مضى وقت طويل منذ آخر خطاب بيننا، أدعو الله أن تكوني بأمان، فإنني أخبر نفسي في أحلك اللحظات أن جزءًا مني يشعر بك -كناقوس إنذار يدق من بعيد- إن لم تكوني كذلك.

ليس لديَّ الكثير لأقوله، فللمرة الأولى لا أريد أن أرسم بالألوان العالم الذي أراه من حولي. كلماتي عاجزة تمامًا عن التعبير لك عما بداخلي. أريدك أن تعلمي فقط زوجتي الغالية أنني ما زلت سليم العقل معافى القلب وروحي مكتملة فقط لأنك دومًا بمخيلتي.

الرجال هنا يمسكون بصور أحبائهم وكأنها تمائم- حماية من الظلام؛ صور مجعدة قذرة لكنها وهبت سمات الكنوز. أما أنا فلا أحتاج إلى صور لأستدعي ملامحك. صوفي؛ أريد فقط أن أغمض عيني لأستعيد مرأى وجهك، وصوتك، ورائحتك. أو تدرين كم تمدينني بالسكينة.

فلتعلمي حبيبتي أنني أحسب كل يوم ليس لأنني ممتن بأني ما زلت أحيا فيه -كشأن رفاقي الجنود- ولكني أشكر الله أن كل يوم يمضي يعني أنه يقربني أربعًا وعشرين ساعة من العودة لك.

إدوارد.

كان الخطاب مؤرخًا منذ شهرين.

لم أدرِ أهو التعب أو ربما الصدمة من أحداث اليوم السابق، لكني لست بالشخص الذي يبكي بسهولة، إن كنت أبكي بالأساس، لكني أعدت الخطاب إلى المظروف، ثم أسندت رأسي إلى يدي ورحت أبكي في المطبخ الخاوي البارد.

لم أستطع أن أخبر سكان البلدة الآخرين عنَ سبب حلول وقت تناول الخنزير لكن اقتراب موعد عيد الميلاد منحني عذرًا مثاليًّا. فالضباط سيتناولون عشاءهم ليلة عيد الميلاد في الحانة وسيكون تجمعهم أكبر من المعتاد وقد اتفقنا بيننا أنه في أثناء وجودهم في الحانة ستقيم السيدة بولين سرًّا حفلة عيد الميلاد بمنزلها الذي يبعد شارعين عن الميدان. وكلما أبقيت الألمان مشغولين لأطول فترة، تكون مجموعتنا تشوي وتأكل الخنزير بأمان في موقد الخبز الذي تمتلكه السيدة بولين في قبو منزلها، وستساعدني هيلين في تقديم طعام العشاء للألمان، ثم بعدها تنسل من خلال الفتحة في جدار القبو ومنها إلى الممر الضيق لتنضم إلى الأطفال في منزل السيدة بولين. وأولئك الفلاحون الذين يعيشون بعيدًا عنها وساروا في البلدة دون أن

يلاحظهم أحد سيظلون مختبئين في منزلها بعد الحظر في حال إذا ما جاء أي من الألمان للتفتيش.

عقبت هيلين قائلة حينما أوضحت الخطة للعمدة أمامها بعدها بيومين: «لكن هذا ليس من العدل، فإذا مكثتِ هنا فسوف يفوتك الاحتفال، هذا ليس بالأمر السليم بالنظر إلى ما تفعلينه لتأمين تناول الخنزير».

أوضحت لها قائلة: «ينبغي أن يبقى أحدنا، تعلمين أنه أكثر أمانًا إذا تأكدنا أن الجنود جميعهم في مكان واحد».

- لن يكون الأمر مثلما تكونين معنا.

قلت بهدوء: «لا شيء يظل كما هو، وأنت تعلمين مثلي تمامًا أن القائد سيلاحظ غيابي».

رأيتها تتبادل النظرات مع العمدة.

- هيلين لا تضخمي الأمور. إنني مديرة المكان، وهو يتوقع أن يراني هنا كل ليلة، وسيعرف أن هناك شيئًا يحدث إذا لم أُوجَد.

بدوت -حتى وأنا أسمع نفسي- كما لو أنني أحتج أكثر من اللازم.

أردفت قائلة وأنا أجبر نفسي على استرضائهم: «أنصتي لي، ادخري بعض اللحم من أجلي وأحضريه معك ملفوفًا في منديل. أعدك أنه إذا ما منح الألمان حصصًا كافية من الطعام ليتناولوها فسأتأكد أنني سأحتفظ لنفسي بحصة منها، لن أعاني، أعدك».

بدا عليهم الهدوء، لكني لم أستطع أن أخبرهم بالحقيقة. فمنذ أن اكتشفت أن القائد يعلم بأمر الخنزير فقدت شهيتي لتناوله، فكونه لم يكشف عن معرفته بوجوده ناهيك بعدم معاقبتنا لم يجعلني أسعد بالراحة، إنما أشعرني بالقلق الشديد.

وحينما أراه الآن يطيل النظر إلى اللوحة لم أعد أشعر بالسرور لحقيقة أنه حتى الألماني يمكنه إدراك موهبة زوجي. وحينما يأتي إلى المطبخ من أجل محادثات عادية أُصبح جافة ومتوترة خشية أن يأتي بذكره.

قال العمدة: «مرة أخرى أعتقد أننا نجد أنفسنا مدينين لك». وبدا عليه الانكسار، فابنته مريضة منذ أسبوع وقد أخبرتني زوجته أن كل مرة تمرض فيها لويزا لا ينام تقريبًا من شدة القلق.

قلت سريعًا: «لا تكن سخيفًا. مقارنة بما يفعله رجالنا فهذا مجرد يوم عمل آخر».

كانت أختي تعرفني جيدًا. هي لا تسأل أسئلة مباشرة؛ هذا ليس بأسلوب هيلين. لكني أشعر بها وهي ترقبني، وأستطيع سماع نبرة صوتها الخافتة حينما تثار مسألة الاحتفال بعيد الميلاد. وفي النهاية وقبل عيد الميلاد بأسبوع بحت لها بالسر. كانت تجلس على طرف فراشها تصفف شعرها، والفرشاة لا تزال في يدها.

سألتها حينما انتهيت: «في اعتقادك لماذا لم يخبر أحدًا».

تطلعت إلى غطاء الفراش، وحينما وجهت نظرها نحوي كانت نظرتها مليئة بالخوف.

قالت: «أعتقد أنك تروقين له».

كان الأسبوع الذي يسبق عيد الميلاد أسبوعًا حافلًا بالرغم من أنه ليس لدينا سوى القليل لإعداده من أجل الاحتفالات. وشرعت هيلين وسيدتان من كبار السن في خياطة دمى من القماش من أجل الأطفال. كانت دُمَى بدائية وتنوراتها مصنوعة من الخيش ووجوهها مطرزة من الجوارب، لكن كان من المهم أن ينعم الأطفال الذين مكثوا في سان بيرون بقدر قليل من الأشياء الممتعة في هذا العيد الكئيب.

لقد ازددت جرأة في محاولاتي. مرتان سرقت فيهما البطاطس من حصص طعام الألمان –وكنت أهرس ما يتبقى لأخفي الكميات الصغيرة المسروقة– لأنقلها في جيوبي إلى أولئك الذين يبدو عليهم الضعف. وسرقت حبات الجزر الصغيرة وكنت أضعها في ثنايا تنورتي حتى إذا أوقفني أحدهم وفتشني لا يجد شيئًا. كما حملت وعاءين من مرق الدجاج إلى بيت العمدة حتى تتمكن زوجته من صنع بعض الحساء من أجل لويزا. كانت الطفلة شاحبة ومحمومة؛ وأخبرتني زوجته أن الطفلة دومًا هادئة وتبدو منطوية على نفسها. ونظرت إليها والفراش العريض الذي يبتلعها بأغطيته الرثة ضعيفة وتسعل على نحو متقطع وفكرت للحظة في أنه من الصعب أن ألومها. ما هذه الحياة التي يحياها الأطفال؟

كنا نحاول أن نخفي عنهم الأسوأ بقدر الإمكان، لكنهم وجدوا أنفسهم في عالم يقتل فيه الرجال بالرصاص في الشوارع، عالم ينتزع فيه غرباء أمهاتهم

من فراشهن ويجروهن من شعورهن بسبب تهم تافهة مثل السير في غابة محظور السير فيها أو عدم إظهار الاحترام الكافي لضابط ألماني. كانت ميمي تراقب عالمنا في صمت بعيون متشككة وهو ما كان يفطر قلب هيلين، وازداد غضب أوريلين؛ كنت أراه يتنامى بداخله كحمم بركانية. ودعوت الله يوميًّا أنه إذا ما حدث وانفجر غضبًا ألا يأتي ذلك على حساب نفسه بصورة كبيرة.

لكن الأخبار العظيمة هذا الأسبوع كانت في شكل جريدة إخبارية وصلت إلى باب منزلي. كانت أوراق طباعتها خشنة وتحمل عنوان Journal des Occupés جريدة المحتل. إن الجريدة الوحيدة المسموح بها في سان بيرون هي Bulletin de Lille صحيفة ليل التي يسيطر عليها الألمان وهي عبارة عن دعاية ألمانية صريحة والقليل منا لا يستخدمها في شيء أكثر من مجرد إشعال النيران. لكن هذه الجريدة منحتنا معلومات عسكرية وحددت أسماء المدن والقرى الواقعة تحت براثن الاحتلال. كانت تعقب على البيانات الرسمية وتحتوي على مقالات ساخرة بشأن الاحتلال، وقصائد فكاهية عن الخبز الأسود، ورسومات كاريكاتورية تصور الضباط المسؤولين. التمست الجريدة من قرائها ألا يسألوا عن مصدرها وأن يتلفوها بمجرد الانتهاء من قراءتها.

احتوت الجريدة على قائمة أطلق عليها الوصايا العشر للملك هنري Von Heinrich's Ten Commandments التي كانت تسخر من العديد من القوانين التافهة التي فرضت علينا.

لا أستطيع أن أصف الدفعة التي أعطتها الجريدة ذات الصفحات الأربع لمدينتنا، ففي الأيام القليلة التي سبقت عيد الميلاد، كان هناك تدفق مستمر من سكان البلدة على الحانة وكانوا إما يتصفحونها في دورة المياه (كنا نحتفظ بها خلال اليوم في سلة ملأى بالأوراق القديمة) وإما يتناقلون أخبارها وأفضل النكات بها وجهًا لوجه. كنا نمضي وقتًا طويلًا في دورة المياه حتى إن الألمان بدأوا يتساءلون إن كان هناك مرض قد تفشى في البلدة.

عرفنا من خلال الجريدة أنه توجد مدن قريبة تعاني نفس مصيرنا. سمعنا عن معسكرات التعذيب المرعبة حيث يتضور الرجال جوعًا ويعملون حتى تخور قواهم تمامًا.

اكتشفنا أن باريس لا تعرف سوى القليل عن معاناتنا، وأنه قد تم إخلاء أربعمئة سيدة وطفل من مدينة روباي حيث المؤن الغذائية هناك أقل من بلدة

سان بيرون. لم تكن تلك المعلومات تمثل فائدة في حد ذاتها، لكنها ذكرتنا أننا لا نزال جزءًا من فرنسا وأن بلدتنا الصغيرة لا تعاني وحدها. والأهم من هذا أن الجريدة ذاتها كانت مسألة فخر لنا؛ فالفرنسيون لا يزالون قادرين على كسر إرادة الألمان.

دارت مناقشات حامية عن كيفية وصول هذه الجريدة إلينا، وقد أسهم وصول الجريدة إلى الحانة في تخفيف حدة الاستياء المتزايد بعض الشيء بسبب طهو الطعام للألمان. شاهدت ليليان بيتون وهي تسير مسرعة لتجلب الخبز الأسود وتضعه في معطفها الاستراخان وسرحت بأفكاري.

أصر القائد على تناولنا للطعام، فكما قال في ليلة عيد الميلاد إنها امتيازات الطهاة. اعتقدنا أننا سنعد الطعام لثمانية عشر شخصًا لنكتشف أن آخر شخصين هما هيلين وأنا. استغرقنا ساعات ونحن نهرول في المطبخ، وقد هون من تعبنا السعادة التي نستشعرها في صمت ولا نبوح بها لمعرفتنا لما سيحدث على مسافة شارعين من حانتنا؛ حيث فكرة عقد احتفال عيد الميلاد السري وإعطاء كميات مناسبة من اللحم من أجل الأطفال. كما أن حصولنا على وجبتين بدا كثيرًا بالنسبة لي.

ومع هذا فهو ليس بالكثير، فلن أرفض أي وجبات ثانية. كان الطعام شهيًا؛ فهناك البط المشوي بشرائح البرتقال والزنجبيل المحفوظ، والبطاطس الدوفينواز المخلوطة بالحليب والقشدة والجبن مقدمة مع الفاصوليا الخضراء وأعقب كل هذا أطباق من الجبن. تناولت هيلين نصيبها من الطعام وهي مندهشة من تناولها لوجبتي عشاء.

قالت وهي تمتص العظام: «يمكنني أن أمنح نصيبي من الخنزير لشخص آخر ويمكن أن أحتفظ ببعض الجلد المقرمش، ما رأيك؟».

كان شيئًا جيدًا أن أراها مبتهجة. بدا مطبخنا هذا المساء مكانًا سعيدًا، وقد حصلنا على المزيد من الشموع مما منحنا المزيد من الضوء النفيس. امتلأ المكان بروائح أعياد الميلاد المعتادة؛ وقد زينت هيلين برتقالة بغرز بعض من حبات القرنفل بها وعلقتها فوق الموقد فانتشرت الرائحة في الحجرة كلها. إذا توقفت عن التفكير كثيرًا، لاستمعت لقرع الكؤوس، والضحكات والأحاديث المتبادلة ونسيت أن المحتلين الألمان في الحجرة المجاورة.

في قرابة الساعة التاسعة والنصف، ألبست أختي ملابس ثقيلة وساعدتها في الهبوط لأسفل حتى تستطيع أن تعبر خلال قبو الجيران ومنه إلى الخارج عبر مجرى إنزال الفحم، ثم تسير بعدها عبر الممر الخلفي غير المضاء لمنزل السيدة بولين حيث ستنضم لأوريلين والأطفال الذين أخذناهم إلى هناك في وقت مبكر من بعد الظهيرة، وقد نقلنا الخنزير إلى هناك في السابق. لقد ازداد حجمه في ذاك الحين، وكان أوريلين ممسكًا به بإحكام بينما كنت أطعمه تفاحة حتى يتوقف عن الصراخ وذبحه السيد بودين الجزار بضربة سكينته النظيفة.

أعدت الحجارة في الفتحة خلفها بينما كنت أستمع إلى الرجال بأعلى في الحانة، وقد أدركت -بشيء من الراحة- للمرة الأولى منذ شهور أنني لا أشعر بالبرد. فحينما تكون جائعًا ستشعر دائمًا بالبرد. فهذا كان درسًا أثق بأنني لن أنساه أبدًا.

همست قائلة في القبو الخالي بينما كانت خطوات هيلين تبتعد على الجانب الآخر من الحائط: «أتمنى أن تكون شاعرًا بالدفء إدوارد، وأن تتناول الطعام كما تناولنا الليلة».

وحينما ظهرت مرة أخرى في الردهة جفلت فقد كان القائد هناك يتطلع إلى اللوحة.

قال: «لم أجدك فاعتقدت أنك يمكن أن تكوني في المطبخ».

تمتمت قائلة: «خرجت... خرجت لأستنشق بعض الهواء».

- أرى شيئًا مختلفًا في هذه الصورة في كل مرة أنظر إليها، هناك شيء غامض بها، أعني بك.

ابتسم نصف ابتسامة على خطئه ثم أردف قائلًا: «هناك شيء غامض بك».

لم أتفوه بشيء.

- آمل ألا أكون سببت لك إحراجًا لكني أردت فقط أن أخبرك. إنني أرى طوال الوقت أنها من أجمل اللوحات التي وقعت عليها عيناي.

- إنها عمل فني بديع، نعم.

- لقد أغفلتِ موضوع اللوحة.

لم أجب.

صب النبيذ في كأسه، وحينما استأنف حديثه كانت عيناه تنظران إلى السائل الأحمر القاني.

- هل تعتقدين أنك امرأة متوسطة الجمال سيدتي؟

- في رأيي أن لكلٍّ نظرته الخاصة للجمال، فحينما كان يخبرني زوجي أني جميلة كنت أصدقه لأني هكذا بالفعل في عينيه.

رفع بصره نحوي وتعمق بالنظر إلى عينيَّ ولم يحول عينيه عني. أطال النظر إليَّ حتى بدأت أشعر بتسارع أنفاسي.

كانت عينا إدوارد هما المنفذ لروحه فتكشفان عما يعتمل في قرارة نفسه، أما القائد فهو قاس ماكر ومع هذا كان يبدو ذلك كستار كأنما يخفي به مشاعره الحقيقية. خشيت أن يرى ما وراء ذلك العزم الواهن وأن يكتشف أكاذيبي إذا ما سمحت له بذلك. كنت أول من أشحت ببصري بعيدًا.

مد يده عبر المائدة إلى صندوق المؤن الذي سلمه الألمان في وقت مبكر وأخرج زجاجة كونياك.

- شاركيني مشروبًا سيدتي.

نظرت إلى الباب باتجاه حجرة الطعام حيث كان الضباط على وشك الانتهاء من تناول الحلوى وقلت: «لا، أشكرك سيدي القائد».

- كأس واحدة فقط إنها ليلة عيد الميلاد.

إنني أميز الأمر حينما أسمعه. فكرت في الآخرين الذين لا يبعدون سوى عدة أمتار من حيث نجلس وهم يتناولون لحم الخنزير. تخيلت ميمي والدهن يسيل على ذقنها وأوريلين يبتسم ويمزح وهو يتفاخر بذلك الخداع العظيم. كان بحاجة إلى بعض السعادة؛ فمرتان هذا الأسبوع أعادته المدرسة إلى المنزل بسبب شجاره، لكنه لم يخبرني عن السبب. أردت أن يتناولوا جميعًا وجبة جيدة.

- حسنًا.

قبلت تناول كأس وتناولت رشفة. كان الكونياك كالنار التي تتدفق إلى حلقي. شعرت وكأنه شيء مجدد للقوة، كان بمنزلة الدفعة الشديدة.

وضع كأسه وشاهدني وأنا أرتشف كأسي ثم دفع بالزجاجة نحوي في إشارة إلى إعادة ملء الكأس.

جلسنا في صمت. وتساءلت كم عدد الذين أتوا لتناول الخنزير. خمنت هيلين أنه ربما يأتي أربعة عشر شخصًا. اثنان من كبار السن خافا من كسر حظر التجوال، ووعد الكاهن بحمل بقايا الطعام إلى أولئك المحتجزين في منازلهم بعد عيد الميلاد.

وبينما كنا نتناول المشروب، رحت أرقبه. كانت تبدو عليه علامات الإصرار الشديد مما يوحي بأنه شخص عنيد، لكن دون قبعته العسكرية كان شبه أصلع مما أضفى عليه بعض الضعف. حاولت أن أتخيله دون زيه الرسمي؛ شخصًا عاديًّا يؤدي مهامه اليومية، يبتاع الصحف، يأخذ إجازة، لكني لم أستطع، لم أستطع تجاوز زيه الرسمي.

- إن الحرب أمر يجعل المرء وحيدًا، أليس كذلك؟

تناولت رشفة من كأسي وقلت: «لديك رجالك، ولدي عائلتي، لا أحد منا يعاني تمامًا من الوحدة».

- لكنا لسنا متشابهين، أليس كذلك؟

- جميعنا نجتاز ذلك بأفضل ما يمكننا.

- أحقًّا نفعل؟ لست واثقًا من أن أي أحد يمكنه وصف ذلك بأنه «أفضل الأمور».

جعلني الكونياك أتحدث بصراحة فقلت: «إنك من تجلس في مطبخي أيها القائد وأشير -مع احترامي- إلى أن طرفًا واحدًا منا فقط هو من له الخيار».

غشيت وجهه سحابة من الغضب، فلم يعتد أن يتحداه أحد، وتصاعدت بعض الدماء إلى وجنتيه، ورأيته رافعًا ذراعه وبندقيته مصوبة باتجاه الأسير.

ثم قال في هدوء: «هل تعتقدين أن أيًّا منا يملك الخيار؟ أترين أن أيًّا منا قد اختار أن يعيش على هذا النحو؟ محاط بالدمار؟ ومن ارتكبوه؟ إذا ما شاهدتِ ما نراه على الجبهة ستعتقدين أنك...».

توقف عن الحديث ثم هز رأسه قائلًا: «آسف سيدتي، إنه هذا الوقت من العام، إنه يكفي لأن يجعل المرء جياش العواطف، وجميعنا يعلم أنه ما من شيء أسوأ من جندي يفيض عاطفة».

ثم ابتسم ابتسامة توحي بالاعتذار، وهدأت قليلا. وجلسنا على الجانب الآخر من الطاولة نرتشف من كأسينا وتحيط بنا بقايا الطعام. وفي الحجرة الأخرى شرع الجنود في الغناء. وسمعت أصواتهم تتعالى، كانت نغمتهم مألوفة، والكلمات غير مفهومة. ومال القائد برأسه لينصت، ثم وضع كأسه على الطاولة وقال: «تكرهين وجودنا هنا، أليس كذلك؟».

طرفت بعيني وقلت: «إنني دومًا أحاول أن...».

- هل تعتقدين أن ملامح وجهك لا تفضحك؟ لكني أشاهدك جيدًا. لقد علمتني السنون التي أمضيتها في هذا العمل الكثير عن الناس وأسرارهم. ألا يمكن أن نعلن هدنة سيدتي؟ فقط في خلال هذه الساعات.

- هدنة؟

- ستتناسين أنني جزء من جيش العدو، وسأتناسى أنك امرأة تمضي الكثير من وقتها في محاولة لأن تكسر شوكة هذا الجيش، ودعينا فقط نكون... مجرد شخصين عاديين.

لانت ملامح وجهة لفترة، ثم رفع كأسه نحوي ورفعت أنا كأسي على مضض.

- دعينا نتجنب موضوع عيد الميلاد والشعور بالوحدة وخلافه. أريدك أن تخبريني عن الرسامين الآخرين في الأكاديمية وأخبريني كيف قابلتِهم؟

لم أستطع أن أحسب الفترة التي أمضيناها معًا، ولكي أكون محقة، فقد تبخرت الساعات في تبادل أطراف الحديث وتناول الخمر المشتعل احمرارًا. أراد القائد أن يعرف كل شيء عن حياة الرسام في باريس. أي نوع من الرجال كان ماتيس؟ هل كانت حياته صارخة كفنه؟

- أوه، لا، لقد كان شديد الدقة من الناحية الفكرية، صارمًا، وشديد التحفظ في كل من عمله وشؤونه الداخلية.

لكن بطريقة ما، فكرت للحظة في المعلم ذي النظارة وهو يلقي نظرة سريعة ليتأكد من أنك فهمت كل نقطة يقصدها في اللوحة قبل أن ينتقل إلى القطعة الأخرى.

قلت: «إنه شيء مبهج... أعتقد أنه يستقي سعادة كبيرة مما يفعله».

فكر القائد فيما قلته كما لو أن إجابتي أشعرته بالرضى ثم قال: «يومًا ما كنت أرغب أن أكون رسامًا، لكني لم أكن بارعًا بالطبع، وكان عليَّ أن أواجه حقيقة الأمر في وقت مبكر». ثم مرر أصابعه على ساق كأسه واستكمل حديثه قائلًا: «إنني دائمًا ما أعتقد أن القدرة على العيش من خلال فعل الشيء الذي يحبه المرء هو أعظم هبات الحياة».

فكرت في إدوارد حينها وهو غارق في التركيز وينظر إليَّ من خلف حامل اللوحة. إذا ما أغمضت عيني استطعت أن أستشعر حرارة المدفأة على ساقي اليمنى والبرودة الخفيفة على ساقي اليسرى حيث الجزء العاري من جسدي. أستطيع أن أراه وهو يرفع أحد حاجبيه وأعرف النقطة التي غادرت فيها أفكاره اللوحة أمامه».

- أعتقد هذا أيضًا.

قال لي في أول ليلة عيد ميلاد لنا معًا: «في المرة الأولى التي وقعت فيها عيناي عليك رأيتك وأنت تقفين في منتصف المتجر المزدحم وظننت أنك أكثر امرأة متحفظة رأيتها في حياتي. بدوت وكأن العالم سينفجر من حولك ويتفتت إلى شظايا وها أنت ذي أمامه ذقنك مرفوع عاليًا وأنت تنظرين بغطرسة من أسفل ذلك الشعر البديع».

أخبرته قائلة: «ظننت أنك دب روسي».

رفع أحد حاجبيه، وكنا في مطعم مزدحم على مسافة من شارع تيربيجو فقلد صوت الدب قائلًا: «جررررررر». حتى غرقت في نوبة من الضحك فعانقني بقوة هناك في منتصف المقعد الطويل وأغرق عنقي بالقبلات متجاهلًا الأشخاص الذين يأكلون حولنا... «جرررررر».

توقفوا عن الغناء في الحجرة الأخرى وفجأة استعدت وعيي ونهضت لأنظف الطاولات.

قال القائد وهو يشير لي أن أجلس: «أرجوك اجلسي لفترة أطول إنها ليلة عيد الميلاد على أي حال».

- يتوقع رجالك أن تنضم إليهم.
- على العكس إنهم يستمتعون بأنفسهم أكثر إذا ما كان قائدهم غائبًا، وليس من العدل أن أفرض نفسي عليهم طوال الوقت.

حدثت نفسي قائلة: «لكن من العدل أن تفرض نفسك عليّ أنا». عندها سألني: «أين أختك؟».

قلت: «طلبت منها أن تذهب إلى الفراش، فقد شعرت ببعض التعب، وكانت منهكة بعد ما فرغت من الطهو هذه الليلة، أردت أن تصبح بصحة جيدة من أجل غد».

- وأنت ماذا ستفعلين؟ هل ستحتفلين؟
- هل تبقى لنا الكثير لنحتفل؟
- الهدنة سيدتي، أنسيت؟

هززت كتفي في لا مبالاة قائلة: «سنذهب إلى الكنيسة، وربما نزور جيراننا كبار السن، فمن الصعب أن يتركوا بمفردهم في هذا اليوم».

- إنك تعتنين بكل شخص، أليس كذلك؟
- إنها ليست بجريمة أن أكون إحدى الجيران الطيبين.
- سلة الأخشاب التي بعثتها من أجل أن تستخدميها أعلم أنك أرسلتِها إلى بيت العمدة.
- ابنته مريضة وهي بحاجة إلى مزيد من الدفء أكثر منا.
- اعلمي سيدتي أنه ما من خافية تخفى عليَّ في هذه المدينة الصغيرة. لا شيء.

تحاشيت النظر إلى عينيه، وخشيت هذه المرة أن يفضحني وجهي ودقات قلبي المتسارعة. ليتني أستطيع أن أمحو من ذهني معرفتي بالاحتفال الذي يقام على بعد سنتيمترات من هنا. ليتني أستطيع أن أهرب من شعوري بأن القائد يلعب معي لعبة القط والفأر.

تناولت رشفة من الكونياك، وشرع الرجال في الغناء مرة أخرى. إنني أعرف هذه الترنيمة.

ليلة هادئة.. ليلة مقدسة

الكل نيام وكل شيء مشرق حولك

لماذا يتطلع إليَّ هكذا؟ كنت خائفة من أن أتحدث، خائفة من أن أنهض ثانية حال إذا ما سأل أسئلة محرجة، ومع هذا فجلوسي وتحديقه إليَّ أشعرني بأني متورطة في شيء. وفي النهاية أخذت نفسًا قصيرًا ونظرت إلى أعلى. كان لا يزال يرقبني.

- سيدتي، هل تسمحين لي بالرقص؟ رقصة واحدة فقط؟ من أجل ليلة عيد الميلاد؟

- أرقص؟

- رقصة واحدة فقط، أود... أود أن تذكريني بالجانب الأفضل من الإنسانية، مرة واحدة فقط هذا العام.

- لا ...لا أعتقد أنني.

ثم فكرت في هيلين والآخرين -في نهاية الشارع- ينعمون بالحرية لليلة واحدة. تذكرت ليليان بيتون. تفرست وجه القائد. بدا طلبه صادقًا. سنكون فقط... شخصين.

ثم فكرت في زوجي. هل أتمنى له أن يجد ذراعين عطوفتين ليرقص بينهما لليلة واحدة؟ هل آمل أن يجد في مكان ما يبعد أميالًا عنا سيدة ذات قلب طيب تذكره في حانة هادئة أن العالم يمكن أن يكون مكانًا جميلًا؟

قلت: «سأرقص معك أيها القائد، لكن في المطبخ فقط».

نهض ومد يده، وبعد هنيهة من التردد أمسكت بها. ولدهشتي كانت راحة يده خشنة. فاقتربت منه عدة خطوات ولم أرفع عيني نحو وجهه، وأراح هو يده الأخرى على خصري. وبينما كان الرجال في الحجرة المجاورة يغنون، شرعنا في التحرك ببطء حول المائدة وأنا واعية تمامًا بجسده الذي لا يبعد عني سوى سنتيمترات قليلة وضغطة يده على المشد. شعرت بقماش زيه الصوفي الخشن يلامس ذراعَيَّ العاريتين. وبالاهتزازات الخفيفة لهمهماته النابعة من صدره، أحسست وكأني مفعمة بالتوتر وأن كل حاسة من حواسي ترقب أصابعي وذراعي للتأكد من أني لا أقترب بشدة خشية أن يجذبني إليه في أي لحظة.

وفجأة تردد صوت في ذهني قائلًا *إنني أرقص مع ألماني*.

ليلة هادئة... ليلة مقدسة
أوه يا إلهي... كيف يضحك

لكنه لم يفعل شيئًا. راح يدندن واحتضنني برفق، وتحرك باستمرار في دوائر حول طاولة المطبخ. ولعدة دقائق أغمضت عيني وكنت فيها فتاة نابضة بالحياة، متحررة من قيود الجوع والبرد أرقص عشية عيد الميلاد ورأسي يدور قليلًا من الكونياك الجيد، أتنفس عبق روائح التوابل والطعام الشهي. عشت كما كان إدوارد يستمتع بكل لحظة من السعادة وسمحت لذاتي أن أرى الجمال في كل هذا. لقد مر عامان منذ أن عانقني رجل. أغلقت عيني واسترخيت وأطلقت لنفسي العنان كي أستشعر ما أنا فيه، وتركت شريكي يتمايل بي وهمهماته ترن في أذني.

أيها المسيح إنه ميلادك
أيها المسيح إنه ميلادك

توقف الغناء، وبعد لحظة تراجع إلى الخلف رغمًا عنه وأفلتني من بين يديه وقال: «أشكرك، أشكرك سيدتي».

وحينما تجرأت في النهاية ورفعت بصري نحوه رأيت الدموع في عينيه.

في صباح اليوم التالي وصل صندوق صغير أمام الباب. كان يحتوي على ثلاث بيضات وفرخ صغير وحبات بصل وجزر وفي الجانب بطاقة مكتوب عليها بعناية بالألماني Fröhliche Weihnachten. قال أوريلين: «إنها تعني عيد ميلاد سعيد».

ولسبب ما رفض أن ينظر إلي.

***

7

مع انخفاض درجات الحرارة، أحكم الألمان سيطرتهم على سان بيرون. أصبحت المدينة غير مستقرة. توافدت أعداد كبيرة من القوات يوميًّا إلى الحانة، واتخذت حواراتهم مسارًا جديدًا، كنا نمضي أنا وهيلين معظم أوقاتنا في المطبخ. كان القائد نادرًا ما يتحدث إلينا، فقد كان يمضي معظم وقته يتشاور مع قليل من رجاله المخلصين. كان يبدو عليه التعب وحينما سمعت صوته في غرفة الطعام كان عاليًا من حدة الغضب.

ولعدة مرات في يناير سار أسرى الحرب الفرنسيون في الشارع الرئيسي ومروا أمام الحانة، ولكن لم يعد مسموح لنا أن نقف على الطوار لمشاهدتهم. أضحى الطعام أقل ندرة، وانخفضت حصتنا الرسمية وكان من المتوقع أن أستحضر الولائم من تلك الكميات المتناقصة من الخضار والفاكهة. كانت المشكلات تزداد اقترابًا.

وحينما وصلت جريدة المحتلين تحدثت عن القرى التي نعرفها. وفي المساء لم يكن غريبًا أن يسبب دوي البنادق البعيدة تشققات خفيفة في زجاج الطاولات. ومرت أيام قبل أن أدرك أن الصوت الذي غاب هو تغريد الطيور. تلقينا خبر مفاده أن كل الفتيات من عمر السادسة عشر وكل الفتيان من عمر الخامسة عشر مطلوبون من الآن للعمل من أجل خدمة الألمان، سواء لنزع زرع بنجر السكر أو العناية بنباتات البطاطس، أو إرسالهم إلى أماكن أبعد للعمل في المصانع.

وبالنسبة لأوريلين فلم يتبق سوى شهور ليتم عيد ميلاده الخامس عشر مما زاد من قلقنا أنا وهيلين. انتشرت الشائعات عن ما يحدث للصغار وحكايات عن الفتيات اللاتي يقمن مع عصابات من المجرمين أو –ما هو أسوأ- يتلقين تعليمات للترفيه عن الجنود الألمان، والصبيان يتصورون جوعًا أو يضربون ويتنقلون باستمرار حتى يظلوا مشتتين وخاضعين. وبالرغم من أعمارنا أنا وهيلين التي ينطبق عليها ذلك، فقد أخبرنا الألمان أنه تم إعفاؤنا لأنهم يعتبروننا «شيئًا ضروريًّا لنفع الألمان» في الفندق. هذا وحده كان كفيلًا بإثارة الاستياء في بقية القرية حينما نما هذا إلى علمهم.

كان هناك شيء آخر؛ ذلك التغيير الطفيف الذي طرأ لكنني كنت على دراية به. فقد قل عدد الوافدين إلى الحانة وقت النهار، وانخفض عدد الوجوه العشرين المألوفين إلى نحو ثمانية. اعتقدت في البداية أن البرد يبقيهم في منازلهم، ثم اعتراني القلق فزرت العجوز رينيه لأرى إذا ما كان مريضًا، لكنه قابلني على الباب وقال لي بفظاظة إنه يفضل البقاء في المنزل وتحاشى النظر إلى عيني وهو يحدثني. وحدث المثل حينما ذهبت لزيارة السيدة فوبرت وزوجة العمدة فشعرت بعدم اتزان غريب، وحدثت نفسي بأن هذا من نسج خيالي. لكن حدث ذات مرة في وقت الغداء أن مررت أمام حانة بلانك في طريقي إلى الصيدلية ورأيت رينيه والسيدة فوبرت يجلسان أمام طاولة بداخل الحانة يلعبان الداما. أقنعت نفسي بأن عينيَّ تخدعانني، وحينما اقتنعت أنهما لم يفعلا، أخفضت رأسي ومررت أمامهما مسرعة.

الوحيدة التي منحتني ابتسامة ودودة كانت ليليان بيتون. لقد أمسكت بها مرة ذات صباح قبيل الفجر بوقت قصير وهي تلقي بمظروف من أسفل الباب. وقد قفزت للوراء بينما كنت أفتح مزلاج الباب وقالت وهي تضع يدها على فمها: «يا إلهي... أحمد الله أنه أنت».

قلت وأنا أنظر إلى أسفل نحو المظروف كبير الحجم غير الموجه لأحد: «هل هو الشيء الذي أتخيله؟».

قالت وهي تسير عائدة نحو الميدان: «من يدري، لم أر شيئًا هناك».

لكن ليليان بيتون كانت الأقلية الوحيدة، فمع مرور الأيام لاحظت أشياء أخرى؛ فإذا ما خطوت من المطبخ إلى داخل البار، يهدأ الحديث الدائر كما لو أن من يتكلم مصمم على أنني لن أسترق السمع لما يقال. وإذا ما تحدثت

خلال أي حديث يبدو الأمر كما لو أنني لم أقل شيئا على الإطلاق. ومرتان قدمت فيهما وعاء من المرق أو الحساء إلى زوجة العمدة فتخبرني إنهم لديهم ما يكفي وتشكرني، وقد اتبعت أسلوبًا غريبًا عند الحديث معي؛ ليس أسلوبًا جافًا بمعناه وإنما شيء من الراحة حينما أتوقف عن المحاولة. لم أعترف بهذا لكن كان هناك نوع من الطمأنينة حينما يمتلئ المطعم بالأصوات مرة أخرى حتى وإن حدث وكانت أصوات الألمان.

كان أوريلين هو من أوضح لي الأمر.

- صوفي.

- نعم؟

كنت أصنع العجين من أجل فطيرة من الأرانب والخضراوات، وكانت يداي والمريلة ملطخة بالدقيق وكنت أتساءل هل يمكنني أن أخبز بأمان قطع البسكويت للأطفال من بقايا العجين؟

- هل يمكنني أن أسألك عن شيء؟

مسحت يدي في المريلة وأنا أقول: «بالطبع».

كان أخي ينظر إليَّ وتعبير غريب يعلو وجهه كما لو أنه يحاول أن يتوصل إلى شيء.

- هل... هل تحبين الألمان؟

- أحبهم؟

- نعم.

- ما هذا السؤال السخيف، بالطبع لا، وأتمنى أن يرحلوا ونعود لحياتنا من قبل.

- لكنك تعجبين بالقائد.

توقفت ويداي على مرقاق العجين واستدرت قائلة له: «أتدري أن هذا كلام خطير؟ مثل هذا النوع من الحديث يزج بنا في مشكلات كبيرة».

- ليس كلامي هو من سيزج بنا في المشكلات.

سمعت بالخارج في الحانة سكان البلدة يتحدثون، فسرت نحو باب المطبخ وأغلقته فلم يبق سوانا نحن الاثنان في المطبخ. وحينما تحدثت

ثانية حاولت أن أجعل صوتي منخفضًا ومتزنًا وقلت: «قل ما ترغب في قوله أوريلين».

- يقولون إنك لست أفضل من ليليان بيتون.
- ماذا؟
- رآك السيد سول وأنت ترقصين مع القائد عشية عيد الميلاد. كنت تقتربين منه وعيناك مغمضتان وجسماكما متلاصقان كما لو كنت تحبينه.

كادت الصدمة تصيبني بالإغماء وقلت: «ماذا؟».

- يقولون إن هذا سبب رغبتك في الابتعاد عشية العيد كي تكوني على انفراد معه. ويقولون لهذا السبب نحن نتلقى كميات إضافية من المؤن فأنت من الشخصيات المفضلة لدى الألمان.

تذكرت كدمات عينيه، ورفضه الغامض للحديث عندما طلبت منه كيف تلقاها وقلت له: «أهذا ما كنت تتشاجر بسببه في المدرسة؟».

- هل صحيح ما يقولون؟

ألقيت بمرقاق العجين بقوة جانبًا وقلت له: «لا، ليس صحيحًا، لقد سألني إن كان يمكننا أن نرقص لمرة واحدة فقط من أجل عيد الميلاد وظننت أنه من الأفضل أن يفكر بشأن الرقص والبقاء هنا بدلًا من المخاطرة بجعله يتساءل عما يجري في منزل السيدة بولين. ليس هناك شيء أكبر من هذا في الأمر؛ كانت أختك تحاول أن تحميك في تلك الليلة، فهذه الرقصة جعلتك تفوز بعشاء يحتوي على لحم الخنزير أوريلين».

- لكنني رأيته، رأيت إعجابه بك.
- إنه معجب بصورتي. هناك فارق كبير.
- سمعت الأسلوب الذي يتحدث به إليك.

عبست في وجهه، فرفع عينيه نحو السقف. إنها الساعات التي يمضيها بالطبع وهو يتلصص النظر خلال فجوات الألواح الخشبية في حجرة 3. فلا بد أن أوريلين قد رأى وسمع كل شيء.

- لا تستطيعين أن تنكري أنك تروقين له، فهو يناديك بـ «أنتِ» كأنك من معارفه وليس «أنتم» حينما يتحدث إليك وأنت تسمحين له بذلك.

- إنه قائد ألماني أوريلين وليس لديَّ الخيار فيما يجب أن يناديني به.
- إنهم جميعًا يتحدثون عنك صوفي، إنني أجلس بالطابق الأعلى وأسمع الأسماء التي يطلقونها عليك ولا أدري ما الذي أصدقه.

اتقدت عيناه بالغضب والارتباك.

سرت نحوه وأمسكت بكتفيه وقلت: «إذًا صدق ما أقوله هذا؛ لا يوجد شيء يجعلني أجلب العار لنفسي ولزوجي، فكل يوم أبحث عن سبل جديدة لأبقي عائلتي بخير وأجلب الغذاء والراحة والأمل لجيراني وأصدقائي. ليس لديَّ أي شعور تجاه القائد. أحاول أن أتذكر أنه إنسان مثلنا تمامًا. لكن إذا ظننت أنني يمكن أن أخون زوجي إدوارد فأنت أحمق. إنني أحب إدوارد بكل جوارحي، وكل يوم يولي أشعر بغيابه وكأنه ألم حقيقي. إنني أظل مستيقظة كل ليلة وأنا أخشى مما يمكن أن يصيبه. والآن لا أريد أن أسمعك تتحدث بهذا الأسلوب ثانية. هل تسمعني؟».

هز رأسه.

- هل تسمعني؟

أومأ بتجهم.

قلت مضيفة: «أوه، ولا تتسرع أيضًا بالحكم على ليليان بيتون، ربما تجد نفسك مدينًا لها بأكثر مما تظن». ربما كان يجب ألا أقول له هذا لكني كنت غاضبة بشدة.

حدق أخي إلى وجهي ثم اندفع خارج المطبخ وصفق الباب خلفه. نظرت إلى العجين عدة دقائق قبل أن أتذكر أنني كنت أريد أن أصنع منها فطيرة.

في وقت متأخر من الصباح، ذهبت لأتجول عبر الميدان. في العادة تذهب هيلين لتجلب الخبز -خبز الألمان المصنوع من الدقيق والشعير Kriegsbrot- لكني أردت أن أصفي ذهني وخاصة أن الجو في الحانة أصبح خانقًا. كان الطقس شديد البرودة في يناير مما آلم رئتي، وقد غطت أغصان الأشجار العارية طبقة من الجليد، فجذبت القبعة لأسفل والوشاح لأعلى ليحيط بفمي. كان يسير في الشوارع بضعة أشخاص ولكن مع ذلك شخص واحد فقط وكانت السيدة بونارد العجوز هي من أومأت بالتحية لي. حدثت نفسي قائلة: «إنها قدمت التحية لأنه ببساطة أسفل كل تلك الطبقات التي أرتديها كان من الصعب معرفة من أكون».

سرت حتى وصلت إلى شارع باستيد الذي تغير اسمه ليصبح شيلر بلاتس Schieler Platz (لكننا رفضنا أن نشير له بهذا الاسم). كان باب المخبز مغلقًا فدفعته بيدي. بالداخل كانت السيدة لوفير والسيدة ديورانت تتبادلان حديثًا شائقًا مع السيد أرماند، وتوقفتا عن الحديث حينما أُغلقَ الباب خلفي.

قلت وأنا أعدل من وضع السلة أسفل ذراعي: «صباح الخير».

أومأت لي بالتحية السيدتان الملتحفتان بطبقات من الصوف بعدم اكتراث، وكان السيد أرماند يقف ويداه على النضد الذي أمامه.

انتظرت قليلًا ثم التفت إلى السيدة العجوز قائلة: «هل أنت بخير سيدة لوفير؟ لم نرك في الحانة لعدة أسابيع. خشيت أن تكوني مريضة».

بدا صوتي عاليًا على نحو غير طبيعي ومرتفعًا في المحل الصغير.

قالت السيدة العجوز: «لا، أفضل البقاء في المنزل هذه الأيام». ولم تلتق عيناها بعيني وهي تحدثني.

- هل أخذت البطاطس الذي تركتها لك الأسبوع الماضي؟

قالت وقد حولت بصرها جانبًا نحو السيد أرماند: «نعم، لكني أعطيتها للسيدة جرينويل فهي أقل اهتمامًا بالمصدر الذي يأتي منه طعامها».

تسمرت في مكاني، إذًا هذا ما آلت إليه الأمور. أشعرني هذا الظلم بخيبة أمل مريرة.

- إذًا آمل أن تكون قد استمتعت به. سيد أرماند، أريد بعضًا من الخبز. أرغفتي أنا وهيلين من فضلك.

كم تمنيت أسمع نكتة من نكاته. نكتة خارجة أو طرفة من طرائفه وهو يقلب عينيه في جميع الاتجاهات. لكن الخباز نظر إليَّ وكانت نظرته ثابتة غير ودودة. لم يذهب إلى الحجرة الخلفية كما توقعت، بل إنه لم يتحرك. وحينما كنت على وشك أن أكرر طلبي مد يده أسفل النضد ووضع فوقه رغيفين من الخبز الأسود.

حدقت النظر إليهما.

بدت درجة الحرارة منخفضة في المخبز، لكني شعرت بأعين الثلاثة وكأنها نار تحرقني.

كانت الأرغفة على النضد سميكة وداكنة.

رفعت عيني وابتلعت ريقي وقلت بهدوء: «واضح أنني ارتكبت خطأ، لسنا بحاجة إلى خبز اليوم».

ثم أعدت محفظة النقود مرة أخرى إلى السلة.

غمغمت السيدة ديورانت قائلة: «لا أظن أنكما بحاجة إلى الكثير منه في الوقت الحالي».

التفت نحوها ونظرنا إلى بعضنا بعضًا أنا والسيدة العجوز.

ثم غادرت المحل ورأسي مرفوع عاليًا.

يا للخزي، يا للظلم. رأيت النظرات الساخرة في أعين السيدتين العجوزتين وأدركت كم كنت حمقاء. كيف استغرق الأمر مني وقتًا طويلًا، كي أكتشف ما يحدث من وراء ظهري! سرت عائدة نحو الفندق، وقد احمرت وجنتاي، وعقلي مشتت. كان صدى كلماتهم يتردد عاليًا في أذني فلم أسمع الصوت الذي يناديني.

- توقفي!

توقفت ونظرت حولي.

- توقفي!

كان هناك جندي ألماني يتقدم نحوي، ويداه مرفوعتان لأعلى. انتظرت أسفل التمثال المحطم للسيد لوكلير. كانت الدماء لا تزال تتصاعد إلى وجنتي. سار باتجاهي مباشرة وقال: «لقد تجاهلتني».

- إنني أعتذر أيها الضابط. لم أسمعك.

- إنها جريمة كونكِ تتجاهلين ضابطًا ألمانيًّا.

- كما قلت لك لم أسمعك. أقدم اعتذاراتي.

أزحت الوشاح قليلًا عن وجهي. وعرفت من يكون؛ كان الضابط الشاب الذي أمسك بهيلين وهو ثمل في الحانة وضرب القائد رأسه بالحائط بسبب ما اقترفه. رأيت ندبة صغيرة على صدغه، وأدركت أنه قد عرفني أيضًا.

- أظهري بطاقة هويتك.

لم تكن في جيبي، فقد انشغلت بكلمات أوريلين فنسيتها على مائدة الردهة في الفندق.

- لقد نسيتها.

- إنها جريمة أن تغادري منزلك دون بطاقة هوية.

أشرت إلى الفندق وقلت: «إنها هناك، إذا سرت معي إلى هناك يمكنني أن أحضرها لك».

- لن أذهب إلى أي مكان. ما الذي كنت تفعلينه؟

- كنت ذاهبة... إلى المخبز.

نظر إلى السلة الفارغة وقال: «لتشتري خبزًا غير مرئي...».

- لقد غيرت رأيي.

- فلا بد وأنك تأكلين جيدًا في الفندق هذه الأيام. كل فرد حريص هذه الأيام على أن يحصل على حصته.

- إنني لا أتناول طعامًا أفضل من أي أحد.

- أفرغي جيوبك.

- ماذا؟

وكزني ببندقيته وقال: «أفرغي جيوبك، وانزعي عنك بعضًا من هذه الطبقات حتى أرى ما تحملينه».

كانت الحرارة تقل عن واحد درجة مئوية في وقت النهار. كانت الرياح الباردة قد خدرت كل سنتيمتر في بشرتي المكشوفة. وضعت السلة بأسفل، وأزحت ببطء الشال الأول.

قال: «ألقيه على الأرض، ثم انزعي عنك التالي».

نظرت حولي ورأيت زبائن الحانة يشاهدون ما يحدث عبر الميدان. نزعت ببطء الشال الثاني ثم المعطف الثقيل. شعرت بنوافذ الميدان الخالية تراقبني. ضرب المعطف بالحربة فأسقطه في الثلج والطين وقال: «اقلبي جيوبه للخارج».

جثوت ووضعت يدي في الجيوب. أصبحت أرتعش الآن ورفضت أصابعي -التي تحول لونها إلى اللون الأرجواني- أن تنصاع لي. وبعد عدة محاولات أخرجت من المعطف دفتر الحصص الغذائية وورقتين من فئة خمسة فرانك وقصاصة ورق.

اختطفها مني وقال: «ما هذا؟».

- ليس شيئًا ذا أهمية أيها الضابط. إنها... إنها هدية من زوجي. أرجوك دعني أحتفظ بها.

سمعت رنة الذعر في صوتي. وبينما كنت أتفوه بتلك الكلمات، كنت أدرك أنني أخطأت في قولها. فتح ورقة الرسم الصغيرة التي رسمها إدوارد لنا: كان هو على هيئة دب في زيه الرسمي، وأنا تبدو عليَّ ملامح الجدية في رداء أزرق ذي طابع رسمي.

قال: «ستتم مصادرة هذا».

- ماذا؟

- لا يحق لك أن تحملي ما يشبه الزي الرسمي الفرنسي. سأتخلص منه.

قلت وأنا لا أصدق ما يقوله: «لكنه رسم تافه لدب».

- دب في زي رسمي فرنسي. يمكن أن تكون شفرة.

- لكنها -لكنها دعابة- مزاح بيني وبين زوجي. أرجوك لا تمزقها.

مددت يدي لكنه أزاحها بعيدًا.

- أرجوك، ليس لديَّ سوى القليل ليذكرني به.

وبينما كنت أقف -وأنا أرتجف- نظر مباشرة في عيني ومزقها قطعتين، ثم مزق القطعتين إلى قصاصات صغيرة وهو يشاهد تعبيرات وجهي والورق يسقط متناثرًا على الأرض المبللة.

- في المرة القادمة تذكري أوراقك أيتها العاهرة.

ثم سار مبتعدًا لينضم لرفقائه.

قابلتني هيلين وأنا أدلف من الباب وأقبض على شيلاني الباردة المبللة. شعرت بأعين الزبائن مسلطة نحوي وأنا أشق طريقي إلى الداخل، لكني لم أجد ما أقوله لهم. سرت عبر الحانة وعدت للردهة الصغيرة وأنا أحاول جاهدة بيدي المتجمدتين أن أعلق الشالات على الحوامل الخشبية.

قالت أختي من خلفي: «ماذا حدث؟».

قلت وأنا غاضبة للغاية وبالكاد أستطيع الحديث: «الضابط الذي أمسك بك في تلك المرة. لقد مزق الرسم الذي رسمه إدوارد، قطعه إلى قصاصات صغيرة ليثأر منا بعد ما ضربه القائد. ولا يوجد خبز لأنه من الواضح أن السيد أرماند يعتقد أيضًا أنني عاهرة».

كنت ما زلت لا أشعر بوجهي من شدة البرد وبالكاد كلامي مفهوم، لكني كنت غاضبة وصوتي مسموع.

- صه.

- لماذا؟ لماذا يجب أن أهدأ. إنني لم أرتكب خطأ. هذا المكان يعج بالأشخاص الذين يتهامسون ويثرثرون وما من أحد يقول الحقيقة.

هززت رأسي في غضب ويأس.

أغلقت هيلين الباب ودفعت بي لأصعد الدرج ومنه نحو غرف النوم الخالية وهي واحد من الأماكن الذي لن يسمعنا فيها أحد.

- اهدئي وأخبريني بما حدث.

أخبرتها حينها بكل شيء. أخبرتها بما قاله أوريلين، والطريقة التي تحدثت بها السيدات في المخبز، وعن السيد أرماند والخبز الذي لن نخاطر الآن بتناوله. استمعت هيلين إلى كل هذا وهي تحيطني بذراعيها وتريح برأسها على رأسي وهي تصدر أصواتًا تنم عن التعاطف وأنا أتحدث إلى أن قالت: «أرقصت معه؟».

مسحت عيني.

- نعم.

- هل رقصت مع القائد؟

- لا تنظري إليّ هكذا. كنت تعرفين ما الذي أفعله في تلك الليلة. تعلمين أنني فعلت ما بوسعي كي أبعد الألمان عن احتفال عيد الميلاد. إن إبقاءه هنا كان يعني أن تستمتعي بوليمة كبيرة. لقد أخبرتني أنه أفضل يوم بالنسبة لك منذ أن غادر جين- ميشيل.

نظرت إلي.

- ألم تقولي هذا؟ ألم تستخدمي تلك الكلمات؟

ما زالت لم تتفوه بشيء.

- ماذا؟ هل ستنعتينني بالعاهرة أنت أيضًا؟

نظرت هيلين نحو قدميها، ثم قالت أخيرًا: «ما كنت لأرقص مع ألماني، صوفي».

حاولت استيعاب مغزى كلماتها، ثم نهضت ودون أن أتفوه بكلمة هبطت الدرج، وسمعتها تناديني باسمي، وأدركت في مكان مظلم بداخلي، أن كلماتها جاءت متأخرة.

كنا نعمل أنا وهيلين مع بعضنا بعضًا في صمت، ونتواصل بأقل قدر ممكن ونتحدث فقط لنؤكد أن الفطيرة ستنضج في السابعة والنصف أو أن النبيذ بالفعل غير مغلف وحقًّا زجاجات النبيذ تقل أربع زجاجات عن الأسبوع الماضي. كان أوريلين يمكث بالطابق الأعلى مع الأطفال. ميمي فقط كانت تنزل لتعانقني فكنت أنا الأخرى أعانقها بشدة وأستنشق رائحة الأطفال الحلوة التي تفوح منها وأستشعر بشرتها الناعمة على بشرتي فأهمس قائلة: «أحبك صغيرتي ميمي».

فتبتسم من أسفل شعرها الأشقر الطويل: «أحبك أنا أيضًا خالتي صوفي».

وضعت يدي في مريلتي وأدخلت في فمها شريحة صغيرة من الفطائر الناضجة التي كنت قد ادخرتها لها قبل سابق، وبينما كانت تبتسم رافقتها هيلين وهي تصعد الدرج لتذهب إلى الفراش.

وعلى العكس من حالتي المزاجية أنا وأختي، بدا الجنود مبتهجين بشكل غريب هذا المساء؛ فلم يشكُ أحد من نقص الحصص؛ ولم يبالوا بهذا النقص في كمية النبيذ. القائد وحده كان مشغولًا ومتجهمًا. جلس منفردًا بينما كان الجنود الآخرون يشربون نخب شيء وجميعهم في حالة من البهجة. وتساءلت إن كان أوريلين بالطابق الأعلى يستمع إليهم وإذا ما كان يفهم ما يقولون.

قالت هيلين حينما استلقينا في الفراش فيما بعد: «دعينا لا نجادل، إنني أجد الأمر مرهقًا». ومدت يدها نحو يدي فأمسكت بها في الحجرة شبه المظلمة، لكن كلتينا تعلم أن شيئًا ما تغير.

كانت هيلين هي من ذهبت إلى المتجر في صباح اليوم التالي. لم يكن هناك سوى أكشاك قليلة هذه الأيام، بعض اللحوم المحفوظة، والبيض باهظ الثمن بشكل مفزع، وقليل من الخضراوات، ورجل عجوز من إقليم La

Vendée فنديه يصنع الثياب الداخلية من الأقمشة القديمة. مكثت في الفندق أقدم الطلبات للعدد القليل الذي تبقى من العملاء وأنا أحاول ألا ألقي بالًا أنني ما زلت بوضوح محور مناقشات غير ودية.

وفي قرابة العاشرة والنصف انتبهنا لوجود جلبة بالخارج، وتساءلت إن كان هناك المزيد من الأسرى، لكن هيلين جاءت مسرعة وشعرها منسدل وعيناها متسعتان.

قالت: «لن تصدقي، إنها ليليان».

بدأ قلبي يدق، وألقيت بمنافض السجائر التي كنت أنظفها وهرعت صوب الباب يحيط بي الزبائن الآخرون الذين نهضوا جميعهم من مقاعدهم. وعلى أول الطريق جاءت ليليان بيتون. كانت ترتدي معطفها الاستراخان، لكنها لم تعد تشبه عارضة الأزياء الباريسية ولا ترتدي شيئًا آخر وساقاها ملطختان باللون الأزرق بسبب البرد والكدمات. كانت ساقاها عاريتين ومخضبتين بالدماء، وعينها اليسرى نصف مفتوحة من التورم، وشعرها يتهدل حول وجهها وكانت تعرج كما لو أن كل خطوة تمثل جهدًا عبثيًا. ووقف على جانبيها اثنان من الضباط الألمان يوجهانها ومن ورائهم مجموعة من الجنود. ولأول مرة لم يعترضوا حينما خرجنا لنشاهد ما يجري.

اتسخ المعطف الاستراخان الجميل بالطين، ولم تلطخ ظهره بقع الدماء اللزجة فقط إنما بقع البصاق التي لا تُخطئها العين.

وبينما أنظر إليها، سمعت نحيبًا: «أمي! أمي! ومن خلفها رأيت إديث ابنة ليليان ذات الأعوام السبعة يمنعها الجنود الآخرون. راحت تنتحب وتتلوى وهي تحاول أن تتخطاهم لتصل إلى أمها، وقد تشنجت قسمات وجهها. جذب أحدهم ذراعها ولم يسمح لها بالاقتراب، وابتسم الآخر كما لو أن الأمر مسل. وعند مرورها أمام الفندق بدأت موجة من الاستهزاء.

- انظروا إلى العاهرة المتفاخرة.
- هل تعتقدين أن الألمان ما زالوا يرغبون بك ليليان؟
- لقد سئموا منك. فحمدًا لله تخلصنا منك.

لم أستطع أن أصدق أن هؤلاء هم أبناء بلدتي. نظرت حولي أتطلع إلى الوجوه المليئة بالكراهية، والابتسامات الساخرة، وحينما لم أعد أتحمل أكثر من هذا اندفعت وسطهم وهرعت نحو إديث وطلبتها منهم قائلة: «أعطني

الطفلة». أدركت الآن أن كل البلدة جاءت لترى هذا المشهد. كانوا يطلقون صيحات الاستهجان نحو ليليان من النوافذ العليا ومن أماكن الأسواق.

بكت إديث وقالت بصوت مليء بالاستعطاف: «أمي!».

صحت قائلة: «أعطني الطفلة، أم الألمان يعتقلون الأطفال أيضًا الآن؟».

نظر الضابط الذي يحمل الطفلة خلفه ورأيت القائد يقف بجانب مكتب البريد. قال شيئًا للضابط الذي يقف بجانبه، وبعد دقيقة أطلقوا سراح الطفلة وأعطوها لي. حملتها بين ذراعي وقلت: «لا بأس إديث، ستأتين معي». دفنت وجهها في كتفي وهي تبكي بمرارة ولا تزال تمد إحدى ذراعيها في يأس باتجاه أمها. هُيئ لي أني رأيت وجه ليليان يتجه قليلًا نحوي ولكن من الصعب أن أجزم بهذا من خلال هذه المسافة البعيدة.

حملت إديث سريعًا إلى داخل الحانة بعيدًا عن أعين أهل البلدة، وبعيدًا عن الأصوات الساخرة التي علت ثانية. سرت بها بعيدًا نحو الجهة الخلفية للفندق حيث لا يمكنها أن تسمع شيئًا. كانت الطفلة في حالة هستيريا ومن ذا الذي يلومها؟ أخذتها إلى غرفة نومنا وأعطيتها بعض الماء وحملتها بين ذراعي ورحت أربت عليها وأخبرتها مرارًا وتكرارًا أن كل شيء سيكون على ما يرام، وأننا سنصلح كل شيء. خمنت من خلال وجهها المتورم أنها كانت تبكي طوال الليل. الله وحده يعلم ما الذي رأته. وأخيرًا استرخت بين ذراعي فوضعتها بحذر في الفراش وجذبت فوقها الأغطية، ثم نزلت إلى الطابق السفلي.

حينما دخلت الحانة كان الصمت يخيم على المكان. أصبحت الحانة أكثر ازدحامًا مما كانت عليه منذ أسابيع. كانت هيلين تسير مسرعة بين الموائد وهي تحمل الصواني الملآنة. رأيت العمدة عند عتبة الباب، ثم نظرت إلى الوجوه التي أمامي وأيقنت أنني لم أعد أعرف أيًا منهم.

قلت بصوت مشروخ: «هل أنتم راضون الآن؟ الطفلة التي ترقد بأعلى شاهدتكم وأنتم تبصقون على أمها التي تعامَل بوحشية وتسخرون منها. الأشخاص التي كانت تعتقد أنهم أصدقاؤها. هل تشعرون بالفخر الآن؟».

وضعت أختي يدها على كتفي وقالت: «صوفي».

أبعدت يدها عن كتفي وقلت: «لا تقولي صوفي. ليس لديكم فكرة عما اقترفتم. تعتقدون أنكم تعرفون كل شيء عن ليليان بيتون. إذًا أنتم لا تعرفون شيئًا». شرعت في البكاء الآن وكانت دموع الغضب.

- جميعكم متسرعون في إصدار الأحكام بالسرعة نفسها التي تأخذون بها ما تقدمه لكم ما دام يناسب مآربكم.

اتجه العمدة نحوي: «صوفي. يجب أن نتحدث».

- نعم، ترغب في التحدث الآن. ظللت لأسابيع تنظر إليَّ كما لو أني رائحة كريهة لأن السيد سول افترض أنني خائنة وعاهرة. أنا! التي خاطرت بكل شيء لكي أحضر لابنتك الطعام؟ وجميعكم صدقتموه ولم تصدقوني. ربما لا أرغب في التحدث إليك أيها السيد. مع العلم بما أعرفه فإنني أفضل التحدث إلى ليليان بيتون.

كنت ثائرة. شعرت أنني مشوشة، امرأة فقدت صوابها وشرر الغضب يتطاير من عينيها. نظرت إلى وجوههم الغبية وأفواههم الفاغرة وأزحت اليد التي تمنعني عن كتفي.

- من أين تأتي جريدة المحتلين في ظنكم؟ هل تعتقدون أن الطيور تلقي بها؟ أم أنها تأتي على البساط السحري؟

بدأت هيلين تدفعني إلى الخارج الآن.

- أنا لا أهتم، من يظنون أنه كان يساعدهم. ليليان كانت تساعدكم! تساعدكم كلكم، حتى وأنتم تتبولون في الخبز الخاص بها كانت تساعدكم!

أصبحت في الردهة. امتقع وجه هيلين، والعمدة من خلفها يدفعان بي بعيدًا عنهم.

قلت في ثورة: «ماذا؟ هل تشعركم الحقيقة بعدم الراحة؟ هل أنا ممنوعة من الكلام؟».

- اجلسي صوفي. فلتجلسي وتصمتي بحق السماء.

- لم أعد أعرف هذه البلدة. أنَّى لكم أن تقفوا هكذا وتصرخوا في وجهها؟ حتى وإن كانت ضاجعت الألمان كيف تعاملون إنسانًا مثلكم هكذا؟

لقد بصقوا عليها هيلين ألم تري؟ لقد بصقوا على جميع أنحاء جسدها كما لو أنها ليست بشرًا.

قال العمدة بهدوء: «أنا آسف من أجل السيدة بيتون، لكني لست هنا من أجل مناقشة قضيتها. لقد جئت من أجل أن أتحدث إليك».

قلت وأنا أمسح وجهي براحتي: «ليس لديَّ ما أقوله لك».

أخذ العمدة نفسًا عميقًا: «صوفي... لديَّ أخبار عن زوجك».

استغرق الأمر مني دقيقة لكي أدرك ما قاله.

جلس بتثاقل بجانبي على الدرج، وهيلين لا تزال تمسك بيدي.

- أخشى أنها ليست أخبارًا جيدة. حينما جاء آخر أسرى هذا الصباح، أسقط أحدهم رسالة وهو يمر أمام مكتب البريد. قصاصة من الورق، لقد التقطها أحد الموظفين، وكانت تقول إن إدوارد ليفيفر من بين خمسة رجال أُرسلوا إلى معسكرات التعذيب بإقليم أردينز الشهر الماضي. إنني آسف صوفي.

***

8

إدوارد ليفيفر سُجن بتهمة إعطاء قطعة من الخبز بحجم كف اليد إلى أسير، وقد قاوم بعنف حينما ضربه الألمان بسبب ذلك. كدت أضحك حينما سمعت هذا، هذه هي شخصية إدوارد النموذجية.

لكن ضحكتي لم تدم طويلًا، فكل معلومة اعترضت طريقي ساهمت في ازدياد مخاوفي. فمعسكر التعذيب الذي حجزوه فيه يقال إنه واحد من أسوأ المعسكرات؛ ففيه ينام مثنا رجل في عنبر واحد على الأرض العارية؛ ويعيشون على الحساء المصنوع من المياه مع القليل من نخالة الشعير والجرذان الميتة التي تسقط بين الحين والآخر، وكان الألمان يرسلونهم إلى العمل في تقطيع الحجارة أو بناء السكك الحديدية ويجبرونهم على حمل العوارض الحديدية الثقيلة على أكتافهم لأميال طويلة، وأولئك الذين يسقطون من التعب يعاقبونهم أو يضربونهم أو يحرمونهم من وجباتهم. تفشت الأمراض وكان الرجال يضربون بالنار لأتفه المخالفات.

عرفت هذا كله وكانت كل هذه الصور تطاردني في أحلامي. وكنت أقول للعمدة: «سيكون بخير، أليس كذلك؟».

فيربت على يدي ويقول: «جميعنا نصلي من أجله». ثم يتنهد طويلًا وهو ينهض ليغادر، وكانت تلك التنهيدة بمنزلة حكم الإعدام بالنسبة لي.

كان العمدة يزورنا معظم الأيام بعد موكب ليليان بيتون. وعندما انتشرت حقيقة ما فعلته ليليان في المدينة، استعادت صورتها الحقيقية شيئًا فشيئًا في العقل الجمعي. فلم يعد الأشخاص يزمُّون شفاههم في امتعاض عند ذكر

اسمها. وقد نقش أحدهم كلمة «بطلة» بالطبشور في ساحة السوق تحت جنح الليل، وعلى الرغم من أنها أُزيلت على الفور، فإننا نعلم إلى من كانت تشير. وأعيدت بشكل غامض بعض الأشياء الثمينة التي سلبت من منزلها عندما ألقي القبض عليها.

بالطبع كان هناك بعض الأشخاص -أمثال السيدة لوفير والسيدة ديورانت- الذين لن يصدقوا ما فعلته حتى لو رأوها تخنق الألمان بيديها العاريتين. لكن كان هناك بعض الاعترافات الخفية بالذنب في حانتنا الصغيرة، وإظهار بعض العطف تجاه إديث في شكل إيراد الملابس التي كبر أصحابها عليها إلى الحانة أو في وصول قطع غريبة من الطعام. وعلى ما يبدو أن ليليان أرسلت إلى معسكر اعتقال على مسافة من جنوب البلاد. وقد أسرَّ لنا العمدة بأنه من حسن حظ ليليان أن الألمان لم يطلقوا عليها الرصاص على الفور وأنه يشك أن أحد الضباط قدم التماسًا خاصًا أنقذها من الحكم السريع بالإعدام. لكنه قال: «ليس هناك جدوى من محاولة التدخل صوفي، فقد ضبطوها وهي تتجسس لصالح الفرنسيين ولا أعتقد أنها ستظل آمنة لفترة طويلة».

بالنسبة لي لم أعد ذلك الشخص غير المرحب به، ولم أكن أبالي بذلك بشكل خاص، فقد وجدت صعوبة في أن أكن المشاعر نفسها التي كنت أكنها من قبل لجيراني. وكانت إديث تجلس ملتصقة بي كظل شاحب تأكل قدرًا ضئيلًا من الطعام وتسأل عن أمها باستمرار. لقد أخبرتها بصدق أنني لا أدري بما حدث لليليان ولكنها -أي إديث- ستكون في أمان معنا. كنت قد اعتدت النوم معها في حجرتي القديمة حتى أمنع صراخها حينما تصيبها الكوابيس فكانت توقظ الطفلين الأصغر سنًّا. وفي بعض الأمسيات كانت تتسلل إلى أسفل حيث تجلس على درجة السلم الرابعة وهي أقرب نقطة تستطيع من خلالها أن ترى المطبخ، ونجدها هناك في وقت متأخر من الليل حينما ننتهي من تنظيف المطبخ وهي تغط في نوم عميق وتحتضن ركبتيها بذراعيها النحيفتين.

اختلط خوفي على أمها بخوفي على زوجي وكنت أمضي أيامي في دوامة من القلق والتعب. كانت تأتي بعض الأخبار إلى البلدة ولا تنقل عنها أي أخبار. قد يكون هو في مكان ما يتضور جوعًا، أو يرقد محمومًا أو يتعرض للضرب. وقد تلقى العمدة أخبارًا رسمية بثلاث وفيات، منهم اثنان على الجبهة وحالة وفاة في أحد المعسكرات بالقرب من مدينة مونس Mons البلجيكية. وقد

سمع أن هناك تفشيًا لمرض التيفود بالقرب من مدينة ليل. كنت أتلقى كلًا من هذه المقتطفات من الأخبار بشكل شخصي.

وعلى النقيض بدت هيلين وكأنها تكتسب قوة في هذا الجو من الهواجس الكئيبة، وأعتقد أن مشاهدتها لي وأنا أنهار قد جعلها تؤمن أنه من المؤكد أن الأسوأ قد حدث. فإذا ما كان إدوارد –بكل قوته ونشاطه– يواجه الموت، إذًا فليس هناك أمل في نجاة جين ميشيل وهو الرجل الوديع المحب للكتب. فكانت تقول إنه لا يمكن أن ينجو، وبالتالي فهي تستطيع أن تستأنف حياتها وتتكيف مع هذه الحقيقة. وبدت وكأنها ازدادت قوة، فتحثني على أن أنهض حينما تجدني أبكي سرًا في قبو الجعة، وتجبرني أن أتناول طعامي أو أغني بعض أغاني الأطفال لإديث، وميمي، وجين بلهجة غريبة ومرحة. إنني ممتنة لقوتها. إنني أستلقي في الليل وذراعي تلتف حول ابنة امرأة أخرى وأتمنى ألا أستطيع التفكير ثانية.

في أواخر يناير ماتت لويزا. وحقيقة أن جميعنا نعلم أن هذا سيحدث لم تخفف من وقع الأمر. وبدا العمدة وزوجته وكأنهما قد كبرا عشر سنوات خلال الليل وقد قال لي: «إنني أحدث نفسي أنها نعمة من الله أنها لن ترى العالم من حولها بالحال الذي هو عليه الآن». أومأت برأسي بالموافقة. لا أحد منا يصدق ما حدث.

كانت ستتم إجراءات الجنازة بعد خمسة أيام. وقررت أنه ليس من العدل أن أصطحب الأطفال هناك، لذا أخبرت هيلين أن تذهب نيابة عني؛ وأنا سآخذ الأطفال إلى الغابات التي تقع خلف مركز إطفاء النيران القديم. وبالنظر إلى شدة البرد، منح الألمان القرويين ساعتين في اليوم كي يبحثوا في الغابات المحلية عما يستخدمونه في إشعال النيران، ولم أكن مقتنعة أننا سنجد الكثير من الأخشاب؛ فقد جردوا الأشجار منذ فترة طويلة تحت ستار الليل من أي فروع ذات فائدة. لكني كنت أحتاج أن أبتعد عن المدينة، وعن الحزن والخوف وعن مراقبة الألمان أو جيراني.

كان وقت ما بعد الظهيرة باردًا هادئًا ولم تكن أشعة الشمس شديدة وهي تطل من بين ظلال تلك الأشجار الهزيلة المتبقية التي بدت منهكة تمامًا، فلم تستطع أن تنمو لأكثر من أمتار قليلة في الأفق. كان من اليسير أن أتطلع نحو

أرضنا -كما فعلت في وقت ما بعد الظهيرة- وأتساءل إذا ما كان العالم ذاته قد أشرف على النهاية. وسرت وأنا أدير حوارًا صامتًا مع زوجي كما أفعل عادة هذه الأيام... *كن قويًا إدوارد، تماسك، ابق على قيد الحياة وأنا أعرف أننا سنكون معًا مرة أخرى.*

كانت ميمي وإديث تسيران في صمت أول الأمر وهما تتبعانني وكانت أقدامهما تسحق أوراق الشجر المتجمدة، ولكن حينما بلغنا الغابة غلبتهما نزعتهما الطفولية وانحنيت قليلًا لأشاهدهما وهما تركضان نحو جذع شجرة متعفن وتقفزان من فوقه ثم عليه وهما تشبكان أيديهما وتضحكان. وقد خدشت أحذيتهما واتسخت تنورتاهما ولكني لم أكن لأحرمهما من تلك التسلية البسيطة.

انحنيت لأضع حفنة من الأغصان في السلة وأنا آمل أن تغطي ضحكاتهما على همهمات الخوف التي تتردد في عقلي. وبينما كنت أعتدل في وقفتي رأيته؛ يقف في الغابة الخاوية وهو يضع البندقية على كتفه ويتحدث إلى أحد رجاله. سمع صوت البنتين فاستدار نحوهما، فصرخت إديث وبحثت عني في جنون وركضت نحو ذراعي وعيناها متسعتان من الفزع، تبعتها ميمي وهي تتعثر في سيرها وقد أصابها الارتباك وهي تحاول أن تفهم سبب ذعر صديقتها من الرجل الذي يأتي كل ليلة إلى المطعم.

- لا تبكي إديث إنه لن يؤذينا، لا تبكي أرجوك.

رأيته وهو يراقبنا وانتزعت الطفلة من ساقيَّ المتشبثة بهما، انحنيت لأتحدث إليها قائلة: «هذا هو القائد سأتحدث إليه الآن بشأن عشائه. امكثي هنا والعبي مع ميمي. إنني بخير، أترين؟».

كانت ترتعد وأنا أسلمها لميمي.

- اذهبي والعبي هناك لدقيقة، سأتحدث فقط إلى القائد، تناولي سلتي وانظري إن كان بإمكانك العثور على بعض فروع الأشجار وأعدك لن يحدث شيء سيئ.

حينما استطعت في النهاية أن أنتزعها من تنورتي التي تمسك بها، سرت نحوه. وقد قال له الضابط الذي يرافقه شيئًا بصوت خفيض، وجذبت الشال حولي وأنا أعقد ذراعي أمام صدري أنتظر حتى يصرفه القائد.

قال وهو يتطلع إلى السماء الخالية: «اعتقدنا أنه بمقدورنا أن نصطاد». وأضاف قائلًا: «نصطاد طيورًا».

قلت: «لم يعد هناك طيور، فجميعها قد رحلت».

- هذا شيء منطقي.

فنحن نستطيع أن نسمع على بعد مسافة دوي المدافع، فهي تجعل الفضاء يهتز من حولنا.

قال وهو يرفع بندقيته فوق ذراعه ويشعل سيجارة: «أهذه ابنة العاهرة؟». نظرت خلفي حيث يقف الأطفال بجوار الجذع المتعفن.

- ابنة ليليان؟ نعم، ستمكث معنا.

راقبها بتركيز ولم أستطع أن أعرف ما الذي يفكر فيه.

قلت: «إنها طفلة صغيرة لا تعي شيئًا مما يحدث حولنا».

قال وهو يسحب نفسًا من سيجارته: «نعم، بريئة».

- نعم، إنهم موجودون.

نظر إليَّ بحدة وأجبرت نفسي على ألا أخفض عيني.

- سيدي القائد إنني أريد أن تسدي لي معروفًا.

- معروفًا؟

- لقد أخذوا زوجي في معسكر تعذيب في أردينز.

- وأنا لن أسألك كيف حصلت على هذه المعلومة.

ليس ثمة شيء يفصح عن كيفية نظرته لي، لا يوجد دليل على الإطلاق.

أخذت نفسًا عميقًا وقلت: «إنني أتساءل... إنني أسأل إن كان يمكنك أن تساعده. إنه رجل طيب، إنه فنان كما تعلم وليس جنديًّا».

- وهل تريدين أن أبعث له برسالتك؟

- أريدك أن تخرجه.

رفع حاجبه.

- سيدي القائد، إنك تتصرف كما لو أننا أصدقاء لذا، فأنا أتوسل إليك. أرجوك ساعد زوجي. أنا أعرف ما يجري في مثل هذه الأماكن وأن فرصته ضئيلة في الخروج حيًّا.

لم ينبس بكلمة، فانتهزت الفرصة وأكملت حديثي. هذه هي الكلمات التي رددتها في عقلي آلاف المرات خلال الساعات الماضية.

- أنت تعلم أنه قضى حياته في السعي وراء الفن، والجمال. إنه رجل مسالم، رجل مهذب. إنه يهتم بالرسم، وبالرقص، والطعام والشراب. وأنت تعلم أن موته أو حياته لن يصنعا فارقًا في قضية الألمان.

نظر حولنا -من خلال الغابات العارية- كما لو أنه يرقب أين ذهب رجاله ثم سحب نفسًا آخر من سيجارته وقال: «لقد خاطرت مخاطرة كبيرة في طلبك شيئًا كهذا. لقد رأيت كيف يعامل أبناء بلدتك المرأة التي تتعاون مع الألمان».

- إنهم بالفعل يعتقدون أنني أتعاون معهم، فحقيقة وجودك في الفندق جعلتني مذنبة دون محاكمة.

- هذا إلى جانب رقصك مع أحد الأعداء.

جاء دوري أنا لأصاب بالدهشة.

- لقد أخبرتك من قبل سيدتي أنه ما من شيء يدور في هذه البلدة ويخفى علي.

وقفنا في صمت نتطلع إلى الأفق. وعلى بعد مسافة صدر صوت دوي مكتوم جعل الأرض تهتز قليلًا تحت أقدامنا، وقد شعرت به الفتاتان فرأيتهما تنظران إلى أسفل نحو أقدامهما. سحب آخر نفس من سيجارته ثم سحقها تحت حذائه.

- هذا ما عليك معرفته، إنك امرأة ذكية، وأعتقد أنك تحكمين جيدًا على الطبيعة الإنسانية، ومع هذا فإنك تتصرفين بأساليب تحق لي -بوصفي عسكريًا وعدوًا لك- أن أطبق عليك الرصاص دون محاكمة. ومع هذا تأتين إليَّ وتتوقعين مني أن أتجاهل هذه الحقيقة لأساعدك، عدوتي!

ازدردت ريقي وقلت: «هذا... هذا لأنني لا أراك...عدوًا».

انتظر ولم يجب.

- إنك أنت من قلت... إنه أحيانًا نكون مجرد... شخصين.

جعلني صمته أكثر جرأة. أخفضت من صوتي وأنا أقول: «أعلم أنك رجل قوي، وأن لك نفوذًا، فإذا ما قلت أنه ينبغي أن يطلق سراحه فسيطلق سراحه بالفعل. أرجوك».

- إنك لا تدرين ماذا تطلبين.

- أنا أعرف أنه إذا مكث هناك فسيموت.

لاح بعينيه بريق خافت.

انتقيت كلماتي وأنا أقول له: «أعلم أنك رجل مهذب، باحث، وتهتم بالفن. وحينما تنقذ فنانًا تكنُّ له الإعجاب سيكون هذا شيئًا بالقطع...».

اتخذت خطوة للأمام، ورفعت يدي وأمسكت بذراعه وقلت: «سيدي القائد أرجوك. أنت تدري أنني لن أطلب منك أي شيء ولكني أتوسل إليك في هذا الطلب. أرجوك. أرجوك ساعدني».

بدت عليه ملامح الجدية الشديدة، ثم فعل شيئًا لم أتوقعه؛ فقد رفع يده وأزاح ببطء خصلة من شعري من على وجهي. فعل ذلك برقة وعن قصد كما لو أنه شيء تخيله منذ فترة طويلة. أخفيت صدمتي وبقيت هادئة تمامًا.

- صوفي...

قلت: «سأعطيك اللوحة، اللوحة التي أعجبتك بشدة».

أخفض يده، وتنهد وسار مبتعدًا.

- إنها أغلى شيء أمتلكه.

- اذهبي إلى منزلك سيدة ليفيفر.

اجتاح صدري بعض الشعور بالخوف.

- ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟

- عودي لمنزلك. اصحبي الأطفال وعودي لمنزلك.

- إنني على استعداد لأفعل أي شيء إن كان يمكنك إطلاق سراحه، سأفعل أي شيء.

تردد صوتي عبر الغابة، وشعرت أن فرصة إدوارد الوحيدة للنجاة تضيع من يدي. وواصل هو سيره.

- هل سمعت ما قلته سيدي القائد؟

استدار عائدًا مرة أخرى واكتسى وجهه بتعبيرات الغضب.

سار باتجاهي ولم يتوقف إلا حينما كان وجهه يقترب من وجهي ولا يفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلة. كنت أستشعر أنفاسه فوق وجهي ولمحت الفتاتين بطرف عيني وقد تسمَّرتا في مكانهما من شدة القلق ولكني لم أظهر خوفي أمامهما.

نظر إليَّ ثم أخفض صوته وقال: «صوفي...». ثم نظر خلفه وأردف قائلًا: «صوفي... إنني لم أر زوجتي منذ ما يقرب من ثلاث سنوات».

- وأنا لم أر زوجي منذ سنتين.

أشاح بنظره بعيدًا كما لو أنه يصر على ألا ينظر إلى وجهي وقال: «يجب أن تعلمي... يجب أن تعلمي أن ما تطلبيه...».

ابتلعت ريقي وقلت: «إنني أعرض عليك اللوحة سيدي القائد».

رأيته يجز قليلًا على فكيه، ونظر إلى نقطة ما خلف كتفي الأيمن، ثم شرع في السير مبتعدًا مرة أخرى وهو يقول: «سيدتي، إما أنك شديدة الحماقة وإما أنك...».

- هل هذا سيشتري حرية زوجي؟ هل... هل أشتري أنا لزوجي حريته؟

استدار نحوي وقد علا وجهه بعض الأسى كما لو أنني أدفعه إلى فعل شيء لا يريده. نظر بإمعان إلى حذائه. وأخيرًا اتخذ خطوتين نحوي لكي يكون قريبًا بما يكفي ليتحدث دون أن يسمعه أحد ثم قال: «تعالي غدًا في المساء في ثكنتي بعدما تنتهين من عملك في الفندق».

سرنا جنبًا إلى جنب عائدين عبر بعض الطرق الجانبية حتى لا نضطر إلى المرور من الميدان، وحينما بلغنا الفندق كان الطين قد غطى تنوراتنا، والفتاتان غارقتان في صمتهما برغم محاولتي لأن أؤكد لهما أن الألماني كان غاضبًا لأنه لم يجد حمَامًا كي يصطاده. صنعت لهما مشروبًا دافئًا ثم ذهبت إلى غرفتي وأغلقت الباب.

استلقيت في فراشي ووضعت يديَّ فوق عيني كي أحجب الضوء وظللت هكذا لنحو نصف الساعة. ثم نهضت وجذبت فستاني الصوف الأزرق من خزانة الملابس ووضعته على الفراش. كان إدوارد يقول لي دومًا إنني أشبه

مديرة المدرسة وأنا أرتديه. كان يقولها وكأن تشبيهي بمديرة المدرسة شيء رائع. نزعت ردائي الرمادي المتسخ وتركته يقع على الأرض، وخلعت التنورة الداخلية السميكة التي تلطخت حوافها أيضًا بالطين، فلم أعد أرتدي سوى التنورة الداخلية الخفيفة والقميص الداخلي. نزعت المشد والثياب الداخلية. كانت الحجرة باردة لكني لم أستشعر برودتها.

وقفت أمام المرآة.

لم أكن نظرت إلى جسدي منذ شهور؛ فلم يكن لديَّ سبب لأفعل هذا. بدا الشكل الذي يقف أمامي في الزجاج الملطخ لشخص غريب لا أعرفه. بدوت بنصف حجمي الذي كنت عليه؛ وقد تهدل صدري وأصبح أصغر، لم يعد ذلك الصدر المستدير الناهد ذا اللون الفاتح. وكذلك أضحت مؤخرتي وأصبحت نحيفة، فجسمي الآن يبرز ما تحته من عظام؛ فعظام الترقوة والكتف والضلوع جميعها في طريقها للظهور.

اقتربت أكثر من المرآة وتفرست وجهي؛ رأيت الهالات تحت عيني؛ وخطوط التجاعيد الخفيفة بين حاجبي وأصابتني رجفة لكن لم يكن مصدرها البرد، فقد تذكرت الفتاة التي تركها منذ سنتين، وتذكرت لمسة يديه على خصري، وشفتاه الناعمتان على عنقي وأغمضت عيني.

ظل مزاجه سيئًا لعدة أيام، فقد كان يعكف على رسم لوحة لثلاث سيدات يجلسن حول مائدة ولكنه لم يستطع إنجازها على النحو الصحيح. وكنت أتخذ وضعية كل من الأوضاع الثلاثة وأرقبه في صمت وهو يزفر بضيق وقد تجهم وجهه، بل إنه كان يلقي بلوحة الألوان بعيدًا في بعض الأوقات وهو يمرر يده على شعره ويصب اللعنات على نفسه.

قلت وأنا أبسط جسدي: «دعنا نستنشق بعض الهواء». لقد شعرت بالألم من اتخاذ وضعية الرسم لكني لم أجعله يعرف ذلك.

- لا أريد أن أخرج في الهواء.
- إدوارد، لن تستطيع إنجاز أي شيء وأنت في هذا المزاج السيئ. لتقتطع عشرين دقيقة من وقتك تستنشق فيها الهواء معي. هيا.

مددت يدي نحو المعطف ووضعت وشاحًا حول رقبتي ووقفت عند عتبة الباب.

قال بتبرم وهو يمد يده إلى سترته: «لا أريد أن يقاطعني شيء عن العمل».

لم أكن ألقي بالًا لمزاجه السيئ، فكنت قد اعتدت عليه حينها. حينما كان يسير عمل إدوارد على نحو جيد، يصير من أروع الرجال، ويصبح مرحًا حريصًا على أن يرى الجمال في كل شيء. أما إذا لم تسر الأمور على ما يرام فتظلل منزلنا الصغير سحابة داكنة من الكآبة. في الشهور الأولى من زواجنا، كنت أخشى أن يكون هذا نابعًا من خطأ مني وأنه عليَّ أن أحاول رفع معنوياته، لكني حينما استمعت لأحاديث الفنانين الآخرين بمركز تجمع الفنانين لاروش La Ruche أو في حانات الحي اللاتيني اعتدت أن أرى ذلك الإيقاع لديهم جميعًا؛ فأسعد اللحظات بالنسبة لهم حينما ينتهون من العمل بنجاح أو عندما يبيعونه، وأسوأ اللحظات التي يمرون بها حينما يتوقفون عن العمل أو يبذلون جهدًا كبيرًا في رسم لوحة أو حينما يتلقون نقدًا لاذعًا. كل هذه التغيرات المزاجية تشبه الأحوال الجوية السيئة يمكن تحملها والتكيف معها.

ولم أكن أنا دومًا قديسة.

ظل إدوارد متذمرًا على طول طريق شارع سوفلو. وكان عصبي المزاج، فلا يرى سببًا لسيرنا الآن ولا يدري لم لا أتركه بمفرده. لم أكن أفهم كل ذلك، ولم أكن أعرف الضغط الذي يقع تحته. لماذا تسعى المعارض القريبة من القصر الملكي وراء الرسامين ويبر وبورمان وتعرض إقامة معارض خاصة بهما. وهناك شائعات تردد أن ماتيس يفضل عملهما عن عمله، وحينما حاولت أن أطمئنه بأن الأمر ليس كذلك، لوح بيده بلا مبالاة كما لو أن وجهة نظري ليس لها أي اعتبار. واستمر صياحه الغاضب طويلًا حتى بلغنا الضفة اليسرى وقد نفد صبري.

قلت وأنا أحرر ذراعي من ذراعه: «إنني مجرد بائعة جهول، كيف تتوقع أن أفهم تلك الضغوط المتعلقة بالفن في حياتك؟ إنني فقط ذلك الشخص الذي يغسل لك ملابسك ويجلس لساعات وجسده يؤلمه بينما أنت تعبث بالفحم أو تجمع الأموال من الأشخاص الذين لا تريد أن تبدو بخيلًا أمامهم. حسنًا إدوارد سأتركك لكل هذا، ربما يجلب لك غيابي بعض الرضى».

سرت مبتعدة نحو ضفة نهر السين، وكنت في شدة الغضب. لحق بي في دقائق وقال: «أنا آسف».

واصلت سيري وتعبيرات وجهي جامدة.

- لا تغضبي صوفي، كل ما في الأمر أنني متعكر المزاج.
- لكن لا يجب أن تجعلني في مزاج سيئ بسبب هذا، إنني فقط أحاول مساعدتك.
- أعرف، أعرف. اسمعيني. تمهلي أرجوك. لا تسرعي وسيري بجوار زوجك القاسي.

ثم مد ذراعه إليَّ ونظر بوجه عطوف متوسل. كان يدرك أنني لن أستطيع مقاومته.

نظرت إليه ثم تأبطت ذراعه وسرنا المسافة في صمت. وضع يده على يدي ووجدها باردة فقال: «أين قفازاتك؟».

- لقد نسيتها.

قال: «إذًا أين قبعتك، إنك تتجمدين».

- أنت تعلم جيدًا أنه ليس لديَّ قبعة للشتاء، فقبعتي المخملية بها عثة، وليس لديَّ وقت كي أصلحها.

توقف ثم قال: «لا يمكن أن تعتمري قبعة التنزه وبها بعض الرقع».

- إنها قبعة جيدة لكنني ليس لديَّ وقت فقط لأعالج ما بها.

ولم أضف أن ذلك بسبب أنني كنت مشغولة بالذهاب إلى الضفة اليسرى محاولة أن أجد الخامات وأجمع النقود التي استدان بها ليشتريها.

كنا خارج أكبر متجر في باريس لبيع القبعات. رآه وجذبنا نحن الاثنين فتوقفنا أمامه وقال: «هيا».

- لا تكن سخيفًا.
- لا تعصي أوامري يا زوجتي، فأنت تعلمين أنني أميل إلى المزاج السيئ سريعًا.

أمسك بذراعي، وقبل أن أتذمر أكثر من هذا دلفنا إلى المتجر. أغلق الباب خلفنا، ودق الجرس وتلفت حولي في رهبة وقد استقرت فوق الرفوف والحوامل المثبتة على جميع الجدران أجمل قبعات رأيتها في حياتي وقد انعكست صورها في مرآة ضخمة مطلية بالذهب. كانت ضخمة، بها الكثير من التفاصيل المبدعة ما بين الأسود الفاحم، أو القرمزي البراق، أو ذات الحواف

الواسعة المزينة بالفرو أو الدانتيل. وقد تطاير ريش قبعات المارابو[1] وسط هذا المحيط من المعروضات. كانت تفوح من الحجرة رائحة الورد المجفف، وكانت المرأة التي ظهرت من الخلف ترتدي تنورة من قماش الساتان تضيق عند الركبة، وهي أحدث صيحات الموضة في شوارع باريس.

قالت وهي تتجول ببصرها على معطفي الذي اشتريته منذ ثلاث سنوات وشعري المتطاير بفعل الرياح: «هل يمكنني مساعدتك؟».

- زوجتي تريد قبعة.

أردت أن أمنعه وأخبره أنه إن كان يصر على شراء قبعة لي فيمكننا الذهاب إلى متجر لو مارشيه حتى يمكنني الحصول على تخفيض، فهو لم يكن لديه أي فكرة أن هذا المكان هو صالون لتصميم الأزياء وبعيد عن متناول أي سيدة مثلي.

- إدوارد... إنني.

- قبعة مميزة.

- بالقطع سيدي، هل لديك تصور لشكل معين؟

أشار إلى قبعة ضخمة من طراز الديركتوار[2] بلون أحمر قانٍ ذات أطراف عريضة مزينة بريش المارابو وتناثر عبر حوافها ريش الطاووس المصبوغ باللون الأسود.

غمغمت قائلة: «إدوارد أنت لست جادًّا بالقطع». لكنها كانت قد رفعتها بإعجاب من مكانها، وبينما وقفت أنظر إليه بدهشة كانت قد وضعتها بحرص فوق رأسي وهي تزيح شعري خلف ياقة ملابسي.

وجهتني أمام المرآة وهي تحل وشاحي بحرص شديد كما لو أنه مصنوع من خيوط الذهب وقالت: «أعتقد أنها ستبدو أجمل إذا ما خلعت السيدة عنها

---

(1) ريش طائر المارابو أو أبو السعن: هو طائر إفريقي ضخم يُستخدم ريشه في تزيين القبعات.

(2) فترة في فنون الديكور والأزياء تتزامن مع نظام سياسي فرنسي في الفترة من 26 أكتوبر 1795 إلى 9 نوفمبر 1799، وتسمى حكومة المديرين أو الدليل، ويشكل المرحلة الثانية والأخيرة من الثورة الفرنسية، وهو طراز كلاسيكي جديد.

هذا الوشاح». بالكاد شعرت بما تفعه، فالقبعة غيرت من مظهر وجهي تمامًا وبدوت -لأول مرة في حياتي- كتلك السيدات اللاتي كنت أخدمهن.

قالت السيدة: «زوجك لديه ذوق رائع».

قال إدوارد بسعادة: «هذه هي القبعة المناسبة».

جذبته إلى أحد جوانب المتجر وأنا أقول بصوت خفيض ومنزعج: «إدوارد، انظر إلى بطاقة السعر، إن سعرها يضاهي سعر ثلاث لوحات من لوحاتك».

- لا أبالي بهذا، أريدك أن تحصلي على القبعة.
- لكنك ستبغضها وتبغضني، ينبغي أن تنفق النقود على الخامات والقماش فهذه... إنها لا تشبهني.

قطع حديثي وأشار إلى السيدة قائلًا: «سآخذها».

وبينما كانت تصدر تعليماتها لمساعدتها بإحضار صندوق، عاد لينظر إلى صورتي المنعكسة في المرآة ثم مرر يده برقة على جانب عنقي وأمال رقبتي برفق على الجانب الآخر، والتقت عيناه عينيَّ في المرآة فمالت القبعة وهوى برأسه يقبل عنقي وكتفي. ظل يقبلني فترة طويلة حتى تخضبت وجنتاي خجلًا وأشاحت السيدتان بنظرهما بعيدًا في صدمة وتظاهرتا بأنهما مشغولتان. وحينما رفعت رأسي ثانية كانت نظرتي شاردة وكان هو لا يزال ينظر إليَّ في المرآة.

قال في عذوبة: «إنه أنت صوفي... دومًا أنت فقط...».

لا تزال القبعة في شقتنا بباريس وتبعد عنا ملايين الأميال.

نظرت في عزم وتصميم وسرت مبتعدة عن المرآة وشرعت في ارتداء فستاني الأزرق الصوف.

أخبرت هيلين بعد مغادرة آخر ضابط ألماني هذا المساء. كنا ننظف أرضية المطعم ونزيل آخر فتات الطعام من فوق الموائد. ولم تكن كثيرة؛ حتى الألمان أصبحوا يجمعون أي حيوانات شاردة هذه الأيام؛ فحصص الطعام القليلة جعلت كل شخص يريد المزيد. وقفت والمكنسة في يدي وطلبت منها بهدوء أن تتوقف لدقيقة. ثم أخبرتها عن جولتي في الغابة، وما طلبته من القائد وما طلبه هو في المقابل.

علا الشحوب وجهها وقالت: «لكنك لم توافقي؟».

- لم أنبس بكلمة.

قالت وهي تهز رأسها وتضع يدها على وجنتيها: «أوه، حمدًا لله. حمدًا لله أنه لم يأخذ عليك وعدًا».

- لكن هذا لا يعني أنني لن أذهب.

جلست أختي فجأة إلى إحدى الطاولات وبعد دقيقة جلست على مهل أمامها في المقعد المقابل. فكرت لوهلة ثم قالت: «أعلم أنك مضطربة ولكن فكري فيما تقولين. تذكري ما حدث لليليان. هل ستسلمين نفسك حقًّا لألماني؟».

- إنني لم أعده بالكثير.

حدقت إلي.

- أعتقد أن أسلوب القائد جدير بالاحترام. إلى جانب هذا ربما لا يريدني أن... إنه لم يقل هذا صراحة.

رفعت يدها نحو السماء وقالت: «لا يمكن أن تكوني ساذجة إلى هذا الحد، فالقائد أطلق النار على بريء وأرداه قتيلًا. لقد رأيته وهو يهشم رأس أحد رجاله في الحائط من أجل جرم بسيط. ثم تذهبين أنت إلى مسكنه؟ لا يمكنك فعل هذا، فكري في الأمر!».

- لكني فكرت في شيء آخر. فالقائد يعجب بي وأعتقد أنه يحترمني بطريقته وإن لم أفعل ذلك فسيموت إدوارد بالقطع. إنك تعلمين ما يجري في مثل تلك الأماكن. إن العمدة يعده في عداد الأموات بالفعل.

اتكأت على الطاولة وقالت بصوت مضطرب: «صوفي، ليس ثمة ضمان بأن القائد سيتعامل معك بشرف، إنه ألماني؟ فلم تثقين بكلمة يقولها؟ يمكن أن تضاجعيه ويصبح كل هذا من أجل لا شيء».

لم أر أختي غاضبة من قبل على هذا النحو.

- يجب أن أذهب وأتحدث إليه. لا يوجد سبيل آخر.

- إذا ذاع هذا، فلن يرغب بك إدوارد بعد الآن.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا.

- هل تعتقدين أنه بمقدورك أن تخفي عليه ذلك؟ لن تستطيعي، إنك صادقة للغاية، وحتى إذا ما حاولت هل تعتقدين أن البلدة بأكملها لن تخبره بهذا؟

كانت محقة.

طأطأت رأسها لأسفل ونظرت إلى يديها ثم نهضت وصبت لنفسها كوبًا من المياه. تجرعته على مهل ونظرت نحوي مرتين، وحينما طال الصمت، بدأت أستشعر رفضها والسؤال الكامن وراءه وقد أثار ذلك حفيظتي.

- هل تظنين أنني سأفعل ذلك بلا مبالاة؟

- لا أعرف، إنني لم أعد أعرفك مطلقًا هذه الأيام.

جاء ردها كالصفعة على وجهي، وتبادلنا النظرات وشعرت بأنني على شفا الانهيار. لا أحد يحاربك كأختك؛ فلا يوجد أحد مثلها يعرف أكثر مواطن الضعف بك فيسدد إليها ضربات بلا رحمة. سيظل شبح رقصتي مع القائد يحوم حولنا وانتابني شعور مفاجئ أنه لا توجد حدود تفصل بيننا.

قلت: «حسنًا، أجيبي عن سؤالي هيلين، إن كانت هي فرصتك لتنقذي جين ميشيل ماذا كنت ستفعلين؟».

أخيرًا رأيتها ترتجف.

- الموت أو الحياة. ماذا كنت ستفعلين لتنقذيه؟ أعلم أنه ليس هناك حدود لمشاعرك نحوه.

عضت على شفتيها واتجهت نحو النافذة الداكنة وقالت: «يمكن أن يفشل كل هذا».

- لن يحدث.

- قد تؤمنين بهذا، لكنك مندفعة بطبيعتك والأمر لا يقتصر على عدم معرفة ما سيحدث لك لاحقًا.

نهضت حينها، وأردت أن أتحرك حول المائدة باتجاه أختي وأنحني بجانبها وأحتضنها لتخبرني أن كل شيء على ما يرام وأننا سنكون بأمان، لكن تعبيرات وجهها أخبرتني أنه لا يوجد كلام آخر يقال. نفضت الغبار عن تنورتي وأمسكت بالمكنسة واتجهت نحو باب المطبخ.

نمت نومًا متقطعًا في تلك الليلة، وحلمت بإدوارد ووجهه يلتوي اشمئزازًا. وحلمت بأننا نتشاجر وأنا أحاول مرارًا وتكرارًا أن أقنعه أنني فعلت ما هو صواب بينما كان هو يسير مبتعدًا عني. وفي حلم آخر دفع بمقعده للوراء بعيدًا عن المائدة التي كنا نجلس إليها نتشاجر وحينما نظرت لم أجد النصف السفلي من جسده؛ فقد اختفت ساقاه ونصف جذعه. وحينها قال لي: «*هل أنت راضية الآن؟*».

استيقظت وأنا أبكي لأجد إديث تنظر إليَّ وعيناها متورمتان تعلوهما نظرات مبهمة. مدت يدها ولمست وجنتي المبتلة برفق كما لو أنها تظهر تعاطفًا، مددت يدي وضممتها إلي واستلقينا في صمت وظللنا نحتضن بعضنا بعضًا حتى مطلع الفجر.

أمضيت يومي وكأنني في حلم. أعددت الإفطار للأطفال بينما ذهبت هيلين إلى المتجر وراقبت أوريلين –الذي كان في إحدى حالاته المزاجية السيئة– وهو يصطحب إديث للمدرسة. فتحت باب الحانة في العاشرة وقدمت الطلبات لعدد قليل من الأشخاص الذين جاؤوا في هذا الوقت. كان العجوز رينيه يضحك على إحدى مركبات الألمان التي وقعت في أحد الخنادق بجانب الثكنات ولم يستطيعوا إخراجها. أشاع هذا الحادث بعض البهجة في المكان لفترة. ابتسمت بشرود وأومأت برأسي موافقة أن هذا حقًا يبين لهم بالفعل أنها القيادة الألمانية الجيدة، ورأيت وسمعت كل هذا وكأنني داخل فقاعة.

وفي وقت الغداء جاء أوريلين وإديث ليحصلا على رغيف من الخبز وقطعة من الجبن، وبينما كانا يجلسان في المطبخ تلقينا إخطارًا من العمدة يطلب فيه بعض الأغطية ومجموعة من أدوات المطبخ كي تذهب إلى مسكن جديد على بعد ميل من الطريق. ساد الكثير من التذمر حينما لاحظ الزبائن الإخطار وتذكروا أنهم سيعودون لمنازلهم ليجدوا أيضًا إخطارات مماثلة.

جزء صغير مني شعر بالسعادة لرؤيتنا كجزء من طلبات المصادرة.

وفي الساعة الثالثة توقفنا لنشاهد قافلة طبية تمر، وارتج الطريق بسبب طوابير المركبات والأحصنة التي تمر. ساد الصمت في الحانة عدة دقائق فيما بعد، وفي الساعة الرابعة جاءت زوجة العمدة وشكرت الجميع على الرسائل والنيات الطيبة، وطلبنا منها أن تتناول قدحًا من القهوة ولكنها رفضت. وقالت

في اعتذار إنها ليست صحبة جيدة الآن. شقت طريقها بتعثر عبر الميدان يساندها زوجها وهو يمسك بمرفقها.

في الرابعة والنصف غادر آخر زبائن اليوم. وكنت أعلم أنه مع هبوط الليل لن يكون هناك المزيد من الزبائن رغم أننا نفتح أبواب الحانة لنصف ساعة إضافية. اتجهت نحو نوافذ غرفة الطعام وأنا أسدل كل الستائر حتى أحجب ما بالداخل. وفي المطبخ كانت هيلين تصحح الأخطاء الإملائية مع إديث وتتوقف بين الحين والآخر لتغني مع جين وميمي. كانت إديث مولعة بالصغير جين وقد أشارت هيلين عدة مرات إلى أن الفتاة تمثل عونًا كبيرًا فهي تلعب مع الصغير كثيرًا. لم تناقشني هيلين مطلقًا في قراري بإحضارها إلى منزلنا؛ فلم يحدث منها أن صرفت أي طفل بعيدًا حتى إن كان هذا يعني طعامًا أقل لكل فرد منا.

حينما صعدت إلى الطابق العلوي جذبت مذكراتي من بين العوارض الخشبية. كنت على وشك الكتابة لكني أدركت أنه ليس هناك ما أقوله. لا يوجد شيء لا يدينني. أعدت المذكرات مرة أخرى إلى مخبئها وتساءلت إن كان هناك شيء يمكن أن أقوله لزوجي ثانية فيما بعد.

جاء الألمان –دون القائد– وأطعمناهم. بدا عليهم بعض الحزن، وتمنيت –كما أفعل دومًا– أن يعني هذا أخبارًا سيئة من جانبهم. ظلت هيلين تنظر إليَّ وأنا أعمل؛ أستطيع رؤيتها وهي تحاول أن تحسم ما سأفعله. قدمت الطلبات، وصببت النبيذ، وغسلت الصحون، وتقبلت بإيماءة مقتضبة عبارات الشكر من أولئك الرجال الذين هنَّأونا على وجبة الطعام. ومع آخر واحد منهم غادر الحانة، رفعت إديث التي كانت نائمة مرة أخرى على سلالم الدرج وحملتها إلى غرفتي. وضعتها في الفراش وسحبت الأغطية فوقها لتصل إلى ذقنها. تطلعت إليها للحظة، وأزحت برفق خصلة من شعرها بعيدًا عن وجنتها. تململت في فراشها. كان وجهها منزعجًا حتى في نومها.

راقبتها لأتأكد أنها لم تستيقظ. مشطت شعري ورفعته، كانت حركاتي بطيئة ومدروسة. وبينما كنت أنظر إلى صورتي المنعكسة على ضوء الشموع، استرعى انتباهي شيء. استدرت والتقطت ورقة دفع بها أحدهم من أسفل الباب. حدقت إلى كلماتها، بخط يد هيلين:

ما يقع لا يمكن تغييره.

ثم تذكرت الأسير القتيل في حذائه الواسع، ومجموعة الرجال الآخرين ذوي الهيئة الرثة الذين كانوا يسيرون عبر الطريق ما بعد ظهيرة ذلك اليوم. وفجأة بدا الأمر بسيطًا: لا يوجد خيار آخر.

وضعت الورقة في المكان الذي أخبئ فيه أشيائي ثم هبطت الدرج بهدوء. وبالأسفل نظرت إلى اللوحة المعلقة على الحائط ثم رفعتها بحرص من على مشبكها وغلفتها بشال حتى لا يظهر منها شيء. غطيت نفسي بشالين آخرين وخرجت في الظلام. وبينما كنت أغلق الباب خلفي سمعت أختي تهمس من أعلى وجاء صوتها كجرس إنذار:

صوفي.

9

بعد مرور عدة أشهر قضيناها تحت حظر التجوال بدا السير في الظلام أمرًا غريبًا. كانت شوارع البلدة الصغيرة المغطاة بالثلوج مهجورة، والنوافذ خاوية والستائر لا تتحرك. سرت سريعًا عبر الظلمة ورفعت الشال فوق رأسي على أمل أنه إذا تصادف وانتبه أحدهم فسيرى مجرد هيئة غير محددة تسرع نحو الشوارع الخلفية.

كان الطقس شديد البرودة لكني بالكاد شعرت به، كنت فاقدة الإحساس. قطعت رحلة استغرقت خمس عشرة دقيقة إلى ضواحي البلدة ثم إلى مزرعة فوريير حيث اتخذ الألمان مسكنهم منذ عام تقريبًا. فقدت القدرة على التفكير. أصبحت مجرد شيء يتحرك. كنت أخشى من أنه إذا ما سمحت لنفسي بأن أفكر فيما أنا مقدمة عليه، فلن أقوى على تحريك ساقيَّ فإني أواصل السير بصعوبة، وإذا ما أطلقت العنان لتفكيري فسأسمع صوت تحذيرات أختي وأصوات أهل البلدة التي لا ترحم إذا ما تبين أنني شوهدت وأنا أزور القائد في ظلمة الليل. كان يمكن أن أسمع مخاوفي.

وبدلًا من هذا غمغمت باسم زوجي وكأنه تعويذة.

إدوارد... سأطلق سراح إدوارد. بإمكاني فعل هذا. وأطبقت ذراعي على اللوحة بشدة.

بلغت أطراف البلدة واستدرت يسارًا حيث أصبح الطريق الترابي شاقًّا ووعرًا، وزاد من تخريب ذلك الممر الضيق المملوء بالحفر، تلك المركبات العسكرية التي تقطع الطريق ذهابًا وإيابًا، وقد كسرت ساق خيل أبي في

واحدة من هذه الحفر العام الماضي، فقد امتطاه بعض الألمان وجعلوه يعدو سريعًا ولم يلتفتوا إلى موضع قدميه. بكى أوريلين حينما علم بذلك. ضحية بريئة أخرى للاحتلال.

وفي هذه الأيام لا أحد يبكي من أجل الأحصنة.

سأعيد إدوارد لمنزله.

غاب القمر وراء إحدى السحب، وتعثرت في سيري على طريق المزرعة وغاصت قدماي عدة مرات في الحفر الملأى بالمياه الباردة، فتبلل حذائي وجوربي وأطبقت بأصابعي الباردة بشدة على اللوحة خشية أن تسقط من يدي. لمحت الأضواء البعيدة داخل المنزل واستمررت في السير باتجاهها، تحركت بعض الأشكال الغريبة أمامي على جانبي الطريق -ربما كانت أرانب- ولمحت هيئة ثعلب يتسلل عبر الطريق وتوقف للحظات ليحدق إليَّ بوقاحة وجرأة، وبعدها بلحظات سمعت صراخ أرنب خائف جعلني أبتلع العصارة الصفراء التي اندفعت إلى حلقي بفعل صراخه.

لاحت المزرعة أمامي الآن بأضوائها الساطعة، وسمعت هدير محرك شاحنة فتسارعت أنفاسي، فقفزت للوراء عند سياج يحيط بالمكان وأنا أتوارى من أضواء مصابيحها الكاشفة حيث أخذت المركبة العسكرية تتقافز وتصدر ضجيجًا عاليًا وهي تمر. وفي الخلفية -أسفل غطاء المركبة المصنوع من القماش- استطعت أن أتبين وجوهًا لسيدات يجلسن بجانب بعضهن. نظرت نحوهن وهن يغبن عن الأنظار وخرجت من بين السياج واشتبك الشال بفروع الأشجار. كانت هناك شائعات تتردد بأن الألمان يأتون بفتيات من خارج البلدة؛ حتى الآن كنت أعتقد أنهم كذلك بالفعل. تذكرت ليليان ثانية ومنحتها صلاة صامتة.

بلغت مدخل المزرعة، وعلى بعد مئة سنتيمترات أمامي رأيت الشاحنة تتوقف، والسيدات بهيئتهن غير الواضحة يسرن في صمت أمامي نحو باب على اليسار، كما لو أنهن قطعن هذا الطريق من قبل عدة مرات. سمعت أصوات الرجال، وأصوات غناء تأتي من بعيد.

- توقفي!

خطا الجندي أمامي، قفزت من مكاني. رفع بندقيته ونظر إليَّ من كثب، ثم أشار باتجاه السيدات الأخريات.

- لا، لا، لقد جئت إلى هنا لمقابلة القائد.

أشار إليهن بنفاد صبر.

قلت بصوت أعلى: «لا، القائد، لديَّ موعد معه».

- القائد؟

لم أستطع تبين وجهه، لكن بدا من مظهره أنه يتفرسني ثم خطا عبر الحديقة حيث لمحت أحد الأبواب. طرقه وسمعت حديثًا هامسًا. انتظرت وقلبي يدق بشدة وأحسست بوخز في جسمي من فرط القلق.

قال حينما عاد بالألمانية: «ما اسمك؟».

همست قائلة: «سيدة ليفيفر».

أشار إلى الشال الذي أرتديه فأزحته قليلًا عن رأسي وكشفت وجهي مشيرًا بعدها إلى باب عبر الفناء وهو يقول بالألمانية: «عند هذا الباب. على الجهة اليمنى».

قلت: «ماذا؟ لا أفهمك».

نفد صبره مرة أخرى وقال: «هناك هناك». أشار إليه وأمسك بمرفقي ودفعني إلى الأمام بعنف. انتابتني صدمة إذ كيف يعامِل زائرًا أتى إلى القائد على هذا النحو. ثم تبادر إلى ذهني فجأة أن اعتراضي على هذا كوني امرأة متزوجة لا معنى له، فأنا مجرد امرأة أخرى تزور ألمانيًا في ظلمة الليل. شعرت براحة لأنه لم ير الدماء التي تصاعدت إلى وجنتي. انتزعت مرفقي من قبضة يده وسرت مسرعة نحو المبنى الصغير جهة اليمين.

لم يكن من الصعب معرفة غرفته؛ فالضوء كان يتسلل من أسفل باب واحد. ترددت للحظات بالخارج ثم طرقت الباب وقلت بهدوء: «سيدي القائد؟».

سمعت وقع قدميه، وفتح الباب، وتراجعت خطوة للوراء. لم يكن يرتدي زيه الرسمي وإنما قميص مخطط دون ياقة وحمالة سروال، وتدلى من إحدى يديه كتاب كما لو أنني قطعت عليه قراءته. نظر إليَّ وعلى وجهه نصف ابتسامة كتحية، ثم خطا للخلف ليسمح لي بالدخول.

كانت الحجرة كبيرة ملأى بالعوارض الخشبية، وأرضيتها مغطاة بالسجاد الذي أعتقد أنني رأيت العديد منه في منازل جيراني. رأيت مائدة صغيرة حولها بعض المقاعد وصندوق ملابس كالذي يحمله العسكريون وكانت زواياه النحاسية تتلألأ في ضوء مصباحين من مصابيح الأسيتيلين، وخطاف ملابس تدلى منه زيه الرسمي، ومقعدًا وثيرًا ضخمًا بجوار نيران مستعرة تصل حرارتها إلى الجانب الآخر من الغرفة. واستقر في ركن الحجرة فراش فوقه غطاءان من الأغطية السميكة. نظرت صوبه ثم أشحت ببصري بعيدًا.

- تفضلي هنا.

كان يقف خلفي، وأزاح الشيلان من فوق ظهري وهو يقول: «دعيني أحملها عنك».

سمحت له أن ينزعها ويعلقها على خطاف الملابس وأنا لا أزال أضم اللوحة إلى صدري. وبينما كنت أقف متسمرة في مكاني، شعرت بالخجل من ملابسي الرثة، فكثيرًا لا نستطيع أن نغسل الملابس في هذا البرد القارس؛ فالصوف يستغرق وقتًا طويلًا لكي يجف أو أنه يتجمد كقطع صلبة بالخارج.

أضاف قائلًا: «يبدو أن الطقس شديد البرودة بالخارج. أكاد أستشعره من ملمس ملابسك».

- نعم.

بدا صوتي وكأنه لشخص آخر غيري.

- إنه شتاء قارس، وأعتقد أنه ما زال هناك بعض شهور منه لم تأت بعد. هل تودين شرابًا؟

ثم اتجه نحو مائدة صغيرة وصب كأسين من النبيذ من قارورة زجاجية. أخذت كأسًا دون أن أنطق بكلمة. كنت لا أزال أرتجف نتيجة السير بالخارج.

قال: «يمكنك وضع تلك الربطة جانبًا».

نسيت أنني كنت أحملها، فأنزلتها على الأرض وأنا ما زلت واقفة في مكاني.

قال وقد بدا عليه بعض الضيق حينما ترددت في الجلوس كما لو أن توتري بمنزلة إهانة له: «أرجوك، أرجوك اجلسي».

جلست على أحد المقاعد الخشبية وأنا أضع إحدى يدي على إطار اللوحة، ولا أدري لم وجدت راحة في هذا.

- لم آت لأتناول الطعام في الفندق اليوم. لقد فكرت فيما قلتِه، وأنهم يعتبرونك خائنة بسبب وجودنا في منزلك.

تناولت رشفة من النبيذ.

- لا أريد أن أسبب لك المزيد من المشكلات صوفي، مشكلات أكثر من تلك التي نسببها لكم بالفعل جراء احتلالنا.

لم أدر بما أجيب عن هذا. تناولت رشفة أخرى. ظلت عيناه مثبتتين على عيني كما لو أنه ينتظر أي إجابة.

ترامت إلى مسامعنا من خلال الفناء أصوات غناء. وتساءلت إن كانت الفتيات بصحبة الرجال، ثم من أولئك الفتيات ومن أي قرية جئن. ترى هل سيجوبون بهن الشوارع فيما بعد كالمجرمين على ما اقترفنه؟ هل يعلمن مصير ليليان بيتون؟

قال وهو يشير إلى حامل طعام صغير عليه بعض الجبن والخبز. هززت رأسي بالنفي، فلم تكن لديَّ شهية طوال اليوم.

- إنه بالطبع لا يرقى إلى مستوى طهوك. كنت أفكر منذ أيام في طبق البط الذي صنعته الشهر الماضي مع خليط البرتقال، يمكنك أن تعديه لنا ثانية.

استمر في الحديث قائلًا: «لكن مواردنا تتضاءل، لقد وجدت نفسي أحلم بكعكة عيد الميلاد التي نسميها أشتولن، هل توجد لديكم في فرنسا؟».

هززت رأسي بالنفي ثانية.

جلسنا إلى جانبي موقد النار. شعرت وكأن بي مسًا كهربائيًا وأن كل جزء مني مضطرب، شعرت وكأنه يستطيع أن ينفذ إلي ليرى ما بأعماقي، فهو يعرف كل شيء، يمسك بزمام كل شيء. استمعت إلى تلك الأصوات البعيدة التي تتردد بداخلي، وحقيقة وجودي في المكان تؤلمني بين الحين والآخر. إنني بمفردي مع القائد، في ثكنات الألمان، في حجرة بها فراش.

بادرته قائلة: «هل فكرت فيما قلته لك؟».

حدق إلي لدقيقة ثم قال: «إنك لا تتيحين لنا متعة محادثة قصيرة؟».

ازدردت ريقي وقلت: «آسفة، لكن يجب أن أعرف».

أخذ رشفة من النبيذ وقال: «لم أفكر في شيء آخر».

قلت وقد احتبست أنفاسي: «إذًا...». ثم انحنيت ووضعت الكأس جانبًا ونزعت الربطة عن اللوحة ثم وضعتها أمام المقعد حتى تلقي النيران بضوئها عليها فيستطيع أن يراها بأفضل شكل لها.

- هل ستأخذها؟ هل ستأخذها مقابل حرية زوجي؟

أصبح الجو هادئًا في الغرفة. لم يكن ينظر إلى الصورة بل كانت عيناه مسلطة عليَّ دون أن تطرف وكان من الصعب قراءة ما بهما.

- ليتني أستطيع أن أخبرك بما تعنيه هذه اللوحة بالنسبة لي. آه لو تعلم كيف أعانتني على الاستمرار في أحلك الأيام، لكنت أدركت أنني لا أقدمها بسهولة. لكنني لا أمانع أن تذهب اللوحة إليك سيدي القائد.

- فريدريك، ناديني فريدريك.

- فريدريك... لقد علمت منذ فترة طويلة أنك تتفهم طبيعة عمل زوجي، إنك تدرك معنى الجمال، وتعرف أن الفنان يضع جزءًا من روحه في العمل الفني، ولهذا السبب يصبح عمله لا يقدر بثمن. لذا وبينما ينفطر قلبي وأنا أفقد تلك اللوحة، أمنحها لك عن طيب خاطر. لك أنت.

كان لا يزال يحدق إلي، ولم أحول بصري عنه، فكل شيء يعتمد على تلك اللحظة. رأيت آثار ندبة قديمة تنساب لسنتيمترات من أذنه اليسرى لتصل إلى عنقه مخلفة نتوءًا خفيفًا، وقد أحاط بعينيه الزرقاوين اللامعتين خط أسود كما لو أن أحدهم رسم خطًّا حول حدقتيْ عينيه لإبراز لونهما.

- لم يكن الأمر بشأن اللوحة صوفي.

وها هو الأمر؛ إقرار مصيري.

أغمضت عيني لوهلة حتى أستوعب تلك المعلومة.

بدأ القائد يتحدث عن الفن، فقد تحدث عن مدرس رسم عرفه وهو شاب؛ مدرس فتح عينيه على أعمال بعيدة عن كلاسيكية نشأته. وتحدث عن محاولاته أن يشرح لوالده هذا الأسلوب في الرسم الأكثر صعوبة والأشد تأثيرًا، وخيبته لعدم فهم الرجل العجوز، وقال بحزن: «لقد قال لي إنه يبدو «رسمًا

غير مكتمل»، فقد كان يعتقد أن الانحراف عن الشكل التقليدي هو نوع من أنواع التمرد، وأعتقد أن زوجتي تشبه والدي كثيرًا في هذا».

كنت بالكاد أسمع ما يقوله. رفعت كأسي وتناولت جرعة كبيرة منها.

قلت: «هل يمكن أن أتناول المزيد؟». أفرغته في فمي ثم طلبت منه أن يملأ كأسي ثانية. لم أشرب في حياتي هكذا من قبل أو منذ ذلك الحين. لم أهتم إن كنت أبدو غير مهذبة. استمر القائد في حديثه وكان صوته رتيبًا. لم يطلب مني شيئًا في المقابل؛ بدا الأمر كما لو أنه يريد فقط أن أنصت. كان يريدني أن أعلم أن هناك شخصًا آخر خلف الزي الرسمي والقبعة، لكني بالكاد كنت أسمعه. تمنيت أن أطمس العالم من حولي فالقرار ليس قراري.

- هل تعتقدين أنه كان بمقدورنا أن نكون أصدقاء إذا ما التقينا في ظروف أخرى؟ أود أن أتخيل أننا يمكن أن نكون كذلك.

حاولت أن أتناسى وجودي في هذا المكان، في تلك الحجرة وعينا ألماني مسلطتان علي. أردت أن أكون شيئًا لا يشعر، شيئًا لا يدري.

- ربما.

- هل ترقصين معي صوفي؟

ظل يناديني باسمي مجردًا كما لو كان يحق له ذلك.

وضعت الكأس جانبًا ونهضت وذراعاي على جانبي لا تتحركان، بينما سار هو نحو الفونوجراف وأدار موسيقى الفالس الهادئة. اتجه نحوي وتردد للحظة قبل أن يطوقني بذراعيه. وعندما انبعثت أصوات الموسيقى شرعنا في الرقص. تحركت ببطء حول الحجرة يدي في يده وأصابعي تلامس قميصه القطني الناعم. كنت أرقص وذهني فارغ، شبه واعية برأسه التي أراحها على رأسي. فاحت منه رائحة صابون وتبغ وشعرت بسرواله يلامس تنورتي. ضمني ولم يجذبني إليه، لكنه أمسك بي بحرص كما لو أنه يمسك بشيء قابل للكسر. أغمضت عيني وأنا أتناسى ما حولي محاولة أن أدرب ذهني على تتبع الموسيقى وأن أتخيل نفسي في مكان آخر. حاولت لعدة مرات أن أتخيل إدوارد مكانه لكن عقلي لم يسمح لي بذلك. كل شيء يتعلق بهذا الرجل مختلف؛ شعوره، حجمه مقارنة بحجمي، حتى رائحة بشرته.

قال بنعومة: «في بعض الأحيان، يبدو لنا أنه لا يتبقى سوى القليل من ملامح الجمال في هذا العالم، القليل من البهجة، وتعتقدين أن الحياة قاسية

في بلدتك الصغيرة، ولكن إن رأيت ما نراه خارجها... لا أحد يفوز... لا أحد يفوز في حرب كهذه».

بدا وكأنه يتحدث إلى نفسه. استقرت أصابعي على كتفه وشعرت بعضلاته تتحرك أسفل القميص وهو يتنفس.

غمغم قائلًا: «إنني رجل جيد صوفي، من المهم بالنسبة لي أن تفهمي ذلك، أن نفهم بعضنا بعضًا».

بعد ذلك توقفت الموسيقى، وأطلق سراحي على مضض وذهب ليعيد وضع إبرة الفونوجراف وانتظر حتى بدأت الموسيقى مرة أخرى، وبدلًا من أن يرقص نظر للحظة إلى اللوحة. شعرت ببارقة أمل -ربما سيغير رأيه- لكنه بعد هنيهة من التردد رفع يده ونزع برقة أحد مشابك شعري. وبينما وقفت متسمرة في مكاني، نزع المشابك المتبقية بحرص، الواحد تلو الآخر، ووضعها على الطاولة وجعل شعري ينسدل برقة على وجهي. لم يشرب شيئًا تقريبًا ولكن كانت هناك سمة في تعبيرات وجهه غير الواضحة -وهو ينظر- ألا وهي الوحشة. كانت عيناه تبحثان عن عيني وتطرح عليهما سؤالًا. لكن عيني كانتا ثابتتين لا تطرفان كعروسة من البورسلين، ولم أحولهما بعيدًا عنه.

وعندما انسدلت آخر خصلات شعري رفع يده ولف خصلات شعري حول أصابعه. كان هدوؤه هدوء رجل يخشى أن يتحرك، صياد لا يرغب في إخافة فريسته، ثم أخذ وجهي بين راحتيه برفق وقبلني. انتابني شعور مؤقت بالخوف؛ فلم أحمل نفسي على مبادلته القبل، لكن شفتيَّ انفرجتا لتتلقى قبلاته وأغمضت عيني. الصدمة جعلت جسدي غريبًا عني، وشعرت بيديه وهو يحكمهما حول خصري ويدفعني إلى الوراء باتجاه الفراش. وفي تلك الأثناء أتاني صوت داخلي يذكرني بأن ما يحدث هو صفقة، وأنني أشتري حرية زوجي. كل ما فعلته أن تنفست وأغمضت عيني ورقدت على الأغطية شديدة النعومة، شعرت بيديه على قدمي تنزعان عنهما حذائي وإذا بهما فوق ساقيَّ. شعرت بعينيه وهما تتجولان فوق جسدي.

إدوارد.

لثم يدي. كانت أنفاسه مسموعة وهو غارق في عالم من نسج خياله. لثم ساقيَّ اللتين تحيط بهما الجوارب وأراح فمه على بشرتي كما لو أن دُنوه منها متعة لا تحتمل فغمغم قائلًا: «صوفي. صوفي...».

وجدت نفسي أتحول -كشخصية أسطورية- إلى حجر.

إنها شفاه ألماني... ويد ألماني.

أشعر بيده تتلمسني في لهفة شديدة. أغلقت عيني بشدة وأطبقت على فكي بشدة كي أمنع نفسي من الصراخ احتجاجًا.

استطعت أن أسمع أنفاسه المتلاحقة، وأشعر بقطرات عرقه الخفيفة على بشرتي.. يا إلهي ماذا فعلت بنفسي؟ أصبحت أفكاري مشوشة وقد حلقت بعيدًا فقد استاء جزء مني من نعومة ودفء الأغطية أكثر من أي شيء آخر. لقد سرقها أحدهم مثلما يسرقون كل شيء. إنه الاحتلال وقد احتلوني. لكني تواريت بعيدًا. وجدتني في شارع في باريس شارع سوفلوت، كانت الشمس ساطعة ورأيت من حولي -وأنا أسير- السيدات الباريسيات في كامل تأنقهن والحمام يختال بين ظلال الأشجار الوارفة وذراع زوجي تتأبط ذراعي، وكنت أرغب في أن أقول له شيئًا ولكن بدلًا من ذلك سالت مني دمعة. توقف المشهد وتلاشى. وحينها أدركت أنه ابتعد. فتحت عيني ووجدتني أنظر إليه مباشرة. احمرَّ وجه القائد الذي كان يبعد سنتيمترات قليلة عن وجهي وارتسمت تعبيرات الألم على وجهه. حبست أنفاسي حينما أيقنت أزمته. لم أدر ماذا أفعل، لكن ظلت عيناه تنظران مباشرة إلى عيني وأدرك أنني عرفت. دفع نفسه للخلف.

شرع في الحديث قائلًا: «أنت...».

- ماذا؟

انتبهت لتنورتي المكومة حول خصري.

- تعبيرات وجهك... تعني...

نهض، ونظرت بعيدًا بينما سمعته يربط حزامه. حول بصره بعيدًا عني بحدة ووضع إحدى يديه أعلى رأسه.

بدأت الحديث قائلة: «أنا... أنا آسفة. ماذا فعلت؟».

لم أكن واثقة مما أعتذر عنه.

أشار نحوي وهو يقول: «أنت... أنت... لم أرغب في هذا... إن وجهك...».

- لا أفهم.

بدأت أشعر بالغضب حينها بسبب ظلم ما أتعرض له. هل لديه أدنى فكرة عما تحملته؟ هل يدري كم تكلفت في سبيل أن أدعه يلمسني؟

- لقد فعلت ما كنت تريده.

قال: «لم أكن أريدك على هذا النحو... لقد أردت...».

ثم رفع يده في إحباط وقال: «لقد أردت... لقد أردت هذه، أردت الفتاة التي في اللوحة».

حدقنا نحن الاثنان إلى اللوحة. نظرت الفتاة إلينا بثبات، وشعرها يحيط بعنقها. وتعبيراتها مليئة بالتحدي والتألق والإثارة. إنه وجهي.

جذبت تنورتي وأمسكت بقميصي حول رقبتي. حينما تحدثت كان صوتي أجشًّ مرتجفًا.

- لقد أعطيتك... أيها القائد كل ما بوسعي أن أعطيه.

تغير لون عينيه وذهب صفاؤهما وأضحت كالبحر الذي تجمد. جز على فكيه واختلجت عضلات وجهه وقال بهدوء: «اذهبي من هنا».

طرفت بعيني.

تلعثمت وأنا أقول له بعدما أدركت أن ما سمعته صحيحًا: «إنني آسفة إن كان بمقدوري أن...».

صاح في وجهي قائلًا: «اغربي من هنا». ثم أمسكني من كتفي وقد غرزت أصابعه في لحمي ودفع بي خارج الحجرة.

- حذائي، الشيلان.

- **اذهبي من هنا عليك اللعنة.**

لم يكن أمامي وقت إلا للإمساك باللوحة وبعدها دفع بي بعنف خارج الباب فوقعت على ركبتي أعلى الدرج. كان عقلي يحاول استيعاب ما حدث. سمعت خلف الباب صوت تحطم هائل تبعه صوت تحطم آخر ولكن هذه المرة مصحوبًا بتهشم زجاج. نظرت خلفي ثم هبطت الدرج بقدم عارية نحو الفناء وفررت إلى الخارج.

استغرقت ساعة لأصل إلى منزلي وقد فقدت شعوري بقدمي بعد مسافة ربع ميل. وحينما بلغت المدينة كانت قد تجمدت لدرجة لم أشعر معها بالخدوش والجروح التي أصبت بها وأنا أسير على طريق المزرعة المملوء

بالحجارة. سرت وأنا أتعثر في الظلام واللوحة تحت ذراعي أرتجف وأنا أرتدي قميصي الخفيف لكني لم أكن أشعر بشيء. وبينما كنت أسير في طريقي أفسحت لي الصدمة مجالًا لأستوعب ما اقترفته وما فقدته وشرد عقلي مع تلك الأفكار. سرت وسط شوارع البلدة المهجورة ولم أعد أهتم إن رآني أحد.

وصلت الفندق قبل الساعة الواحدة بوقت قصير، وسمعت الساعة وهي تدق في إشارة وحيدة وأنا أقف بالخارج، وتساءلت للحظة هل كان من الأفضل للجميع إن لم أعرض نفسي لتلك التجربة السيئة؟ وبينما ما زلت أقف في مكاني. لاح ضوء خافت خلف الستائر الشفافة بينما سحب مزلاج الباب للوراء، ظهرت هيلين وهي تعتمر قبعة النوم وتحيط كتفيها بشالها الأبيض. لا بد وأنها كانت تنتظر عودتي.

رفعت بصري إليها -إلى أختي- وأدركت أنها كانت على حق طوال الوقت، وأدركت أن ما فعلته قد عرض عائلتي كلها للخطر. أردت أن أخبرها بأني آسفة على ما فعلت وأني أتفهم فداحة خطئي وأن حبي لإدوارد واشتياقي لاستمرار حياتنا معًا هو ما أغمض عيني عن أي شيء آخر. لكني لم أقوَ على الكلام.

اتسعت عيناها وهي تنظر إلى كتفي المكشوفة وقدمي العارية. مدت يدها وجذبتني إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها. وضعت الشال الذي كانت ترتديه حول كتفي وأزاحت شعري إلى الوراء بعيدًا عن وجهي، ودون أن تنبس بكلمة اقتادتني إلى المطبخ وأغلقت الباب وأشعلت الموقد وجهزت كوبًا من اللبن الساخن وبينما كنت أمسك به (ولم أستطع تناوله)، نزعت هي حوض الاستحمام القصدير من مكانه على الحائط ووضعته على الأرض. راحت تملأ الوعاء النحاسي بالمياه عدة مرات وبعد أن تغلي كل مرة ترفعها من على الموقد وتصبها في حوض الاستحمام. وحينما امتلأ الحوض بما يكفي من المياه سارت نحوي وأزاحت الشال بحرص وحلت رباط بلوزتي ثم رفعت القميص من فوق رأسي مثلما يمكن أن تفعل مع أي طفل صغير. فكت أزرار تنورتي من الخلف وحلت المشد، ثم فكت مشبك التنورة القصيرة ووضعتها على طاولة المطبخ حتى أصبحت عارية تمامًا. وحينما بدأت أرتجف أمسكت بيدي وساعدتني لأخطو داخل الحوض.

كانت المياه ساخنة لكني بالكاد شعرت بها. وضعت نفسي داخل المياه حتى أصبح معظم جسدي -فيما عدا ركبتي وكتفي- تحت المياه متجاهلة

وخز الجروح في قدمي. ثم شمرت أختي عن ساعديها وأمسكت بقطعة الاستحمام وراحت تنظفني بالصابون بدءًا من شعري مرورًا بظهري وحتى قدمي. فعلت ذلك في صمت وكانت يداها ناعمتين وهي تعمل فأخذت ترفع كل طرف من أطرافي برفق وتمسح أصابعي بعناية وتتأكد من أنها لم تترك جزءًا دون تنظيف. غسلت باطن قدمي، وأزالت برفق قطع الحصى الصغيرة التي غرزت في الشقوق. غسلت شعري وشطفته جيدًا بوعاء صغير حتى صارت المياه نظيفة وبعدها مشطت كل خصلة من خصلاته. أمسكت بمنشفة الوجه وجففت الدموع التي سالت فوق وجنتي. فعلت كل هذا دون أن تتفوه بكلمة. وفي النهاية عندما بدأت المياه تبرد ورحت أرتجف مرة أخرى سواء من البرد أو التعب أو ربما بسبب شيء آخر، أمسكت بالمنشفة الكبيرة ولفتها حولي. أمسكت بي بعدها ووضعتني في رداء نومي وقادتني إلى أعلى حيث فراشي.

سمعتها تهمس قائلة بينما كنت آوي إلى الفراش: «أوه، صوفي».

أعتقد أنني أدركت حينها ما جلبته لنا جميعًا.

- ماذا فعلت بنفسك؟

***

10

مرت الأيام، وكنت أنا وهيلين نباشر عملنا اليومي خلالها كاثنتين من الممثلين، فمن ينظر إلينا من بعيد قد يرى أننا ما زلنا كما كنا دومًا، لكن في الحقيقة كل منا كانت تتخبط في عاصفة من عدم الارتياح. لم تأتِ إحدانا بذكر ما حدث. كانت ساعات نومي قليلة لا تتعدى ساعتين فقط في بعض الأحيان، وكنت أتناول طعامي بصعوبة، فمعدتي تعاني اضطرابًا شديدًا من شدة الخوف بالرغم من أن بقية جسدي هدد بالانهيار من قلة الطعام.

استعدت رغمًا عني أحداث تلك الليلة المشؤومة ووبخت نفسي على سذاجتي، وغبائي وكبريائي. فبالقطع كبريائي هي ما قادتني إلى كل هذا. فلو كنت تظاهرت بأنني أستمتع باهتمام القائد، وقلدت شخصيتي في اللوحة لكنت نلت إعجابه، وربما أنقذت زوجي؟ أكان هذا شيئًا عسيرًا لأفعله؟ ولكني بدلًا من ذلك تمسكت بتلك الفكرة السخيفة بأنني إذا ما سمحت لنفسي بأن أكون مجرد شيء -وعاء- فإنني بهذا أقلل من فكرة خيانتي وأكون بهذا صادقة مع كلينا كما لو أن هذا سيصنع فارقًا بالنسبة لإدوارد.

كل يوم كنت أنتظر -وأنا أرتعد خوفًا- وأراقب الضباط في صمت وهم يملؤون المكان والقائد ليس بصحبتهم. كنت أخشى رؤيته لكن أكثر ما كنت أخشاه هو غيابه وما يعنيه. وذات ليلة استجمعت هيلين شجاعتها وسألت الضابط ذا الشارب الرمادي عنه ولكنه لوح بيده فقط وقال: «إنه مشغول». تلاقت عيناي بعيني أختي وأدركت أن تلك الإجابة لم تشف صدر أي منا.

كنت أشاهد هيلين وأشعر بالخوف بسبب ثقل ما اقترفته من ذنب. ففي كل مرة أراها تنظر إلى الأطفال أدرك أنها تتساءل عن مصيرهم. رأيتها ذات مرة وهي تتحدث إلى العمدة بصوت خافت وأعتقد أنني سمعتها تطلب منه أن يأخذ الأطفال إذا ما وقع لها شيئًا. أقول ذلك لأنه بدا مصدومًا مما قالته كما لو أنه استغرب من مجرد تفكيرها في شيء كهذا. رأيت خطوط التجاعيد الجديدة التي تتسلل حول عينيها وفكها وأدركت أنني المتسببة فيها.

كان الأطفال لا يبالون بمخاوفنا الداخلية، فميمي وجين يلعبان كعادتهما ويتذمران ويشكوان من البرد أو بسبب الأخطاء البسيطة لكل منهما. وقد أكسبهما الجوع طباعًا شرسة. لم أجرؤ على أن آخذ البقايا الصغيرة من مؤن الألمان الآن، كما كان من الصعب أن أرفض طلب الصغار. أما أوريلين فقد حاصرته الكآبة مرة أخرى، كان يأكل في صمت ولا يتحدث إلى أي منا. وتساءلت إن كان قد تشاجر مرة أخرى في المدرسة، ولكني كنت مشغولة الذهن بدرجة كبيرة فلم أعطِ الأمر المزيد من التفكير. ولكن مع هذا كانت إديث تدرك ما أنا فيه، فلديها حساسية عصا العرافة[1] كانت تلتصق بجانبي طوال الوقت، وفي الليل تنام وهي تمسك رداء نومي بيدها اليمنى وحينما أوقظها تظل عيناها السوداوان الواسعتان مثبتتين علي. حينما لمحت صورتي المنعكسة في المرآة رأيت وجهي نحيلًا بشدة يصعب التعرف عليه حتى بالنسبة لي.

تسربت الأخبار عن مدينتين جديدتين وقعتا في يد الألمان ناحية الشمال الشرقي. تقلصت حصص الطعام الوارد إلينا، وكل يوم أضحى أطول من سابقه. كنت أقدم الطلبات وأنظف المكان وأطهو لكن أفكاري كانت مشوشة إلى جانب الشعور بالإعياء.

ربما لن يظهر القائد ثانية. ربما خجله مما حدث بيننا يمنعه من رؤيتي مرة أخرى. ربما يشعر هو الآخر بالذنب. ربما يكون مات. ربما يدخل إدوارد الآن من

(1) الاستنباء بالعصا هو نوع من الكهانة يستخدم في محاولات تحديد مواقع المياه الجوفية والمعادن.

الباب. ربما تنتهي الحرب غدًا. وعند هذا الحد كان عليّ أن أجلس وألتقط أنفاسي.

أحيانًا تهمس لي هيلين قائلة: «اذهبي إلى أعلى وخذي قسطًا من النوم». وأتساءل: هل تكرهني؟ وأجد أنه من الصعب ألا تفعل فلو كنت أنا مكانها لشعرت بهذا.

عدت مرتين لقراءة خطاباتي التي أخفيها والتي أتت قبل أن نصبح إقليمًا ألمانيًّا بشهور. قرأت كلمات إدوارد عن صداقاته التي كونها وحصصهم القليلة من الطعام وروحهم المعنوية العالية وكانت بالنسبة لي بمنزلة الاستماع إلى شبح بعيد. قرأت كلماته الحنونة لي ووعده بأن يكون معي قريبًا وأنني أحتل كل ذرة من تفكيره.

إنني أفعل هذا من أجل فرنسا لكن بدفعة من الأنانية فإنني أفعله من أجلنا نحن الاثنان، لذا فإنني سأسافر عبر فرنسا الحرة عائدًا إلى زوجتي. إلى كل سبل الراحة في وطننا؛ حيث المرسم، وحانة ليون، وأوقات ما بعد الظهيرة ونحن مستلقيان في فراشنا وتناولينني قطعة من البرتقال المقشر. الأشياء التي كانت من عاداتنا المنزلية بات لها بريق الكنوز الآن. أو تعلمين كم أطوق لأحضر لك قدحًا من القهوة؟ وأراقبك وأنت تمشطين شعرك؟ هل تعلمين مدى اشتياقي لمشاهدتك وأنت تضحكين على الجانب الآخر من المائدة وأعرف أنني أنا سبب سعادتك؟ إنني أستحضر تلك الذكريات كي تواسيني وتذكرني

بسبب وجودي هنا. احرصي على سلامتك من أجلي،
واعلمي أني باق من أجلك.
زوجك المخلص.

إنني أقرأ كلماته الآن وعندي سبب إضافي لأتساءل هل سأسمعها مرة ثانية؟

كنت بالأسفل في القبو أغير واحدًا من براميل الجعة حينما سمعت وقع أقدام على البلاط الحجري ثم رأيت خيال هيلين عند المدخل ويمنع الضوء عن المكان.

- العمدة هنا يقول أن الألمان جاؤوا من أجلك.

توقف قلبي من الخوف.

ثم هرعت نحو الجدار الفاصل وبدأت بجذب الحجارة المفككة من مكانها.

- اذهبي، بإمكانك الخروج من خلال البيت المجاور إذا ما أسرعت.

زحزحتها جميعًا من أماكنها وقد خُدشت يداها من فرط سرعتها. وعندما أحدثت فتحة تَسَع لحجم برميل صغير استدارت نحوي، ثم نظرت إلى يدها وخلعت خاتم زواجها وأعطته لي قبل أن تنزع الشال من فوق كتفيها.

- خذي هذا واذهبي من هنا وسوف أعطلهم، لكن أسرعي صوفي فهم يأتون عبر الميدان.

قلت وأنا أنظر إلى الخاتم في راحتي: «لا أستطيع أن أفعل».

- لم؟

- ماذا لو حافظ على الاتفاق؟

- القائد؟ يحافظ على الاتفاق؟ أنَّى له بحق السماء أن يحافظ على اتفاقه؟ إنهم يأتون من أجلك صوفي، يأتون لمعاقبتك وسجنك في المعسكر. لقد أهنته بشدة، إنهم يأتون ليرسلوك بعيدًا.

- لكن فكري في الأمر هيلين. إن كان يريد معاقبتي لكان أمر بإطلاق الرصاص عليَّ أو جعلهم يجوبون بي في شوارع المدينة. كان سيفعل بي ما فعله بليليان بيتون.

- ويخاطر بالكشف عن سبب معاقبته لك؟ هل فقدت عقلك؟

قلت وقد بدأ ذهني يصفو: «لا، لكن كان لديه الوقت ليسيطر على انفعالاته وهو يرسلني الآن إلى إدوارد».

دفعتني نحو فتحة الجدار وقالت: «إنه ليس أنت من يتحدث صوفي، فهي قلة النوم، إنها مخاوفك، إنه الهوس... ستستعيدين رشدك قريبًا، لكن يجب أن تذهبي الآن. يقول العمدة أنه عليك الذهاب إلى مدام بولين، فيمكنك أن تمكثي في الحظيرة الليلة حيث الأرضيات المرتفعة. وسأحاول أن أبعث لك برسائل فيما بعد».

أبعدت ذراعها وأنا أقول: «لا، لا، ألا ترين؟ القائد لا يستطيع أن يعيد إدوارد إلى هنا دون أن يوضح ما فعله، لكن إذا ما أرسلني بعيدًا مع إدوارد فيمكن أن يطلق سراحنا نحن الاثنين».

- صوفي، يكفي هذا الكلام الآن.
- لقد التزمت من جانبي بالصفقة.
- اذهبي.
- لا.

حدقنا النظر إلى بعضنا بعضًا في المكان شبه المعتم. مددت يدي إلى يدها ووضعت الخاتم بها وأطبقت أصابعها عليه، ورددت بهدوء: «لن أذهب».

تغضن وجهها وهي تقول: «لا يمكن أن تدعيهم يأخذونك صوفي، هذا جنون، وسوف يرسلونك إلى معسكر الاعتقال! هل تسمعينني؟ المعتقل! الشيء نفسه الذي قلت أنه سيقتل إدوارد».

كنت بالكاد أسمعها. اعتدلت في وقفتي وأخرجت نفسًا عميقًا، وشعرت بالراحة بشكل غريب لأنهم إن كانوا يأتون من أجلي فهذا يعني أن هيلين بأمان وكذلك الأطفال.

- لقد كنت محقة بشأنه طوال الوقت، أنا واثقة من هذا، لقد فكر في الأمر برمته في وضح النهار وهو يعرف أنني حاولت برغم كل شيء لكي أحافظ من جانبي على الاتفاق، إنه رجل شريف وقد قال إننا أصدقاء.

شرعت هيلين في البكاء الآن وقالت: «أرجوك صوفي، لا تفعلي هذا، إنك لا تعرفين ماذا تريدين، ما زال أمامك فسحة من الوقت».

حاولت أن تقف في طريقي لكني دفعتها جانبًا ورُحت أصعد سلالم الدرج.

كانوا قد وصلوا بالفعل إلى مدخل الحانة عندما ظهرت، وكان اثنان منهما يرتديان زيهما الرسمي. خيم الصمت على المكان وعشرون زوجًا من الأعين مصوبة نحوي. رأيت العجوز رينيه ويداه ترتعشان على حافة الطاولة والسيدتين لوفير وديورانت تتحدثان في صوت هامس، والعمدة يقف مع أحد الضباط ويحرك يده بحدة محاولًا أن يقنعه أن يغير رأيه لأنه من المؤكد أن هناك ثمة خطأ ما.

قال الضابط: «إنها أوامر القائد».

- لكنها لم تفعل شيئًا، هذه مهزلة.

صاح أحدهم: «كوني شجاعة صوفي».

شعرت وكأنني في حلم والوقت يتباطأ والأصوات تتلاشى من حولي.

أشار إليّ أحد الضباط لأتقدم إلى الأمام وخطوت إلى الخارج، كان أشعة الشمس الخافتة تغمر الميدان، وكان هناك بعض الأشخاص يقفون في الشارع ينتظرون لمعرفة سبب التجمهر في الحانة. وقفت للحظة ونظرت حولي وطرفت بعيني في ضوء النهار بعدما كنت في ظلام القبو. فجأة بدا كل شيء صافيًا وقد أعيد رسمه في صورة أجمل وأكثر بهاء وكأنما ينطبع من جديد في مخيلتي. كان القس يقف خارج مكتب البريد ورسم إشارة الصليب حينما رأى مركبتهم التي أرسلوها لتقلني بعيدًا ولاحظت أنها المركبة نفسها التي نقلت أولئك النسوة إلى الثكنات. بدت لي تلك الليلة وكأنها منذ زمن بعيد.

صاح العمدة قائلًا: «لن نسمح بهذا، إنني أريد أن أسجل شكوى رسمية. هذا تجاوز، لن أسمح لكم أن تأخذوا هذه الفتاة دون أن أتحدث إلى القائد أولًا».

- إنها أوامره.

بدأت مجموعة صغيرة من كبار السن تحيط بالرجال وكأنها تشكل حاجزًا.

تحدثت السيدة لوفير بطريقة خطابية وقالت: «لا يمكنكم اضطهاد فتاة بريئة، لقد استوليتم على منزلها وجعلتموها خادمة لكم، والآن تريدون سجنها بلا سبب؟».

ظهرت أختي بجانبي وهي تقول: «صوفي على الأقل خذي أغراضك». ثم دفعت إليَّ بحقيبة قماش وكانت تتدلى منها أمتعتي التي ملأت بها الحقيبة في عجالة.

- احرصي على سلامتك. هل تسمعينني؟ احرصي على سلامتك وعودي إلينا؟

انتشرت همسات احتجاجية بين الجموع وازدادت حدتها لتصبح صيحات غاضبة. نظرت جانبًا ورأيت أوريلين كان وجهه غاضبًا تتصاعد إليه الدماء ويقف على الطوار بجانب السيد سول. لم أكن أريد أن يتورط فيما يحدث فإذا ما هاجم الألمان الآن ستصبح كارثة ومن المهم أن يكون لهيلين نصير خلال الأشهر القليلة القادمة. أخذت أشق طريقي نحوه وبدأت حديثي قائلة: «أوريلين أنت رجل البيت الآن يجب أن تعتني بكل فرد فيه حينما أذهب». لكنه أوقفني

وانفجر قائلًا: «إنها غلطتك، إنني أعرف ما فعلته، أعرف ما فعلته مع الألماني!».

فجأة توقف كل شيء، ونظرت إلى أخي وقد امتزجت على وجهه تعبيرات الألم والغضب.

- لقد سمعتك أنت وهيلين تتحدثان ورأيتك وأنت عائدة في تلك الليلة.

لاحظت تبادل النظرات من حولي. هل قال أوريلين بيسيت لتوه ما أعتقد أنه فعله؟

بدأت حديثي قائلة: «إنه ليس...». لكنه استدار واندفع عائدًا نحو الحانة.

أطبق الصمت على المكان. وردد الحاضرون اتهام أوريلين في همس لأولئك الذين لم يسمعوه. رأيت الصدمة على الوجوه من حولي ونظرات هيلين الخائفة بجانبي. لقد أصبحت مثل ليليان بيتون الآن ولكن دون عامل التخفيف للمقاومة. أضحى الجو العام من حولي أقل تعاطفًا بصورة ملموسة.

مدت هيلين يدها نحوي وقالت بصوت هامس منكسر: «كان عليك الذهاب، كان عليك الذهاب صوفي». قالتها وكأنها تمسك بي ولكنهم دفعوا بها بعيدًا عني.

جذبني أحد الألمان من ذراعي ودفعني نحو ظهر الشاحنة، وصاح أحدهم بشيء من بعيد ولم أتبين إن كان احتجاجًا على ما يقترفه الألمان أم أنه سباب موجه نحوي. ثم سمعت كلمة: «**عاهرة، عاهرة**». وارتجفت.

حدثت نفسي قائلة حينما شعرت أن قلبي سيقفز من بين ضلوعي: «إنه يرسلني إلى إدوارد، أعلم أنه سيفعل، يجب أن أومن بهذا».

ثم سمعتها وصوتها يشق الصمت وهي تنادي: «صوفي». كان صوت طفلة؛ عال ومفعم بالألم. اندفعت إديث وسط الحشود وألقت بنفسها أمامي وتشبثت بساقي وقالت: «لا تتركيني، لقد قلت إنك لن تتخلي عني».

كان هذا أقصى ما قالته بصوت عال منذ أن قدمت إلينا. ازدردت ريقي واغرورقت عيناي بالدموع. انحنيت وطوقتها بذراعي. كيف سأتركها؟ تشوشت أفكاري وأصبحت حواسي لا تستشعر إلا ملمس يديها الصغيرتين.

ثم رفعت بصري ورأيت كيف كان الجنود الألمان يرمقونها، كانت نظرتهم تحمل بعض الفضول. رفعت يدي ومسحت على شعرها وقلت: «إديث يجب أن تمكثي مع هيلين وكوني شجاعة، سأعود إليك أنا وأمك. أعدك».

لم تصدقني واتسعت عيناها من الخوف.

- لن يصيبني أي سوء. أعدك. إنني ذاهبة لرؤية زوجي.

حاولت أن أجعلها تصدقني وأن يكون صوتي مليئًا بالثقة.

قالت وهي تحكم قبضتها علي: «لا، أرجوك لا تذهبي».

انفطر قلبي. وتوسلت إلى أختي في صمت. **ابعديها عن هنا، لا تجعليها تراني**. أبعدت هيلين أصابعها عن كتفي وشرعت في البكاء.

وجهت حديثها للجنود وهي تزيح إديث بعيدًا: «أرجوكم لا تأخذوا أختي، إنها لا تدري ما تفعله. أرجوكم لا تأخذوا أختي، إنها لا تستحق هذا».

وضع العمدة ذراعه حول كتفيها وتعبيرات وجهه تنم عن الارتباك وقد فقد حماسته للنضال نتيجة لكلمات أوريلين.

ناديتها وسط الضجيج: «سأكون بخير إديث». بصق أحدهم عليَّ وقد رأيتها خطًّا رفيعًا قذرًا على أحد أكمام ملابسي. علت صيحات الاستهجان وسط الجموع. تملكني الفزع وصحت: «هيلين؟ هيلين؟».

دفعتني يد الألمان بعنف نحو الجزء الخلفي من الشاحنة، ووجدت نفسي بداخلها يحيط بي الظلام وأجلس على مقعد خشبي. واتخذ أحد الجنود مقعده أمامي وهو يسند بندقيته إلى انحناءة مرفقه. انسدل طرف الغطاء القماش أمامي ودبت الحياة في محرك الشاحنة. ارتفع صوته فتعالت أصوات الجموع كما لو أن هذا الفعل قد أطلق العنان لأولئك الذين يرغبون في توجيه السباب لي. وتساءلت للحظة إذا ما كان يمكنني أن ألقي بنفسي من تلك الفتحة الصغيرة، لكني سمعت صوتًا يقول: «**عاهرة**» أعقبه صراخ إديث الخافت وصوت ارتطام الحجارة وهي تضرب جانب الشاحنة مما جعل الجندي يصيح في تحذير، وانتفضت حينما سمعت صوت ارتطام حجر آخر جاء خلفي تمامًا حيث أجلس. نظر إليَّ الألماني بثبات وأخبرتني تلك الابتسامة الماكرة التي ارتسمت على تعبيرات وجهه بفداحة خطئي.

جلست وأنا أتكئ بيدي المضمومتين على الحقيبة وبدأت أرتجف. وبينما كانت الشاحنة تبتعد لم أحاول أن أرفع طرف الغطاء المصنوع من القماش، فلم أكن أريد أن أرى أعين أهل البلدة موجهة نحوي، ولا أريد أن أسمع اتهاماتهم. جلست فوق سقف العجلة وأخفضت رأسي ببطء لتستقر بين راحة يدي وأنا أغمغم قائلة: «إدوارد، إدوارد، إدوارد، إنني آسفة». لم أكن واثقة ممن أوجه له اعتذاري.

لم أجرؤ على أن أرفع بصري إلا حينما بلغنا ضواحي البلدة، ومن خلال فتحة القماش التي راحت تهتز رأيت اللافتة الحمراء لفندق الديك الأحمر وهي تلمع في ضوء شمس الشتاء ورداء إديث الأزرق الزاهي وهي تقف على طرف الجموع المتفرجة. راحت صورتها تتضاءل وتتضاءل حتى اختفت عن الأنظار شأنها شأن البلدة بأسرها.


الجزء الثاني

11

لندن 2006

كانت ليف تركض بجانب النهر وهي تتشبث بحقيبتها أسفل ذراعها وهاتفها المحمول محشور بين أذنها وكتفها، وفي مكان ما بالقرب من طريق إمبانكمنت Embankment[1]، أمطرت السحب الرمادية المحملة بالمياه في سماء لندن وهطلت الأمطار وأدت إلى عاصفة ممطرة شبه استوائية في مركز العاصمة، وتوقفت حركة المرور وتصاعدت الأبخرة من مواسير العادم بسيارات الأجرة التي حجبت نوافذها الرؤية بسبب البخار الناتج من تنفس ركابها.

قالت للمرة الخامسة عشرة وقد اتسخت سترتها والتصقت خصلات شعرها المبللة برأسها: «أعلم... أعلم... نعم إنني على دراية تامة بالشروط... إنني أنتظر دفعتين». ثم دلفت إلى أحد مداخل البنايات وجذبت حذاء ذا كعب عال من حقيبة يدها وانتعلته سريعًا وهي تنظر إلى حذائها الرياضي المبتل وقد أدركت أنه لا يوجد مكان تضعه فيه.

- نعم... نعم... إنني... لا لا، ظروفي لم تتغير. ليس بعد.

خرجت من مدخل البناية واتجهت إلى الطوار وعبرت الطريق متجهة نحو شارع ألدويتش وهي تمسك بالحذاء المبلل بإحدى يديها. قذفت إحدى السيارات ببعض رذاذ المياه على قدميها فتوقفت وهي تحدق بعدم تصديق

(1) ujf فيكتوريا إمبانكمينت جزء من سد التايمز وهو طريق وممشى على طول النهر على طول الضفة الشمالية لنهر التايمز في لندن.

إلى السيارة المغادرة وصاحت قائلة: «هل تمزح معي؟». ثم أردفت قائلة: «لا ليس أنت سيد دين. ليس أنت دين... نعم إنني أقدر أنك تقوم بمهام عملك ولكن أنصِت لي، سأحصل على الدفعة المالية يوم الاثنين. اتفقنا؟ إنني لم أتأخر في السداد من قبل. حسنًا. مرة واحدة».

اقتربت منها سيارة أجرة أخرى ولكنها هذه المرة تحركت بمهارة نحو أحد المداخل.

- نعم أتفهم دين... أعلم. أعرف أن الأمر صعب بالنسبة لك، لكن أعدك أنك ستحصل عليها يوم الاثنين... نعم... نعم... بالقطع. وآسفة بشأن تلك الضجة... وآمل أن تحصل على الوظيفة الجديدة أيضًا.

أغلقت الهاتف ووضعته في حقيبتها ونظرت إلى أعلى نحو لافتة إعلان المطعم الضخمة. انحنت لترى صورتها المنعكسة في مرآة إحدى السيارات وشعرت بالإحباط. ليس ثمة ما يمكن فعله فهي بالفعل متأخرة عن موعدها بنحو أربعين دقيقة.

راحت تسوي خصلات شعرها المبتلة وتزيحها عن وجهها ونظرت خلفها باشتياق نحو الشارع الممتد ثم أخذت نفسًا ودفعت باب المطعم ودلفت إلى الداخل.

نهضت كريستين سولبرج من مقعدها وسط المائدة الطويلة وفتحت ذراعيها وأرسلت إلى ليف قبلات حارة في الهواء، كانت على بعد سنتيمترات من جانب وجهها وهي تقول: «ها هي جاءت، يا إلهي إنك مبتلة».

كان شعرها بالطبع بلون الكستناء الخالص.

- نعم، لقد جئت سيرًا. ليس قرارًا صائبًا.

- إليكم جميعًا، هذه ليف هالستون، إنها تفعل أشياء رائعة من أجل مؤسستنا الخيرية، وهي تعيش في منزل رائع في لندن.

ابتسمت كريستين ابتسامة ودودة ثم أخفضت صوتها وهي تقول: «سأعتبر نفسي فاشلة إذا لم يوقع بها سريعًا أحد الرجال الرائعين قبل عيد الميلاد».

ألقى الجميع عبارات التحية، شعرت ليف بإحراج شديد، وأجبرت نفسها على الابتسام وهي تتحاشى النظر إلى أعين الأشخاص الذين يجلسون حولها. نظر إليها سفين بثبات وفي عينيه نظرات اعتذار عما سيأتي فيما بعد.

قالت كريستين: «لقد حجزت لك مقعدًا بجوار روجر، إنه شخص لطيف». ثم رمقتها بنظرة ذات مغزى وهي توجهها نحو المقعد الخالي.

أردفت قائلة: «سوف يروق لك».

كان كل الحاضرين أزواجًا. إنهم كذلك بالطبع. ثمانية أزواج إلى جانب روجر. كانت تشعر أن النساء يتفرَّسنها خلسة من خلف ابتسامتهن المهذبة للتأكد مما إذا كانت -كونها المرأة الوحيدة العزباء- تشكل تهديدًا لهن. إنه تعبير ألفته طويلًا. أما الرجال فقد نظروا جانبًا نحوها يتفحصونها لسبب مختلف. شعرت بأنفاس روجر الساخنة التي تفوح منها رائحة الثوم وهو ينحني ويربت على المقعد بجواره.

مد يده إليها بالتحية وهو يقول: «ليف. إنك مبتلة». استطاع أن يقولها بإثارة بعض الشيء، كان يشبه طالب المدرسة الحكومية السابق الذي يجد من الصعب التحدث إلى امرأة دون إدخال بعض التلميحات الجنسية.

جذبت سترتها نحوها وهي تقول: «نعم، إنني كذلك بالفعل».

نظرا إلى بعضهما بعضًا نظرات خالية من أي تعبير. كان شعره بنيًّا مائلًا إلى الصفرة، وبشرته متوردة كبشرة شخص أمضى وقتًا طويلًا في الريف. صب لها كأسًا من النبيذ.

ناداها باسمها كما لو أنها اختلقته وهو يمزح معها وقال: «إذًا ماذا تعملين ليف؟».

- أعمل في تحرير المقالات بالأساس.
- حسنًا، تحرير المقالات. توقفا الاثنان عن الحديث ثم سألها ثانية: «هل لديك أطفال؟».
- لا، وأنت؟
- ولدان، وكلاهما في مدرسة داخلية. ذاك هو أفضل مكان لهما في حقيقة الأمر. إذًا... ليس لديك أطفال أليس كذلك؟ وليس ثمة رجل في الأفق. كم عمرك؟ يتخطى الثلاثين؟

ازدردت ريقها وحاولت تجاهل بعض الألم الذي تسببت فيه كلماته.

- ثلاثون عامًا.

- ألا ترغبين في قضاء الوقت بصحبة بعض الأشخاص أم أنك من أولئك النسوة اللاتي يطلق عليهن... ثم رفع أصابعه ورسم علامتي تنصيص وأردف قائلًا: «نساء عاملات؟».

قالت وهي تبتسم: «نعم، لقد استأصلت المبايض حينما حدثت سيرتي الذاتية مؤخرًا لكي أكون بأمان».

حدق إليها ثم انفجر ضاحكًا وهو يقول: «أوه إنك مرحة للغاية. امرأة ذات حس فكاهي». أخفض صوته وهو يقول: «جميل جدًا. المبايض...». تناول رشفة أخرى من النبيذ واستطرد قائلًا: «لقد تركتني زوجتي وهي في التاسعة والثلاثين. فيما يبدو أنها سن صعبة بالنسبة للفتيات». تجرع ما تبقى في كأسه ثم مد يده نحو الزجاجة ليعيد ملئها.

- لكن من الواضح أنها ليست صعبة بالنسبة لها وأنا أراها تهرب مع رجل من بورتريكو يدعى فيكتور وحصلت على منزل في فرنسا إلى جانب نصف معاشي اللعين. إنهن النساء.

ثم استدار نحوها وقال: «لا نستطيع العيش معهن ولا يمكننا إطلاق الرصاص عليهن، أليس كذلك؟». ثم رفع ذراعه وصوب يده نحو سقف المطعم وكأنه يطلق عدة رصاصات خيالية.

يبدو أنها ستكون ليلة طويلة. ظلت ليف تبتسم وسكبت لنفسها كأسًا أخرى من النبيذ ثم دفنت وجهها في قائمة الطعام وهي تعد نفسها بأنه مهما كان إصرار كريستين في المرة القادمة، فسوف تفعل أي شيء آخر يمكن تخيله إلا أن توافقها على الذهاب إلى أي نوع من حفلات العشاء مرة أخرى.

امتدت ساعات الليل وراح الأزواج من الحاضرين يتحدثون بسوء عن أشخاص لم تلتقِهم من قبل. جاءت الأطباق الرئيسية ببطء شديد. وأعادت كريستين صحنها الرئيسي كي يعاد إعداده وفقًا لمواصفتها الدقيقة. أطلقت تنهيدة صغيرة تنم عن الضجر كما لو أن إخفاق المطعم في وضع السبانخ كطبق جانبي هو أسوأ ضريبة يمكن أن تتحملها. كان سفين ينظر إليها بعطف وجلست هي يحاصرها من ناحية ظهر عريض لرجل يدعى مارتين بدت صديقة زوجته عازمة على أن تنفرد به، ومن الناحية الأخرى كان روجر.

وفي لحظة ما قال: «عاهرة».

- عذرًا؟

- في البداية شعر أنفي هو ما كان ينفره ثم أظفار قدمي. دائمًا هناك سبب وراء عدم أدائنا لـ... أنت تدركين ما أقصد.

ثم رسم بإبهامه وإصبعه دائرة ثم أدخل فيها إصبع السبابة في يده الأخرى وأردف قائلًا: «أم أنها تعاني صداعًا، لكنها لا تشعر بالصداع مع فيكتور. أليس كذلك؟ أراهن أنها لا تهتم بطول أصابع قدمه اللعينة». وراح يرتشف من كأسه وأكمل حديثه قائلًا: «أكاد أجزم أنهما يمارسان الجنس مثل الأرانب اللعينة».

تحجرت قطعة لحم الضأن في صحنها ووضعت الشوكة والسكين معًا بعناية:

- ماذا حدث لك أنت إذًا؟

رفعت بصرها إليه وهي تتمنى ألا يقصد، ولكنه بالطبع يقصد هذا الموضوع.

- تقول كريستين إنك تزوجت من قبل من شريك سفين في العمل.
- فعلًا.
- وتركك، أليس كذلك؟

ابتلعت ريقها ولم ترسم على وجهها أي تعبيرات وقالت: «نعم إن جاز التعبير».

هز روجر رأسه وهو يقول: «لا أدري ماذا ألم بالأشخاص هذه الأيام. لماذا لا يقنعون بما في أيديهم؟». ثم أمسك بعود تخليل الأسنان وغرزه في ضرسه الخلفي ثم توقف هنيهة ليفحص ما أخرجه من فتات الطعام باستمتاع شديد.

نظرت ليف إلى أسفل نحو المائدة والتقت عيناها بعيني كريستين التي رفعت حاجبيها بشكل مثير ثم رفعت إصبع إبهامها خلسة لأعلى في علامة على النجاح وحركت شفتيها بكلمة: «لقد أعجبته بشدة».

قالت ليف وهي تدفع بمقعدها للخلف: «أستميحك عذرًا أريد أن أذهب إلى دورة المياه».

جلست ليف في الحجرة الهادئة لأطول وقت ممكن دون أن يقاطعها أحد واستمعت إلى أصوات العديد من النسوة اللاتي دخلنَ المكان وهن ينظفن أنفسهن. راحت تتفقد بريدًا إلكترونيًّا تعذر إرساله وتلعب لعبة سكرابل

Scrubble على هاتفها. نهضت في النهاية -بعدما أحرزت أربع عشرة نقطة- وتخلصت من الفضلات وغسلت يديها وأخذت تنظر إلى صورتها في المرآة بنوع من الرضى الكاذب فأسفل إحدى عينيها قد تلطخ بالزينة. أصلحته في المرآة وتساءلت عن سبب اهتمامها بذلك بما أنها ستجلس بجانب روجر مرة أخرى.

نظرت إلى ساعتها. متى يمكنها أن تلتمس العذر للمغادرة بسبب اجتماع في الصباح وتتجه إلى منزلها؟ لحسن حظها روجر سيكون ثملًا حينما تعود لهناك وبالتالي سينسى أنها أتت من الأساس.

نظرت ليف إلى نفسها في المرآة نظرة أخيرة وأزاحت شعرها بعيدًا عن وجهها وعبست بشأن مظهرها، فما الفائدة من كل هذا؟ ثم فتحت الباب لتغادر.

نهض روجر من مكانه ملوحًا بشدة وهو يقول: «ليف... ليف تعالي إلى هنا». صار وجهه أكثر احمرارًا وقد ارتفع معظم شعره ناحية جانب واحد وتساءلت هل يمكن أن يكون نصف هذا الشخص رجلًا والنصف الآخر نعامة؟ انتابها خوف لحظي من فكرة اضطرارها إلى أن تمضي نصف ساعة أخرى في صحبته، ودائمًا ما ينتابها هذا؛ رغبة عارمة في أن تغادر وأن تكون بمفردها في الشوارع المظلمة وألا تضطر إلى أن تكون أي شخص آخر على الإطلاق.

جلست بحذر كما لو أنها تستعد للجري وتناولت نصف كأس أخرى من النبيذ. قالت: «يجب أن أذهب الآن». فسادت موجة من الاحتجاج من شاغلي الموائد الأخرى كما لو أن الأمر إهانة شخصية. مكثت في المكان ورسمت ابتسامة متكلفة على وجهها، ووجدت نفسها تراقب كل زوج من الأزواج، وقد ظهرت الخلافات المنزلية مع تجرع كل كأس من النبيذ، فهذه المرأة لا تحب زوجها، فهي تقلب عينيها بامتعاض مع كل ملاحظة ثانية له، وهذا الرجل يشعر بالملل من الجميع وبخاصة زوجته، فهو يتفقد هاتفه رغمًا عنه أسفل حافة المائدة. نظرت إلى ساعتها وهي تومئ برأسها في ملل إلى قائمة روجر الطويلة عن ظلم الزوجات التي يهمس لها بها. راحت تلعب في هدوء لعبة حفلة عشاء بينجو Dinner PartyBing وقد أحرزت *مصروفات المدرسة* *وثمن المنزل* من خلال اللعبة وكانت على وشك *الحصول على إجازة* مثل *العام الماضي* في منزل *أوروبا المتكامل* حينما ربت أحدهم على ظهرها.

- معذرة، لديك مكالمة هاتفية.

استدارت ليف. كانت النادلة ذات بشرة سمراء وشعر أسود طويل يلتف حول وجهها كزوجين من الستائر نصف المنسدلة وكانت تشير بدفتر الملاحظات. شعرت ليف ببعض الألفة تجاهها.

- ماذا؟

- مكالمة عاجلة، أعتقد أنها عائلية.

ترددت ليف، وحدثت نفسها قائلة: «عائلية؟». لكن بدا الأمر أشبه بالضوء الذي ظهر في نهاية النفق فقالت: «نعم، أوه حقًا».

- هل تريدين أن أريك الهاتف؟

قالت لكريستين بحركة الشفتين فقط وهي تشير إلى النادلة التي أشارت بدورها إلى المطبخ: «مكالمة هاتفية عاجلة».

حاولت كريستين رسم تعبير قلق مبالغ فيه ثم انحنت لتقول شيئًا إلى روجر الذي نظر خلفه ومد يده كما لو أنه يريد منعها. ذهبت ليف وهي تتبع الفتاة السمراء القصيرة خلال المطعم الذي كان نصفه خاليًا وعبرت الحانة ومنها إلى الممر ذي الألواح الخشبية.

كان ضوء المطبخ باهرًا مقارنة بمنطقة الجلوس ذات الأنوار الخافتة وعكست الأسطح الفولاذية ذات اللمعان البسيط بعض الضوء في الحجرة. تجاهلها رجلان يرتديان زيًا أبيض وهما ينقلان المقالي إلى مغسلة الصحون، وفي أحد الأركان كانت تأتي أصوات قلي الطعام وأصوات هسيس وغليان، وكان هناك شخص يتحدث الإسبانية بسرعة. أشارت الفتاة إلى مجموعة من الأبواب المتأرجحة وفجأة أصبحت في ردهة خلفية عبارة عن حجرة حفظ الملابس.

قالت ليف حينما توقفت: «أين الهاتف؟».

أخرجت الفتاة من مريلتها علبة من السجائر وأشعلت سيجارة وقالت دون اهتمام: «أي هاتف؟».

- قلت أن هناك مكالمة لي.

- أوه، تقصدين هذا. ليست هناك أي مكالمات، كنت بحاجة إلى إنقاذ.

ثم سحبت نفسًا وأخرجت خيطًا رماديًا طويلًا من الدخان وانتظرت للحظات.

- لم تعرفيني، أليس كذلك؟ أنا مو، مو ستيوارت.

تنهدت عندما قطبت ليف حاجبيها وقالت: «كنت ألتحق بدورتك الدراسية في الجامعة. الحضارة والرسم الإيطالي ورسم الشكل الإنساني».

تذكرت ليف درجاتها العلمية، وفجأة لاحت أمامها تلك الفتاة القوطية Goth[1] التي كانت تجلس في الزاوية شبه صامتة في كل فصل. وجهها كان خاليًا من أي تعبيرات، وأظفارها مطلية بلون أرجواني صارخ ذي لمعة.

- رائع، لم تتغيري كثيرًا.

لم تكن هذه كذبة، فحينما تفوهت بتلك العبارة لم تكن واثقة تمامًا من أنها مجاملة.

قالت مو وهي تتفحصها: «لكن أنت تغيرت، تبدين غريبة الأطوار».

- غريبة الأطوار؟

- ليس غريبة الأطوار. مختلفة. متعبة. لكن لا أعتقد أن الجلوس بجانب شخصية كشخصية تيم اللطيف الغبي Tim Nice But Dim[2] يعني الكثير من المرح. ما الأمر؟ هل هي ليلة مواعدة للعزاب؟

- على ما يبدو أنها كذلك بالنسبة لي.

- يا إلهي.

أعطت ليف سيجارة وقالت: «أشعلي هذه وسأخرج إليهم وأخبرهم أن عمتك الكبيرة أصيبت بشلل تام. أم تريدين شيئًا أسوأ؟ إيدز مثلًا؟ أو الإيبولا؟ ماذا تفضلين بالنسبة لدرجة المعاناة؟».

ثم أعطت ليف ولاعة السجائر.

- أنا لا أدخن.

---

(1) الثقافة القوطية هي ثقافة شبابية بدأت في إنجلترا في بداية 1980.

(2) شخصية ساخرة تتسم بخفة الظل والغباء للكاتب هنري إنفيلد تذاع في أحد برامج التلفزيون البريطاني.

- إنها ليست من أجلك، فبهذه الطريقة أستطيع أن أحصل على سيجارتين قبل أن يلاحظ دينو. هل ستريد صديقتك نصيبك من فاتورة العشاء؟

- نعم إنها ملاحظة جيدة.

ثم راحت تعبث في حقيبتها بحثًا عن حافظة النقود. شعرت فجأة بأنها خالية الذهن لمجرد فكرة شعورها بالحرية.

أخذت مو الأوراق النقدية وراحت تعدها ثم قالت بوجه متجهم: «وأين نصيبي من البقشيش؟».

لم يبد عليها أنها تمزح.

طرفت ليف بعينيها ثم أخرجت ورقة إضافية بفئة الخمسة وأعطتها لها.

قالت وهي تدسها في جيب مريلتها: «شكرًا».

قالت: «هل أبدو متأثرة؟». ثم لوت قسمات وجهها بعدم اكتراث واختفت عبر الممر وكأنها تتقبل فكرة أنه ليس لديها عضلات الوجه الملائمة لترسم من خلالها الشعور بالقلق.

لم تكن ليف تدري أعليها أن تغادر أم تنتظر الفتاة حتى تعود. نظرت حولها إلى الردهة الخلفية وإلى المعاطف الرخيصة المعلقة على الحامل وبأسفلها الدلو والممسحة المتسخين. جلست في النهاية على مقعد خشبي مستدير والسيجارة في يدها بلا فائدة، وحينما سمعت وقع خطوات تقترب، نهضت من مكانها ولكنه كان رجلًا ذا بشرة سمراء فاتحة لدول حوض البحر المتوسط، وكان رأسه يلمع في الضوء الخافت. أهو المالك؟ كان يحمل في يده كأسًا من سائل العنبر وقال وهو يقدمها لها: «إليك هذا». وحينما اعترضت أضاف قائلًا: «من أجل الصدمة». ثم غمز بعينه وذهب.

جلست ليف وراحت ترتشف المشروب. استطاعت أن تسمع من على مسافة ومن خلال جلبة الأصوات في المطبخ صوت روجر يعلو في احتجاج وصوت جر المقاعد. نظرت إلى ساعتها فوجدتها الحادية عشرة والربع. ظهر الطهاة من المطبخ وجذبوا معاطفهم من فوق الحامل وذهبوا وهم يحيونها بإيماءة بسيطة كما لو أنه من غير المعتاد بالنسبة لعميل أن يمضي عشرين دقيقة وهو يرتشف كأسًا من البراندي في الردهة الخاصة بالعاملين.

حينما ظهرت مو لم تكن ترتدي المريلة. كانت تحمل في يدها مجموعة من المفاتيح ومرت أمام ليف وأغلقت باب الهروب حال حدوث حريق.

قالت وهي تعقص شعرها الأسود إلى الخلف: «لقد رحلوا، وقال صاحب الموعد الغرامي المثير إنه يريد أن يواسيك، لذا فسوف أغلق هاتفك قليلًا».

قالت ليف: «أشكرك كثيرًا، هذا كرم منك».

- لا عليك. أتريدين بعضًا من القهوة؟

أصبح المطعم خاليًا ونظرت ليف إلى المائدة التي كانت تجلس عليها، حيث أخذ النادل ينظف المكان بمهارة حول المقاعد ثم وزع أدوات المائدة بكفاءة شخص فعل ذلك آلاف المرات بإيقاع منتظم وبشكل عفوي. أعدت مو آلة القهوة وأشارت إلى ليف بالجلوس. كانت ليف تفضل العودة للمنزل ولكنها تتفهم أن حريتها لها ثمن ولا ضرار أن يكون الثمن مجرد محادثة قصيرة ومتكلفة بعض الشيء عن جمال الأيام الخوالي.

قالت ليف ومو تشعل سيجارة أخرى: «لا أصدق أنهم غادروا جميعًا هكذا فجأة».

- رأت واحدة من بين المجموعة رسالة على هاتف البلاك بيري ما كان ينبغي أن تراها وبدأ الأمر ببعض الشجار، فلا أعتقد أن دعوات غداء العمل تتضمن عادة رسائل عن الأدوات الجنسية.

- هل سمعت هذا؟

- إنك تسمعين كل شيء هنا، فمعظم الزبائن لا يتوقفون عن الحديث حينما يكون النُّدُل بالجوار.

أدارت مبخر الحليب وأضافت قائلة: «إن المريلة تمنحك قوة خارقة، بل إنها تجعلك غير مرئية».

شعرت ليف بعدم ارتياح وهي تتذكر أنها لم تلاحظ وجود مو عند الطاولة. نظرت إليها مو وعلى وجهها شبه ابتسامة وكأنها تقرأ أفكارها وقالت: «لا عليك، فقد اعتدت أن أكون ذلك السيد الخفي العظيم».

قالت ليف وهي تأخذ منها قدح القهوة: «إذًا ماذا كنت تعملين من قبل؟».

- في السنوات العشرة الماضية؟ أشياء متنوعة، لكن عملي بوصفي نادلة هو أكثر ما يلائمني، ولا أطمح في أن أعمل في البار.

قالت هذا ببرود وسألتها: «وماذا عنك؟».

ابتسمت ليف وقالت: «بعض العمل الحر. أنا أعمل لحسابي، فالعمل المكتبي لا يناسب شخصيتي».

سحبت مو نفسًا عميقًا من سيجارتها وقالت: «إنني مندهشة. إنك كنت دومًا واحدة من الفتيات اللامعات».

- الفتيات اللامعات؟

- نعم، أنت وفريق عملك من الفتيات الجميلات، لديك ساقان وشعر رائع والرجال يحومون حولك كتوابع لك. إنك تشبهين شخصيات الكاتب الأمريكي سكوت فيتسجيرالد. اعتقدت أنك ستكونين... لا أدري، ربما تعملين في التليفزيون، أو الإعلام، أو التمثيل أو ما شابه.

لو كانت ليف قد قرأت مثل هذه الكلمات على الورق لشعرت بالرنة الغاضبة خلالها، لكن صوت مو لم يكن يحمل أي أحقاد.

قالت وهي تنظر إلى طرف قميصها: «لا».

انتهت ليف من تناول القهوة وقد رحل باقي النُّدُل وأصبح قدح مو فارغًا.

- إنها الثانية عشرة إلا ربع، هل تريدين إغلاق المكان؟ إلى أي طريق تتجهين؟

- لن أتجه إلى أي مكان، إنني أمكث هنا.

- هل لديك شقة هنا؟

- لا، ولكن دينو لا يمانع في هذا.

أطفأت سيجارتها ونهضت وأفرغت منفضة السجائر وقالت: «في الواقع دينو لا يعلم، هو يظن أنني ذات ضمير حي وآخر من يغادر كل مساء، ويقول لي لم لا يكون الآخرون مثلك؟».

ثم أشارت بإبهامها خلفها وقالت: «لدي حقيبة نوم في خزانتي وأضبط المنبه على الساعة الخامسة والنصف. إنها مسألة تتعلق بالسكن في الوقت الحالي، فليس لديَّ القدرة على تحمل نفقاته».

حدقت ليف إليها.

- لا تندهشي لتلك الدرجة، فهذا المقعد الطويل أفضل بكثير من بعض مساكن الإيجار التي كنت فيها، أقسم لك.

وفيما بعد لم تكن ليف واثقة مما جعلها تقول هذا، فنادرًا ما تسمح ليف لأي أحد بالدخول إلى منزلها ناهيك بأشخاص لم ترهم منذ سنوات. لكن قبل أن تدرك ما تفعله خرجت من فمها: «يمكنك المكوث في منزلي». وأضافت حينما أدركت ما تفوهت به: «تلك الليلة».

- لدي حجرة إضافية بدش استحمام.

حينما أدركت أن كلماتها تحمل بعض الاستعلاء أضافت: «ويمكننا الحديث معًا، سيكون الأمر ممتعًا».

كان وجه مو خاليًا من أي تعبيرات ثم تجهمت كما لو أنها هي التي تصنع معروفًا من أجل ليف.

قالت: «كما تشائين».

ثم ذهبت لتحضر سترتها.

كان يمكنها رؤية المنزل قبل أن تصل إليه بوقت طويل؛ فجدرانه الزجاجية ذات اللون الأزرق الفاتح تطل من وراء مخزن السكر القديم كما لو أنها كائن غريب استقر فوق سقفه. وديفيد كان يروق له هذا؛ فكان دومًا يحب أن يوضح ذلك الأمر حينما يتجهون إلى المنزل بصحبة أصدقائهم أو أحد العملاء المحتملين. كان يعجبه تناقض المنزل مع حجر القرميد البني المشيدة منه مخازن العصر الفيكتوري إلى جانب الطريقة التي يعكس بها الضوء أو انعكاس صورته على صفحة المياه. كانت تروق له حقيقة أن هذا المبنى قد أصبح سمة من سمات المناظر الطبيعية بجوار النهر في لندن، إنه يمثل -كما كان يقول دومًا- إعلانًا مستمرًا عن عمله.

حينما تم بناء المنزل -منذ ما يقرب من عشر سنوات- كان الزجاج هو مادة البناء المفضلة لديه وأصبحت مكوناته متطورة من خلال القدرة على تخزين الحرارة وكونه صديقًا للبيئة. أصبح عمله مميزًا في جميع أنحاء لندن؛ فكان يقول أن العامل الرئيسي يكمن في الشفافية، فيجب أن تكشف المنازل عن التصميم والبنية. والحجرات الوحيدة التي كانت محجوبة هي المراحيض وحينها كان يجب إقناعه بألا يركب زجاجًا عاكسًا ذا اتجاه واحد. فمن طبيعة ديفيد أنه لا يصدق أن الأمر مزعج حينما ترى ما بالخارج وأنت في دورة المياه حتى وأنت على يقين من أنه لا أحد يمكنه رؤية من بالداخل.

كان أصدقاؤها يحسدونها على المنزل وعلى موقعه وظهوره بين الحين والآخر في أفضل مجلات الديكور، لكنها كانت تعلم أنهم يقولون -سرًّا- لبعضهم بعضًا أن تلك البساطة ستدفعهم إلى الجنون ولكنها تلك النزعة لدى ديفيد؛ النزعة للتطهير وإزالة كل ما يمكن الاستغناء عنه. كان كل شيء في المنزل يجب أن يخضع لاختبار المعماري هاري موريس؛ أهو عملي؟ أهو يتسم بالجمال؟ ثم هل هو ضروري بالتأكيد؟ حينما التقيا في البداية كانت تجد الأمر مرهقًا. فكان ديفيد يعض على شفتيه حينما تترك بعضًا من الملابس على أرضية غرفة النوم، أو تملأ المطبخ بباقات الورود الرخيصة أو تشتري الحلي زهيدة الثمن من المتجر. والآن هي ممتنة لذلك الفراغ في منزلها لبساطته الشديدة.

«مكان غريب وهادئ».

ظهرتا من المصعد المتهالك ودلفتا إلى المنزل واكتسى وجه مو بتعبيرات الدهشة بشكل غير معهود وهي تقول: «أهذا منزلك؟ حقًّا؟ كيف لك بحق الجحيم أن تعيشي في مكان كهذا؟».

قالت وهي تسير عبر الردهة وتضع مفاتيحها بحذر على مسمار فضي وحيد وهي تشعل الأضواء الداخلية أثناء سيرها: «لقد شيده زوجي».

- زوجك السابق يا إلهي. أوجعلك تحتفظين به؟

ضغطت ليف على أحد الأزرار وراقبت مصراع السقف وهو يتراجع ببطء إلى الوراء كاشفًا المطبخ إلى السماء الملأى بالنجوم وقالت: «ليس الأمر هكذا تمامًا، لقد توفي».

وقفت في مكانها ووجهها لأعلى وكانت تهيئ نفسها لموجة من التعاطف الغريب. فشرح ما تعانيه لن يكون سهلًا. أربع سنوات مرت وما زالت الكلمات تسبب رد فعل عكسي ينطوي على الألم كما لو أن غياب ديفيد جرح عميق لا يزال بداخلها.

لكن مو كانت صامتة، وفي النهاية حينما تحدثت قالت ببساطة: «يا للمسكين».

كان وجهها باهتًا خاليًا من أي تعبير.

قالت ليف وهي تطلق تنهيدة صغيرة: «نعم، نعم إنه كذلك حقًّا».

استمعت ليف إلى أخبار الساعة الواحدة في الراديو وهي تفطن إلى الأصوات الصادرة من بعد من دورة مياه الضيوف، وانتابها ذلك الشعور الغامض بالقلق الذي يعتريها دومًا عند وجود شخص آخر بالمنزل. راحت تنظف الأسطح الجرانيت وتصقلها بقطعة قماش ناعمة وتزيل فتات الطعام التي لا وجود لها من على الأرضية. وفي النهاية سارت عبر الردهة المشيدة من الزجاج والخشب ثم صعدت الدرج المعلق المبني من الخشب وزجاج الأكريل، ودلفت إلى حجرة نومها. لمعت أبواب خزانة الملابس الممتدة التي لا تعطي انطباعًا بالملابس القليلة التي وراءها، واستقر الفراش الشاسع الخالي في منتصف الحجرة. كانت قد تركت في الصباح فوق الأغطية رسالتين تذكيريتين، فجلست على الفراش ووضعتهما بعناية في مظروفيهما ثم نظرت أمامها إلى **لوحة الفتاة** النابضة بالحياة في إطارها الذهبي وسط الحجرة بلونيها الأخضر الهادئ والرمادي وأطلقت العنان لأفكارها.

إنها تشبهك.

إنها لا تشبهني في شيء.

ضحكت أمامه في سعادة، فهي لا تزال مولعة بالحب الجديد وعلى استعداد لأن تصدق رؤيته عنها.

- إنك تبدين هكذا حينما...

وابتسمت **الفتاة التي تركتها.**

شرعت ليف في خلع ملابسها وطوتها قبل أن تضعها بعناية على مقعد بجوار طرف الفراش. أغمضت عينيها قبل أن تطفئ الأنوار حتى لا تضطر إلى النظر إلى اللوحة مرة أخرى.

12

بعض الأرواح تعمل بشكل أفضل من خلال الروتين اليومي، وليف هالستون واحدة منهم. ففي كل صباح تنهض في السابعة والنصف وتنتعل حذاءها الرياضي وتمسك بجهاز الآي بود، وقبل أن تفكر فيما ستفعله تهبط في المصعد المتهالك بعين لا يزال بها أثر النوم ومنه إلى الخارج حيث تركض بجوار النهر لمدة نصف ساعة. وفي لحظة ما عندما تشق طريقها وسط أولئك المتجهين إلى أعمالهم بهمة شديدة متفادية شاحنات التوصيل التي تأتي في الاتجاه المعاكس تصبح في كامل يقظتها.

وشيئًا فشيئًا يتقبل عقلها الإيقاع الموسيقي في أذنيها وصوت وقع قدميها على الطوار. والأهم من هذا أنها تنأى بنفسها عن تلك اللحظات التي لا تزال تشعر فيها بالخوف؛ وهي لحظات الاستيقاظ الأولى التي تنطوي على الضعف الذي يشعرها بأن الأذى يمكن أن يلحق بها بشكل مباغت وفاسد، مما يبعث بها إلى غيمة خانقة من الأفكار السوداء. شرعت في الركض بعدما أدركت أنها بمقدورها أن تستعين بالعالم الخارجي وبالصخب في أذنيها وبحركتها كدرع واق. والآن أصبحت عادة؛ وسيلة تأمين.

لا داعيَ للتفكير، لا داعيَ للتفكير، لا داعيَ للتفكير.

وبخاصة اليوم.

تحولت من الركض إلى المشي السريع، واشترت كوبًا من القهوة واستقلت المصعد إلى المنزل الزجاجي، أحرقتها عيناها بسبب العرق الذي تساقط بعض منه على قميصها. اغتسلت وارتدت ملابسها وارتشفت القهوة وتناولت شريحتين

من الخبز المحمص مع مربى البرتقال. كانت لا تحتفظ بأي طعام تقريبًا في المنزل، فقد اكتشفت أن شكل الثلاجة الملأى له تأثير هائل عليها؛ فهو يذكرها بأن عليها أن تطهو الطعام وتتناوله لا أن تعيش على الجبن والمقرمشات. إن الثلاجة العامرة بالطعام هي بمنزلة توبيخ صامت لها على وحدتها.

ثم جلست على مكتبها وتفقدت بريدها الإلكتروني لترى إذا ما كان هناك أي عمل قد أتى من موقع copywritersperhour.com أم لم تأت أي عروض كما هو الحال في الآونة الأخيرة.

- مو، لقد تركت لك قدحًا من القهوة خارج غرفتك.

وقفت ومالت برأسها جانبًا وهي تنتظر أن تسمع صوتًا يوحي بالحياة بالداخل. إنها الثامنة والربع؛ أهو وقت مبكر لإيقاظ ضيف؟ لقد مر وقت طويل منذ أن مكث أحد في منزلها، فلم تعد تدري ما الأشياء الصحيحة التي ينبغي فعلها في تلك الحال. انتظرت في تردد شبه متوقعة أن تسمع إجابة خافتة أو حتى همهمة ثم انتهت إلى أن مو غارقة في النوم، فعلى كل حال هي ظلت تعمل طوال الليل. وضعت ليف القدح الورقي بهدوء بالخارج أمام الباب في حال استيقظت وذهبت إلى دورة المياه.

كانت هناك أربع رسائل في صندوق الوارد.

عزيزتي السيدة هالستون

لقد حصلت على بريدك الإلكتروني من موقع copywritersperhour.com. إنني أدير شركة خاصة باللوازم المكتبية ولدي منشور بحاجة إلى إعادة صياغة. لقد علمت أن النسبة التي تطلبينها هي 100 يورو مقابل الألف كلمة؟ ألا يمكنك خفض هذا المبلغ على الإطلاق؟ فميزانيتنا محدودة للغاية. نسخة المنشور تحتوي على 1250 كلمة تقريبًا.

مع فائق التقدير..

السيد تيرينس بلانك

حبيبتي ليف..

أنا والدك. لقد تركتني كارولين. إنني بائس. لقد قررت قطع علاقتي بجميع النساء. حدثيني إن كان لديك وقت.

مرحبًا ليف

هل كل شيء معد بالنسبة ليوم الخميس؟ فالأطفال يتطلعون إلى هذا اليوم. ونحن نتوقع نحو عشرين حتى هذه اللحظة، ولكنك تعلمين أن الأرقام دومًا متغيرة. أخبريني إن احتجت إلى شيء.

تحياتي

أبيولا

عزيزتي السيدة هالستون

لقد حاولنا عدة مرات الوصول إليك من خلال الهاتف دون جدوى. فهل يمكنك الاتصال بنا حتى نرتب موعدًا يمكننا من خلاله مناقشة حالة تجاوز السحب لديك. إذا فشلت في الاتصال بنا سنضطر إلى إضافة رسوم إضافية.

أرجو التأكد من تحديث بيانات الاتصال.

مع فائق التقدير

دميان واتس

مدير فرع الحسابات الشخصية. بنك نات وست.

شرعت في كتابة رد على أول رسالة.

عزيزي السيد بلانك

كنت أود أن أخفض من أسعاري من أجل تلبية طلبك، لكن لسوء الحظ تركيبي الجيني يعني أنني لا بد لي من توفير سبل العيش لآكل. حظًّا سعيدًا في مراجعة منشورك.

كانت تعلم أنه سيكون هناك أحد يؤدي العمل بسعر أقل، لكنه لن يهتم كثيرًا بالنحو أو علامات الترقيم ولن يلحظ أن نسخة المنشور ستحتوي على كلمة «هما» بدلًا من «هناك» نحو اثنين وعشرين مرة، لكنها سئمت من خفض نسبتها الضئيلة بالفعل التي تطلبها.

أبي

سأحادثك فيما بعد، إذا حدث وعادت كارولين بين حين وآخر، أرجو أن تتأكد من أنك ترتدي ملابسك. فالسيدة باتل تقول إنك كنت تروي زهور شقائق النعمان وأنت عارٍ مرة أخرى الأسبوع الماضي، وأنت تعلم ماذا قالت الشرطة عن هذا من قبل.

ليف

ففي المرة الأخيرة التي ذهبت فيها لتواسي والدها في إحدى المرات التي اختفت فيها كارولين، فتح لها الباب وهو يرتدي رداء نسائيًّا شرقيًّا مصنوعًا من الحرير، ومفتوحًا من الأمام وعانقها عناقًا مطولًا قبل أن تعترض على هذا، وكان يغمغم قائلًا: «يا إلهي إنني والدك». حينما توبخه فيما بعد. على الرغم من أنه لم يكن لديه وظيفة تمثيل لائقة منذ ما يقرب من عقد كامل،

فإن مايكل ورثينج لم يفقد افتقاره الطفولي إلى ضبط النفس أو انزعاجه مما يطلق عليه «الأغطية». لقد امتنعت في طفولتها عن إحضار أصدقائها إلى المنزل بعدما ذهبت صديقتها سامانثا هاوكروفت إلى منزلها وأخبرت أمها بأن السيد ورثينج يتجول في المنزل وكل أعضائه تتأرجح. (بل إنها أخطرت كل فرد في المدرسة أن والد ليف لديه أعضاء ضخمة. ولم ينزعج والدها على الإطلاق من ذلك).

ولم تنزعج أيضًا كارولين صديقته ذات الشعر الأحمر منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا، بل إنها كانت تشعر بالسعادة هي الأخرى حينما تتجول شبه عارية.

كانت ليف تعتقد أحيانًا أنها أكثر اعتيادًا على رؤية أعضائه التناسلية العجوز أكثر من اعتيادها على رؤية أعضائها هي.

كانت كارولين حبه الكبير، لكنها كانت تهجره كل شهرين عندما تنتابها لحظات ضيق شديد منه مشيرة إلى استحالة التعامل معه، وإلى قلة دخله، وعلاقاته الساخنة القصيرة مع النساء، فما يرينه فيه من جاذبية لا تستطيع ليف تخيله.

وكان أبوها يقول متعجبًا: «إنها الرغبة في الحياة. الشغف. إن لم يكن في حياتك أحد فأنت ميتة». ليف كانت تشك في داخلها أنها مصدر إحباط لوالدها.

ارتشفت ما تبقى من القهوة وراحت تكتب بريدًا إلكترونيًّا إلى أبيولا:

مرحبًا أبيولا

سأقابلك خارج مبنى كوناجي في الثانية بعد الظهر. الجميع يتفهم هذه الغاية. إنهم متوترون بعض الشيء لكنهم بالقطع يريدون تحقيق ذلك بشدة.

أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام.

تحياتي

ليف

أرسلته ثم نظرت إلى البريد الإلكتروني الوارد من مدير البنك. توقفت أصابعها على لوحة المفاتيح، ثم مدت يدها وضغطت على زر إلغاء.

إنها تدرك -بإحساسها الداخلي- أن هذا لن يستمر طويلًا، فهي تستطيع أن تسمع ذلك الصراخ البعيد المغلف بالتهديد في مطالبتهم النهائية المطوية بعناية في مظاريفها، الذي يشبه قرع طبول الحرب من الجيش المعتدي. وعند مرحلة ما لن تتمكن من احتوائهم أو خداعهم أو التملص منهم دون أن يلاحظوها. إنها أصبحت فقيرة للغاية وتشتري أقل القليل، ونادرًا ما تتواصل اجتماعيًّا مع الآخرين ومع هذا لم يكن ذلك كافيًا، فبطاقات السحب النقدي وبطاقات الائتمان يلقيان بأنفسهما إليها دومًا بعيدًا عن آلة الصرف الآلي. لقد جاء أعضاء المجلس المحلي إلى منزلها العام الماضي كجزء من إعادة التقييم الداخلي لدافعي الضرائب للمجلس المحلي. تجولت السيدة حول المنزل الزجاجي، ثم نظرت إلى ليف كما لو أنها تحاول خداعهم في شيء ما، أو كما أنها بمنزلة إهانة أن تعيش هي -الفتاة العملية- في منزل كهذا بمفردها. ولا تستطيع ليف إلقاء اللوم عليها؛ فمنذ وفاة ديفيد وهي تشعر أنها مخادعة بالعيش في هذا المكان؛ فهي مثل الحارس الأمين تحمي ذكريات ديفيد وتحافظ على المكان كما كان يريد دومًا.

تدفع ليف الآن الحد الأقصى من الضريبة التي يفرضها المجلس، وهي النسبة نفسها التي يسددها العاملون في المصارف بحزم أجورهم التي تصل إلى مليون جنيه، أو أولئك الممولون بمكافآتهم الضخمة. إن تلك النسبة تلتهم أكثر من نصف ما تكسبه في شهور.

لم تعد تفتح حسابات البنك فلا جدوى من ذلك، فهي تعرف تمامًا ما ستخبرها به.

أسقط أبوها رأسه بين يديه بطريقة مسرحية وهو يقول: «إنها غلطتي». ومن بين أصابعه برزت لأعلى بعض خصلات شعره الرمادية الخفيفة. تناثرت حوله في المطبخ الأواني والأوعية التي تخبر عن ليلة عشاء أفسدها أحدهم؛ فها هي قطعة كبيرة من جبن البارميزان، وبعض من المكرونة المتجمدة

مما يدل على حدوث خلافات منزلية فأضحى المكان مهجورًا كسفينة ماري سيليست [1] MaryCelest.

بدا حائرًا وهو يقول: «أدرك أنني ما كان يجب أن أقترب منها، لكنها كانت مثل الفراشة التي تجذبها النيران، ويا لها من نيران! إنها الحرارة الشديدة! الحرارة الشديدة!».

أومأت ليف برأسها متفهمة، لكنها كانت تحاول بينها وبين نفسها التوفيق بين تلك الملحمة عن سوء الحظ الجنسي وبين جين؛ تلك المرأة التي تخطت الخمسين ربيعًا وتدير محل الزهور المحلي، وتدخن ما يزيد على أربعين سيجارة يوميًا ويظهر حذاؤها الرمادي ذو الرقبة من أسفل سروالها القصير للغاية كشرائح معدة الحيوان.

- نعلم أننا أخطأنا، وحاولت، حاولت أن أكون مخلصًا، لكني كنت هناك في فترة ما بعد ظهيرة أحد الأيام أبحث عن زهور النرجس وجاءت هي من خلفي وكانت تفوح منها رائحة نبات الفريزيا، وقبل أن أدري بوجودها وجدتني منتفخًا كبرعم جديد من الإثرة.

وضعت ليف الغلاية على وضع التشغيل وهي تقول: «لا عليك أبي، ما كل هذا القدر من المعلومات المفصلة؟». وبينما كانت تنظف الأسطح، تجرع والدها بقية كأسه.

- إن الوقت مبكر لتناول النبيذ.
- ليس هناك وقت محدد أبدًا للنبيذ، إنه رحيق الآلهة، إنه سلوتي الوحيدة.
- حياتك كلها أصبحت عبارة عن فترة طويلة من البحث عن السلوى.
- كيف ربيت امرأة بكل هذه العزيمة وتلك الحدود المخيفة؟
- لأنك لست من رباني. إنها أمي.

هز رأسه في حزن، ويبدو أنه نسي الأوقات التي لعنها فيها لأنها تركته حينما كانت ليف طفلة أو حينما كان يستدعي لعنات الآلهة كي تصب على رأسها الخائن. اعتقدت ليف في بعض الأحيان أنه منذ اليوم الذي توفيت فيه أمها –قبل ستة أعوام– تشكل زواج والديها القصير المتصدع من جديد في

(1) في المحيط الأطلسي وكان هناك مائدة بها وعليها بعض الطعام سفينة تجارية أمريكية اكتشفت منجرفة ومهجورة.

ذهن والدها فأضحت تلك المرأة التي لا تحتمل، الوقحة السليطة التي سممت أفكار طفلته الوحيدة تجاهه وكأنها تشبه ماري العذراء. لكنها لم تأبه لهذا فهي نفسها فعلت ذلك، فحينما فقدت أمها، تشكلت صورتها من جديد في خيالها كأم مثالية وكانت علاقتهما عبارة عن مجموعة من القبلات الناعمة والكلمات اللطيفة والعناق المريح. منذ أعوام مضت كانت تنصت إلى ما تقصه صديقاتها عن كم انزعاجهن من أمهاتهن اللاتي يتدخلن في شئونهن، والقدر نفسه من غياب الفهم بينهن وكأنهن يتحدثن اللغة الكورية.

- لقد جعلك الفقد قاسية.

- إنني فقط لا أقع في حب كل شخص من الجنس الآخر تصادف وأن باع لي قدرًا من الطماطم.

فتحت أدراج الخزانة لتبحث عن فلتر القهوة. كان منزل والدها تغلب عليه الفوضى بالقدر نفسه من الترتيب الذي يوجد عليه منزلها.

أشرق وجهه وهو يقول: «لقد رأيت ياسمين في مطعم بيج فووتPig Foot ذات ليلة. يا لها من فتاة رائعة، لقد سألتني عنك».

وجدت ليف أوراق تصفية القهوة ففتحت واحدة ببراعة ووضعت بها القهوة.

- حقًا؟

- إنها متزوجة بإسباني، إنه يشبه الممثل الأسترالي إيرول فلين Errol Flynn رأيته لا يستطيع أن يرفع عينيه عنها، وللعلم ولا أنا أيضًا. إنها تتمايل في خطوتها بطريقة ساحرة. هو مسؤول عنها وعن طفلها الذي أعتقد أنه ابن رجل آخر، وهم سيعيشون في مدريد.

صبت ليف قدحًا من القهوة وأعطته لوالدها.

سألها: «لماذا لم تعودي ترينها؟ كنتما صديقتان رائعتان؟».

هزت كتفيها في لا مبالاة: «الناس يفترقون».

لم تستطع أن تخبره أن هذه هي نصف الحقيقة فقط. فتلك هي الأشياء التي لا يخبرونك بها عن فقد الزوج؛ فبجانب شدة التعب يمضي المرء الوقت كله نومًا، وحتى محاولة الاستيقاظ في بعض الأحيان تجبره على إغلاق عينيه ثانية ويشعر بأنه يبذل مجهودًا خرافيًا في تجاوز يومه، وسيكره أصدقاءه

بشكل غير معقول؛ ففي كل مرة تأتي فيها إحدى الصديقات إلى المنزل أو تعبر أخرى الشارع لتعانقك وتخبرك بمدى أسفها، تنظرين إليها وإلى زوجها وأطفالهما الصغار وتعتريك الصدمة من شدة الشعور بالحسد. كيف لهم أن يعيشوا بينما ديفيد يموت؟ كيف يعيش ريتشارد ذلك الشخص الممل الأحمق بكل أصدقائه من المدينة ورحلات الجولف التي يذهب إليها في نهاية الأسبوع وعدم اهتمامه بأي شيء خارج عالمه الصغير القانع به بينما يموت ديفيد الذكي، المحب، الكريم، الشغوف؟ كيف لتيِّم التعِس أن ينجب ويجلب إلى العالم المزيد من الأجيال محدودة الذكاء التي تشبهه، بينما ينقرض عقل ديفيد وعطفه وقبلاته إلى الأبد؟

تستطيع ليف أن تتذكر كيف كانت تصرخ دون صوت في دورة المياه من فرط الألم، وتنسحب من الحجرات المزدحمة دون تبرير وهي تعي جيدًا مدى وقاحتها لكنها لا تستطيع منع نفسها من ذلك. لقد مرت سنوات قبل أن ترى السعادة التي ترفرف على الآخرين دون أن تشعر بالحسرة لغياب سعادتها.

وقد تلاشى الغضب هذه الأيام، لكنها تفضل أن ترى ذلك الرضى الأسري من بعد ومن خلال أشخاص لا تعرفهم، كما لو أن السعادة هي فكرة علمية يسعدها أن ترى الآخرين يثبتونها.

لم تعد ترى الأصدقاء الذين كانوا لديها في الماضي حينها، شيري وياسمين، السيدتان اللتان تتذكران حالها في الماضي، إن الأمر معقد بدرجة يصعب معها شرحه.

ولم يرق لها ما قاله والدها عنها.

- أعتقد أنه يجب أن تلتقي بها قبل أن تسافر، أحب أن أراكما تخرجان معًا، شابتان حسناوان كما كنتما دومًا.

قالت وهي تنظف الفتات من فوق مائدة المطبخ المصنوعة من خشب الصنوبر الطبيعي وتزيل حلقات النبيذ الأحمر العالقة: «متى ستحادث كارولين؟».

- إنها لن تتحدث إليَّ، لقد تركت لها أربع عشرة رسالة على هاتفها الليلة الماضية.

- إنك بحاجة إلى قطع علاقاتك بكل النساء يا أبي.

- أعرف.

- وأن تكسب بعض النقود.
- أعرف.
- وعليك أن ترتدي ملابسك، لو كنت مكانها وأتيت إليك ورأيتك على هذا النحو سأستدير وأغادر ثانية.
- إنني أرتدي الرداء الخاص بها.
- خمنت هذا.

قال وهو يشم أكمام رداء كارولين وقد ارتسم على وجهه تعبير بالحزن الشديد وترغرغت عيناه بالدموع وقال: «إنه لا يزال يحمل رائحتها، ماذا عساي أن أفعل إن لم تأت؟».

وقفت ساكنة في مكانها وأصبحت تعبيرات وجهها جامدة، وتساءلت هل لدى أبيها فكرة عن اليوم الذي هما فيه. ثم نظرت إلى الرجل العجوز في رداء امرأته وعروقه الزرقاء التي تقف في كبرياء وسط جلده المتغضن ثم استدارت نحو المغسلة وقالت: «أتدري يا أبي؟ لست أنا الشخص المناسب لتطرح عليه هذا السؤال».

13

غاص الرجل العجوز ببطء في مقعده وأطلق تنهيدة كما لو أن السير عبر الحجرة يشكل مجهودًا كبيرًا. راقبه بقلق ابنه الذي وقف واضعًا يده أسفل مرفقه.

انتظر بول مكفرتي ثم نظر إلى سكرتيرته مريام التي سألته: «هل تريد قدحًا من القهوة أم الشاي؟».

هز الرجل رأسه هزة خفيفة وقال: «أشكرك». وكانت نظرته تقول، فلنشرع في الحديث عن ما جئنا من أجله، أليس كذلك؟

انسحبت مريام خارج الحجرة الصغيرة وهي تقول: «سأترككم لعملكم».

فتح بول الملف الذي أمامه ثم أسند يده إلى المكتب وهو يشعر بنظرات السيد نوفيكي مسلطة عليه.

- لقد طلبت منك المجيء اليوم لأنني لديَّ بعض الأخبار. حينما تواصلت معي في البداية أخبرتك أن تلك القضية صعبة بسبب عدم إثبات المصدر من جانبك. وكما تعلم فإن العديد من المعارض الفنية تحجم عن تسليم الأعمال دون دليل قاطع على...

رفع الرجل يده وهو يقول: «إنني أتذكر تلك اللوحة جيدًا».

- أعلم. وأنت أيضًا تعلم أن المعرض المعني يحجم بشدة عن التعاون معنا برغم وجود ثغرات في إثبات أصل المصدر لديهم، والقضية تتعقد بسبب الزيادة الرهيبة في قيمة العمل محل النقاش، والأمر

يزداد صعوبة بالنظر إلى عدم وجود صورة للوحة نستطيع من خلالها الاستمرار.

- كيف لي أن أصف تلك اللوحة بدقة. كنت في العاشرة من العمر حينما أجبرونا على ترك منزلنا، عشر سنوات، هل تستطيع أن تخبرني عما كان يوجد على جدران منزل والديك حينما كنت في العاشرة؟
- لا سيد نوفيكي لا أستطيع.
- هل كان من المفترض أن نعرف حينها أنهم لن يسمحوا لنا بالعودة لمنزلنا ثانية؟ إنه سخيف ذلك النظام. لمَ ينبغي لي أن أثبت أن هناك شيئًا قد سرق منا؟ بعد كل ما مررنا به...
- أبي لقد انتهينا من هذا.

وضع الابن يده على ساعد والده وأطبق الأب على شفتيه رغمًا عنه كما لو أنه اعتاد على من يسكته.

قال بول: «هذا ما أردت أن أتحدث إليك بشأنه، لقد لفت نظرك من قبل أنه ليس لدينا حجة قوية. حينما التقينا في يناير أخبرتني بشأن صداقة أمك مع جاركم آرثر بومان الذي انتقل إلى أمريكا».

- نعم، لقد كانوا جيرانًا طيبين. أعلم أنه رأى اللوحة في منزلنا. لقد زارنا عدة مرات، وكنت ألعب الكرة مع ابنته... لكنه توفي، لقد أخبرتك أنه توفي.
- نعم، لكني نجحت في اقتفاء أثر الأحياء من عائلته الذين يعيشون في مدينة دي موين الأمريكية. لقد فتشت حفيدته آن-ماري في ألبوم صور العائلة ووجدت هذا مخبأ في واحد منها.

جذب بول ورقة من الملف ومررها عبر المكتب إلى السيد نوفيكي.

لم تكن نسخة جيدة لكن الصورة التي بالأبيض والأسود كانت واضحة تمامًا؛ عائلة جالسة تضمهم أريكة منجدة بعناية، وسيدة تبتسم ابتسامة متحفظة وتضع على حجرها رضيعًا بعينين صغيرتين مستديرتين وبجوارها رجل ذو شارب ضخم يتكئ عليها وذراعه تمتد بطول الأريكة خلف ظهرها وبجوارهما صبي يبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن سنٍّ ناقصة من أسنانه. ومن خلفهم على الحائط لوحة معلقة لفتاة صغيرة ترقص.

قال السيد نوفيكي بهدوء وقد رفع يده المصابة بالتهاب المفاصل إلى فمه وقال: «نعم ها هي لوحة الرسام ديجا».

- لقد تحققت من صحتها من خلال بنك الصور ثم مع مؤسسة إدجار ديجا، وأرسلتها إلى المحامي الخاص بهم مرفقًا بها خطاب من ابنة آرثر بومان تقول فيه إنها أيضًا تتذكر رؤية الصورة في منزل والديك وإنها سمعت والدك يتحدث عن كيفية شرائها.

توقف لهنيهة ثم أردف قائلًا: «ولكن ليس هذا فقط كل ما تذكره آن-ماري؛ فهي تقول إنه بعد فرار والديك ذهب آرثر بومان ذات ليلة إلى شقتكم في محاولة لجمع ما تبقى من الأشياء القيمة الخاصة بعائلتكم وأخبر زوجته -جدة آن-ماري- إنه حينما وصل الشقة اعتقد أنه وصل في الوقت المناسب، حيث وجدها كما هي لم يعبث أحد بمحتوياتها ولم يلاحظ اختفاء اللوحة إلا حين مغادرته».

- قالت هذا بسبب عدم وجود أي بعثرة بمحتوياتها افترض أنكم أخذتم اللوحة معكم، ولعدم تواصلكم إلا بعد مرور سنوات على هذه الواقعة لم يتم إثارة هذا الأمر بالطبع.

قال الرجل العجوز وهو ينظر إلى الصورة: «لا، لم نحمل شيئًا معنا سوى خاتم زواج أمي وخاتم خطوبتها». وامتلأت عيناه بالدموع.

- من المحتمل أن تحفَّظ الألمان على اللوحة، فهناك أدلة على إزالة ممنهجة لكل الأعمال الفنية المهمة خلال فترة الحكم النازي.
- السيد دريشلر هو من أخبرهم عنها، كنت أدرك دومًا أنه هو الذي أخبرهم ويقول عن أبي صديقه.

ارتعشت يده الموضوعة على ركبتيه. إنها استجابة عادية، فالعديد من المدعين الذين يراهم بول بمقدورهم تذكر الصور والأحداث التي تعود للأربعينيات أكثر من تذكرهم لكيفية وصولهم إلى مكتبه.

- نعم، لقد فحصنا سجلات السيد دريشلر ووجدنا عددًا من الصفقات غير الموضحة مع الألمان؛ وإحداها تشير إلى لوحة ديجا، ولم تبين أي لوحة من لوحاته، ولكن حقيقة أنه لم يوجد الكثير من أعماله في منطقتك في ذلك الوقت أعطى صقلًا لحجتك.

ثم أدار وجهه ببطء نحو ابنه وتعبيرات وجهه تقول له أفهمت؟

- سيد نوفيكي، لقد تلقيت ليلة أمس ردًا من المعرض. هل تريدني أن أقرأه على مسامعك؟

- نعم.

عزيزي السيد ماك مكفرتي:

في ضوء الأدلة الجديدة المقدمة وبعض الثغرات من جانبنا بخصوص أصل اللوحة، إلى جانب اكتشافنا لمدى المعاناة التي تحملتها عائلة السيد نوفيكي، قررنا عدم الطعن في المطالبة الخاصة بلوحة «الفتاة الراقصة» لديجا. وقد أصدر مجلس الأمناء بالمعرض أوامره إلى المحامين بعدم الاستمرار في الدعوى، ونحن ننتظر تعليماتك بشأن نقل العنصر المادي.

انتظر بول رد فعله.

بدا الرجل العجوز غارقًا في أفكاره، وأخيرًا رفع رأسه وقال: «إذًا فهم سيعيدونها؟».

أومأ برأسه موافقًا ولم يمنع ابتسامة ظهرت على وجهه، فقد كانت قضية طويلة وشائكة وحلها كان سريعًا وبشكل مرضٍ.

- أحقًا سيعيدونها إلينا؟ هل أقروا أنها سرقت منا؟

- كل ما عليك هو أن تخبرهم بالمكان الذي تريد إرسالها إليه؟

سادت فترة طويلة من الصمت. حول جيسون نوفيكي نظره عن والده ورفع راحتي يديه ليمسح بهما الدموع من عينيه.

- قال: «آسف، لا أدري لمَ؟».

جذب بول علبة المناديل من أسفل مكتبه وأعطاها له وهو يقول: «إنه أمر مألوف، فهذا النوع من القضايا يغلب عليه الجانب العاطفي. إن الأمر ليس مجرد لوحة».

- لقد مر وقت طويل على ذلك، إن فقد تلك اللوحة لديجا كان تذكرة مستمرة بمعاناة أبي وجَدي في الحرب ولم أكن واثقًا من أنك...

نفخ الهواء من فمه ثم أردف قائلًا: «إن ما فعلته رائع. اقتفاء أثر عائلة الرجل. لقد قالوا عنك إنك محامٍ جيد لكن أن...».

هز بول رأسه وقال: «إنني أؤدي عملي فقط».

نظر هو وجيسون إلى الرجل العجوز الذي لا يزال يحدق إلى صورة اللوحة، بدا وكأن حجمه قد تضاءل كما لو أن وطأة الأحداث في العقود الماضية قد هزمته. يبدو أن الفكرة نفسها جالت بخاطرهما في الوقت ذاته.

- هل أنت بخير أبي؟

- سيد نوفيكي؟

اعتدل قليلًا في جلسته كما لو أنه تذكر في حينه أنهما في هذا المكان ويده ما زالت تستند إلى الصورة.

رجع بول بظهره على كرسيه وقلمه بمنزلة حلقة وصل بين يديه الاثنتين وقال: «بالعودة لموضوع اللوحة، فإنني أرشح شركة متخصصة في نقل الأعمال الفنية. إنك بحاجة إلى شاحنة بدرجة عالية من الحماية وبها نظام للتحكم في المناخ ونظام التعليق الهوائي. وأقترح أيضًا أن تؤمن عليها قبل أن تأتي إليك، فلست بحاجة إلى أن أخبرك أن لوحة كهذه...».

- هل لك أي اتصالات بصالة مزادات؟

- معذرة؟

استعاد السيد نوفيكي حيويته وقال: «هل لديك اتصالات مع أي من صالات المزادات؟ لقد تحدثت مع أحدهم منذ فترة لكنهم طلبوا الكثير من النقود. عشرون بالمئة. أعتقد كان هذا المبلغ بالإضافة إلى الضرائب. نسبة كبيرة جدًا».

- هل تريد تقييم ثمنها من أجل التأمين؟

فتح حافظة نقوده البالية المصنوعة من الجلد دون أن يرفع بصره إليهم ودس بها الصورة وقال: «لا، أرغب في بيعها». ثم لوح بيده بعدم اكتراث وأردف قائلًا: «على ما يبدو أن هذا هو الوقت المناسب لبيعها. إن الأجانب يشترون كل شيء».

نظر جيسون إلى أبيه وقال: «لكن، أبي...».

- لقد كان الأمر مكلفًا، لدينا فواتير لنسددها.

- لكنك قلت إن...

أدار نوفيكي وجهه بعيدًا عن ابنه وقال: «هل ستنظر في هذا الأمر من أجلي؟ أفترض أنك سترسل إليَّ فاتورة بأتعابك».

بالخارج، سمعوا أحدهم وهو يغلق أحد الأبواب بقوة في الشارع، وتردد الصوت على واجهات المبنى. ومن خلال الحجرة المجاورة سمع بول محادثات مريام الخافتة في الهاتف.

ازدرد ريقه وهو يقول: «سأفعل ذلك».

سادت فترة طويلة من الصمت، وفي النهاية نهض الرجل العجوز من مقعده.

قال أخيرًا وقد منحه ابتسامة صغيرة: «إنها أخبار جيدة جدًّا، أخبار جيدة حقًّا. أشكرك جزيلًا سيد مكفرتي».

قال: «لا عليك». ثم نهض ومد له يده بالسلام.

حينما غادرا، جلس بول مكفرتي على مقعده. أغلق الملف ثم أغلق عينيه.

قالت جاني: «لا تأخذ الأمر على محمل شخصي».

- أعلم. كل ما في الأمر أنني...

- هذا ليس شأننا، إننا نعمل من أجل استعادة الأشياء فقط.

- أعلم، كل ما في الأمر أن السيد نوفيكي تحدث كثيرًا عن مدى خصوصية تلك اللوحة للعائلة وأنها تمثل كل ما فقدوه...

- دعك من هذا بول.

- إن هذا لا يحدث مطلقًا في فرق الشرطة.

نهض من مكانه وراح يذرع غرفة جاني الضيقة جيئة وذهابًا. ثم توقف بجوار النافذة ونظر خارجها.

- إنك تعيدين الأشياء المفقودة للأشخاص فيشعرون بالسعادة.

- أعتقد أنك لا ترغب في العودة للشرطة.

- أعلم. إنني فقط أقول ما يحدث. إن قضايا الاسترداد تصيبني بالدهشة في كل مرة.
- لقد حصلنا على أتعابنا في قضية لم أكن واثقة من أنك تستطيع حلها، وهي النقود التي تحتاج إليها لنقل منزلك، أليس كذلك؟ لذا ينبغي أن يشعر كلانا بالسعادة.

ثم دفعت إليه جاني بملف عبر المكتب وقالت: «سوف يسعدك هذا، لقد وصل ليلة أمس. تبدو أنها قضية مباشرة».

أخرج بول الأوراق من الملف. القضية عبارة عن لوحة لسيدة قد فقدت منذ عام 1916، وتم اكتشاف السرقة خلال مراجعة أعمال الرسام من جانب الباقين على قيد الحياة من أسرته. وفي الورقة الثانية من الملف صورة للوحة محل النقاش وهي معلقة الآن بجرأة على حائط بسيط، وقد نشرتها إحدى المجلات اللامعة عن الموضة والمشاهير منذ عدة سنوات مضت.

- منذ الحرب العالمية الأولى؟
- إن قانون التقادم لا ينطبق عليها. إنها تبدو قضية واضحة وهم يقولون إن لديهم الدليل على أن الألمان سرقوا اللوحة خلال الحرب ولم يرها أحد منذ ذاك الحين، ومنذ عدة سنوات تصفح أحد أفراد العائلة عددًا قديمًا من تلك المجلات اللامعة وخمن ماذا كان يقبع في صفحتي المنتصف.
- هل هم على ثقة من أنها اللوحة الأصلية؟
- لم يتم استنساخها مطلقًا.

هز بول رأسه وقد نسي أحداث الصباح لفترة قصيرة وانتابه للحظة ذلك الشعور اللاإرادي بالإثارة وقال: «وها هي اللوحة تظهر بعد مئة عام تقريبًا معلقة على جدران منزل زوجين من الأثرياء».

- يقول المقال إن المنزل في وسط لندن، ولكن هذا هو ما تقوله جميع المقالات عن هذا النوع من البيوت المثالية، إنهم لا يريدون التشجيع على السرقة من خلال إعطاء تفاصيل العنوان، لكني أعتقد أن اقتفاء أثرهم لن يكون صعبًا؛ فهي تفصح عن أسماء الزوجين على أي حال.

أغلق بول الملف وظلت صورة السيد نوفيكي أمامه وفمه مغلق، والابن يحدق إلى أبيه كما لو أنه لم يره من قبل.

لقد سأله الرجل العجوز وهما على عتبة مكتبه قائلًا: «إنك أمريكي أليس كذلك؟ لن يمكنك فهم الأمر».

أراحت جاني يدها قليلًا على ذراعه وهي تقول له: «كيف تسير الأمور بشأن بحثك عن منزل؟».

- ليست على ما يرام، فكل شيء جيد يشتريه سريعًا من يدفعون نقدًا.
- إذا كنت تريد بعض الترفيه فيمكننا الذهاب معًا لتناول الطعام، فليس لديَّ شيء الليلة.

ابتسم بول، وحاول ألا يلتفت إلى الطريقة التي تمرر بها جاني يدها على شعرها ولا إلى ميلها الشديد المفعم بالأمل نحوه الذي ارتسم فوق ابتسامتها.

خطا مبتعدًا وهو يقول: «إنني أعمل حتى وقت متأخر، فلدي قضيتان عليَّ أن أبدأ فيهما. ولكن أشكرك، فأول ما سأفعله صباحًا هو دراسة الملف الجديد».

***

وصلت ليف إلى منزلها في الخامسة بعد أن أعدت الطعام لوالدها ونظفت الطابق الأرضي بالمكنسة الكهربائية، فكارولين نادرًا ما تنظفه بالمكنسة، وقد أشرقت ألوان السجاد الإيراني الباهتة مرة أخرى بشكل ملحوظ بعدما انتهت من التنظيف. كانت المدينة حولها مليئة بالحركة في يوم دافئ من أيام أواخر الصيف، وتعالت أصوات حركة المرور وانبعثت روائح الوقود من الطريق الأسفلتي.

قالت حينما بلغت الباب الرئيسي: «مرحبًا فران».

أومأت لها السيدة بالتحية وقد أخفضت حافة قبعتها الصوفية فوق رأسها رغم الحرارة. كانت تفتش في حقيبة بلاستيكية، فلديها مجموعة لا نهائية منها -حقائب معقودة أو مكدسة داخل بعضها بعضًا- ودومًا ما تعيد فرزها وترتيبها. واليوم تنقل صندوقين تغطيهما بقماش مشمع أزرق إلى مسكن المسؤول عن المكان. لقد تحمل المسؤول السابق فران لعدة سنوات، بل إنه كان يعاملها كمحطة غير رسمية للطرود. وقالت ذات مرة حينما كانت تحضر

لها ليف القهوة إن المدير الجديد يهدد بنقلها لأن بعض السكان يشكون من أن تصرفاتها لا تليق بالمكان.

- ألديك زائر؟

- ماذا؟ أوه، متى غادرت؟

إن ليف لم تترك رسالة أو مفتاحًا، وتساءلت إن كان يجب أن تمر على المطعم فيما بعد لتتأكد أن مو بخير، وبينما كانت تفكر في هذا كان تعلم في داخلها أنها لن تفعل، وشعرت براحة غريبة لفكرة أن المنزل هادئ وخاوٍ.

هزت فران كتفيها بعدم معرفة.

قالت ليف وهي تفتح الباب: «هل تودين تناول مشروب؟».

- لا بأس من تناول قدح من الشاي.

ثم أضافت قائلة كما لو أن ليف لم تصنعه لها من قبل: «ثلاث ملاعق من السكر من فضلك».

ثم بطريقة شخص مشغول لديه ما يفعله أكثر من مجرد التحدث إلى الآخرين، عادت تعبث بحقائبها مرة أخرى.

شمت رائحة الدخان وهي تفتح الباب ورأت مو جالسة على الأرض متربعة بقدميها بجوار طاولة القهوة الزجاجية وهي تمسك بإحدى يديها كتابًا ورقيًّا، واليد الأخرى ممسكة بسيجارة تضعها على صحن أبيض.

قالت دون أن ترفع بصرها: «مرحبًا».

حدقت إليها ليف والمفتاح في يدها وقالت: «ظننت أنك غادرتِ. قالت فران إنك ذهبتِ».

- السيدة بالأسفل؟ نعم، لقد عدت ثانية.

- عدت من أين؟

- من مناوبة النهار؟

- هل تعملين نهارًا؟

- في منزل رعاية. أرجو ألا أكون قد أزعجتك هذا الصباح، حاولت أن أغادر في هدوء. اعتقدت أن جلبة درج المكتب قد يوقظك، فالاستيقاظ في السادسة يقضي على أجواء الترحاب بالمرء كونه ضيفًا بالمنزل.

- جلبة درج المكتب؟

- إنك لم تتركي لي مفتاحًا.

قطبت ليف حاجبيها وشعرت أنها تغفل جزءًا من هذا الحوار. وضعت مو الكتاب جانبًا وتحدثت ببطء قائلة: «كان عليَّ أن أفتش قليلًا في بعض الأماكن حتى عثرت على المفتاح الاحتياطي في درج المكتب».

- فتشت في درج مكتبي؟

قلبت إحدى صفحات الكتاب وهي تقول: «كان يبدو أنه المكان الوحيد الذي يمكن أن يوجد به. لا عليك، لقد أعدته ثانية».

ثم أضافت بصوت غير مسموع: «يا للهول! تهوين ترتيب الأشياء».

استأنفت قراءة الكتاب. كتاب ديفيد. ونظرت ليف لترى المكتوب على ظهر الكتاب، كان كتابًا قديمًا لدار نشر بنجوين penguin بعنوان «مقدمة إلى فن العمارة الحديثة» وكان من الكتب المفضلة لديه. إنها تستطيع إلى الآن تخيل صورته يقرأ الكتاب وهو ممدد على الأريكة، ورؤيته في يد شخص آخر غيره جعلها تشعر بألم في معدتها من فرط التوتر. وضعت ليف حقيبتها جانبًا واتجهت نحو المطبخ.

وجدت الأسطح الجرانيت مغطاة بفتات الخبز المحمص، وعلى المائدة استقر كوبان بداخلهما دوائر بنية عالقة بالمنتصف، وبجوار محمصة الخبز حقيبة من الخبز الأبيض مقطعًا ومشقوقًا، وأكياس شاي سميكة مستخدمة وملقاة بجانب الحوض، وسكين بارز من قطعة زبدة غير مملحة كأنه يشق صدر قتيل.

وقفت ليف ساكنة في مكانها للحظة ثم شرعت في ترتيب المكان، فألقت ببقايا الطعام في سلة المهملات وملأت مغسلة الأطباق بالأقداح والصحون. ضغطت على الزر لفتح مصراع السقف وحينما فتح عن آخره ضغطت زرًّا آخر فانفتح السقف الزجاجي وراحت هي تحرك يدها لتزيح بقايا الدخان العالقة.

استدارت لتجد مو واقفة عند عتبة الباب فقالت لها: «ليس بإمكانك التدخين هنا، لا يجب عليك ذلك».

واكتسى صوتها برنة غريبة من التوتر.

- مؤكد، لم أدرك أنك لديك سطح زجاجي مغلق.
- إن الأمر لا يتعلق بالسطح الزجاجي، أرجوك كُفي عن التدخين هنا.

نظرت مو نحو أسطح المطبخ وإلى ليف وهي تنظف بجنون.

- سأنظف المكان قبل أن أغادر حقًّا.
- كل شيء على ما يرام.
- من الواضح أنه ليس كذلك وإلا ما بدوت وكأنك ستصابين بنوبة قلبية. أرجوك توقفي. سأنظف تلك الفوضى التي تسببت بها حقًّا.

توقفت ليف عن التنظيف. كانت تعلم أنها تبالغ في تصرفاتها لكنها لا تستطيع السيطرة على ذلك، فهي تريد مو أن تغادر المنزل.

قالت: «سأعد قدحًا من الشاي من أجل فران».

شعرت بطنين ينبض في أذنيها خلال سيرها نحو الطابق الأرضي.

حينما عادت وجدت المطبخ مرتبًا، ومو تتحرك بهدوء في المكان.

قالت بينما كانت ليف تدخل المكان: «إنني كسولة بعض الشيء حينما يتعلق الأمر مباشرة بالتنظيف».

- بسبب قيامك بهذا في أثناء العمل مع المسنين أو الزبائن في المطعم... إنك تؤدين أعمال التنظيف كثيرًا خلال اليوم وبالتالي تثورين عليها في المنزل.

حاولت ليف ألا تظهر غضبها في كلماتها، وحينها أدركت رائحة أخرى بخلاف الدخان ووجدت الفرن مضاء.

انحنت لتنظر بداخله فوجدت صحنها ماركة لوكروسيت الشهيرة وسطحه يغلي بشيء مملوء بالجبن.

- لقد أعددت لك شيئًا من أجل العشاء، المكرونة المخبوزة بالكريمة. لقد وضعت كل ما استطعت إحضاره من المتجر. ستكون جاهزة في خلال عشر دقائق. كنت سأتناول عشائي فيما بعد لكن نظرًا لأنك هنا...

لم تتذكر ليف المرة الأخيرة التي أشعلت فيها الفرن.

قالت مو وهي تمد يدها نحو قفازات الفرن: «أوه، وقد أتى أحد من المجلس».

- ماذا؟

- نعم، شيء يتعلق بضرائب المجلس.

شعرت ليف لوهلة بالخوف والقلق.

- لقد قلت إنني ليف فأخبرني بالمبلغ الذي تدينين به. إنه مبلغ كبير.

أعطتها قطعة من الورق مكتوب عليها الرقم المطلوب.

وحينما همت ليف بفتح فمها لتعترض قالت: «كنت أريد التأكد من أنه يتحدث إلى الشخص الصحيح، ظننت أنه ارتكب خطأً».

كانت تعلم جيدًا ضخامة المبلغ، لكن رؤيته مطبوعًا لا يزال يمثل صدمة بالنسبة لها. شعرت بعيني مو موجهة نحوها، ومن خلال صمتها الطويل غير المعتاد أدركت أن مو خمنت الحقيقة.

- اجلسي. كل شيء يصبح جيدًا مع معدة ممتلئة.

ثم شعرت بمو توجهها نحو أحد المقاعد، وفتحت باب الفرن فغمرت المطبخ رائحة غير مألوفة للطعام المطهو في المنزل.

- إن لم يكن كذلك فإنني أعرف مأدُبة هنيئة.

كان الطعام جيدًا وتناولت ليف الكثير منه وجلست وهي تضع يدها على معدتها فيما بعد وتتعجب من دهشتها من أن مو تجيد الطهي.

قالت بينما كانت مو تلتهم ما تبقى من طعامها: «أشكرك، فالطعام جيد حقًّا، لا أستطيع تذكر آخر مرة تناولت فيها هذا القدر من الطعام».

- لا عليك.

والآن عليك أن تغادري. لم تخرج هذه الكلمات التي كانت على شفتيها طوال العشرين ساعة الماضية، فهي لا تريد مو أن تذهب الآن. هي لا تريد أن تبقى وحيدة مع الأفراد المختصين بضرائب المجلس والمطالبات النهائية وأفكارها التي لا يمكنها السيطرة عليها. شعرت فجأة بالامتنان لأن لديها أحدًا الليلة لتتحدث إليه؛ دفاع بشري ضد المواعيد المرتقبة.

- إذًا ليف ورثينج بالنسبة لموضوع وفاة الزوج؟

وضعت ليف الشوكة والسكين جانبًا وقالت: «أفضل ألا أتحدث بشأن هذا الأمر».

شعرت بعيني مو مثبتتين عليها وهي تقول: «اتفقنا، لا حديث عن الأزواج الراحلين، ماذا عن الأحباء؟».

- أحباء؟

- منذ ذلك الشخص الذي لن نذكر اسمه، ألم توجد علاقة جادة؟

- لا.

التقطت مو قطعة من الجبن من جانب صحن الخبز.

- ألا توجد علاقات جنسية طائشة؟

- لا.

رفعت مو رأسها نحوها وهي تقول: «لا علاقة واحدة؟ منذ متى؟».

غمغمت ليف قائلة: «أربع سنوات».

كانت تكذب. كانت هناك علاقة منذ ثلاث سنوات بعد أن أصر أصدقاؤها حسنو النية على أن تتجاوز تلك الفترة، كما لو أن ديفيد كان بمنزلة عقبة بالنسبة لها. تناولت كمًّا هائلًا من الكحوليات وهي في طريقها حتى تكمل الأمر لكنها بكت كثيرًا بعدها، كانت دموع غزيرة من الحزن والندم والاشمئزاز. ولم يستطع الرجل –الذي حتى لا تذكر اسمه– أن يخفي ارتياحه حينما قالت إنها ستعود لمنزلها. وإلى الآن ينتابها شعور هائل بالخجل حينما تتذكر الأمر.

- لا علاقة منذ أربع سنوات؟ وكم عمرك؟ ثلاثون؟ ما هذا؟ أهو نوع من التضحية بالنفس بعد موت الزوج؟ ماذا تفعلين سيدة ورثينج؟ تدخرين نفسك لزوجك الراحل في الآخرة؟

- أنا ليف. ليف هالستون. كل ما في الأمر أنني لم ألتق بأحد. أردت...

قررت ليف أن تغير دفة الحوار فقالت: «والآن، ماذا عنك؟ ألا يوجد نوع من الإيذاء الجميل للنفس؟ ألم يظهر في الأفق ذلك الشخص شديد العاطفة؟». اتخاذها وضع الدفاع جعلها أكثر حدة.

تسللت أصابع مو نحو سجائرها ثم تراجعت ثانية.

- إنني بخير.

انتظرت ليف لتكمل.

- لديَّ خطة للمواعدة.

- خطة للمواعدة؟

- نعم، مع رانيك، نادل الخمر. نحن نلتقي كل أسبوعين معًا من أجل مزيد من التقارب. لم تكن علاقتنا جيدة في البداية لكنها الآن تحسنت كثيرًا.

تناولت قطعة أخرى من الجبن.

- أليس هناك علاقة جادة؟

- توقف والداي عن الحديث عن وجود أحفاد منذ مطلع القرن تقريبًا.

- يا إلهي. لقد ذكرني كلامك هذا بشيء... لقد وعدت أبي أن أهاتفه.

وفجأة طرأت على ذهن ليف فكرة، فنهضت ومدت يدها نحو حقيبتها وقالت: «ما رأيك أن أذهب إلى المتجر وأبتاع بعضًا من النبيذ؟».

وحدثت نفسها قائلة: «هذا سيكون رائعًا، سنتحدث عن الوالدين والأشخاص الذين لا أتذكرهم، والكلية، ووظيفة مو وسوف أجعلها تحيد عن موضوع العلاقات، وقبل أن أستوعب أي شيء يأتي الغد ويعود منزلي لطبيعته مرة أخرى وتاريخ اليوم لن يأتي إلا بعد عام كامل».

دفعت مو بمقعدها إلى الوراء بعيدًا عن المائدة وقالت وهي ترفع صحنها: «ليس من أجلي. عليَّ أن أغير ملابسي وأخرج سريعًا».

- تخرجين؟

- من أجل العمل.

قالت ليف ويدها تمسك بحافظتها: «لكنك قلت إنك أنهيت عملك للتو».

- مناوبة النهار. الآن أبدأ مناوبة الليل بعد نحو عشرين دقيقة.

رفعت شعرها لأعلى وثبتته بالمشبك وقالت: «هل تمانعين في غسل الصحون؟ وهل يمكن أن آخذ المفتاح ثانية؟».

تبخر ذلك الشعور بالسرور الذي اعتراها وقت تناول الطعام مثل فرقعة فقاقيع الصابون. جلست أمام المائدة التي لم يكتمل تنظيفها وهي تستمع إلى مو وهي تدندن بنغمات غير مفهومة، وإلى صوت اغتسالها وتنظيف أسنانها في دورة المياه الاحتياطية، وغلقها باب حجرة النوم بهدوء.

نادتها من أسفل: «هل تعتقدين أنهم قد يحتاجون إلى شخص آخر الليلة؟ أعني أنني يمكنني المساعدة، ربما. أنا أستطيع أن أؤدي وظيفة النادل».

ليس ثمة إجابة.

- لقد عملت في حانة ذات مرة.

- وأنا أيضًا. وقد جعلني أود أن أطعن الأشخاص في أعينهم أكثر مما أريد أن أفعل خلال عملي بوصفي نادلة.

عادت مو للردهة وقد ارتدت قميصًا أسود وسترة جلدية وأمسكت بمريلة تحت ذراعها.

قالت: «أراك لاحقًا صديقتي، إلا إذا حالفني الحظ مع رانيك بالتأكيد».

وذهبت -هبطت إلى الطابق الأرضي- وغاصت في عالم الأحياء. ومع تلاشي صدى صوتها أضحى هدوء المنزل شيئًا قاسيًا ثقيلًا، وشعرت ليف بإحساس متزايد من الفزع بأن منزلها -ملاذها الآمن- يوشك أن يخدعها.

أدركت أنه ليس بوسعها قضاء تلك الليلة بمفردها.

14

هذه هي الأماكن التي لا يفضل الذهاب إليها بمفردك لتناول مشروب إن كنت امرأة:

1 - بازوكا: كانت قديمًا تعرف باسم حانة الحصان الأبيض؛ حانة قديمة تقع في الزاوية المقابلة للمقهى، ذات مقاعد مخملية فخمة متراخية تزين بعض جوانبها حدوات الأحصنة النحاسية، وقد تلاشى طلاء لافتتها بفعل الزمن فطمست معظم معالمها. أما الآن فقد أصبحت حانة تقدم بعض الاستعراضات تزينها اللافتات المضيئة، ويتردد عليها رجال الأعمال في وقت متأخر وفتيات ذات وجوه مشدودة ملطخة بالمساحيق يتجولن بأحذيتهن العالية ذات الكعوب السميكة في وقت متأخر بعد منتصف الليل يدخنَّ السجائر بشراهة ويتذمرن من أجل طلب البقشيش.

2 - دينو: حانة النبيذ المحلية. كانت مكتظة دومًا خلال فترة التسعينيات وجُددت لتصبح مطعمًا قذرًا تتردد عليه الأمهات الفاتنات في فترة النهار، أما بعد الثامنة مساء فتعقد جلسات مواعدة سريعة. ومعظم الأيام فيما عدا الجمعة تكشف نوافذه الممتدة من الأرض حتى السقف عن خلوه تمامًا من الزبائن.

3 - أي من الحانات القديمة التي تقع في الشوارع الخلفية بعيدًا عن النهر التي تجذب مجموعات صغيرة من السكان المحليين المستائين، الرجال الذين يدخنون السجائر الملفوفة وأعينهم جامدة خاوية من أي تعبيرات ككلاب البتبول pitbull ويحدقون إلى أي امرأة، كما يحدق البعض إلى أي امرأة ترتدي البكيني.

4 - أي من أماكن تناول المشروبات الجديدة المكتظة، تلك الأماكن الباعثة على البهجة التي تقع بالقرب من النهر وتمتلئ بأشخاص تصغرك في العمر؛ معظمها مجموعات من الشباب الساخر يحملون حقائبهم التي تحوي أجهزة الكمبيوتر المحمولة ماركة Mac apple ويمسكون بأكواب سوداء سميكة وتشعر وسطهم بوحدة أكثر من تلك التي تستشعرها إذا جلست بين جدران منزلك.

دارت برأس ليف فكرة شراء زجاجة من النبيذ وجلبها إلى المنزل، لكن في كل مرة تتخيل نفسها تجلس وحيدة في هذا المكان يجتاحها شعور غير معتاد بالفزع. فهي لا ترغب في مشاهدة التلفزيون؛ فالسنوات الثلاثة الماضية لم

يعرض إلا سهرات عن الحياة العبثية الساخرة حيث المسلسلات الكوميدية التي تتناول قتل أحد الأزواج بشكل مؤلم، أو استبدال برنامج عن الحياة البرية بآخر عن الموت المفاجئ. لا تريد أن تجد نفسها تقف أمام **اللوحة** وهي تسترجع ذلك اليوم الذي اشترياها فيه معًا وهي ترى في تعبيرات تلك المرأة الحب والارتواء الذي اعتادت عليهما. لا ترغب في أن تجد نفسها تعبث في صورها مع ديفيد وهي تدرك تلك الحقيقة المؤلمة أنها لن تحب أحدًا مثلما أحبته أبدًا، وبينما كان يمكنها استرجاع شكل تجاعيد عينيه أو أصابعه وهي تمسك بأحد الأكواب إلا أنه لم يعد بإمكانها تذكر كل تلك الأشياء مجتمعة.

لا تريد أن تعتريها تلك الرغبة الملحة في الاتصال بهاتفه الجوال كما كانت تفعل بهوس في العام الأول لوفاته حتى تسمع صوته على آلة الرد الآلي. في معظم الأيام الآن أصبح فقده جزءًا منها، حمل ثقيل تنوء به لا يراه أحد يغير من كيفية قضائها ليومها. لكن اليوم -ذكرى وفاته- هو يوم لا تدري فيه ما الذي سيحدث فيما بعد.

وفجأة تذكرت شيئًا قالته إحدى السيدات على العشاء الليلة الماضية. قالت حينما تريد أختي أن تخرج دون أن يزعجها أحد تذهب إلى حانة للعزاب. جيد جدًا. هناك حانة للعزاب تبعد أقل من عشر دقائق عنها. مرت أمامها مئات المرات دون أن تتساءل ما الذي يكمن خلف أسلاك تلك النوافذ. لن يزعجها أحد في هذه الحانة. مدت ليف يدها نحو سترتها وجذبت الحقيبة والمفاتيح. على الأقل لديها خطة.

- إنه موقف محرج حقًا.

- كانت مرة واحدة منذ شهور مضت، لكن لديَّ شعور بأنها لم تنسها قط.

مسح جريج كأسًا زجاجية أخرى وهو يبتسم واضعًا إياها على الرف وهو يقول: «لأنك كنت رائع جدًا».

قال بول: «لا... حسنًا... من الواضح... أعني بشكل جاد جريج، إنني أشعر بالذنب حينما تنظر إليَّ، كأنني وعدتها بشيء لا أستطيع تنفيذه».

- ما القاعدة الذهبية يا أخي؟ لا تستمر في علاقة تسبب لك المشكلات مع شخص قريب.

- لقد كنت ثملًا. لقد كانت تلك الليلة التي أخبرتني فيها ليوني أنها وجيك سيذهبان إلى ميتش.

قال جريج بصوت مقدمي برامج التلفزيون: «لقد تخليت عن حذرك ونالت منك رئيستك حينما كنت ضعيفًا ثملًا، والآن تشعر أنها استغلتك. انتظر لحظة».

واختفى ليلبي طلبات أحد الزبائن. كانت الحانة مكتظة ليلة الخميس، كل الطاولات مشغولة. هناك تدفق مستمر من الأشخاص إلى المكان. همهمات الحوارات المبهجة بين الزبائن تعلو على صوت الموسيقى. كان من المفترض أن يذهب إلى المنزل بعد انتهاء عمله في المكتب، لكنه نادرًا ما يجد فرصة كي يلتقي أخاه، ومن الجيد تناول مشروب بين الحين والآخر حتى لو كان مضطرًا إلى أن يمضي الوقت وهو يتحاشى النظر إلى سبعين بالمئة من العملاء.

سجل جريج تسلم بعض النقود ثم عاد مرة أخرى لبول.

- استمع إلي. أعلم كيف يبدو الأمر. لكنها امرأة لطيفة وصدها طوال الوقت شيء كريه.
- أكره أن أكون مكانك.
- كما تفهم.
- لأنه لا أحد يغازلك وأنت مع شخص آخر وخاصة في حانة كهذه. أوه لا.

وضع جريج كأسًا أخرى فوق الرف وأردف قائلًا: «لماذا لا تجلس معها وتخبرها أنها شخصية لطيفة... إلخ لكنك لا تهتم بها على هذا النحو؟».

- لأن الأمر محرج. نحن نعمل معًا طوال الوقت.
- أهذا صحيح حقًا؟ إن الأمر برمته يتعلق بالتفكير في علاقة عابرة أخرى حينما تنتهي من هذه القضية بول.

تحول انتباه بول إلى نهاية الحانة.

- أوه أعتقد أننا لدينا امرأة هنا.

كان جريج منتبهًا بعض الشيء لوجود الفتاة طوال الوقت، وحينما وصلت إلى الحانة بدت هادئة تمامًا واعتقد أنها تنتظر شخصًا ما، وهي تحاول الآن أن تصعد ثانية إلى المقعد المستدير ذي الأرجل الطويلة. حاولت أن تفعل ذلك مرتين، وفي المحاولة الثانية مالت بشدة إلى الوراء، فأزاحت شعرها

بعيدًا عن عينيها ونظرت إلى ما حولها في الحانة كما لو أنها فوق قمة جبل إفريست. دفعت بنفسها ثانية إلى الأمام، وحينما جلست فوق المقعد مدت يديها للأمام لكي تستقر في جلستها وطرفت بعينيها بشدة كما لو أنها لا تصدق أنها فعلتها. رفعت رأسها نحو جريج وقالت: «من فضلك، هل يمكنني تناول كأس أخرى من النبيذ؟». ورفعت يدها بالكأس الخالية.

اتجهت نظرته المليئة بالدهشة والضجر نحو بول ثم حولها بعيدًا عنه وقال وهو يحرك المنشفة فوق كتفه: «نحن سنغلق في غضون عشر دقائق».

كان يحسن التعامل مع السكارى. لم ير بول جريج يفقد هدوءه مطلقًا وكانت أمهما تقول إنهما يختلفان عن بعض تمام الاختلاف.

اهتزت شفتاها في شبه ابتسامة وهي تقول: «هذا يمنحني عشر دقائق لأتناول مشروب آخر؟».

لم يبد عليها أنها شخصية غريبة الأطوار ولكن هناك القليل ممن يبدو عليهم ذلك. لم يشأ أن يخبر أخاه الذي سيسخر منه ويخبره أنه أمضى الكثير من الوقت في العمل بالشرطة.

- عزيزتي إنني أعني ذلك بطريقة لطيفة، لكن إن تناولت مشروبًا آخر سينتابني القلق حيالك، وأنا أكره حقًّا أن تنتهي مناوبتي وأنا أشعر بالقلق حيال أحد الزبائن.

ابتسمت ابتسامة حزينة وهي تقول: «كأس صغيرة، إنني لا أشرب في العادة».

- نعم. إنني قلق عليك.

قالت بعينين ملأهما التعب: «لقد كان يومًا صعبًا. يوم صعب حقًّا. أرجوك أعطني كأسًا أخرى من فضلك؟ ثم بعد ذلك يمكنك أن تطلب لي سيارة أجرة من شركة محترمة وسأذهب إلى منزلي وأغيب عن الوعي وتذهب أنت إلى منزلك دون أن تشعر بالقلق نحوي».

نظر نحو بول ثم تنهد وكأن لسان حاله يقول: انظر إلى ما ينبغي لي تحمله.

قال: «كأس صغيرة. كأس صغيرة جدًّا».

تلاشت ابتسامتها وعيناها نصف مفتوحتين ومدت يدها لأسفل باتجاه قدميها -وهي تترنح- لتأخذ حقيبتها. استدار بول نحو نضد البار وراح

يتفقد رسائل الهاتف. إن دوره في استضافة جيك في مساء الغد، وبالرغم من أن العلاقة بينه وبين ليوني أصبحت علاقة ودية فإن شيئًا بداخله لا يزال يخبره أنها سوف تخترع سببًا لإلغاء الموعد.

- حقيبتي!

رفع بصره لأعلى.

- لقد اختفت حقيبتي!

انزلقت من فوق المقعد ونظرت نحو الأرض وإحدى يديها تمسك بنضد البار، وحينما عادت تنظر إلى أعلى كان وجهها شاحبًا.

مال جريج نحو النضد وقال: «ألم تأخذيها معك إلى دورة مياه السيدات؟».

قالت وعيناها تتجولان في المكان: «وضعتها أسفل المقعد».

قال جريج باستهجان: «تتركين حقيبتك أسفل المقعد؟ ألم تقرئي اللافتات؟».

كانت هناك لافتات في جميع أنحاء المكان: لا تترك حقيبتك دون مراقبة، فالنشالون يعملون في هذه المنطقة. استطاع بول أن يرى وجود ثلاثة من مكانه.

لم تقرأ أيًا منها.

- أنا آسف. لكن المكان ليس آمنًا هنا.

انتقلت نظرات المرأة بينهما وكانت ثملة، واستطاع أن يلحظ أنها تخمن ما يدور بخلدهما من أنها امرأة حمقاء ثملة.

مد بول يده نحو هاتفه وقال: «سأطلب الشرطة».

- وتقول لهم إنني كنت شديدة الغباء بدرجة جعلتني أترك حقيبتي تحت المقعد؟

دفنت وجهها بين يديها وقالت: «يا إلهي لقد سحبت لتوي مئتي جنيه من أجل ضرائب المجلس. مئتي جنيه».

قال جريج: «لقد كان لدينا حادثا سرقة هذا الأسبوع. نحن ننتظر تركيب نظم المراقبة. إنه وباء، أنا حقًا آسف».

نظرت إلى أعلى ومسحت وجهها وأطلقت تنهيدة طويلة متعبة، وحاولت ألا تنفجر في البكاء. استقرت الكأس فوق النضد دون أن تلمسها.

- إنني آسفة. لا أظن أنني أستطيع سداد الفاتورة.

قال جريج: «لا تنشغلي بهذا. وأنت بول، عليك بطلب الشرطة وسأعد لها قدحًا من القهوة. حسنًا. الوقت انتهى، السيدات والسادة من فضلكم».

إن الشرطة لا تأتي من أجل حقيبة اختفت، فأعطوا المرأة -التي تدعى ليف- رقمًا للجريمة التي وقعت ووعدوا بإرسال خطاب يفيد بدعم المجني عليها وأخبروها أنهم سيكونون على اتصال إذا ما عثروا على شيء. ومن الواضح بالقطع من خلال المكالمة أنه لن يكون هناك أي اتصال.

في الوقت الذي أنهت فيه مكالمتها أضحت الحانة خاوية تمامًا وأعاد جريج فتح الباب ليتمكنوا من الخروج. مدت ليف يدها نحو سترتها وقالت: «لدي ضيفة في منزلي ومعها مفتاح احتياطي».

عرض عليها بول هاتفه قائلًا: «تريدين إجراء مكالمة؟».

نظرت إليه ووجهها خالٍ من أي تعبيرات وقالت: «لا أعرف رقم هاتفها، لكني أعرف مكان عملها».

انتظر بول لتكمل حديثها.

- إنها تعمل في مطعم يبعد عن هنا نحو عشر دقائق عند محطة مترو أنفاق بلاكفرايرز Towards Blackfriars.

نظر بول نحو ساعته إن الساعة تخطت منتصف الليل. إنه متعب وسيأتي ابنه غدًا في السابعة والنصف صباحًا، لكنه لا يستطيع أن يترك امرأة ثملة حاولت معظم الوقت ألا تنفجر في البكاء وتسير بمفردها عبر الشوارع الخلفية لمنطقة ساوث بانك South Bank في منتصف الليل.

قال: «سأذهب معك».

أدرك نظرة الحيرة في عينيها وطريقة استعدادها للرفض فأمسك جريج بذراعها وقال: «إنك بخير عزيزتي. إنه رجل شرطة سابق».

شعر بول أنه يتم إعادة تقييمه وقاوم تلك الرغبة التي اجتاحته لمسح إحدى عيني المرأة التي تلطخت بالمساحيق.

- إنني أشهد له بحسن أخلاقه وهو بطبيعته يفعل تلك الأشياء وينقذ الآخرين كما تفعل كلاب الإنقاذ سانت بيرنارد ST.Bernard.

- أشكرك جريج.

ارتدت سترتها وقالت: «إن كنت لا تمانع في أن تأتي معي يكون كرمًا كبيرًا منك».

- سأحادثك غدًا بول، وحظ سعيد سيدة ليف أتمنى أن يحل كل شيء.

انتظرهما جريج حتى ابتعدا قليلًا ثم أحكم غلق الباب.

سارا سريعًا وصوت وقع خطواتهما يتردد عبر الشوارع الخالية المرصوفة ويشق الصمت وسط المباني المحيطة. بدأت السماء تمطر ودس بول يده في جيبه وأحنى رقبته داخل ياقة ملابسه. مر برجلين يرتديان صدارًا بقلنسوة وكان يشعر أنها تميل نحوه قليلًا أثناء سيرهما.

قال: «هل ألغيت بطاقات الائتمان؟».

- يا إلهي، لا.

كان الهواء يلفح وجهها بقوة وبدت يائسة وكانت تتعثر في خطواتها بين الحين والآخر، وأراد هو أن يمد لها ذراعه لتتكئ عليها لكنه اعتقد أنها لن تفعل.

- لم أفكر في هذا.

- هل تستطيعين تذكر عدد البطاقات؟

- بطاقة ماستر كارد وبطاقة بنك باركليز.

- انتظري، لديَّ شخص يمكنه المساعدة.

ثم طلب رقم أحدهم وقال: «مرحبًا شيري أنا مكفرتي... نعم أنا بخير. أشكركِ. كل شيء على ما يرام وماذا عنكِ؟».

انتظر حتى انتهت، وقال: «أنصتي لي. هل بمقدورك أن تسدي لي معروفًا؟ هل يمكن أن ترسلي إليَّ أرقام المساعدة الخاصة ببطاقات البنك المسروقة؟ ماستر كارد وبنك باركليز. إنها صديقة سرقت حقيبتها... نعم. أشكرك شيري. أرسلي تحياتي إلى باقي الزملاء. أراك لاحقًا».

طلب الأرقام التي أرسلتها صديقته وأعطى لها الهاتف.

قال: «إنها من الشرطة. عالم صغير حقًّا». ثم سار في صمت بينما كانت تشرح الموقف لمسؤول الرد على الشكاوى.

قالت وهي تعطي له الهاتف: «أشكرك».

- لا عليك.

ابتسمت بأسى وهي تقول: «سأندهش إذا ما نجحوا في الحصول على أي أموال من خلالهم على أي حال».

وصلا إلى المطعم. مكان على الطراز الإسباني. كانت الأضواء مطفأة والأبواب مغلقة. تحرك في خطوات سريعة أمام المدخل ونظرت هي من خلال النوافذ كما لو أنها تتمنى أن تظهر أي علامة على وجود حياة بالداخل.

نظر بول إلى ساعته وقال: «إنها الثانية عشرة والربع. من المرجح أنهم انتهوا من عملهم الليلة».

وقفت ليف وعضت على شفتيها وسارت نحوه وهي تقول: «ربما هي في منزلي الآن. هل يمكن أن أستعير هاتفك ثانية؟».

أعطاها إياه، فرفعته في ضوء مصباح بخار الصوديوم حتى تتمكن من رؤية الشاشة على نحو أفضل. راقبها وهي تطلب الرقم ثم سارت مبتعدة ويدها تعبث بشعرها دون وعي. نظرت خلفها ومنحته ابتسامة خفيفة غير واثقة ثم استدارت مرة أخرى وطلبت رقمًا ثانيًا وثالثًا.

- ألا يوجد أحد آخر يمكن أن تهاتفيه؟

- أبي؟ حاولت الاتصال به ولا أحد يجيب على الرغم من أنه قد يكون نام بالفعل، هو ينام كالأموات.

بدت تائهة تمامًا.

- أنصتي لي، ماذا لو حجزت لك غرفة في فندق؟ يمكن أن تسددي لي النقود حينما تستعيدين بطاقاتك.

وقفت مكانها وهي تعض على شفتيها. مئتا جنيه. تذكر الطريقة التي قالتها بها. قالتها بيأس. كانت طريقة شخص لا يستطيع تحمل فاتورة فندق في وسط لندن.

أمطرت السماء بشدة الآن وأغرقت أرجلهما وراحت المياه تتدفق أمامهما في البالوعة. وتحدث هو في الغالب قبل أن يفكر وقال: «أو تدرين، إن الوقت متأخر وأنا أقطن على بعد عشرين دقيقة من هنا سيرًا على الأقدام. ألا يمكن أن تفكري في المجيء إلى منزلي وتقررين ذلك إن رغبت؟ يمكننا ترتيب الأمور ونحن هناك؟».

أعطته الهاتف واستشف صراعًا يدور بداخلها لوهلة، ثم ابتسمت بقليل من الحذر وتقدمت للسير بجانبه وقالت: «أشكرك، وأنا آسفة لم أرغب قط في إفساد ليلة شخص آخر أيضًا».

أصبحت ليف أكثر هدوءًا حينما اقتربا من شقته وخمن أنها استعادت وعيها؛ فجزء واع منها يتساءل عما وافقت عليه لتوها. وتساءل هو بدوره إن كان هناك صديقة تنتظرها بالفعل في مكان ما. إنها جميلة، لكن ليس على النحو الذي تود المرأة أن تجذب به الرجال؛ فوجهها خال من المساحيق وشعرها معقوص لأعلى في شكل ذيل حصان. أيعد هذا شذوذًا؟ بشرتها جيدة جدًّا بشكل يوحي أنها لا تشرب باستمرار، ساقاها مشدودتان وخطواتها واسعة مما يدل على مداومة الرياضة، لكنها تسير بشكل دفاعي وذراعاها معقودتان أمام صدرها.

وصلا إلى شقته المزدوجة في الطابق الثاني وتقع فوق مقهى في ضواحي منطقة المسارح تياترلاند، وقفت مبتعدة عنه وهو يفتح الباب.

أضاء الأنوار واتجه مباشرة نحو مائدة القهوة وأزال الصحف وكوب القهوة وهو يرى الشقة بعين الغريب؛ شقة صغيرة مكدسة بالمراجع والصور والأثاث. ولحسن الحظ لا يوجد جوارب شاردة أو ملابس ملقاة. اتجه نحو المطبخ وأدار غلاية المياه وأحضر لها منشفة كي تجفف شعرها، وراقبها وهي تسير بتردد حول الحجرة وقد اطمأنت بوجود أرفف الكتب والصور الموضوعة على المنضدة الجانبية سواء كانت صُوَره بالزي الرسمي أم بصحبة جيك وهما يضحكان وذراع كل منهما تحيط بالآخر.

- أهذا ابنك؟

- نعم.

أمسكت صورة له بصحبة جيك وليوني التقطت لهما منذ أربع سنوات وذراعها الأخرى تحيط ببطنها. كان يود أن يعرض عليها ارتداء قميص لكنه لم يرغب في أن تظن أنه يحاول أن يجعلها تخلع ملابسها.

- أهذه أمه؟

- نعم.

- إذًا فلست عازبًا؟

تاهت الكلمات للحظة من فوق لسانه ثم قال: «لا لا، هذه حانة أخي».

- نعم.

ثم أشار إلى صورته وهو بالزي الرسمي وقال: «لا أبدو وكأنني أقوم بالأعمال اليومية لأهل القرى. لقد كنت بالفعل ضابط شرطة».

شرعت في الضحك. كان هذا النوع من الضحك الذي لا بديل له سوى البكاء. مسحت عينيها وابتسمت له في حرج وقالت: «أنا آسفة، كان يومًا سيئًا قبل أن تسرق حقيبتي».

خطر بباله فجأة أنها حقًا جميلة، فلديها مسحة من الضعف وكأن أحدهم كشف عما يخفيه مظهرها الخارجي. استدارت لتواجهه ثم حولت بصرها بعيدًا عنه.

- بول، هل لديك مشروب؟ لكن ليس القهوة. أعلم أنك قد تعتقد أنني أشرب كثيرًا لكني أحتاج إلى كأس بشدة الآن.

أطفأ غلاية المياه وصب كأسين من النبيذ ثم جاء إلى غرفة المعيشة. جلست على حافة الأريكة تستند بمرفقيْها إلى ركبتيْها.

- أتريدين أن تتحدثي عما يزعجك؟ فرجال الشرطة السابقون ينصتون للكثير من الأمور بوجه عام.

أعطاها كأس النبيذ وأردف قائلًا: «أمور أسوأ بكثير مما تمرين به. أراهن على ذلك».

تناولت رشفة من النبيذ بصوت مسموع وقالت: «لا أريد أن أتحدث عن شيء في الواقع».

ثم فجأة التفتت إليه وقالت: «لا، بل أريد بالفعل. لقد توفي زوجي منذ أربع سنوات. مات. معظم من حولي لم يقووا على نطق الكلمة حينها والآن يطلبون مني أن أتجاوز. ليس لديَّ فكرة عن كيفية التجاوز. هناك فتاة قوطية في منزلي ولا أدري حتى لقب عائلتها. أنا مدينة بالنقود للجميع وذهبت اليوم إلى تلك الحانة لأنني لم أستطع البقاء في المنزل بمفردي وسرقت حقيبتي وبها مئتا جنيه استعرتها من بطاقة الائتمان كي أسدد الضرائب للمجلس، وحينما

سألتني عن أي شخص يمكن أن أحادثه كانت الوحيدة التي يمكن أن توفر لي فراشًا هي فران: المرأة التي تقطن في منزل صغير من الخشب أسفل بناية منزلي».

كان مشغولًا باستيعاب كلمة «زوج» حتى إنه بالكاد سمع بقية الكلام.

- حسنًا، أستطيع أن أوفر لك فراشًا.

طالعته ثانية بتلك النظرة الحذرة.

- فراش ابني. إنه ليس مريحًا للغاية. أعني أن أخي كان ينام عليه أحيانًا حينما أنهى علاقته السابقة وقال إنه عليه أن يبحث عن طبيب عظام منذ ذلك الحين، لكن على أي حال إنه فراش.

صمت لحظة ثم قال: «على أي حال أفضل من الصندوق الخشبي».

- حسنًا. أفضل قليلًا.

ابتسمت بتهكم وهي تنظر إلى الكأس: «إنني لم أكن لأحب الذهاب إلى منزلها أيضًا. فهي لم تدعوني لمنزلها مطلقًا».

- هذه وقاحة. إنني لا أريد أن أذهب إلى منزلها على أي حال. امكثي هنا وسأحضر لك فرشاة أسنان.

كانت ليف تعتقد في بعض الأحيان أنه يمكنها أن تحيا في عالم موازٍ، وقد يظن المرء أنه يتوقع ما هو قادم: أمضت ليلة سيئة أمام التلفزيون، وتناولت مشروبات في الحانة، حاولت الهروب من الماضي. وفجأة تحيد عن الطريق المرسوم نحو وجهة لا تدري عنها شيئًا مطلقًا. في الظاهر، يبدو الأمر ككارثة: حقيبة مسروقة، أموال ضائعة، زوج توفي، والحياة تسير بشكل خاطئ. ثم تجد نفسها تجلس في شقة صغيرة لرجل أمريكي ذي عينين زرقاوين وشعر رمادي يشبه الفراء والوقت يشارف على الثالثة صباحًا وهو يجعلها تضحك -ضحك خالص من القلب- كما لو أنه ليس لديها ما تقلق بشأنه في هذا العالم.

شربت كثيرًا، ثلاث كؤوس على الأقل منذ أن جاءت إلى هنا، والعديد في الحانة. لكنها وصلت إلى حالة نادرة ممتعة من الهدوء النفسي. إنها لم تشرب بكمية تجعلها تشعر بالغثيان أو الوهن. إنها مسرورة فقط وتريد أن تبقى معلقة وهائمة في تلك اللحظة الممتعة مع ذلك الرجل ووسط الضحكات والشقة الصغيرة المزدحمة التي لا تحمل أي ذكريات. تحدثا كثيرًا بصوت

عال قوي، وقد أخبرته كل شيء وتحررت بفعل الصدمة والكحول وحقيقة أنه شخص غريب عنها وربما لم تره ثانية. حكى لها عن أهوال الطلاق، وسياسات الشرطة وسبب عدم ملائمته للعمل بها، وافتقاده لنيويورك لكنه لن يستطيع العودة لها حتى يشب ابنه. كانت ترغب في أن تحكي له كل شيء لأنه بدا متفهمًا لكل شيء. حكت له عن حزنها وغضبها وكيفية نظرتها للأزواج الآخرين، ووجهة نظرها في عدم محاولة الارتباط ثانية لأنه لا أحد منهم في حالة سعادة، ولا حالة واحدة.

وضع بول كأسه جانبًا وقال: «إذًا فلدينا نصيرة ديفيد، من يقول عن هذا شخص فشلًا ذريعًا في علاقته. لقد تزوجت لمدة أربع سنوات، أليس كذلك؟».

- صحيح.
- لا أريد أن أبدو ساخرًا أو نحو ذلك، لكن ألا تعتقدين أنه واحد من الأسباب التي تجعله شخصًا مثاليًّا في ذهنك هو أنه توفي بالفعل؟ فالأشياء تبدو أكثر مثالية إذا ما انتهت قبل أوانها. فصناعة أيقونات الأفلام الذين يموتون تثبت ذلك.
- إذًا فأنت تقول إنه إذا عاش كنا سنشعر بعدم الرضى والملل كما هو الحال مع الآخرين؟
- ليس بالضرورة، لكن الاعتياد ووجود الأطفال والعمل وضغوط الحياة اليومية تقلل جميعها من مشاعر الرومانسية بالطبع.
- إنه صوت الخبرة.
- نعم، من المحتمل.

هزت رأسها بشدة: «لا، لم يحدث هذا بيننا».

شعرت بالحجرة تدور قليلًا.

- أوه، حبًّا بالله، لا بد أن هناك أوقاتًا شعرت خلالها بالسأم منه. الجميع على هذا الحال. حينما تذمر لأنك أنفقت النقود أو بسبب روائح كريهة صدرت منك أو لأنك تركت فرشاة الأسنان دون أن تعيدي الغطاء...

هزت ليف رأسها ثانية وقالت: «لماذا يفعل الجميع هذا؟ لماذا يصر كل شخص على أن يقلل من شأن الحياة التي عشناها معًا؟ أتدري؟ كنا نشعر

فقط بالسعادة. لم نتشاجر بشأن فرشاة الأسنان أو الروائح الكريهة أو أي شيء آخر. أحببنا بعضنا بعضًا. كنا سعداء».

غالبت دموعها وأدارت رأسها نحو النافذة وهي تحاول كتمانها. لن تبكي الليلة. لن تبكي.

سادت فترة طويلة من الصمت وحدثت نفسها قائلة: «تافه».

أتاها صوته من خلفها وهو يقول: «إذًا فأنت من الأشخاص المحظوظين».

استدارت نحوه ووجدته يمد يده ويقدم لها آخر ما تبقى في الزجاجة.

- محظوظين؟

- لا يحصل الكثيرون على مثل هذا الحب، حتى لو لفترة أربع سنوات. يجب أن تكوني ممتنة لهذا؟

ممتنة. انتابها شعور رائع حينما قالها على هذا النحو.

قالت بعد لحظات: «نعم، يجب أن أكون كذلك».

- في الواقع قصة كقصتك هذه تمنحني الأمل.

ابتسمت وقالت: «شيء رائع أن تقول هذا».

- إنها حقيقة. في نخب... ما اسمه؟

رفع بول كأسه.

- ديفيد.

- في نخب ديفيد أحد الرجال الصالحين.

ابتسمت ابتسامة عريضة غير متوقعة. ولاحظت بعض الدهشة في عينيه وقالت: «نعم في نخب ديفيد».

تناول بول رشفة من كأسه وقال: «تعرفين، هذه أول مرة أدعو فيها فتاة لمنزلي وينتهي بنا الأمر إلى أن نشرب في نخب زوجها».

مرة ثانية ازدادت ضحكاتها ونبعت من داخلها، زائر غير متوقع.

التفت إليها قائلًا: «تعلمين، كنت أريد أن أفعل ذلك طوال الليل». ثم مال نحوها وقبل أن يكون لديها الوقت لتوقفه، مد إبهامه ومسح برفق أسفل عينها اليسرى.

قال وقد أبقى إصبعه عاليًا: «لم أكن واثقًا من أنك تعرفين».

حدقت ليف إليه، وشعرت بشيء غير متوقع يسري بداخلها فيما يشبه المس الكهربائي. نظرت إلى يديه القويتين ذات النمش، وياقة قميصه وهي تلامس عنقه وأصبح عقلها خاويًا. وضعت الكأس جانبًا ومالت نحوه وقبل أن يتفوه بكلمة فعلت الشيء الوحيد الذي خطر على بالها، قبّلته. أطلقت العنان لنفسها، تسارعت أنفاسها وغرقت في بحر من المشاعر والكحول وعذوبة ذلك الإحساس بأن أحدهم يضمها إليه. يا إلهي... لكن هذا الرجل. كانت عيناها مغلقتين ورأسها يدور.

تراجع إلى الخلف، واستغرق الأمر ثانية لتدرك ذلك، فتراجعت هي الأخرى مبتعدة عنه بضعة سنتيمترات. هدأت أنفاسها في صدرها وتساءلت في داخلها. **من تكون؟**

نظر مباشرة إلى عينيها وطرف بعينه وقال: «تعرفين إنك رائعة... لكن لديَّ بعض المبادئ بشأن مثل هذه الأشياء».

شعرت ببعض التورم في شفتيها. قالت: «هل أنت في علاقة مع أحد».

- لا، إنني فقط...

ثم مرر يده خلال شعره ولكنه أطبق فكيه ثم أردف قائلًا: «ليف، لا تبدين أنك...».

- إنني ثملة.

- نعم، نعم، إنك كذلك.

تنهدت ثم قالت: «إنني من ذلك النوع الذي يفقد رشده حينما يشرب».

- عليك أن تكفي عن الحديث الآن... إنني أحاول أن أكون لطيفًا.

اتكأت بظهرها على وسائد الأريكة وقالت: «حقًّا هناك بعض النسوة اللاتي يتصرفن على نحو سيئ حينما يشربن».

- وإنك حقًّا شهي.

ظهرت بعض الشعيرات النابتة في لحيته وكأنها تنبههما بمجيء الصباح. انتابتها الرغبة في تمرير أصابعها فوق تلك الشعيرات الصغيرة وتشعر بخشونتها. مدت يدها نحوه لكنه تحول بعيدًا عنها.

وقف وأخذ نفسًا ولم ينظر إليها وهو يقول: «إنني ذاهب... حسنًا... إنني ذاهب، هذه غرفة ابني. إذا احتجت إلى تناول بعض الماء أو نحو ذلك، هناك صنبور به ماء».

حمل إحدى المجلات ووضعها ثانية ثم فعل الشيء نفسه مع مجلة أخرى وقال: «وها هي بعض المجلات إن رغبت في قراءة شيء. هناك الكثير منها».

لم يفلح هذا في منع شعورها، هي تريده بشدة كما لو أن جسدها يشع تلك الرغبة، إنها حتى يمكن أن تتوسل إليه الآن أن يبقى. ما زالت تشعر بحرارة يديه على خصرها ومذاق شفتيه. نظرا إلى بعضهما بعضًا للحظة. ترجته في صمت **لا تذهب... أرجوك لا تذهب.**

قال: «ليلة سعيدة ليف».

أطال النظر إليها ثم سار نحو الممر وأغلق الباب خلفه بهدوء.

استيقظت ليف بعد أربع ساعات لتجد نفسها في غرفة صغيرة بغطاء فراش مطبوع عليه شعار نادي أرسنال ورأسها يدق بشدة، حتى إنها مدت يدها لتتأكد من أن أحدًا لم يهاجمها. طرفت بعينيها ونظرت بعين لا يزال بها أثر النعاس نحو تلك المخلوقات الكرتونية اليابانية المعلقة على الحائط المقابل وذهنها يحاول ببطء استرجاع بعض المعلومات عن الليلة الماضية.

حقيبة مسروقة. أغمضت عينيها. يا إلهي.

فراش غريب. ليس معها مفاتيح المنزل. يا إلهي ليس معها مفاتيح ولا نقود. حاولت أن تتحرك لكن الألم كان يعصف برأسها لدرجة أنها كادت تصرخ.

ثم تذكرت الرجل. بيت؟ بول؟ رأت نفسها تسير عبر شوارع مهجورة في ساعات مبكرة، ثم بعدها رأت نفسها تنحني لتقبله. انسحابه المهذب. إنك شهي. قالت بنعومة: «يا إلهي». ووضعت يدها فوق عينيها وأردفت: «إنني لم...».

نهضت وتحركت نحو جانب الفراش ورأت سيارة بلاستيكية صفراء بالقرب من قدمها اليمنى. وحينما سمعت صوت باب يفتح ومياه الاستحمام تنهمر في الباب المجاور، جذبت حذاءها وسترتها وغادرت الشقة في صباح يضج بأصوات عالية متنافرة.

15

وقف الرئيس التنفيذي عاقدًا ذراعيه اللتين تغطيهما أكمام قميصه وقال: «يبدو الأمر وكأنه شبه احتلال». ثم ضحك بعصبية واستطرد: «هل الجميع يتصرفون على هذا النحو؟».

قالت: «نعم. إنها استجابة عادية».

كان حولها نحو خمسة عشر مراهقًا يركضون عبر البهو الواسع لشركة كوناجي لتداول الأوراق المالية، اثنان منهم -إدون وكام- كانا يقفزان إلى الوراء وإلى الأمام فوق الحواجز التي تمتد بمحاذاة الحائط الزجاجي متكئين على أيديهم العريضة كي تحمل أوزانهم لأعلى وأحذيتهما الرياضية البيضاء اللامعة تصدر صريرًا كلما ارتفعوا عن الأرضيات المصنوعة من الحجر الجيري. وانطلقت مجموعة أخرى منهم نحو البهو الرئيسي يتمايلون ويضحكون بصوت عال عند جوانب الممرات المتوازية بدقة وهم يشيرون نحو أسماك الكوي الملونة التي تسبح بهدوء في أحواض متعددة الزوايا.

سألهم الرئيس التنفيذي: «هل هم دومًا مزعجون هكذا؟».

وقفت إيبولا -العاملة الشابة- بجانب ليف وقالت: «نعم، نحن نمنحهم دومًا عشر دقائق لكي يتكيفوا مع المكان وسوف يهدؤون بعدها سريعًا بطريقة مدهشة».

- لكن ألن يتلفوا شيئًا؟

راقبت ليف كام وهو يجري بخفة بجانب سور خشبي مرتفع ويشب على أطراف أصابعه في نهايته ثم قالت: «ولا مرة واحدة. فمن بين قائمة الشركات

السابقة التي أعطيتها لك، لم يكن هناك أي تلفيات أكثر من مجرد نزع بعض قطع السجاد».

أردفت قائلة وهي ترى تعبيرات وجهه التي تنم عن عدم تصديقه لما تقول: «تذكر أن الطفل البريطاني العادي يعيش في منزل لا تتعدى مساحته ستة وسبعين مترًا مربعًا». أومأت برأسها وأكملت قائلة: «ومثل هؤلاء ربما يعيشون في مساحة أقل من هذا بكثير، لذا حينما تطلق لهم العنان في مكان جديد فسيرغبون في فعل شيء جديد. وكما ترى فإن المكان سيستوعبهم بشكل جيد».

تنظم مؤسسة ديفيد هالستون -وهي جزء من جمعية المهندسين المعماريين سولبيرج هالستون- رحلة للأطفال من الفئات المحرومة ليزوروا المباني ذات الأشكال المعمارية المتميزة. كان ديفيد يؤمن بأن الصغار لا ينبغي أن يتعلموا كل شيء بشأن البيئة السكنية فحسب، بل ينبغي أن ينطلقوا بها، ويستغلوا المكان على النحو الذي يريدونه ويفهموا الفائدة من ورائه. كان يريدهم أن يستمتعوا به. ما زالت تتذكر المرة الأولى التي شاهدته وهو يتحدث عن ذلك مع إحدى المجموعات من الأطفال البنغاليين الذين يعيشون في حي وايت تشابل Whitechapel.

سألهم وهو يشير نحو الإطار الضخم: «ماذا يقول هذا المدخل حينما تدلف منه؟».

قال أحدهم: «النقود». وضحك الجميع.

قال ديفيد وهو يبتسم: «هذا بالفعل ما يفترض أن يقوله. هذه إحدى شركات سمسرة الأوراق المالية، وهذا المدخل بأعمدته الرخام والنقوش الذهبية يقول لك: أعطنا نقودك وسوف نجلب لك المزيد منها. يقول ذلك بأكثر الأساليب وقاحة، نحن نعرف كل شيء عن أموالك».

دفع أحد الصبية زميله قائلًا: «لذا مدخل منزلك يبلغ ثلاثة أقدام نيخيل». ثم انفجر الاثنان في الضحك.

لكن الأمر نجح. رأت أنه نجح منذ ذلك الحين، فقد جعلهم ديفيد يفكرون بشأن المكان من حولهم، وهل المكان يشعرهم بالحرية، أو الغضب، أو الحزن، وكيف أن الضوء والمكان يتحركان وكأنهما كائنات حية حول المباني الغريبة.

قال: «سوف يرون أن هناك بديلًا للصناديق الصغيرة التي يعيشون فيها، وسيدركون أن بيئتهم تؤثر على مشاعرهم».

ومنذ أن توفي أدت دور ديفيد بموافقة سفين، والتقت بمديري الشركات لتقنعهم بفوائد هذا النظام وتشركهم فيه. لقد ساعدها على تخطي الشهور الأولى من وفاته حينما كانت تشعر أنه لا جدوى من وجودها. والآن أصبح هو الشيء الوحيد الذي تفعله كل شهر وتتطلع إليه بشدة.

- آنسة، هل يمكن أن نلمس الأسماك؟

- لا، للأسف ممنوع اللمس. هل الجميع هنا معنا؟

انتظرت حتى أحصت أبيولا أعدادهم سريعًا.

- حسنًا. سنبدأ هنا. أريدكم جميعًا أن تقفوا هادئين هنا لمدة عشر ثوانٍ وتخبرونني بما تشعرون حيال هذا المكان؟

قال أحدهم بعد أن توقفت الضحكات: «شعور بالسلام النفسي».

- لم؟

- لا أدري. إنها المياه، وصوت شلال المياه هذا. إنه باعث على السكينة.

- الشيء الآخر الذي يجعلك تشعر بالسكينة؟

- السماء، لأنه لا يوجد بها سقف.

- لقد نفدت نقودهم هنا.

المزيد من الضحكات.

- وحينما تخرج، ما أول شيء تفعله؟ لا، ليس هذا دين، أعلم ما ستقوله، لكنه ليس هو الإجابة الصحيحة.

- آخذ نفسًا عميقًا. أتنفس.

- فيما عدا أن الهواء الذي نستنشقه مليء بالملوثات. ربما هذا الهواء يمر من خلال فلاتر التنقية وما شابه.

- إن المكان مفتوح لا يمكن تنقية الهواء فيه.

- على الرغم من هذا فأنا أتنفس. أتنفس بعمق. أنا أكره الأماكن الصغيرة المغلقة. حجرتي ليست بها نوافذ فأنام وباب الغرفة مفتوح، وإن لم أفعل أشعر وكأنني أنام في نعش.

- حجرة أخي ليست بها نافذة، لذا أحضرت له أمي ملصقًا مرسومًا عليه صورة نافذة.

شرعوا في مقارنة غرف نومهم. أحببت هؤلاء الأطفال وشعرت بالخوف حيالهم. فقصص الحرمان العابرة التي يلقون بها في طريقها تكشف عن أن تسعة وتسعين بالمئة من حياتهم يمضونها في ميل مربع أو اثنين، تحبسهم القيود المادية أو الخوف الحقيقي من العصابات المنافسة أو الدخول غير المشروع للبلاد.

إن هذا العمل الخيري بمنزلة شيء صغير. هو فرصة تجعلها تشعر بأن حياة ديفيد لم تذهب سدى، وأن أفكاره مستمرة. في بعض الأحيان يظهر بعض الأطفال البارعين -أطفال تستوعب أفكار ديفيد تمامًا- فتحاول أن تساعدهم بطريقة ما، وتتحدث إلى معلميهم أو تنظم بعض المنح من أجلهم. بل إنها حتى تقابل والديهم كثيرًا. وها هو واحد من أولئك الذين كان يرعاهم ديفيد في البداية سيحصل على درجة علمية في هندسة العمارة والمؤسسة هي التي تولت دفع مصروفاته.

لكن الأمر بالنسبة لمعظمهم كان مجرد نافذة يطلون منها على عالم مختلف، ساعة أو ساعتان يمارسون خلالهما مهارات الوثب من خلال القفز على الدرج والأسوار وفي الردهات الرخامية. إنها فرصة ليروا ما بداخل بيئة المال حتى وإن كان تحت أعين الأثرياء المندهشة الذين أقنعتهم بالسماح لهم بالدخول.

- هناك دراسة أجريت منذ عدة سنوات مضت أظهرت خلالها أن التقليل من قدر المساحة المخصصة لكل طفل من خمسة وعشرين إلى خمسة عشر قدمًا مربعًا، تجعل الطفل أكثر عدوانية وأقل ميلًا إلى التفاعل مع الآخرين. ما رأيكم في هذا؟

قال كام وهو يتمايل عند طرف السور: «عليَّ أن أشارك غرفتي مع أخي ومعظم الوقت أود أن أضربه، فهو دائمًا ما يضع أشياءه بجانبي».

- إذًا ما الأماكن التي تشعرك بالارتياح؟ هل هذا المكان يشعرك بالارتياح؟
- إنه لا يجعلني أشعر بالقلق.
- إنني أحب النباتات، النباتات ذات الأوراق الكبيرة.

- يا رجل، إنني أحب أن أجلس هنا وأنظر إلى الأسماك، هذا المكان غاية في الراحة.

صدرت همهمات تنم عن الموافقة.

- ثم سأمسك بإحداها وأجعل أمي تطهو بجانبها بعض الرقائق. أليس كذلك؟

ضحك الجميع. نظرت ليف إلى إيبولا وابتسمت هي الأخرى رغمًا عنها.

نهض سفين أمام مكتبه ليرحب بها وقال: «هل سارت الأمور على ما يرام؟». قبلت وجنتيه ووضعت حقيبتها وجلست أمامه على مقعد أبيض من الجلد من تصميمات إيمس Eames. أصبحت عادة روتينية الآن أن تأتي إلى شركاء مجموعة سولبرج هالستون بعد كل جولة لتناول القهوة وتقديم تقرير عنها. ودائمًا ما ينتابها التعب بعد كل جولة بصورة أكثر مما تتوقع.

- بشكل رائع. بمجرد أن أدرك السيد كوناجي أنهم لن يقفزوا في الأحواض الموجودة في البهو، أصبح متحمسًا على ما أعتقد ومكث بجوارهم وراح يتحدث إليهم. أظن أنه بمقدوري أن أقنعه بتقديم بعض الدعم المالي.

- عظيم، هذه أخبار جيدة. اجلسي وسأعد لك بعض القهوة. كيف حالك؟ كيف حال عمتك المريضة بمرض خطير؟

نظرت إليه وعيناها خاليتان من أي تعبيرات.

- عمتك؟

احمرت وجنتاها قليلًا وهي تقول: «أوه نعم، ليس الأمر سيئًا للغاية. أصبحت أفضل».

مد لها سفين يده بالقهوة وعيناه مثبتتان عليها للحظة أطول. أصدر مقعده صوت صرير وهو يجلس ثانية.

- اغفري لكريستين، فقد كانت متحمسة بعض الشيء. لقد قلت لها إن هذا الرجل أبله.

غمزت له بعينيها وقالت: «أوه، أكان هذا واضحًا؟».

- ليس بالنسبة لكريستين. هي لا تعلم أن مرض الإيبولا لا يشفى بإجراء عملية جراحية.

ثم ابتسم حينما تذمرت.

- لا تلق بالًا لما حدث. روجر فولدز رجل أحمق. على الأقل إنه لشيء جيد أن نراك تخرجين ثانية.

خلع نظارته واستكمل حديثه قائلًا: «حقًا. عليك أن تفعلي ذلك كثيرًا».

- حسنًا، بدأت أفعل ذلك مؤخرًا.

احمر وجهها حينما تذكرت ليلتها مع بول مكفرتي. وجدت نفسها تسترجع تلك الليلة باستمرار خلال الأيام الماضية وتفكر كثيرًا في أحداثها وتحاول إيجاد تفسير لما حدث كلسان حائر وسط أسنان مقلقلة. ما الذي جعلها تتصرف على هذا النحو؟ ماذا قال عنها؟ ثم تذكرت تلك الارتعاشة المفاجئة، وآثار قبلته. كانت تشعر حينها ببعض البرودة من فرط الارتباك رغم اشتعالها ببعض الرغبة جراء انطباع تلك القبلة على شفتيها. كانت تشعر وكأن جزءًا بعيدًا في داخلها قد عاد مرة أخرى للحياة. كان الأمر باعثًا على الإحراج.

- ما أخبار جولدستاين؟

- أوشكنا على الانتهاء. هناك بعض المشكلات فيما يتعلق بقوانين البناء لكن كدنا ننتهي من حلها. على أي حال، الإخوة جولدستاين سعداء بالأمر.

كان مبنى جولدستاين من أحد أحلام ديفيد التي يسعى لتحقيقها؛ مبنى ضخم من الزجاج الطبيعي يمتد تقريبًا لنحو كيلو مربع على أطراف المدينة. كان يعكف على العمل من أجل إنجازه خلال سنتين من زواجهما ويحاول إقناع الإخوة جولدستاين الأثرياء لمشاركته رؤيته الجريئة من أجل تشييد مبنى يختلف تمام الاختلاف عن القلاع الخرسانية متعددة الزوايا التي تمتد من حولهم، وكان لا يزال يعمل به حتى قبل وفاته. أخذ سفين المخطط وأشرف عليه خلال مراحل التنفيذ والآن يدير مرحلة البناء الفعلية. واجه تشييد هذا المبنى الكثير من الصعوبات، فقد تأخر شحن الخامات من الصين، وجاء الزجاج مختلفًا عن النوع المطلوب، الأساسات أثبتت عدم ملاءمتها لتربة لندن الطينية. والآن -أخيرًا- شُيِّد كما هو مخطط له وكل لوح زجاج يلمع وكأنه قشور لثعابين ضخمة.

فتش سفين في بعض المستندات الموضوعة على مكتبه والتقط صورة وأعطاها إياها. نظرت إلى المبنى الضخم الذي يحيط به لوحات إعلانات زرقاء. كان يمثل عمل ديفيد على نحو لا يمكن وصفه.

لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام وقالت: «سيكون مبنى رائعًا».

- أود أن أخبرك أنهم سيضعون لوحة تذكارية في البهو لإحياء ذكراه.

شعرت بغصة في حلقها وقالت: «حقًا؟».

- نعم، أخبرني بذلك جيري جولدستاين الأسبوع الماضي؛ فهم يرون أنه من الجيد تخليد ذكرى ديفيد بطريقة ما. إنهم مولعون به.

جعلتها تلك الفكرة تهدأ.

- إنها فكرة رائعة.

- أعتقد هذا. هل ستأتين الافتتاح؟

- أود ذلك.

- عظيم. وماذا عن أمورك الأخرى؟

ارتشفت قهوتها. كانت دومًا تشعر ببعض الخجل حين تتحدث عن حياتها إلى سفين كما لو أن افتقاد بعض جوانبها شيء لا يملك المرء حياله إلا الشعور بالخيبة.

- وجدت رفيقة سكن وهو شيء مشوِّق، ولا أزال أمارس رياضة الجري، أحوال العمل هادئة.

- كم هي سيئة حالتك!

حاولت أن تبتسم وقالت: «حقًا؟ ربما أحصل على المزيد من الربح في ورشة عمل البنغاليين».

نظر سفين إلى يديه وقال: «ألا تعتقدين أنه قد آن الأوان للبدء في شيء جديد؟».

- إنني لست مؤهلة لفعل أي شيء آخر.

أدركت منذ فترة طويلة أنها لم تكن بالخطوة الحكيمة أن تتخلى عن عملها وتكون تابعة لديفيد خلال فترة زواجهما. ففي الوقت الذي كان فيه أصدقاؤها يبنون مستقبلهم المهني ويمضون أوقاتًا طويلة في مكاتبهم تصل إلى اثنتي

عشرة ساعة، كان كل ما تفعله هي هو السفر بصحبته إلى باريس وسيدني وبرشلونة. لم يكن بحاجة إلى عملها. كان يبدو من الغباء حينها أن تبتعد عنه طوال الوقت. وفيما بعد لم تعد تصلح للكثير من الأعمال، وظلت هكذا لفترة طويلة.

- اضطررت إلى رهن المنزل العام الماضي، والآن لا أستطيع تسديد الأقساط.

تفوهت بهذا المقطع الأخير مثل شخص يعترف بخطيئته.

لكن لم تبدُ الدهشة على سفين.

- تعرفين... إن كنت تريدين بيعه من السهل أن أجد لك مشتريًا.

- بيعه؟

- إنه منزل كبير للعيش فيه بمفردك... لا أدري. إنك منعزلة وحدك هناك ليف. لقد كان شيئًا رائعًا حينما اكتسب ديفيد الخبرة من خلاله، وكان مأوى جميلًا لكما معًا. لكن ألا تعتقدين أنه يجب أن تعودي ثانية لتكوني في خضم الأحداث؟ في مكان أكثر حيوية؟ شقة لطيفة في وسط نوتينج هيل Notting Hill أو كلير كينويل Clerkenwell.

- لا أستطيع بيع منزل ديفيد.

- لم لا؟

- لأنه من الخطأ أن أفعل هذا.

لم يشأ أن يوضح لها أمورًا تعلمها، لم يكن بحاجة إلى هذا؛ كان ذلك واضحًا في الطريقة التي اتكأ فيها بظهره للوراء على مقعده وحينما أغلق فمه فلم تخرج منه الكلمات.

قال وهو يميل إلى الأمام على مكتبه: «حسنًا. إنني فقط أطرح الأفكار».

تحركت من خلفه آلة رافعة ضخمة تحمل العوارض الحديدية التي تشق طريقها في السماء لتنتقل نحو سقف يشبه الكهف على الجانب الآخر من الطريق. حينما انتقلت جمعية المعماريين سولبرج هالستون إلى هنا منذ خمس سنوات، كان المنظر الذي تطل عليه عبارة عن مجموعة من المتاجر المتداعية -كمكتب للمراهنات، ومغسلة للملابس، ومتجر للملابس المستعملة- وجدرانها من الطوب البني المتسخ ونوافذها معتمة نتيجة ترسب الرصاص

والقاذورات لسنوات. الآن أصبح المكان عبارة عن أرض فضاء. ربما قد تأتي المرة القادمة ولا تستطيع التعرف على المكان.

قالت سريعًا: «كيف حال الأطفال؟».

وهنا غير سفين الذي يعرفها منذ سنوات دفة الحوار ببراعة.

كان قد انقضى تقريبًا نصف الاجتماع الذي يعقدونه شهريًّا حينما لاحظ بول أن مريام -السكرتيرة المشتركة بينه وبين جاني- لا تجلس على مقعد وإنما على صندوقين كبيرين من الملفات. جلست مريام بطريقة غريبة وهي تثني ساقيها في محاولة للإبقاء على الطول المناسب لتنورتها وظهرها يستند إلى المزيد من الصناديق.

في وقت ما في منتصف التسعينيات، أصبح استعادة القطع الفنية المسروقة من الأعمال التجارية الضخمة. لم يكن أحد يتوقع هذا في شركة تريس أند ريترن Trace and Return التعقب والاسترجاع، لذا -ولمدة خمسة عشر عامًا- تعقد الاجتماعات بصورة متزايدة في مكتب جاني الضيق -حيث تصطدم الأيدي بأكوام من الملفات، وصناديق من الفاكسات والنسخ الضوئي- أو في المقهى المحلي بالأسفل إذا ما اشترك فيها العملاء.

كان يقول لها دومًا إنه ينبغي البحث عن مقر جديد. وفي كل مرة تنظر إليه جاني كما لو أنها المرة الأولى التي تسمعه فيها يقول ذلك وتوافقه بأنها فكرة جيدة، لكنها لا تفعل شيئًا حيالها.

وقف بول وهو يقدم لها كرسيه قائلًا: «مريام؟ إليك هذا؟».

قالت: «إنني بخير هكذا». ثم ظلت تومئ برأسها كما لو أنها تؤكد ذلك لنفسها.

قال: «إنك تجلسين على ملف منازعات لم يتم تسويتها 1996». وكان يريد أن يضيف «أستطيع أن أرى من بين تنورتك».

- حقًّا إنني أشعر بالراحة هكذا.

- مريام، يمكنني أن...

عدلت جاني من وضع منظارها وقالت: «بول، مريام بخير بالفعل».

- نعم، إنني في وضع مريح حقًّا.

ظلت تومئ برأسها حتى أشاح بوجهه بعيدًا عنها. جعلته يشعر بالضيق.

- إذًا، هذا ما وصلنا إليه بالنسبة للموظفين وموضوعات المكتب. والآن ماذا لدينا من قضايا؟

شرع شون في مراجعة سريعة للبرنامج الزمني القادم للأعمال وكان كالتالي: اتصال مع الحكومة الإسبانية لإعادة أعمال مسروقة للرسام الإسباني فيلاسكيز Velázquez إلى جامع تحف خاص، وعمليتا استرداد تماثيل شهيرة واحتمالية إضافة بعض التغييرات القانونية لمطالبات استرداد. اتكأ بول بظهره للوراء على مقعده وأسند القلم الحبر إلى مفكرته.

ها هي تخطر على باله ثانية بضحكتها الحزينة، وانفجارها في الضحك بشكل مفاجئ، وحزنها الذي تفصح عنه تلك الخطوط الصغيرة التي ارتسمت حول عينيها. **إنني من ذلك النوع الذي يفقد رشده حينما يشرب.**

لم يرغب في أن يعترف لنفسه بكم الخيبة التي أصابته حينما خرج من دورة المياه ذلك الصباح ووجدها قد غادرت المكان ووجد غطاء فراش ابنه مرتبًا ومكان الفتاة خاويًا. لم تترك رسالة أو رقم تليفون. لم تترك أي شيء.

سأل أخاه جريج عنها بشكل عرضي حينما كان يحدثه ذلك المساء: «أهي تتردد بانتظام على المكان؟».

- لا، لم أرها من قبل. آسف إن كنت أجبرتك على التعامل معها بهذا الشكل.

قال له: «لا عليك».

لم يهتم بأن يخبر أخاه أن ينتبه في حال إن عاودت مرة أخرى، فهناك شيء بداخله أخبره أنها لن تفعل.

جذب أفكاره ثانية نحو المفكرة ذات الورق المتوسط التي أمامه وقال: «حسنًا، كما تعلمون لقد أعدنا لوحة نوفيكي وستعرض في المزاد وهو شيء مربح».

تجاهل نظرة التحذير في عيني جاني واستطرد قائلًا: «في بداية هذا الشهر كان لديَّ اجتماع بشأن جمع التماثيل من دار مزادات بونهامز، وكذلك تعقب لإحدى رسومات لوري Lowry التي سرقت من أحد المنازل الفخمة في مقاطعة أيرشاير Ayrshire». ثم تصفح أوراقه واستكمل: «وهناك العمل

الفني الذي سرق خلال الحرب العالمية الأولى وظهر في منزل أحد المهندسين المعماريين في لندن، وإنني أتخيل -بالنظر إلى قيمته- أنهم لن يتخلوا عنه دون نزاع، ولكن ستتضح الأمور إن استطعنا أن نثبت أنه سرق منذ البداية. شون ستحتاج إلى البحث بشأن القضايا السابقة عن السرقات التي وقعت أثناء الحرب العالمية الأولى حال إذا ما احتجنا إليها».

سجل شون تلك الملاحظة.

- بعيدًا عن هذا. حصلت الشهور الماضية على القضايا الأخرى التي أطرحها الآن وتحدثت إلى بعض شركات التأمين عن ما إذا كنا نحتاج إلى الاشتراك في سجل جديد للأعمال الفنية المفقودة.

قالت جاني: «سجل آخر؟».

قال بول: «بسبب قلة نشاط اتحاد الفنون والآثار Art and Antiques Squad، ويشعر أصحاب شركات التأمين بالقلق».

- ربما تكون أخبارًا جيدة لنا أيضًا. إلى أين توصلنا بشأن أعمال الرسام ستابس Stubbs؟

ضغط بول على طرف قلمه وقال: «وصلنا إلى طريق مسدود».

- شون؟

- إنها قضية صعبة. إنني أبحث عن سوابق قضايا ولكنها قد تصل إلى المحكمة.

أومأت جاني بالموافقة ثم نظرت نحو هاتف بول الجوال.

قال: «آسف للمقاطعة». ثم جذبه من جيبه ونظر إلى الاسم وأردف قائلًا: «فلتسمحوا لي، يجب أن أجيب على هذه المكالمة. شيري مرحبًا».

شعر بعيني جاني تحدق إليه بينما كان يتخطى فوق أرجل زملائه متجهًا إلى مكتبه. أغلق الباب خلفه وقال: «فعلتِ حقًا؟ اسمها؟ ليف... لا، هذا كل ما أعرفه. هي ذي. هل يمكنك وصفها؟ نعم، يبدو من الوصف أنها هي. شعرها مائل إلى البني الفاتح، ربما شقراء، ويصل إلى كتفها وتعقصه على شكل ذيل حصان... الهاتف... المحفظة. لا أدري ما كان بها غير ذلك. لا عنوان؟ لا أدري. بالقطع... هل تسدين لي معروفًا شيري؟ هل يمكن أن آخذها؟».

نظر عبر النافذة.

- نعم، نعم. أعرف. أدركت لتوي، أعتقد أنني أعرف جيدًا كيف سأعيدها لها.

- مرحبًا.
- هل ليف المتحدثة؟
- لا.

صمت هنيهة ثم أردف: «أهي موجودة؟».

- هل أنت محضر قضائي؟
- لا.
- هي لست هنا.
- أتعرفين متى ستعود؟
- هل أنت واثق أنك لست محضرًا قضائيًّا؟
- أؤكد لك أنني لست محضرًا. لديَّ حقيبتها.
- هل أنت لص حقائب؟ لأنك إن كنت تريد ابتزازها فإنك تضيع وقتك.

جذب ياقة قميصه في عصبية وقال: «إنني لست لص حقائب أو محضرًا قضائيًّا. أنا مجرد شخص عثر على حقيبتها وأحاول إعادتها إليها».

سادت لحظة صمت طويلة.

- كيف عثرت على الرقم؟
- كان على هاتفي حينما استعارته كي تطلب رقم منزلها.
- أكنت بصحبتها؟

شعر ببعض السعادة وتردد بعض الشيء قبل أن يجيب محاولًا ألا يبدو مهتمًّا: «لم تسألين، هل ذكرت لك شيئًا عني؟».

- لا، إنه مجرد تطفل. أنصِت إلي، إنها في رحلة عملها السنوية، فيمكن أن تمر من هنا في الرابعة بعد عودتها وإن لم تجدها حينها سآخذها أنا منك.

كان بجوارها صوت مياه تغلي في الغلاية.

- ومن أنت؟

سادت فترة صمت طويلة مليئة بالشك ثم قالت: «إنني السيدة التي تأخذ الحقائب المسروقة نيابة عن ليف».

- حسنًا، ما العنوان؟

- إنك لا تعرفه؟

ساد الصمت مرة أخرى.

- إذًا تعال وانتظر عند ناصية شارع أودلي Audley وباكر لين Packer lane وسيقابلك أحدهم هناك.

- إنني لست لص حقائب.

كان يستطيع أن يستشف أفكارها.

- لقد قلت ذلك مرارًا. هاتفني حينما تصل، وإذا لم يجب أحد أعطها إلى السيدة الموجودة في بيوت الكرتون عند الباب الخلفي، اسمها فران. وإذا ما قررنا أن نقابلك فلا نريد أي أفعال قذرة، فبحوزتنا بندقية.

وقبل أن يتفوه بشيء كانت قد أغلقت الهاتف. جلس أمام مكتبه يحدق إلى الهاتف.

دخلت جاني إلى مكتبه دون استئذان. بدأ يشعر بالضيق من هذا التصرف الذي جعله يعتقد أنها تحاول أن تضبطه في أثناء فعل شيء.

- بالنسبة للوحة ليفيفر. ألم نرسل الخطاب التقديمي بعد؟

- لا، إنني ما زلت أجري تحريات عما إذا كانت عُرضت بالمعارض أم لا.

- هل حصلنا على عنوان المالك الحالي؟

- إن المجلة لا تحتفظ بسجلات للعناوين، لكن لا بأس سأرسل إليه عن طريق مكان عمله، إن كان مهندسًا معماريًّا لن يكون من الصعب العثور عليه لأنه من المحتمل أن تكون الشركة باسمه.

- حسنًا، لقد تلقيت رسالة تفيد بأن المدعين سيأتون إلى لندن في غضون أسابيع ويريدون عقد اجتماع، وسيكون من الرائع أن نحصل على إجابة مبدئية قبل ذلك. هل يمكن أن تحدد لي موعدًا للاجتماع؟

- سأفعل.

حدق إلى جهازه بشدة بالرغم من أنه لا يظهر أمامه سوى شاشة التوقف حتى فهمت جاني تلميحه وغادرت.

عادت مو إلى المنزل. ومن الغريب أن حضورها لم يكن مزعجًا بالنظر إلى شعرها وملابسها شديدي السواد على نحو مخيف. كانت تستيقظ أحيانًا في السادسة وتسمعها وهي تتجول في المكان حيث تتأهب للمغادرة من أجل مناوبة الصباح في منزل الرعاية. وجود شخص آخر بالمنزل كان أمرًا يبعث على الراحة بشكل غريب.

كانت مو تطهو كل يوم أو تحضر معها طعامًا من المطعم وتترك الصحون المغطاة بورق الألومنيوم في الثلاجة وتكتب التعليمات على طاولة المطبخ: «يسخن لمدة أربعين دقيقة على درجة حرارة 140. هذا يعني **إشعال الفرن، وعليك بالانتهاء من هذا بالغد، إنه سوف يقفز من الوعاء ويقتلنا»**. لم يعد المنزل يفوح برائحة السجائر لدرجة أن ليف شكت في أن مو تدخن في السطح بين الحين والآخر لكنها لم تسألها.

اتبعت الاثنتان نظامًا يوميًا، حيث تستيقظ ليف في موعدها المعتاد وتتجه للسير في ممرات المشي المرصوفة، قدمها تدق الأرض ورأسها مشوش. كانت تتوقف لتشتري القهوة وتصنع الشاي لفران وتتناول الخبز المحمص ثم تجلس أمام المكتب وتحاول ألا تقلق بشأن قلة العمل. لكنها الآن أصبحت تتطلع إلى صوت المفتاح وهو يدور في القفل في الساعة الثالثة صباحًا؛ موعد وصول مو إلى المنزل. لم تعرض مو أن تدفع أي مبلغ من أجل الإيجار ولم تكن متأكدة إن كانت أي منهما تريد أن تعتبر أن هناك اتفاقًا رسميًا، لكن في اليوم الذي عرفت فيه بأمر حقيبة ليف، وجدت كومة من النقود المطوية وبجانبها ورقة كتبت عليها: إنها من أجل ضرائب المجلس المطلوبة بشكل عاجل ولا تنزعجي من هذا.

لم تشعر ليف بأي نوع من الانزعاج حيال هذا، فلم يكن لديها خيار.

كانتا تحتسيان الشاي وتقرآن جريدة لندن المجانية حينما رن الهاتف. رفعت مو بصرها عن الجريدة ككلب صيد يشم الهواء، ثم نظرت إلى الساعة وقالت: «أوه، أعرف من يكون».

عادت ليف لقراءة الجريدة وأكملت مو قائلة: «إنه الرجل الذي معه حقيبتك».

توقفت عن تناول قدح القهوة الذي ظل معلقًا في يدها وقالت: «ماذا؟».

- نسيت أن أخبرك. لقد هاتفني من قبل وطلبت منه أن ينتظرنا عند ناصية الشارع ونحن سننزل لنلقاه.

- أي نوع من الرجال؟

- لا أدري، لكنني تأكدت أنه ليس محضرًا قضائيًّا.

- يا إلهي! أهي معه بالتأكيد؟ هل تعتقدين أنه سيطلب مكافأة؟

ثم راحت تفتش في جيوبها. لم يكن معها سوى أربعة جنيهات نقدية وبعض العملات المعدنية، وقد أخرجتها ووضعتها أمامها.

- ليسوا بالقدر الكافي، أليس كذلك؟

- باستثناء الخدمات الجنسية، إنه كل ما لديك تقريبًا.

- نعم، أربعة جنيهات.

اتجهتا نحو المصعد وليف تمسك بالنقود. ابتسمت مو.

- ما الأمر؟

- إنني أفكر في أمر ما، سيكون من الطريف أن نسرق حقيبته.

ثم ضحكت ضحكة مكتومة وقالت: «لقد سرقت بعض الطبشور من مكتب بريد، كان لديَّ سجل إجرامي».

صدمت ليف من حديثها.

تجهم وجه مو وقالت: «ماذا بك، لقد كنت في السابعة».

شرعت ليف في الحديث وقالت: «مو...». لكن ما إن خطت خارج المدخل الرئيسي ورأت الرجل الذي يقف عند الناصية، ولون شعره والطريقة التي يمرر بها يده على مقدمة رأسه حتى استدارت عائدة سريعًا وقد احمرت وجنتاها.

- ماذا؟ إلى أين أنت ذاهبة؟

- لا أستطيع الخروج الآن.

- لمَ؟ أستطيع أن أرى حقيبتك. مظهره جيد، لا يبدو أنه لص، إنه ينتعل حذاء واللصوص لا ينتعلون أحذية.

- هل يمكن أن تأتي بها إليَّ؟ صدقيني لا أستطيع التحدث إليه.

تفرستها مو وقالت: «لماذا؟ ولماذا احمر وجهك هكذا؟».

- اسمعيني، لقد مكثت في منزله والأمر محرج.

- يا إلهي! لقد فعلتها مع هذا الرجل؟

- مو، لم أفعل شيئًا.

نظرت إليها بطرف عينها وقالت: «لقد فعلتِها أو كنت تريدين. كنت تريدين، لقد كشفتك».

- مو، هل يمكن أن تأتي لي بالحقيبة؟ أرجوك. أخبريه أنني لست بالمنزل.

وقبل أن تتفوه مو بشيء كانت قد عادت للمصعد وضغطت على الزر حتى يقلها إلى الطابق الأعلى وكانت الأفكار تدور في رأسها. وحينما وصلت إلى المنزل أسندت جبهتها إلى الباب واستمعت إلى دقات قلبها التي تتردد في أذنيها.

حدثت نفسها قائلة: «إنني في الثلاثين من عمري».

انفتح باب المصعد من خلفها.

- يا إلهي، أشكرك مو.

كان بول مكفرتي هو الذي أمامها.

قالت بغباء: «أين مو؟».

- هل هذه رفيقة السكن؟ إنها مثيرة للاهتمام.

لم تستطع الحديث فقد تورم لسانها حتى ملأ فمها. وضعت يدها على شعرها وأدركت أنها لم تغسله.

قال: «على أي حال، مرحبًا».

- مرحبًا.

- إنني بارع في العثور على الأشياء، إنها مهنتي.

- نعم، الشرطي السابق. أشكرك حقًّا.

- إن كنت مهتمة بمعرفة ما حدث، لقد كانت في سلة مهملات بجانب اثنين آخرين خارج مكتبة كلية لندن الجامعية University College

Library. عثر عليها الحارس وسلمها وللأسف فقدت البطاقات والهاتف... لكن الأخبار الجيدة أن النقود ما زالت موجودة بها.

- ماذا؟

- نعم، شيء غريب. مئتا جنيه لقد تفحصتها.

غمرها الارتياح مثلما يغمرها حينما تأخذ حمامًا ساخنًا.

- حقًّا تركوا النقود؟ لا أفهم؟

- ولا أنا. أعتقد أنها سقطت من حافظة النقود حينما فتحوها.

أخذت الحقيبة وفتشت فيها، استقرت في قاعها مئتا جنيه بجانب فرشاة شعر والكتاب الورقي الذي كانت تقرأ فيه ذلك الصباح وقلم أحمر شفاه وحيد.

- لم أسمع بشيء كهذا من قبل، مع ذلك لقد عاد بالفائدة أليس كذلك؟ لا داعيَ للقلق بشأن هذا الأمر بعد الآن.

ابتسم لها ولكنها لم تكن ابتسامة تنم عن التعاطف مع امرأة ثملة أرادت أن تدخل في علاقة، لكنها ابتسامة شخص شعر بالسعادة الحقيقية بسبب شيء حدث.

وجدت نفسها تبادله الابتسام.

- هذا شيء رائع. إذًا هل يمكن أن أحصل على الجنيهات الأربعة؟

نظرت إليه بطرف عينيها فضحك وقال: «لقد أخبرتني مو».

ثم نظر نحو قدميه للحظة وأردف قائلًا: «ليف، هل ترغبين في أن نخرج معًا في وقت ما؟».

حينما لم تجب أضاف قائلًا: «إنه ليس بالأمر الصعب، فلن نشرب أي كحوليات ولن نذهب إلى أي حانة، فسوف نتجول معًا فقط ونمسك بمفتاح الباب ولن نجعل أحدًا يسرق حقيبتنا».

قالت بصوت خفيض وقد وجدت نفسها تبتسم ثانية: «اتفقنا، يسرني ذلك».

راح بول مكفرتي يصفر طوال طريقه لأسفل في المصعد الذي أخذ يرتج ويصدر ضجيجًا عاليًا. وحينما وصل إلى الطابق السفلي أخرج إيصال آلة السحب النقدي وجعدها في شكل دائرة صغيرة ثم ألقى بها في أقرب سلة مهملات.

16

خرجا معًا أربع مرات. في المرة الأولى تناولا البيتزا وظلت هي تتناول المياه المعدنية حتى تأكدت من أنه صدق أنها ليست مدمنة شراب، وعندئذ سمحت لنفسها أن تتناول بعضًا من خمر الجن المخلوط مع المياه، وكان ألذ مشروب تناولته في حياتها. اصطحبها وهي عائدة لمنزلها وبدا وكأنه سيغادر ثم بعد لحظة تردُّد قبلها في وجنتها وضحك الاثنان كما لو أنهما يدركان أن الأمر محرج بعض الشيء. ودون أي تفكير مالت نحوه وقبلته بشكل صحيح قبلة قصيرة لكن عن قصد، قبلة تشي بما في داخلها. اتجه عائدًا نحو المصعد ولا يزال يبتسم حتى أغلق الباب.

لقد أعجبت به.

وفي المرة الثانية ذهبا لمشاهدة فرقة موسيقية رشحها لهما أخوه وكانت غاية في السوء، وبعد عشرين دقيقة أيقنت أنه يراها هكذا هو أيضًا. وحينما سألها إن كانت ترغب في أن تغادر، وجدا نفسيْهما يشبكان يديهما حتى لا يفقدان بعضهما بعضًا حيث كانا يشقان طريقهما بصعوبة وسط الحانة المكتظة. ولسبب ما لم يريدا أن يفترقا حتى بلغا شقته، وهناك تحدثا عن طفولتهما والفرق الموسيقية التي كانا يفضلانها وأنواع الكلاب المفضلة وبشاعة مذاق الكوسة، وبعدها تبادلا القبلات على الأريكة حتى خارت قواها. ظل لون ذقنها مائلًا إلى الوردي ليومين كاملين بعدها.

بعدها بيومين هاتفها وقت الغداء ليخبرها أنه مرَّ مصادفة أمام مقهى مجاور لها وسألها إن كانت ترغب في تناول بعض القهوة.

سألته بعد أن طالت فترة تناول الكعك والقهوة بالقدر الذي تسمح به ساعة تناوله للغداء: «هل كنت تمر من هنا حقًا؟».

قال: «بالطبع، ثم –ولسعادتها- احمرت أذناه».

وجدها تنظر إليه ثم تمد يدها نحو شحمة أذنيه.

- أوه ويحكِ! إنني كاذب فاشل.

في المرة الرابعة ذهبا إلى أحد المطاعم وقبل أن تصل الحلوى طلبها والدها على الهاتف وقال لها إن كارولين تركته ثانية. كان يصرخ بصوت عال على الجانب الآخر لدرجة أن بول قفز إلى الجانب الآخر من المائدة.

قالت: «يجب أن أذهب الآن». ورفضت طلبه للمساعدة، فلم تكن مهيأة بعد لأن يلتقي الرجلان، وخاصة مع احتمالية عدم ارتداء والدها الملابس بشكل لائق.

حينما وصلت إلى المنزل بعدها بنصف ساعة وجدت كارولين بالفعل في المنزل.

قال والدها على استحياء: «لقد نسيت أنها الليلة التي ترسم فيها».

لم يحاول بول أن يدفع بالأمور لأبعد من هذا وتساءلت لبعض الوقت إن كان هذا راجعًا إلى كثرة حديثها عن ديفيد أو أنها لا تظهر اهتمامها بالقدر الكافي، لكنها رأت فيما بعد أنه يتصرف على نحو مهذب فحسب. وفي أحيان أخرى ترى –وفي داخلها بعض الغضب- أن ديفيد جزء منها وإن كان بول يريد أن يبقى معها عليه أن يتقبل هذا، ودارت في رأسها عدة محادثات تخيلية بينها وبينه إلى جانب مرتين ساد فيهما الخلاف.

كانت تستيقظ وهي تفكر فيه وبالطريقة التي يميل بها إلى الأمام حينما ينصت لها كما لو أنه حريص على ألا يفوته شيء منها، وتستعيد مظهر شعره الرمادي المتناثر على صدغيه الذي شاب قبل أوانه وعينيه شديدتي الزرقة. لقد نسيت شعور المرء حينما يستيقظ وهو يفكر في أحدهم وبرغبته الدائمة في القرب منه وشعوره بالسعادة حينما يتذكر رائحته. ما زالت لا تعمل بشكل كاف لكن ذلك لم يعد يزعجها كثيرًا. في بعض الأحيان يرسل إليها رسالة في منتصف اليوم وتسمعها بلكنته الأمريكية.

كانت تخشى أن تظهر لبول مقدار إعجابها به. كانت تخاف أن تفهم الأمور على نحو خاطئ؛ فالقواعد قد تغيرت خلال السنوات التسع الأخيرة منذ آخر مرة واعدت فيها أحدًا. كانت تستمع إلى مو وإلى ملاحظاتها الموضوعية عن المواعدة من خلال الإنترنت، وعن «أصدقاء المنفعة» وعن ما يجب عمله وما يجب تجنبه في العلاقات، كيف تتجمل وكيف تستخدم الأساليب الصحيحة، وكانت تبدو وكأنها تستمع إلى شخص يتحدث البولندية.

وجدت من الصعب أن تنطبق تأكيدات مو بشأن الرجال على بول؛ فهي تراهم فاسدين وانتهازيين وكسالى مهووسين بالإباحية. أما هو صريح كالكتاب المفتوح وذلك السبب الذي جعل تقلد المناصب في وحدته المتخصصة بشرطة نيويورك لا يناسبه. وقد قال لها ذات مرة: «الأبيض والأسود يصبحان رماديًّا كلما علا المرء في منصبه». والمرة الوحيدة التي بدا فيها غير واثق وتحدث بتردد كانت حينما تناول موضوع ابنه. «إن الطلاق حماقة، نحن نقول لأنفسنا إن أطفالنا بخير وهذا الوضع هو الأفضل لهم بدلًا من العيش بين شخصين تعيسين يصرخان في وجه بعضهما بعضًا، لكننا لم نجرؤ أن نسألهم عن الحقيقة».

- الحقيقة؟

- ما يريدونه. لأننا نعرف الإجابة وسوف تتحطم قلوبنا.

ثم حدق بشرود واستعاد ابتسامته مرة أخرى.

- لكن جيك بخير، إنه حقًّا بخير. أكثر مما نستحق نحن الاثنان.

أحبت سمات شخصيته الأمريكية التي جعلته مختلفًا بعض الشيء وبعيدًا كل البعد عن ديفيد. كان بطبيعته يتحلى بدماثة الخلق؛ من ذلك النوع من الرجال الذي يفتح الباب لامرأة بشكل عفوي وليس مجرد لفتة لتنم عن شهامته، لكن لأنه لن يخطر على ذهنه ألا يفتح الباب لأحد إذا ما أراد المرور منه. كان ذا هيبة تجعل الأشخاص يفسحون له الطريق حينما يسير. ولا يبدو أنه يدري بكل هذا.

قالت مو: «يا إلهي، لديك مشاعر جياشة».

- ماذا؟ فقط أقول إنه شيء لطيف أن تمضي الوقت مع شخص يبدو...

قالت مو في تذمر: «لكنه يريد أن يأتي إليك هذا الأسبوع».

لكنها لم تدعوه لمنزلها.

أحست مو بترددها فقالت: «حسنًا رابونزل. إن كنت ستمكثين لفترة طويلة في برجك هذا، عليك أن تجعلي الأمير الغريب يعبر عن مشاعره لك».

- لا أدري.

قالت مو: «فكرت أننا ينبغي أن ننقل بعض الأشياء في غرفتك. نغير في شكل المنزل قليلًا وإلا ستشعرين دومًا أنك تحضرين شخصًا غريبًا إلى منزل ديفيد».

ظنت ليف أن ذلك سيكون شعورها حتى لو رتبت الأثاث بطريقة ما، لكن في فترة ما بعد ظهيرة يوم الثلاثاء حينما كانت مو في إجازة من عملها، نقلتا الفراش إلى الجانب الآخر من الغرفة ودفعتا به أمام حائط خرساني بلون المرمر يمتد كركيزة معمارية وسط المنزل. لم يكن ذلك المكان طبيعيًّا بالنسبة لها إن كان المرء يدقق في الاختيار، لكن عليها أن تعترف أن اختلاف مكانه أضفى إحساسًا بالحيوية والانتعاش.

قالت مو وهي تنظر إلى لوحة **الفتاة**: «أتودين أن تضعيها في مكان آخر؟».

- لا، ستبقى كما هي.

- لكنك قلت إن ديفيد اشتراها لك، وهذا يعني...

- لا أهتم بمعنى ذلك، ستظل في مكانها.

ثم ضاقت حدقة عين ليف وهي تنظر إلى المرأة التي في اللوحة: «وأعتقد أن موضعها سيكون غريبًا في غرفة المعيشة، إنها توحي بالحميمية الشديدة».

- الحميمية؟

- إنها مثيرة. أليست كذلك؟

حدقت مو إلى اللوحة وقالت: «إنني لا أرى ذلك، لكن بالنسبة لي شخصيًّا إن كانت غرفتي سأضع شاشة تليفزيون ضخمة مسطحة».

غادرت مو الحجرة وظلت ليف تنظر إلى اللوحة ولأول مرة لم تشعر بالحزن الشديد. وسألت الفتاة: «ما رأيك؟ هل حان الوقت لتجاوز الأمر؟».

كان يوم الجمعة حينما بدأت الأمور تأخذ منحنى خاطئًا.

قال والدها وهو يخطو إلى الأمام وغاصت بين ذراعيه وهو يحتضنها بشدة: «إذًا لديك موعد مهم!». كان يمتلئ تفاؤلًا وحيوية، ودودًا وحكيمًا، ومرة أخرى يستخدم علامات التعجب في حديثه كما أنه يرتدي كامل ملابسه.

- إنه مجرد... لا أريد تضخيم الأمور يا أبي.

- لكنه أمر رائع، إنك شابة جميلة وهذا ما تقتضيه الطبيعة؛ يجب أن تخرجي وتحركي ريشك بخفة وتتباهي بقدراتك.

احتست الشاي وهي تقول: «ليس لديَّ ريش، ولست مقتنعة تمامًا بموضوع القدرات».

- ماذا سترتدين؟ هل شيء أكثر إشراقًا؟ كارولين ماذا يمكن أن ترتدي؟

دخلت كارولين إلى المطبخ وهي تعقص شعرها الطويل لأعلى. كانت تعكف على العمل على لوحتها من النسيج وكانت تفوح منها رائحة غريبة.

- إنها تبلغ من العمر ثلاثين عامًا، مايكل، بمقدورها أن تختار مجموعة ملابسها.

- انظري إلى الطريقة التي تغطي بها نفسها! لا تزال تتبع أساسيات ديفيد الجمالية؛ ألوان الأسود والرمادي والأشياء التي لا شكل لها. ينبغي أن تتبعي أسلوب كارولين في ارتداء الملابس عزيزتي. انظري إلى الألوان التي ترتديها، امرأة كهذه تجذب الانتباه.

قالت كارولين وهي تضع غلاية المياه: «إن أي امرأة ترتدي ملابس كالقطاس[1] ستجذب انتباهك».

قالتها دون أي ضغينة.

وقف خلفها وأحاطها بذراعيه من الخلف وقد أغلق عينيه في نشوة وقال: «نحن الرجال... كائنات بدائية وأعيننا تنجذب نحو الشيء الجميل البراق».

ثم فتح إحدى عينيه وقال وهو يتفرس ليف: «ربما تحتاجين على الأقل إلى ارتداء شيء أقل ذكورية».

- ذكورية؟

---

(1) وهو من فصيلة الأبقار، القطاس البرِّيّ أو الياك البرّيّ هو حيوان مجتر يعيش في التبت والنيبال وفي بوتان إضافةً إلى شمال الصين.

اعتدل للوراء وقال: «كنزة سوداء، سروال جينز أسود، ولا تضعين أي مساحيق تجميل. تختلفين قليلًا عن سيارات الشرطة».

- ارتدي ما يشعرك بالراحة ليف، لا تلتفتي إلى ما يقول.
- هل ترى أنني أشبه الذكور؟
- أذكرك بأنك التقيته في حانة، ربما يحب السيدات اللاتي يغلب عليهن الطابع الصبياني.

قالت كارولين: «يا لك من عجوز أحمق». ثم غادرت الحجرة وهي تحمل قدح الشاي بعيدًا.

- إذًا فأنا أبدو غريبة الأطوار.
- كل ما أقوله إنه يمكن أن تبرزي سماتك المميزة، ربما بعض التموجات في شعرك أو ارتداء حزام لإظهار خصرك.

أطلت كارولين برأسها من الباب وقالت: «لا يهم ما ترتدين عزيزتي، تأكدي من أن الملابس التحتية في حالة جيدة، الملابس التحتية هي كل ما يهم».

راقب والدها كارولين وهي تختفي من الحجرة وتبعث بقبلة صامتة في الهواء وقال بحماس: «الملابس التحتية!».

نظرت ليف نحو ملابسها وقالت: «أشكرك أبي... أشعر براحة الآن، أشعر بالراحة حقًّا».

- ضرب أبوها المائدة الخشبية براحة يده وقال: «دعيني أعرف كيف تسير الأمور، مواعدة! شيء مثير حقًّا».

نظرت ليف إلى نفسها في المرآة. لقد مرت ثلاث سنوات منذ أن رأى رجل جسدها، وأربع سنوات منذ أن رأى رجل جسدها وهي في حالة هدوء شديدة تجعلها لا تبالي. لقد فعلت مثلما أشارت عليها مو؛ أزالت الشعر الزائد إلا قليل، نظفت وجهها وأزالت طبقات الجلد الميتة، ووضعت كريمًا معالجًا للشعر، وبحثت في خزانة ملابسها عن ملابس تبدو مثيرة وليست تلك القاتمة التي تعبر عن عمر أكبر، ووضعت طلاء الأظفار على أصابع قدميها وبردت أظفار يديها بدلًا من إزالتها تمامًا بالمقص.

لم يكن ديفيد يهتم بمثل هذه الأشياء، لكن ديفيد لم يعد موجودًا الآن.

تطلعت في خزانة ملابسها وألقت نظرة على الحوامل الملأى بالملابس الرمادية والسوداء والسراويل والكنزات السوداء غير اللافتة للنظر. اعترفت لنفسها أنها تتبع المذهب النفعي. في النهاية وقع اختيارها على تنورة سوداء قصيرة ضيقة وكنزة برقبة مفتوحة واختارت حذاء أحمر ذا كعب عال ليتناسب معهما تعلوه فراشة عند أطراف الأصابع، كانت قد اشترته وانتعلته مرة واحدة في حفل زفاف لكنها لم تتخلص منه. قد لا يكون أحدث صيحات الموضة لكن لا يمكن لأحد أن يسيء فهم الشخصية التي تنتعله.

وقفت مو عند مدخل الباب وقالت: «واو، انظري إلى حالك الآن». كانت ترتدي كنزتها وتضع حقيبة الظهر على كتفها استعدادًا للذهاب إلى مناوبتها.

أمسكت بكاحلها في شك وقالت: «أليس مبالغًا فيه؟».

- تبدين رائعة. إنك الآن لا ترتدين ملابس جدتك التحتية؟

أخذت ليف نفسًا وقالت: «لا أرتدي ملابس جدتي التحتية، ولست ملزمة بأن أجعل كل شخص له رمز بريدي يعلم بشأن ملابسي التحتية».

- إذًا اذهبي وادخلي في علاقة كما تشائين. لقد تركت لك وجبة الدجاج كما وعدتك وهناك وعاء من السلطة في الثلاجة، كل ما عليك أن تضيفي التوابل. سأمضي الليلة في منزل رانيك، لذا لن أسبب لك إزعاجًا، إن المكان كله لك.

وابتسمت إلى ليف ابتسامة ذات مغزى ثم اتجهت نحو الدرج.

استدارت ليف نحو المرآة ورأت امرأة على وجهها الكثير من المساحيق وترتدي تنورة تنظر إليها. سارت عبر الحجرة وهي تشعر ببعض من عدم الارتياح في ذلك الحذاء الذي لم تعتد انتعاله وتحاول أن تعرف سبب شعورها بعدم الاتزان. كانت التنورة تلائمها تمامًا، فالركض قد أضفى على ساقيها مظهرًا جذابًا وممشوقًا. كانت ألوان الحذاء تتناغم مع بقية الملابس، وملابسها الداخلية جميلة دون ابتذال. عقدت ذراعيها وجلست على جانب الفراش. من المفترض أن يأتي في غضون ساعة.

رفعت بصرها نحو لوحة الفتاة ولسان حالها يقول: «أود أن أبدو مثلك».

ولأول مرة لم تمنحها تلك الابتسامة أي شعور بل بدت وكأنها تسخر منها. كانت تقول لها: «ليس ثمة فرصة لذلك».

أغلقت عينيها لبعض الوقت، ثم مدت يدها نحو هاتفها وكتبت رسالة نصية لبول تقول فيها:

«بعض التغيير في الخطة. هل تمانع إن ذهبنا إلى أي مكان بدلًا من هنا لتناول مشروب؟».

- هل سئمت من الطهي؟ لأنني كنت سأحضر بعض الطعام معي.

رجع بول بظهره إلى الوراء في مقعده، وعيناه مصوبتان نحو مجموعة من الموظفين الذين تعالت صيحاتهم والذين يبدو أنهم أمضوا طوال فترة ما بعد الظهيرة في المكان نظرًا لأجواء المغازلة بين من هم في حالة ثمالة، وكان بول مستمتعًا بمظهرهم ومظهر السيدات اللاتي يترنحن وبذلك المحاسب الناعس في ركن المكان.

- كنت فقط أريد أن أخرج من المنزل.
- آه فهمت إنه العمل من المنزل، لقد نسيت أن ذلك يفقدك صوابك. حينما انتقل أخي معي هنا كان يمضي أسابيع في منزلي يكتب طلبات الوظائف، وحينما كنت أعود من عملي كان يتحدث إليَّ دون توقف حرفيًّا لمدة ساعة.
- هل جئتما معًا من أمريكا؟
- جاء ليساندني حينما انفصلت عن زوجتي، كنت في حالة نفسية سيئة، ثم بعدها لم يغادر.

قدم بول إلى لندن منذ عشر سنوات. كانت زوجته الإنجليزية تعيسة وتفتقد وطنها وخاصة حينما كان جيك رضيعًا، فترك الشرطة الأمريكية ليجعلها سعيدة.

- حينما جئنا إلى هنا اكتشفنا أن الخطأ نابع منا وليس من المكان. انظري، الرجل ذو الحلة الزرقاء يغازل الفتاة ذات الشعر الطويل.

ارتشفت ليف من الشراب وقالت: «إنه ليس شعرها».

اتسعت عيناه وهو يقول: «إنك تمزحين؟ أهو شعر مستعار؟».

- يمكن أن تقول إنه وصلة شعر.

- لا أستطيع أن أخمن، ستقولين لي إن صدرها أيضًا مزيف أليس كذلك؟
- لا، إنه صدر حقيقي لكنها ترتدي حمالة صدر مختلفة.
- حمالة صدر مختلفة؟
- حمالة صغيرة للغاية تجعل لديها أربعة بدلًا من اثنين.

انفجر بول ضاحكًا حتى كاد يختنق. إنه لا يستطيع أن يتذكر آخر مرة ضحك فيها على هذا النحو. بادلته الابتسام رغمًا عنها. كانت غريبة بعض الشيء هذه الليلة كما لو أن هناك حوارًا داخليًا منفصلًا يجعل استجابتها بطيئة.

نجح في السيطرة على نفسه وقال لها في محاولة لجعلها تطمئن: «إذًا ماذا تعتقدين، هل ستستجيب الفتاة ذات حمالة الصدر الضيقة؟».

- ربما مع تناول المزيد من الشراب، لست مقتنعة أنه يروق لها.
- نعم، إنها تلتفت خلفها باستمرار وهي تتحدث إليه وأعتقد أنها تحب الأحذية ذات اللون الرمادي.
- لا توجد امرأة تهوى اللون الرمادي. ثق بما أقوله.

رفع أحد حاجبيه ووضع شرابه على المائدة وقال: «أتعلمين، لهذا السبب يرى الرجال أنه من الأيسر بالنسبة لهم شطر الجزيئات واحتلال الدول من محاولة فهم ما يدور في عقل امرأة».

- إذا ما حالفك الحظ يومًا ما سأجعلك تختلس نظرة على كتاب القواعد الخاصة بالنساء.

نظر إليها فاحمرت وجنتاها كما لو أنها أفصحت عن الكثير. وفجأة أطبق صمت غريب غير مفهوم على المكان.

نظرت إلى شرابها وقالت: «هل تفتقد نيويورك؟».

- أحب أن أزورها، وحين أذهب إلى هناك الآن يسخر الجميع من لكنتي.

لم تكن تستمع جيدًا إلى ما يقوله.

قال: «لا داعيَ لشعورك بالقلق، إنني سعيد في هذا المكان».

- إنني حقًا آسفة، لم أكن أقصد أن...

ثم ماتت الكلمات على شفتيها. وسادت فترة من الصمت ثم رفعت نظرها إليه وتحدثت وهي تضع إصبعها على طرف كأسها وقالت: «بول... لقد أردت

أن أطلب منك أن تأتي إلى منزلي الليلة... أردت أن نكون... لكن... هذا سابق لأوانه. لا أستطيع... لا أستطيع أن أقدم على هذه الخطوة، ولهذا السبب ألغيت دعوة العشاء».

فاضت منها الكلمات لتعبر عما يعتمل بداخلها وقد احمر وجهها بشدة من فرط الخجل.

هم بالحديث لكنه أغلق فمه. ثم مال إلى الأمام وقال بهدوء: «أيكون من الجيد أن أقول لك إنني لست جائعًا».

اتسعت عيناها وأطرقت برأسها فوق المائدة قليلًا وقالت: «يا إلهي إنه موعد مأسوي، أليس كذلك؟».

- ربما أنك صريحة أكثر من اللازم.

تنهدت قائلة: «إنني آسفة، ليس لديَّ فكرة أن...».

مال نحوها ولمس يدها برقة. كان يريد أن يزيل عنها القلق.

قال بهدوء: «ليف، أنا معجب بك، وأرى أنك رائعة وأتفهم جيدًا أنك كنت منعزلة لفترة طويلة. وأنا لست... أنا لن...».

خانته الكلمات هو أيضًا، وبدا أن الوقت سابق لأوانه لمثل هذا النوع من الحديث. لكن في داخله -ورغمًا عنه- كان يشعر بخيبة أمل.

- إذًا هل تودين تناول البيتزا لأنني أتضور جوعًا؟ دعينا نذهب لتناول بعض منها ونفسح مجالًا لهذا الشعور بالارتباك في مكان آخر.

شعر بركبتها تلامس ركبته.

- أتعلم أنني أعددت الطعام في المنزل.

ضحك ثم توقف عن الضحك وقال: «حسنًا، لا أدري ماذا أقول».

- قل: سيكون هذا رائعًا. ثم يمكنك أن تضيف: اصمتي الآن ليف قبل أن تجعلي الأمور أكثر تعقيدًا من هذا.

قال بول: «سيكون هذا رائعًا». ثم حمل عنها معطفها حالما تشق طريقها إلى الخارج ثم غادرا الاثنان الحانة.

وحينما سارا معًا هذه المرة لم يكن الصمت يخيم عليهما وكأنما ثمة حاجز ذاب بينهما ربما بسبب وقع كلماته أو ربما هو شعورها بالارتياح. أخذا يتمايلان في سيرهما بين السائحين واستقلا سيارة أجرة وكانا يلتقطان

أنفاسهما بصعوبة، وحينما جلس في المقعد الخلفي مد لها ذراعه كي تتشبث به فمالت عليه وتنفست رائحته الذكورية النظيفة وشعرت ببعض النشوة من تلك المصادفة السعيدة المفاجئة.

بلغا مكان سكنها وكانا يضحكان على الطريقة التي التقيا بها، وعلى مو واعتقادها أنه لص حقائب.

قال لها بوجه جاد: «سأحتجزك بسبب الجنيهات الأربعة، قالت مو إنني أستحقها».

- مو تعتقد أيضًا أنه من المقبول تمامًا أن تضع سائل غسل الصحون في مشروبات الزبائن الذين لا يروقون لها.
- سائل تنظيف الصحون؟
- ومن الواضح أنه كان يجعلهم يتبولون طوال الليل، هكذا هي تتحكم في فرص اللقاءات الرومانسية لمرتادي المطعم. ألا تريد أن تعرف ماذا تفعل في القهوة التي تقدمها لأولئك الذين يثيرون استياءها؟

هز رأسه في إعجاب وقال: «إن مو تضيع وقتها في هذه الوظيفة، فهناك مكان ينتظر تلك الفتاة في عصابات الجريمة».

نزلا من السيارة الأجرة ودخلا طريق المخزن. كان الطقس باردًا مع قدوم الخريف؛ وشعرت بلسعة برد تلفح جسدها. هرعا إلى دفء البهو الخانق. شعرت الآن أنها كانت سخيفة بعض الشيء فهي بطريقة ما ترى أنه في الساعات الثماني والأربعين الماضية توقف بول عن كونه شخصًا وأضحى بالنسبة لها فكرة، شيء، رمز مرحلة التجاوز التي تمر بها، إنه حمل ثقيل بالنسبة لشيء جديد كهذا.

رن صوت مو في أذنيها وهي تقول: «أوه سيدتي، إنك تفكرين كثيرًا».

وبينما كان يغلق باب المصعد خلفهما غرقا في الصمت ثانية. صعد المصعد ببطء وراح يصدر أصوات احتكاك شديدة تردد صداها في المكان وأخذت أضواؤه ترتعش كما تفعل دائمًا. تجاوزا الطابق الأول وترامى إلى مسامعهما صوت وقع أقدام بعيدة لأحدهم وهو يصعد الدرج، وانبعثت أصوات لبعض المقطوعات من موسيقى التشيلو من شقة أخرى.

تأثرت به ليف بشدة في ذلك المكان المغلق وبالرائحة النفاذة لعطره، وبثقل ذراعه وهو يطوق بها كتفيها. نظرت إلى أسفل وتمنت فجأة لو أنها لم تغير ملابسها وترتدي تلك التنورة ذات الذوق القديم وهذا الحذاء المسطح. تمنت لو أنها انتعلت الحذاء ذا الفراشة.

نظرت إلى أعلى وكان هو يرقبها. لم يكن يضحك وإنما مد لها يده فأمسكت بها وجذبها نحوه خطوتين عبر المصعد ومال بوجهه نحو وجهها فلم يفصل بينهما سوى سنتيمترات قليلة، لكنه لم يقبلها.

طاف بعينيه الزرقاوين فوق وجهها؛ الأعين والرموش والحواجب والشفاه حتى شعرت بالضعف الشديد أمامه واستشعرت أنفاسه فوق بشرتها، وفمه يكاد يلامس فمها حتى أرادت أن تميل وتعضه برقة.

ومع ذلك لم يقبلها.

وهذا جعلها تتحرق شوقًا.

غمغم قائلًا: «لم أتوقف عن التفكير فيك».

- جيد.

لامس أنفها بأنفه وأحست أن ساقيها قد بدأتا ترتعشان.

- نعم، جيد، أعني، لا، إنني خائفة لكن على نحو جيد. أعتقد...

همس قائلًا: «توقفي عن الكلام».

استشعرت كلماته فوق شفتيها وأخذ يداعب جانب عنقها بأصابعه ولم تقو على الحديث.

وصلا إلى الطابق الأعلى وهما يتبادلان القبلات. فتح باب المصعد وغادراه وهما يتعثران في خطواتهما وراحت تتخبط حتى فتحت الباب.

دلفا إلى المنزل ولم تضئ الأنوار. ترنحت إلى الوراء ورأسها يدور، وخارت قواها. ارتطمت بالحائط وهي تسمعه يهمهم بكلمات ناعمة.

همست قائلة: «الآن. هنا».

كانا في المطبخ والقمر يسطع من خلال فتحة السقف ويلقي بضوئه الأزرق الخافت على الحجرة. وتسلل إلى الحجرة شيء مخيف، شيء ماكر متقد ولذيذ.

صمت كل شيء حولهما إلا من أنفاسهما. أحست وكأنها غابت عن الوجود ومالت إلى الأمام. تنامى بداخلهما شيء وازدادت حدته وروعته في تلك اللحظات الساكنة، وتبادلا القبلات، قبلة انتظرتها منذ سنوات لتكتمل. قبلة لا يريدها العقل أن تنتهي. استنشقت عبق عطره. دار رأسها وأصبح عقلها خاويًا. لم تعد تدري أين هما. رجع إلى الوراء برفق وابتسم.

نظرت إليه وقد تلاحقت أنفاسها: «ما بك؟».

- أنت.

ثم تاهت الكلمات. غمرت الابتسامة وجهها وأمطرته بوابل من القبلات حتى تاهت بين شفتيه ودار رأسها وتسربت أصوات العقل من بين أذنيها فلم تعد تسمع إلا همهمات ذلك الاحتياج المتزايد الملح. *هنا*. *الآن*. ونظرت إلى أعلى نحو السقف الزجاجي ويداها تتخللان شعره. انفتح مصراع السقف وكشفت الجدران الزجاجية عن ليل السماء. نظرت إلى أعلى نحو تلك الظلمة التي يتخللها بعض الضوء وحدثت نفسها قائلة بانتصار -ولا يزال جزء منها يتجاوب معه- «*إنني ما زلت حية*».

وأغمضت عينيها ورفضت أن تفكر في أي شيء.

همس لها بصوته: «ليف؟».

كان يحتضنها وسمعت صوت أنفاسه.

- ليف؟

صدرت عنها رجفة.

- هل أنت بخير؟

- آسفة. نعم، لقد مر وقت طويل منذ أن...

أحكم ذراعه حولها وكأنه يجيبها في صمت. ولف الصمت المكان ثانية.

- هل تشعرين بالبرد؟

نظمت أنفاسها قبل أن تجيب: «إنني أتجمد».

أنزلها من مكانها ومد يده نحو الأرض والتقط قميصه ولفه حولها ببطء. نظرا إلى بعضهما بعضًا في المكان شبه المظلم.

- حسنًا... كان هذا...

كانت تريد أن تتفوه بشيء ينم عن المرح والسعادة لكنها لم تستطع الكلام. شعرت بأنها مخدرة، وكانت تخشى أن تتركه كما لو أنه هو من يجعلها تستقر على الأرض.

العالم الخارجي يقتحم عالمها الآن. فقد انتبهت إلى أصوات المرور بالأسفل، كانت عالية بعض الشيء. واستشعرت برودة أرضية الحجر الجيري أسفل قدميها العاريتين. أدركت أنها فقدت إحدى فردتي حذائها فقالت وهي تنظر نحو الممر: «أعتقد أننا تركنا الباب الأمامي مفتوحًا».

- لقد نسيت فردة حذائك، هل تعلمين أن السقف مفتوح؟

نظرت إلى أعلى وهي لا تتذكر أنها فتحته. يبدو أنها ضغطت عليه بالخطأ حينما دخلا المطبخ. هب نسيم الخريف البارد وسرت قشعريرة في جسدها العاري كما لو أنها شعرت للتو بما حدث. كانت سترة مو معلقة على ظهر المقعد وكأنها جناحان مفرودان لصقر سيحلق.

قالت: «انتظر». سارت بخطى خفيفة عبر المطبخ وضغطت على الزر وسمعت صوت أزيز السقف وهو ينغلق. نظر بول إلى أعلى نحو فتحة السقف المتسعة ثم إلى أسفل نحوها ثم استدار ببطء دورة كاملة حيث اعتادت عيناه الظلام الخافت فبدأ يستوعب المكان من حوله.

- حسنًا... لم يكن الأمر كما توقعت.

- وماذا كنت تتوقع؟

نظر إلى أعلى نحو السقف المفتوح ثم قال: «لا أدري... مسألة ضرائب المجلس، فاعتقدت أنك تعيشين في مكان صغير تغلب عليه الفوضى. مكان يشبه المكان الذي أعيش فيه... لكن هذا».

- إنه منزل ديفيد، هو الذي بناه.

بدا الارتباك على وجهه.

- أوه! هل هذا بالكثير بالنسبة لي؟

تجول بول ببصره في غرفة المعيشة ثم نفخ الهواء من فمه وقال: «لا، هذا حقك المشروع، يبدو أنه كان رجلًا رائعًا».

صبت الماء لكليهما وحاولت ألا تشعر بالخجل وهما يرتديان ملابسهما. أمسك لها قميصها كي تندس بداخله. نظرا إلى بعضهما بعضًا وهما يضحكان ضحكات خافتة، وفجأة وعلى العكس شعرا بالخجل وهما بملابسهما.

قال: «إذًا... ماذا يحدث الآن؟ هل تريدين بعض المساحة من الحرية؟». ثم أضاف: «عليّ أن أحذرك، إن كنت تريدينني أن أغادر فربما أنتظر حتى تتوقف ساقاي عن الارتعاش».

نظرت إلى بول مكفرتي وإلى هيئته المألوفة لها بشدة. لم تكن تريده أن يغادر بل ودت لو تستلقي بجواره ويطوقها بذراعيه وتريح رأسها على صدره، كانت تريد أن تستيقظ دون تلك الرغبة الملحة المفزعة في أن تهرب من أفكارها. كانت واعية ذلك السؤال الذي يتردد في ذهنها -عن ديفيد- لكنها طردته بعيدًا. حان الوقت لكي تحيا في الحاضر. إنها أقوى من الفتاة التي تركها ديفيد.

لم تُضِئ الأنوار. مدت يدها لتمسك بيد بول وقادته عبر المنزل المظلم وصعدا الدرج ومنه إلى غرفتها.

لم يناما. مضت الساعات في جو رائع تحت الأضواء الخافتة وقد تشابكت الأذرع وعلت الهمسات. كانت قد نسيت ذلك الشعور الغامر بالسعادة حينما يلتف جسدها حول جسد لا تستطيع الاستغناء عنه. وشعرت وكأنه قد شحذ قواها أو كأنما احتلت مكانًا جديدًا في هذا العالم.

دقت السادسة صباحًا حينما تسللت نسمة الهواء الباردة إلى الحجرة مع طلوع الفجر.

غمغم وهو يطل ببصره خارج النافذة: «هذا المكان مذهل». تشابكت ساقاهما وانطبعت قبلاته على جميع أنحاء جسدها. كانت كالواقعة تحت تأثير المخدر من فرط سعادتها.

نظرت إليه خلال الضوء الخافت: «إنه حقًا كذلك، لكني لا أستطيع تحمل تكاليف العيش فيه. إنني في ضائقة مالية، لقد نصحني البعض ببيعه».

- لكنك لا ترغبين في هذا.

- أشعر وكأنها خيانة.

قال: «أدرك سبب عدم مغادرتك، إنه جميل، هادئ». ثم نظر إلى أعلى ثانية وأكمل قائلًا: «يكفي أنك تستطيعين أن تزيحي السقف حينما ترغبين في هذا».

انزاحت قليلًا عن ذراعيه حتى تستطيع أن تستدير نحو النافذة الطويلة وأصبح رأسها عند مرفقه.

- في بعض الصباحات أحب أن أرى قوارب الصندل وهي تتجه نحو جسر البرج Tower Bridge. تعلم إذا سقط الضوء من جهة اليمين أصبح النهر وكأنه قطرة من الذهب.
- قطرة من الذهب، أليس كذلك؟

غرقا في الصمت وبينما كانا يشاهدان المنظر أمامهما، بدأ الضوء يتسلل إلى الغرفة. نظرت إلى أسفل باتجاه النهر ورأته يظهر تدريجيًّا وكأنما يرسم مستقبلها وتساءلت أكل شيء على ما يرام؟ هل يحق لي أن أشعر بالسعادة ثانية؟

كان بول هادئًا للغاية حتى إنها تساءلت ما إذا كان قد غط في النوم، لكن حينما استدارت نحوه وجدته يتطلع إلى الحائط المقابل للفراش نحو **لوحة الفتاة التي تركتها** والتي وضحت في ضوء الفجر. واعتدلت على جانبها وراقبته. بدا مفتونًا وعيناه لا تفارقان اللوحة مع ازدياد شدة الضوء. قالت لنفسها لقد فهم مغزى اللوحة. اعتراها فجأة شعور غريب فسرته على أنه من فرط الشعور بالسعادة.

- هل راقت لك؟

يبدو أنه لم يسمعها.

استقرت ثانية بجواره وأراحت وجهها على كتفيه.

- سترى الألوان أوضح في غضون دقائق. إنها تسمى **الفتاة التي تركتها** أو على الأقل نحن –أنا- أعتقد أنها كذلك. إن اسمها مكتوب على ظهر الإطار. إنها من أشيائي المفضلة في هذا المنزل بل إنها في الواقع من أشيائي المفضلة في هذا العالم.

توقفت للحظة وأردفت قائلة: «لقد أعطاني ديفيد إياها في شهر العسل».

كان بول صامتًا. مررت إصبعها على ذراعه وقالت: «أعلم أن ما أقوله سخيف، لكن بعد أن مات ديفيد لم أكن أريد أن أشارك في أي شيء، مكثت في المنزل لأسابيع لم أرغب في أن أرى أي أشخاص، وحينما ساءت الأمور... كان هناك شيء في تعبيرات وجهها، وجهها هو الوحيد الذي استطعت أن أتحمل رؤيته. كانت بمنزلة تذكرة بأنني ينبغي أن أحيا».

تنهدت بعمق وأكملت: «وحينما ظهرت أنت في حياتي أدركت أنها كانت تذكرني بشيء آخر؛ بالفتاة التي كنت عليها. تلك التي لا يساورها القلق طيلة الوقت وتعرف كيف تستمتع. الفتاة التي تنجز الأشياء. الفتاة التي أريد أن أكون مثلها ثانية.

لا يزال صامتًا.

قالت الكثير. وما تريده هو أن يستدير بوجهه إليها وأن تشعر بثقل جسده عليها ثانية.

لكنه لم يتحدث. انتظرت لدقيقة ثم قالت في محاولة لكسر حاجز الصمت: «أعتقد أنه من السخافة أن تظل مولعًا باللوحة هكذا».

حينما التفت نحوها كان وجهه غريبًا؛ بدا متوترًا ومتعبًا. استطاعت أن تراه حتى في الضوء الخافت.

ازدرد ريقه وقال: «ليف، ما اسمك؟».

لوت قسمات وجهها.

- ليف. أنت تعلم أن...

- لا، أقصد لقبك.

- طرفت بعينيها وقالت: «هالستون. لقبي هو هالستون. أعتقد أننا لم...».

لم تستطع أن تعرف إلى أين يقودهما هذا الحوار. كانت تريد أن يتوقف عن التحديق إلى اللوحة. تنبهت فجأة إلى تلاشي الجو المريح الذي كان بينهما وساد المكان شعور غريب، وظلا مستلقيين يلفهما صمت مربك بصورة متزايدة.

رفع إحدى يديه ووضعها على رأسه وقال: «حسنًا.. ليف، هل تمانعين إذا غادرت الآن؟ لديَّ بعض الأمور الخاصة بالعمل عليَّ أن أتابعها».

شعرت وكأنها لا تستطيع التنفس. استغرق الأمر منها دقيقة لكي تتحدث. وحينما فعلت جاء صوتها عاليًا جدًّا على غير عادتها وقالت: «في السادسة صباحًا؟».

- نعم، إني آسف.

طرفت بعينيها وقالت: «أوه. لا عليك».

غادر الفراش وشرع في ارتداء ملابسه. راقبته في ذهول وهو يجذب سرواله إلى أعلى ويغلقه، ورأت السرعة الشديدة التي ارتدى بها قميصه. وحينما أصبح في كامل ملابسه، مال نحوها وطبع قبلة على وجنتها، وبحركة لا إرادية جذبت الغطاء حتى ذقنها.

- ألا ترغب في أن أعد لك بعضًا من طعام الإفطار؟

قال دون أن يبتسم: «لا... إنني... إنني آسف».

- لا عليك.

لم يكن بمقدوره أن يسرع أكثر من هذا. تسلل إليها شعور شديد بالمهانة وكأنه سم يسري في دمائها.

بالكاد تلاقت أعينهما حينما بلغ باب حجرة النوم.

هز رأسه كما لو أنه يزيح ذبابة وقال: «سأهاتفك».

حاولت أن تبدو لطيفة وقالت: «حسنًا، كما تريد».

بينما كان يغلق الباب مالت إلى الأمام وقالت: «أتمنى أن تسير أمور العمل على ما يرام».

نظرت ليف إلى مكانه غير مصدقة وصدى كلماتها المزيفة المبهجة يتردد في المنزل الصامت، وتسلل الفراغ إلى ذلك المكان الذي فتحه بول بداخلها.

17

كان المكتب خاويًا كما كان يتوقع. انطلق مسرعًا من الباب، وراح مصباح الفلورسنت القديم يومض من فوقه عدة مرات قبل أن يعود للحياة مرة أخرى. توجه نحو حجرة مكتبه، وبمجرد أن دخلها راح يفتش بين كومة الملفات والمجلدات الموضوعة فوق المكتب -غير مبال بالأوراق التي تطايرت وافترشت الأرض- حتى وجد ضالته. أضاء مصباح المكتب ووضع نسخة المقال المصورة أمامه وأخذ يفردها بيده.

غمغم قائلًا: «سأرى إن كنت مخطئًا، دعني أتأكد إن كنت مخطئًا».

لم يكن ظاهرًا إلا جزء صغير من الجدران الزجاجية، فقد تم تكبير اللوحة لتملأ الورقة من المقاس المتوسط. لكن اللوحة كانت بلا شك لوحة **الفتاة التي تركتها**. وعن يمين الصورة ظهرت النافذة الممتدة من الأرض حتى السقف التي أرتها له ليف. المنظر الذي يمتد حتى منطقة تيلبري Tilbury.

أمعن النظر إلى الجزء المقتطف من النص.

صمم هالستون تلك الحجرة حتى يستيقظ ساكنوها على ضوء الشمس. قال هالستون: «كنت قد بدأت بالفعل في وضع نظم للحماية من الشمس في ساعات نهار الصيف، لكني وجدت إنه إذا ما

استيقظ المرء من تلقاء نفسه بصورة طبيعية يكون أقل إجهادًا، لذا لم أهتم بوضعها».

أما غرفة النوم الرئيسية فهي مصممة على الطراز الياباني.

وانتهى ذلك الجزء من المقال بنسخة فوتوجرافية. حدق إليها بول لدقيقة، ثم أدار الحاسوب وكتب في محرك البحث «ديفيد هالستون» ونقر المكتب بأصابعه حتى وهو ينتظر تحميل النتائج التي ظهرت كالتالي:

قدم واجب العزاء أمس في وفاة الفنان المعماري ديفيد هالستون الذي وافته المنية عن عمر ناهز ثمانية وثلاثين عامًا. وأفادت التقارير المبدئية أن الوفاة حدثت نتيجة قصور في عضلة القلب. ولم يذكر ما يفيد بأن الشرطة المحلية تشتبه في موته. وقدم أفراد العائلة التعزية لزوجته أوليفيا هالستون البالغة من العمر ستة وعشرين عامًا والتي كانت برفقته وقت وفاته. وطلب أحد أفراد البعثة الدبلوماسية البريطانية في لشبونة تقديم المواساة للأسرة بشكل خاص. وبموته فقدنا أحد المحترفين المتميزين الذي اشتهر بالاستخدامات المبتكرة للزجاج. وبالأمس اصطف زملاؤه لتقديم العزاء.

غاص بول في مقعده قليلًا وألقى نظرة على بقية الأوراق ثم أعاد قراءة خطاب محاميي عائلة ليفيفر:

إنها قضية واضحة ولا يرجح أن تسقط بالتقادم بالنظر إلى الظروف المحيطة، فقد سرقت اللوحة من فندق في بلدة سان بيرون عام 1917 بعد أن قبضت القوات الألمانية على زوجة الرسام بوقت قصير.

نحن نأمل في أن تصل تريس أند ريترن بهذه القضية إلى نهاية سريعة ومرضية. وهناك مبالغ إضافية يمكن دفعها للمالكين الحاليين من موازنة التعويض، لكن من المستبعد أن تضاهي بأي حال من الأحوال القيمة المقدرة في المزاد.

راهن على أنها ليس لديها أدنى فكرة عن صاحب اللوحة. رن صوتها في أذنيه وهي تقول بلهجة خجولة تعبر عن تملك غريب: «إنها من أشيائي المفضلة في هذا المنزل، بل في الواقع إنها من أشيائي المفضلة في هذا العالم».

أسقط بول رأسه بين يديه، ولم يبرح مكانه حتى بدأ رنين هاتف المكتب.

أشرقت الشمس عبر الأراضي المنخفضة بشرق لندن وغمرت حجرة النوم بلون أصفر باهت فانعكس بعض منه على الجدران، وارتد ضوؤها الخافت عن الأسطح البيضاء، وفي مناسبة أخرى كانت ليف لتتمطى وتغلق عينيها بشدة وتدفن رأسها تحت الأغطية. لكنها رقدت بلا حراك في الفراش الواسع وخلفها وسادة عريضة وأخذت تتطلع إلى ضوء النهار وعيناها متجهتان نحو السماء.

لقد أخطأتِ في فهم الأمور.

تراءى وجهه أمامها وتردد في أذنيها رفضه المهذب لها على نحو صارم. هل تمانعين إن غادرت؟

ظلت راقدة على الفراش لنحو ساعتين وهاتفها في يدها وتتساءل هل ترسل إليه رسالة نصية قصيرة.

هل الأمور بيننا على ما يرام؟ بدا فجأة أنك...

آسفة إن كنت تحدثت كثيرًا عن ديفيد. من الصعب عليَّ أن أحفظ أنه ليس كل شخص.

كان شيئًا رائعًا بحق أن أراك الليلة الماضية. أتمنى أن تهدأ الأمور بشأن العمل قريبًا. إن كان لديك متسع من الوقت يوم الأحد يمكننا أن...

ما الخطأ الذي اقترفته!

لم تبعث أي رسالة منها. ظلت تسترجع كل مراحل الحوار بينهما، وتفند كل عبارة وكل جملة بعناية شديدة كعالم الآثار الذي يتفحص العظام بدقة. هل غير رأيه عند هذه النقطة؟ هل هناك شيء فعلته؟ هل هناك عيب بها اكتشفه أثناء علاقتهما ولم تكن هي تدري به؟ هل الأمر يتعلق فقط بوجودهما في منزلها؟ ذلك المنزل الذي ربما لم يحتوِ على أي من مقتنيات ديفيد إلا أنه يحمل طابعه الذي يجعل المرء يرى صورته في مكان كما يرى حروف الأسماء المطبوعة على عصا الحلوى. هل أخطأت في قراءة بول تمامًا. وفي كل مرة فكرت فيها في تلك الأخطاء المحتملة شعرت بألم في معدتها من فرط القلق.

وحدثت نفسها قائلة: «إنني معجبة به، إنني حقًّا معجبة به».

أدركت أن النوم لن يداعب جفونها ثانية فغادرت الفراش واتجهت إلى أسفل نحو المطبخ. كانت عيناها تؤلمانها من التعب وشعرت بأنها خاوية تمامًا في داخلها. أعدت القهوة وجلست على مائدة المطبخ تنفخ فيها حينما انفتح الباب.

- نسيت بطاقة الأمن، ولن أستطيع أن أدخل دار الرعاية دونها هذه المرة. آسفة، كنت سأتسلل بهدوء حتى لا أزعجك.

توقفت مو ثم نظرت أمامها كما لو أنها تبحث عن أحد ثم قالت: «ماذا حدث؟ هل التهمته؟».

- عاد لمنزله.

مدت مو يدها نحو الخزانة وراحت تفتش في جيب السترة الإضافية، وعثرت على البطاقة ووضعتها في جيب سترتها.

- ستتجاوزين كل هذا، فأربع سنوات بمنزلة فترة طويلة جدًّا لكي...

ابتلعت ليف ريقها وقالت: «لم أكن أريده أن يغادر، لقد هرب».

ضحكت مو ثم توقفت فجأة حينما أدركت أن ليف جادة في حديثها.

- لقد فر من غرفة النوم.

لم تعد تبالي إن كانت تبدو في حالة مأسوية، فليس هناك شعور أسوأ مما تشعر به الآن.

- هل حدث هذا قبل تبادل الحب أم بعده؟

- خمِّني.

- هل سارت الأمور على نحو سيئ؟

- لا، كانت رائعة، أو أظن هذا. حقيقة ليس لديَّ الكثير من الخبرات في الآونة الأخيرة كي أحكم بشكل صحيح.

نظرت مو حولها وكأنها تبحث عن دليل وقالت: «لقد أخفيت صور ديفيد، أليس كذلك؟».

- بالطبع فعلت ذلك.

- ولم تتفوهي باسمه مثلًا في اللحظات الحميمة؟

تذكرت الطريقة التي كان يحتضنها بها بول وقالت: «لا، وقد أخبرته أنه نجح في تغيير حتى شعوري بنفسي».

هزت مو رأسها بحزن وقالت: «أوه ليف يا لحظك السيئ، لقد تعاملت مع ذلك العازب الفاسد».

- ماذا؟

عقدت مو حاجبيها وقالت: «إنه الرجل المثالي، صريح، لطيف، مهتم ويترك انطباعات قوية حتى يدرك أنك أعجبت به أيضًا، ثم بعدها يتهرب منك. إنه مثل إشعاع كريبتون[1] يؤثر في المرأة الضعيفة التي بحاجة ماسة إلى المشاعر، وهذه المرأة هي أنت ليف. لقد أدهشتِني ليف، لم أكن أتخيل أنه من ذلك النوع».

نظرت ليف نحو قدح القهوة ثم قالت بلهجة دفاعية بعض الشيء: «من المحتمل أن أكون قد تحدثت عن ديفيد كثيرًا حينما أريته اللوحة».

---

(1) مادة خيالية تظهر بشكل أساسي في قصص سوبرمان، مادة خضراء تُضعِف حتى تقتل.

اتسعت عينا مو ثم نظرت نحو السماء.

- اعتقدت أنني ينبغي أن أكون واضحة بشأن كل شيء. إنه يعلم وجهة نظري بشأن هذا الأمر، أعتقد أنه تقبل هذا.

شعرت وكأنها تسمع صوتها يقول: مشوشة.

- قال إنه ليست لديه مشكلة في ذلك.

نهضت مو واتجهت نحو سلة الخبز، ومدت يدها وأخذت شريحة وطوتها نصفين والتهمت قضمة وقالت لها: «ليف، لا يجب أن تكوني صريحة بشأن الرجال الآخرين، لا يوجد رجل يريد أن يسمع عن روعة من سبقه حتى لو كان ميتًا. بل إنك يمكن أن تكوني قد تشدقت بمعسول الكلام عن عظمة من عرفتِه».

- لا أستطيع التظاهر بأن ديفيد لم يكن جزءًا من الماضي.

- لم أقل هذا، لكن لا يجب أن يكون حاضرك كله.

وبينما كانت ليف تنظر إليها قالت مو: «أأصدقك القول؟ إنك مثل من يدور في دائرة، أشعر أنك في الوقت الذي لا تتحدثين فيه عنه تفكرين في الحديث عنه».

قد يكون ما تقوله صحيحًا منذ أسابيع قليلة مضت، لكن ليس الآن. إنها تريد أن تتجاوز. تريد أن تتجاوز الأمر مع بول.

- لا يهم هذا الآن، أليس كذلك؟ لقد أفسدت الأمر. لا أعتقد أنه سيعود ثانية.

احتست القهوة وقد أحرقت لسانها واستطردت قائلة: «كان غباء مني أن أبني آمالًا عظيمة».

وضعت مو يدها على كتفها وقالت: «إن الرجل كائن غريب. وليس بصحيح أنه لم يكن واضحًا أنك تعانين الاضطراب. أوه لقد مر الوقت، أنصِتي لي، عليك أن تخرجي وتذهبي في إحدى جولات الركض المجنونة التي تمارسينها، وسأعود في الثالثة وأكلمهم في المطعم لأخبرهم أنني مريضة وبعدها يمكننا أن نسُبُّه كثيرًا ونفكر في طرق عقاب من القرون الوسطى لأولئك الرجال الحمقى الذين يأتون ويذهبون كيفما يحلو لهم. لديَّ صلصال تشكيلي بالأعلى

أستخدمه في صنع دمية الفودو السحرية Vodoo doll[1]. هل يمكن أن تأتي ببعض من أشكال العصا الصغيرة؟ أم ربما بعض الأسياخ؟ إنني سأعاونك بكل جهدي».

جذبت مو المفتاح الإضافي وحيتها باليد التي تمسك بها قطعة الخبز المطوية وذهبت قبل أن تجيبها ليف.

خلال السنوات الخمسة الماضية أعادت شركة تريس أند ريترن أكثر من مئتي وأربعين عملًا فنيًّا إلى مالكيها أو إلى أحفاد مالكيها الذين كانوا يعتقدون أنهم لن يروا تلك الأعمال ثانية. لقد سمع بول قصصًا كثيرة عن وحشية الحرب، قصصًا أكثر فظاعة من أي شيء واجهه في عمله بالشرطة الأمريكية؛ كان أصحابها يرددونها ويقصون أحداثها بوضوح وكأنها حدثت بالأمس القريب وليس منذ ستين عامًا. لقد رأى تحمل الألم وكأنه إرث غالٍ عبر العصور وأصبح جليًّا على وجوه الأحياء الباقين.

لقد مد يد المساعدة إلى بعض النسوة العجائز اللاتي بكَيْن من شدة الفرحة حينما أصبحن في المكان نفسه مع لوحة كانت قد سرقت من آبائهن الذين قتلوا. ورأى رهبة أفراد العائلة الصغار وهم ينظرون إلى اللوحة المفقودة منذ سنوات طوال. لقد تحمل الكثير من الخلافات مع مديري أكبر المعارض الفنية الوطنية وكان يمنع نفسه من اتخاذ أي رد فعل حينما يعيد بعض المنحوتات إلى أصحابها بعد معارك طويلة ثم يعرضها أصحابها للبيْع. لكن في المجمل أتاحت له تلك الوظيفة -خلال السنوات الخمسة الماضية التي مارسها فيها- أن يشعر بأنه يقف بجانب بعض الحقوق الأساسية. وحينما كان يسمع قصص الرعب والخيانة عن أُسر قتلت وشردت إبان الحرب العالمية كما لو أن تلك الجرائم قد اقترفت بالأمس ويعلم أن الضحايا لا يزالون يتذوقون مرارة الظلم كل يوم، فكان يستمتع كونه جزءًا من بعض التعويض لهم.

لم يتعامل مع أي شيء مشابه من قبل.

قال جريج: «ما هذا الهراء، هذا شيء قاس».

---

(1) من أشكال الممارسات السحرية في العديد من الثقافات، يتم إدخال مسامير بها أو ما شابه لجلب الأذى أو المرض.

كانا بالخارج ينزهان كلبَيْ جريج -كلبان مفرطا النشاط- وكان الطقس باردًا على غير المعتاد في هذا الوقت وتمنى بول لو أنه ارتدى سترة ملابس إضافية.

- لم أصدق الأمر، رأيت اللوحة الأصلية أمام وجهي.

- وماذا قلت لها؟

جذب بول وشاحه حول عنقه وقال: «لم أتفوه بشيء، كل ما فعلته أنني غادرت المكان».

- هربت؟

- كنت أحتاج إلى بعض الوقت كي أفكر في الأمر.

انطلق بيريت -كلب جريج الأصغر- عبر المرج الأخضر كصاروخ موجَّه. وتوقف الرجلان يراقبانه وهما ينتظران تحديد هدفه.

- أرجو ألا تكون قطة. أرجوك لا تهاجم قطة. لا بأس إنه زنجبيل.

وعلى بعد مسافة ألقى بيريت نفسه بسعادة على الكلب الآخر من سلالة سبرينغر سبانييل وأخذ يطارد الكلبان بعضهما بعضًا في جنون وفي دوائر متسعة على الحشيش الأخضر.

- ومتى حدث هذا؟ البارحة؟

- من ليلتين. أعلم أنه عليَّ أن أهاتفها لكنني لا أدري ماذا أقول لها.

- أعتقد أن جملة «أعطني لوحتك اللعينة» ليست أفضل ما لديك.

نادى جريج كلبه الأكبر ليقترب ثم رفع يده ووضعها على حاجبه محاولًا تتبع تقدم بيريت وقال: «أخي، عليك أن تقبل بحقيقة أن القدر قد أفسد هذا الموعد».

دس بول يده في جيبه وقال: «لقد أحببتها».

نظر جريج جانبًا نحوه وقال: «ماذا؟ هل تعني أنك أحببتها حقًا؟».

- نعم... لقد أثرت فيَّ.

تفحص أخوه وجهه وقال: «هذ الأمر أصبح مثيرًا... بيريت تعال إلى هنا. لا عليك يا رجل، هناك كلب الفيزلا... إنني أكره هذا النوع من الكلاب... هل أخطرت رئيسك بشأن اللوحة؟».

- لأن جاني ستود بالطبع أن تتحدث إليَّ بشأن المرأة الأخرى. لا، لقد بحثت الأمر مع محام آخر عن مدى قوة القضية ويعتقد أننا سنكسبها.

لقد قال له شون وهو بالكاد يرفع عينه عن الأوراق التي أمامه إن *مثل هذا النوع من القضايا لا يسقط بالتقادم وأنت تعلم هذا.*

قال جريج وهو يعيد ربط كلبه في المقود ووقف مكانه ينتظر: «إذًا ماذا سنفعل؟».

- ليس هناك الكثير لنفعله. يجب أن تعود الصورة لمالكيها الحقيقيين، ولا أدري كيف ستتلقى هذا الأمر.

- قد تسير الأمور معها على نحو جيد. أنت لا تدري.

سار جريج بخطوات واسعة فوق العشب إلى حيث يركض بيريت وهو ينبح بجنون نحو السماء محذرًا إياها بألا تقترب.

- إذا كانت مفلسة وهناك فرصة لقدر مناسب من النقود، فأنت بهذا تسدي لها معروفًا.

ثم شرع في الركض وكلماته تتطاير من فوق كتفيه في النسيم وقال: «وربما تكنُّ لك الشعور نفسه ولا تهتم بأي شيء آخر، وينبغي أن تضع في ذهنك أخي أنها في النهاية مجرد لوحة».

نظر بول إلى ظهر أخيه وحدث نفسه قائلًا: «إنها ليست مجرد لوحة».

كان جيك في منزل أحد الأصدقاء، وذهب بول ليصطحبه في الثالثة والنصف -كما هو متفق- وغادر جيك منزل الصديق من الباب الأمامي بهدوء، شعره مشعث، وسترته فوق كتفيه في تمهيد واضح لسنوات المراهقة. لم تتوقف دهشته من مشاعر تلك العاطفة الأبوية المتحركة بداخله دومًا ومن ذلك الرباط الطبيعي. في بعض الأيام كان يحاول بصعوبة ألا يحرج ابنه بإظهار مدى عمق حبه له. لف ذراعه حول عنقه وأماله نحوه وطبع قبلة عابرة على رأسه وهما يتوجهان إلى محطة مترو الأنفاق.

- مرحبًا صديقي.

- مرحبًا يا أبي.

كان جيك مسرورًا وهو يشرح لأبيه بعض التباديل في اللعبة الإلكترونية الجديدة. أومأ بول برأسه وابتسم عند الأماكن الصحيحة، لكنه حتى وهو يفعل

ذلك وجد نفسه يُجري نقاشًا في رأسه وظل يراجعه في هدوء. ماذا عساه أن يقول لها؟ هل يقول لها الحقيقة؟ هل ستتفهم الأمر إذا ما أوضحه لها؟ أم هل يتجنب الحديث عن الأمر؟ ففي نهاية المطاف الوظيفة هي كل شيء. لقد تعلم ذلك منذ أمد طويل.

وبينما يجلس بجوار ابنه ويرقب إصبعيه يتحركان على أزرار وحدة التحكم باللعبة وانهماكه التام في تلك اللعبة ذات الصور المنقطة شرد بذهنه بعيدًا، وشعر بليف أمامه رقيقة خاضعة، ورأى عينيها الناعستين وهي ترفعهما نحوه كما لو أنها في حالة خدر من فرط مشاعرها.

- ألم تعثر على منزل جديد؟

- لا، ليس بعد.

- لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيك.

- هل يمكن أن نخرج لتناول البيتزا معًا الليلة؟

- مؤكد.

- حقًا؟

أومأ برأسه قائلًا: «نعم».

الألم الذي ارتسم على وجهها وهو يغادر. إنها شخصية واضحة وكل ما يعتمل بداخلها من مشاعر يظهر على وجهها كما لو أنها -مثل منزلها- لا تعرف أبدًا ما الذي ينبغي أن تخفيه.

- وآيس كريم؟

- بالطبع.

ثم هرب دون أي كلمة توضيح.

- هل ستشتري لي لعبة سوبر ماريو سماش برزدر Super Mario Smash Bros من شركة نينتندو Nintendo.

قال: «لا تخاطر أكثر من هذا».

طالت أيام الأسبوع وزاد من ثقلها ذلك الصمت الذي يغلفها. مو تذهب وتعود. رأيها الجديد عن بول: «إنه ذلك العازب المطلق الفاسد، أسوأ أنواع الكائنات».

صنعت لليف نموذجًا مصغرًا منه مصنوعًا من الطين وحثتها على أن تغرز به بعض الأشياء. كان على ليف أن تعترف بأن شعر بول الصغير كان متقنًا بدرجة مزعجة.

- هل تعتقدين أن ذلك سيسبب له ألمًا في معدته؟
- لا أستطيع أن أضمن لك هذا، لكنه سيشعرك بتحسن.

انتقت ليف مجموعة من العِصي الصغيرة ثم غرزتها بتردد في منطقة السرة وشعرت على الفور بالذنب جراء ذلك فراحت تسويها بإصبعها برفق. لم تستطع أن توائم تلك النسخة من بول مع ما تعرفه عنه، لكنها ذكية بما يكفي لكي تدرك أن بعض الأشياء لا تستحق أن نمعن التفكير فيها، لذا فقد اتبعت نصيحة مو وراحت تجري حتى أصيبت بألم شديد في الساقين. نظفت المنزل بأكمله وتخلصت من الحذاء ذي الفراشة. تفحصت هاتفها أربع مرات ثم أغلقته وهى تكره نفسها لأنها ما زالت تهتم.

قالت مو وهي تفحص النموذج الصغير في صباح يوم الاثنين: «يا لك من ضعيفة، إنك لم تكسري حتى أصابع قدميه، هل تريدين أن أفعل به شيئًا بدلًا عنك؟».

- لا، كل شيء على ما يرام حقًا.
- إنك رقيقة جدًا. سأخبرك شيئًا؛ حينما أعود للمنزل سوف نطويه ونحوله إلى منفضة سجائر.

وحينما عادت ليف للمطبخ كانت مو قد ألصقت خمسة عشر من ثقاب الكبريت أعلى رأسه.

جاءها عرضين بالعمل يوم الاثنين، أحدهما نسخة دليل لشركة تسويق مباشر مليئة بالأخطاء النحوية والإملائية، وبحلول السادسة مساءً كانت ليف قد عدلت الكثير لدرجة أنها أعادت كتابة معظمه. النسبة المدفوعة للكلمة كانت سيئة لكنها لم تبال، فهي تشعر بالراحة الشديدة لأنها تعمل بدل التفكير لدرجة أنها فكرت في أن تكتب لشركة فوربكس سوليشون Forbex Solutions دليلًا إضافيًا مجانيًا.

دق جرس الباب. لا بد وأن مو قد نسيت المفتاح في العمل.

- أزاحت نفسها بعيدًا عن المكتب وتمطت ثم اتجهت نحو هاتف الاتصال الداخلي.

- هل تركتِها في مكان ما؟

- أنا بول.

تسمرت في مكانها وقالت: «أوه، مرحبًا».

- هل يمكنني الدخول؟

- إنك لست بحاجة إليَّ، فأنا....

- أرجوك يجب أن نتكلم.

لم يكن هناك وقت لتتفحص وجهها أو تمشط شعرها. وقفت مترددة وإصبعها على زر الباب، ضغطته ثم تراجعت إلى الوراء وكأنها تستعد لحدوث انفجار.

أصدر المصعد صريرًا وهو في طريقه إلى أعلى وشعرت بمعدتها تعتصر كلما علا صوته، ثم ها هو ذا أمامها ينظر إليها مباشرة من خلال قضبان المصعد. كان يرتدي سترة بنية خفيفة وعيناه متوجستان على نحو غير معهود وتبدو عليه أمارات التعب.

- مرحَبًا.

غادر المصعد وانتظر في الردهة. وقفت وهي تعقد ذراعيها بشكل دفاعي.

- مرحبًا.

- هل يمكنني الدخول؟

تراجعت إلى الخلف لتفسح له وقالت: «هل تود أن تشرب شيئًا؟ أعني... أم أنك توقفت؟».

أدرك اللهجة الحادة في صوتها: «سيكون هذا جيدًا. أشكرك».

سارت عبر المنزل واتجهت إلى المطبخ -متصلبة الظهر- وتبعها هو. أعدت قدحين من الشاي وكانت تشعر بعينيه عليها. حينما أعطته أحدهما كان يفرك صدغيه بشدة وحينما التقت عيناه عينيها كانتا تحملان نظرة اعتذار وقال: «إنه الصداع».

نظرت ليف إلى أعلى على النموذج المصنوع من الطين والموضوع على الثلاجة وتصاعدت الدماء إلى وجهها جراء شعورها بالذنب، وحينما مرت أمامه ألقته عن عمد وراء الثلاجة.

وضع بول قدح الشاي فوق الطاولة وقال: «إن الأمر جد صعب، لقد كنت أنوي أن آتي قبل ذلك لكن ابني برفقتي وكان عليَّ أن أفكر فيما سأفعله. أنصِتي لي، لقد جئت كي أوضح الأمر برمته لكني أعتقد أنه يجب أن تجلسي أولًا».

حدقت إليه وقالت: «يا إلهي. هل أنت متزوج؟».

- إنني لست متزوجًا، ولو الأمر هكذا لكان أيسر عليَّ.

ظلت واقفة في مكانها. أخرج خطابًا من جيب سترته وأعطاها إياه.

- ما هذا؟

- اقرئيه فحسب وسأوضح لك الأمر بأقصى ما أستطيع.

مؤسسة تريس أند ريترن

مبنى 6.115 شارع جرانثام

15 أكتوبر 2006

عزيزتي السيدة هالستون

نحن نعمل لدى منشأة تسمى شركة تريس أند ريترن أُنشئت من أجل إعادة الأعمال الفنية إلى أولئك الذين عانوا من فقدها بسبب السرقة أو البيع بالإكراه للقطع الأثرية الشخصية خلال فترة الحرب.

نحن نعلم أنك مالكة ***لوحة الفتاة التي تركتها*** *للرسام الفرنسي إدوارد ليفيفر، وقد تلقينا إثباتًا مكتوبًا من أحفاد السيد ليفيفر بأن هذا العمل من المقتنيات الشخصية لزوجة الرسام وقد خضع للبيع القسري أو البيع بالإكراه. ويأمل المدعون -وهم يحملون الجنسية الفرنسية أيضًا- بإعادة العمل لزوجة الرسام، كما نود*

إخطاركم أيضًا أننا سنرفع الدعوى نيابة عنهم وفقًا لاتفاقية جنيف وبنود اتفاق لاهاي لحماية الممتلكات الثقافية في حالة الصراع المسلح.

وفي العديد من الحالات المماثلة تتم إعادة تلك الأعمال إلى مالكيها الأصليين بأقل قدر من التدخل القانوني. لذا فنحن ندعوكم للتواصل معنا من أجل ترتيب اجتماع بينكم وبين ممثلي عائلة ليفيفر من أجل الشروع في عملية الاستعادة.

نحن نقدر أن ذلك الإخطار جاء بمنزلة صدمة لكم، لكننا نود تذكيركم بأن هناك سوابق قانونية قوية من أجل استعادة الأعمال الفنية التي أُقتنيت نتيجة انتهاكات الحرب، ونود أن نضيف أنه قد يكون هناك مبلغ مالي تقديري كنوع من التعويض.

ونأمل بشدة في أن يمنح شعوركم بالرضى لمعرفة أن العمل أُعيد لأصحابه الأصليين بعض الرضى الإضافي لأولئك المتضررين، وذلك كما هو الحال مع العديد من الأعمال الأخرى المشابهة.

الرجاء عدم التردد في الاتصال بنا إذا كانت لديكم الرغبة في مناقشة الأمر.

بول مكفرتي

جاني ديكنسون

مديرا شركة تريس أند ريترن

حدقت ليف إلى الاسم المكتوب في نهاية الصفحة. شعرت أن الحجرة تضيق عليها. أعادت قراءة الكلمات معتقدة أنها مزحة. لا، لا بد أن هذا بول

مكفرتي آخر، بول مكفرتي مختلف تمامًا، هناك المئات منهم، فهذا الاسم شائع جدًّا. ثم تذكرت الطريقة الغريبة التي نظر بها إلى اللوحة منذ ثلاثة أيام وعدم قدرته على النظر إلى عينيها بعدها. جلست بتثاقل على مقعدها.

- أهذه مزحة؟
- ليتها كانت كذلك؟
- ما هي شركة تريس أند ريترن بحق السماء؟
- نحن نتعقب الأعمال الفنية المسروقة ونشرف على عملية إعادتها إلى أصحابها الأصليين.

حدقت إلى الخطاب وقالت: «نحن؟ وما علاقة هذا بي؟».

- الفتاة التي تركتها موضوع طلب استرداد. اللوحة لرسام فرنسي يدعى إدوارد ليفيفر وأسرته، وتريد أسرته إعادتها.
- لكن... هذا سخف. أنا أقتني اللوحة منذ سنوات، سنوات طوال، تكاد تقترب من عقد كامل.

مد يده في جيبه وأخرج خطابًا آخر به نسخة مصورة وقال: «جاءت هذه إلى المكتب منذ أسبوعين، كانت موضوعة على حامل المكتب وكنت مشغولًا في قضية أخرى لذا لم أتابع الاثنين معًا، ثم حينما دعوتني تلك الليلة عرفتها على الفور».

أمعنت النظر فيها ونظرت إلى النسخة المصورة ورأت لوحتها تنظر إليها من خلال الصفحات الملونة وقد بهتت الألوان نتيجة إعادة نسخها. مجلة أركتكشرال دايجست The Architectural Digest.

- نعم، أعتقد كانت هذه.

وضعت يدها فوق فمها وقالت: «لقد جاؤوا إلى هنا لكتابة مقال عن المنزل في بداية زواجنا واعتقد ديفيد أنها بمنزلة دعاية جيدة لعمله».

- كانت أسرة ليفيفر تجري مراجعة لكل أعماله وخلال عملية المراجعة اكتشفوا عدة أعمال مفقودة، من بينها الفتاة التي تركتها وليس ثمة تاريخ موثق لها بعد عام 1917. هل يمكن أن تخبريني كيف حصلت عليها؟

- هذا ضرب من الجنون، لقد اشتراها ديفيد من سيدة أمريكية في برشلونة.

- أهي صاحبة أحد المعارض؟ هل لديك إيصال بها؟

- إنه عادي لا يساوي شيئًا. كانت ستلقي باللوحة. لقد كانت في الشارع.

مرر بول يده على وجهه.

- هل تعرفين من هذه المرأة؟

هزت ليف رأسها بالنفي وقالت: «كان الأمر منذ سنوات».

- ليف، يجب أن تتذكري، الأمر جد مهم.

انفجرت قائلة: «لا أستطيع أن أتذكر. هل تأتي إلى هنا وتطلب مني تفسيرًا لملكيتي للوحة لأن هناك أحدًا في مكان ما قرر أنها تؤول إليه من ملايين السنوات! أعني ما هذا؟». دارت حول طاولة المطبخ وأردفت قائلة: «لا أستطيع أن أفهم هذا».

دفن بول وجهه بين يديه ثم رفع رأسه ونظر إليها وقال: «أنا جد آسف ليف، هذه أسوأ قضية تعاملت معها في حياتي؟».

- قضية؟

- هذا عملي، إنني أبحث عن الأعمال المسروقة وأعيدها لأصحابها.

سمعت نبرة العند في صوته وقالت: «لكنها ليست مسروقة، اشتراها ديفيد بعدل وإنصاف ثم أعطاها لي. إنها ملكي».

- إنها مسروقة ليف منذ ما يقرب من مئة سنة. نعم، لكنها مسروقة. انتبهي إليَّ، الأخبار الجيدة في الأمر أنهم على استعداد لدفع تعويض مالي.

- تعويض؟ هل تظن أن الأمر برمته يتعلق بالنقود؟

- إنني أقول فقط إن...

وقفت ووضعت يدها على حاجبها وقالت: «أتدري بول؟ أعتقد أنه من الأفضل أن تغادر».

- أنا أدرك أن اللوحة تعني الكثير، لكن عليك أن تفهمي أن...

- أريدك أن تمضي حقًا.

نظرا إلى بعضهما بعضًا وشعرت أنها لا تتقبل أي نقاش ولا تدري إن كان قد اعتراها مثل هذا الغضب الشديد من قبل.

- انظري، سأحاول أن أبحث عن طريقة للتسوية لكي تتلاءم مع...
- وداعًا بول.

تبعته حتى غادر المنزل، وحينما صفقت الباب خلفه تردد صدى صوته لدرجة أنها شعرت بأن المخزن بأكمله يرتج من أسفلها.

18

لم يكن شهر العسل الخاص بهما شهر عسل مثاليًا، فديفيد كان يعمل في مركز مؤتمرات جديد في برشلونة، مبنى صخم، شُيد ليعكس السماء الزرقاء والبحار المتلألئة. تذكرت دهشتها من تحدثه الإسبانية بطلاقة وتعجبها من كل الأشياء التي يعرفها والأشياء التي لم تكن عرفتها عنه بعد. وفي فترة ما بعد ظهيرة كل يوم كانا يستلقيان في فراشهما بالفندق، ثم بعدها يجوبان شوارع البورن القديمة والحي القوطي من القرون الوسطى، ويبحثان عن ظل يستظلان به ويتوقفان لتناول مشروب الموخيتو، ثم يجلسان بكسل بجانب بعضهما بعضًا وبشرتهما مبتلة من العرق. ما زالت تتذكر كيف كان يضع يده على فخذها، كانتا يدي فنان وكيف كان يبسطهما بعض الشيء كما لو أنهما يحملان دائمًا خططًا غير مرئية.

كانا يتجولان خلف ساحة كاتالونيا **Plaça de Catalunya** حينما سمعا صوت امرأة أمريكية. كانت تصرخ نحو مجموعة من ثلاثة رجال متبلدين وكادت أن تبكي حينما ظهروا من المدخل المكسو بالألواح ويلقون ببعض الأثاث والأدوات المنزلية والحلي أمام المبنى السكني. قالت متعجبة: «لا يمكن أن تفعلوا هذا».

أطلق ديفيد سراح يد ليف وخطا إلى الأمام. أطلقت المرأة -التي كانت رفيعة بارزة العظام في بداية منتصف العمر ذات شعر أشقر- أهه تنم عن الإحباط حينما ألقى الرجال بمقعد أمام المنزل، وقد توقف حشد صغير من السائحين ليشاهدوا ما يحدث.

قال لها وهو يمسك بمرفقها: «هل أنت بخير؟».

- إنه المالك يريد أن يتخلص من أشياء أمي، وقلت له مرارًا إنني ليس لديَّ مكان آخر لوضع هذه الأشياء.

- وأين أمك؟

- لقد توفيت وجئت إلى هنا لفرز تلك الأشياء، لكنه قال يجب أن تخرج من المنزل اليوم، وهؤلاء الرجال يلقون بها في الشارع ولا أدري ماذا سأفعل بها.

تذكرت كيف تحمل ديفيد المسؤولية وكيف أخبرها بأن تصطحب تلك المرأة إلى المقهى الذي يقع في الجهة المقابلة من الطريق، وكيف عبر عن اعتراضه للرجال بالإسبانية بينما كانت تجلس المرأة –واسمها ماريان جونسون– وتحتسي كوبًا من الماء المثلج وتنظر بقلق عبر الطريق. وقد أسرت أنها جاءت بالطائرة هذا الصباح وتقسم بأنها في حالة ارتباك شديدة.

- إنني آسفة. متى توفيت أمك؟

- أوه منذ ثلاثة شهور مضت. أعلم أنه كان ينبغي لي أن أتصرف بشكل أسرع، لكن الأمر يصبح صعبًا حينما لا يتحدث المرء الإسبانية، كان عليَّ أن أعيد جثتها بالطائرة لأرض الوطن من أجل مراسم الجنازة وقد انفصلت عن زوجي منذ وقت قريب لذا فأنا أفعل كل شيء بمفردي.

كان لها مفاصل يد بيضاء عريضة اكتظت تحتها مجموعة مذهلة من الخواتم البلاستيكية وارتدت طوق شعر مزركش بألوان الفيروز، وكانت ترفع يدها بين الحين والآخر لتتحسسه كما لو أنها تطمئن أنه في مكانه.

تحدث ديفيد إلى رجل بدا أنه مالك المكان. كان يتحدث بطريقة دفاعية في البداية لكن بعد عشر دقائق تصافحا بحرارة، وظهر مجددًا واتجه إلى المائدة. وقال ديفيد إنه عليها فرز الأشياء التي تود الاحتفاظ بها، وإنه لديه بعض أرقام هواتف شركات الشحن التي يمكنها أن تحمل تلك القطع وترسلها بالطائرة إلى بلدها. ويمكن لبعض عمال النقل حمل باقي الأشياء والتخلص منها مقابل مبلغ صغير.

قال بهدوء: «هل معك ما يكفي من النقود؟». كان رجلًا كريمًا بحق.

كادت ماريان جونسون تبكي من فرط الامتنان. ساعداها في نقل أشيائها وراحا يكدسانها على اليمين أو اليسار بناء على ما سيتم الاحتفاظ به. وبينما كانا يقفان هناك أشارت المرأة إلى بعض الأشياء لنقلها بحرص على أحد جوانب الطريق. نظرت ليف بإمعان إلى بعض القطع الموضوعة على الرصيف، ورأت آلة كاتبة ماركة كورونا وألبومات ضخمة مغلفة بالجلد داخلها ورق صحف قديم.

قالت المرأة وهي تضعها بحرص على قالب حجري: «أمي كانت صحفية واسمها لوان بيكر. أتذكر استخدامها لتلك الأشياء حينما كنت فتاة صغيرة».

أشارت ليف إلى قطعة صغيرة بنية اللون. وعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تتبينها بوضوح دون أن تقترب منها، فإنها شعرت بقشعريرة تسري في داخلها، فقد رأت ما يشبه الأسنان.

- أوه، إنها رؤوس بشرية مقلصة تقتنيها أمي، كانت تهوى تجميع كل الأنواع. هناك خوذة من أيام النازية في مكان ما هنا. هل تعتقدين أن يرغب بها أحد المتاحف؟
- ستمضين وقتًا مسليًا في محاولة تمريرها من الجمارك.
- يا إلهي سأتركها في الشارع وألوذ بالفرار.

توقفت لتمسح جبهتها وهي تقول: «يا لها من حرارة شديدة، سأموت من شدة الحر».

ثم وقعت عينا ليف على اللوحة. كانت مسنودة إلى أحد المقاعد، وجهها أخَّاذ حتى وسط تلك الفوضى والضوضاء. انحنت وأدارتها نحوها بحرص. رأت فتاة تتطلع إليها من بين إطار ذهبي محطم، وبعينيها لمحة من تحدٍّ وشعرها الأحمر المائل إلى الذهبي ينسدل فوق كتفيها، وعلى وجهها ابتسامة تشي ببعض الكبرياء، وبها شيء حميمي؛ شيء مثير.

غمغم ديفيد قائلًا وهو يقف بجانبها: «إنها تشبهك، هكذا تبدين». كان شعر ليف أشقر وليس أحمر وكان قصيرًا. لكنها أدركت التشابه على الفور والنظرة التي تبادلاها جعلت الشارع يتضاءل من حولهما.

التفت ديفيد نحو ماريان وقال: «هل تريدين الاحتفاظ بهذه؟».

اعتدلت في وقفتها وضاقت حدقتا عينيها وهي تقول له: «لا، لا أعتقد هذا».

أخفض ديفيد صوته وهو يقول لها: «هل يمكنني شراؤها منك؟».

- شراؤها؟ يمكنك أخذها دون مقابل. هذا أقل ما يمكن أن أفعله، لقد أنقذت حياتي.

لكنه رفض. ووقفا على الطوار وانهمكا في مفاوضات معاكسة غريبة، فديفيد يصر على إعطائها أكثر من النقود التي ترضى بها. وفي النهاية وبينما كانت ليف تفرز مجموعة من الملابس رأتهما يتصافحان وقد اتفقا على السعر.

قالت بينما كان ديفيد يحصي الأوراق المالية: «كنت سأعطيك إياها بكل سرور، وأقول لك الحق، إنني لم أحب هذه اللوحة قط. وأنا طفلة كنت أعتقد دومًا أنها تسخر مني، إنها تبدو متعجرفة بعض الشيء».

غادراها وقت الغسق وترك رقم هاتفه الجوال. أصبح الطوار نظيفًا أمام الشقة الخاوية، وكانت ماريان جونسون تلملم مقتنياتها حتى تعود للفندق. سارا مبتعدين وسط الحرارة الشديدة، وكان هو متهلل الوجه كما لو أنه حصل على كنز هائل حاملًا تلك اللوحة بإجلال كما سيحمل ليف فيما بعد في تلك الليلة.

- هذه هدية زواجنا، فأنا لم أمنحك شيئًا.

قالت وهي تمازحه: «اعتقدت أنك لا تريد أي شيء يقطع خطوط جدرانك النظيفة».

توقفا في الشوارع المزدحمة ورفعاها ونظرا إليها ثانية. تذكرت جلد مؤخرة عنقها المشدود الذي أحرقته الشمس والملمس الزيتي المتسخ لذراعيها. انعكست في أعينهما حرارة شوارع برشلونة وشمس ما بعد الظهيرة.

- أعتقد أنه يمكننا كسر القواعد من أجل شيء نحبه.

قالت كريستين: «إذًا اشتريتها أنت وديفيد بحسن نية، أليس كذلك؟».

ثم توقفت لتضرب على يد أحد المراهقين الذي كان يعبث بمحتويات الثلاجة وقالت له: «لن تتناول موس الشوكولاتة لأنك لن تتناول عشاءك هكذا».

- نعم، نجحت في إيجاد إيصال الاستلام.

كانت تضعه في حقيبة يدها، قصاصة مهلهلة من الورق مقطوعة من ظهر صحيفة مكتوب عليها: استلمت مع الشكر مبلغ 300 فرانك نظير لوحة ملكي باسم الفتاة التي تركتها - ماريان بيكر.

- إذًا إنها ملك لك، اشتريتها ولديك إيصال الاستلام، إذًا فالمسألة منتهية. تاسمين هل يمكن أن تخبري جورج أن العشاء سيعد في غضون عشر دقائق؟

- هل تعتقدين؟ وقالت المرأة التي حصلنا عليها منها أن أمها كانت تقتني اللوحة منذ نصف قرن ولم تكن تنوي بيعها بالأساس، كانت ستعطيها لنا دون مقابل لكن ديفيد هو من أصر على ذلك.

توقفت كريستين عن خلط السلطة ونفضت يدها وقالت: «الأمر برمته سخيف حقًا. أعني متى سينتهي؟ لنفترض أنك اشتريت منزلًا وكان أحدهم قد سرق الأرض من ضمن الأراضي التي استُولي عليها في العصور الوسطى؟ هل يعني هذا أن يأتي شخص ما ويطالب بإعادة منزلك أيضًا؟ هل عليَّ أن أعيد خاتمي الماسي لأنه أُخذ من قطعة بالخطأ في إفريقيا؟ إنها الحرب العالمية الأولى، يا إلهي! منذ ما يقرب من مئة عام، إن النظام القانوني يبالغ بشدة».

تراجعت ليف في مقعدها. كانت قد طلبت سفين في فترة ما بعد ظهيرة ذلك اليوم، كانت ترتجف من الصدمة، وقد طلب منها أن تأتي في المساء. وقد هدأ على نحو مطمئن حينما أخبرته بشأن الخطاب. هز كتفيه في لا مبالاة وقال: «إنه شكل مختلف لصيد الزبائن، هذا الأمر بعيد الاحتمال، لقد نظرت إلى الخطاب لكني لم أشعر بالقلق، فلديك إيصال واشتريتها بشكل قانوني، لذا فأنا أخمن أن الأمر لن يؤخذ به في المحكمة».

وضعت كريستين وعاء السلطة على المائدة وقالت: «من هذا الرسام على أي حال؟ هل تحبين الزيتون؟».

- اسمه إدوارد ليفيفر على ما يبدو لكنه لم يوقع على اللوحة. نعم أريد بعضًا منه. أشكرك.

- كنت أريد أن أقول لك... بعد المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها.

ثم نظرت إلى أعلى نحو ابنتها وقادتها إلى الباب وهي تقول: «اذهبي تاسمين، أريد بعضًا من الوقت المخصص للأم».

انتظرت ليف وفي عينيها نظرة ساخطة على أسلوبها القديم.

غادرت تاسمين الحجرة فقالت: «إنه روجر».

- من؟

غمزت بعينيها ومالت إلى الأمام فوق المائدة وأخذت نفسًا عميقًا بطريقة مسرحية وقالت: «كنت أريد أن أخبرك الأسبوع الماضي لكني لم أعرف كيف سأقول لك، هو يرى أنك غاية في اللطف، لكني أخشى أنك لست النموذج الذي يناسبه».

- حقًّا؟

- في الواقع هو يريد شخصًا أصغر. إنني جد آسفة لكني رأيت أنك لا بد أن تعرفي الحقيقة، فأنا لم أتحمل فكرة أن تجلسي هكذا وأنت تنتظرين مكالمته.

حاولت ليف أن ترسم أمارات الجدية على وجهها حين دخل سفين الحجرة، كان يحمل صفحة عليها بعض الملاحظات المكتوبة.

- لقد حصلت لتوي على هاتف أحد أصدقائي في دار سوذبي للمزادات Sotheby's والأخبار السيئة هي أن مؤسسة تريس أند ريترن مؤسسة معروفة دوليًّا، وهم يتعقبون الأعمال الفنية المسروقة لكنهم أيضًا يفعلون ما هو أصعب بصورة متزايدة وهو تعقب الأعمال المسروقة خلال فترة الحرب، فقد أعادوا قطعًا شهيرة في السنوات الأخيرة وبعضها من المقتنيات الفنية الوطنية، من الواضح أنه مجال عمل ناجح.

- لكن لوحة الفتاة التي تركتها ليست عملًا فنيًّا شهيرًا، إنها لوحة صغيرة من ألوان الزيت التقطناها ونحن في شهر العسل.

- هذا صحيح إلى حد ما. ليف، هل بحثت عن هذا الرجل ليفيفر بعد ما تلقيت الخطاب؟

- هذا أول شيء فعلته. إنه عضو ثانوي في المدرسة الانطباعية في مطلع القرن الماضي، وكانت هناك صورة فوتوجرافية باللون البني لرجل ضخم، وعيناه ذات لون بني داكن وشعره يصل حتى ياقة ملابسه، وقد عمل لفترة قصيرة تحت إشراف ماتيس.

- بدأت أفهم لماذا عمله -إن كان عمله- يمكن أن يكون موضوع طلب استرداد.

ألقت ليف بزيتونة في فمها وقالت: «أكمل». كانت كريستين تقف بجوارها وفي يدها منشفة الصحون.

- لم أخبره بشأن الدعوى، بالطبع هو لا يستطيع أن يثمن اللوحة دون رؤيتها، لكن بناء على آخر مزاد أقاموه لليفيفر ومصادره الأصلية، قدروا أنها يمكن أن تساوي ما بين اثنين وثلاثة ملايين جنيه.

قالت بوهن: «ماذا؟».

- نعم، هدية ديفيد الصغيرة أضحت استثمارًا جيدًا؟ مليونا دولار على الأقل كانت هذه كلماته نفسها. بل إنه أوصى بأن تجري تقييمًا تأمينيًّا على الفور. من الواضح أن ليفيفر هو أفضل رجل في سوق الفن. إن الروس لديهم شيء من أعماله ويرفعون السعر عاليًا.

ابتلعت الزيتونة بأكملها وبدأت تختنق فضربتها كريستين على ظهرها وصبت لها كأسًا من الماء، تجرعتها والكلمات تتردد في رأسها. لم يبدُ لها أي معنى.

- لذا، فليس ثمة دهشة في أن هناك أشخاصًا ظهروا من العدم لاقتناص الفرصة ومحاولة الحصول على حصتهم من الغنيمة. لقد طلبت من شيرلي في تلك الدار البحث عن بعض دراسات حالة وإرسالها عن طريق البريد الإلكتروني؛ ووجدت أن المدعين -الذين يفتشون قليلًا في تاريخ العائلة- يطالبون باللوحة ويقولون إنها كانت شيئًا عزيزًا على قلب أجدادهم وأن قلبهم يتفطر لفقدها... ثم يستعيدونها... ثم ما أدراك بعدها؟

قالت كريستين: «ماذا يحدث بعدها؟».

- يبيعون اللوحة، ثم يصبحون أغنياء بدرجة لا يتخيلونها حتى في أجمل أحلامهم.

خيم الصمت على المطبخ.

- تقدر من اثنين إلى ثلاثة ملايين لكننا دفعنا لها مئتي يورو فقط.

قالت كريستين بسعادة: «مثلما يحدث في برنامج مزاد التحف Antiques Roadshow[1]».

قال سفين وهو يصب لنفسه كأسًا من النبيذ: «هذا هو ديفيد، لديه القدرة دومًا على تحويل كل الأشياء إلى نجاحات. إنه لأمر مؤسف أن يعرفوا أن اللوحة في منزلك. أعتقد أنه دون وجود أي ضمان أو دليل لديهم من أي نوع لن يستطيعوا إثبات أنها في منزلك، هل هم على ثقة أنها في منزلك؟».

تذكرت بول وشعرت بتهيج في معدتها وقالت: «نعم، إنهم يعرفون أنني أمتلكها».

جلس بجوارها ووضع يده على كتفها وقال: «حسنًا، في كل الأحوال نحن بحاجة إلى أن نحصل لك على دعم قانوني جاد وبسرعة».

أمضت ليف اليومين التاليين في حالة من الغفلة، لكن عقلها يعج بالأفكار وضربات قلبها تتسارع. زارت طبيب الأسنان، واشترت الخبز واللبن، وسلمت عملين في موعدهما النهائي، وأخذت قدحين من الشاي إلى فران بالأسفل وأعادتهما إلى أعلى ثانية حينما اشتكت فران إنها نسيت السكر. بالكاد لاحظت أيًا من هذا. كانت تفكر في الطريقة التي قبّلها بها بول، وأول لقاء حدث مصادفة بينهما، وعرضه الكريم الغريب بالمساعدة. هل خطط لكل هذا منذ البداية؟ وبالنظر إلى قيمة اللوحة هل كانت هي ضحية لحيلة معقدة؟ تناولت اسم بول مكفرتي في محرك البحث جوجل وقرأت شهادات من الآخرين وقت عمله في قسم مكافحة سرقة الأعمال الفنية في الشرطة الأمريكية: «عقليته الإجرامية اللامعة» «وتفكيره الاستراتيجي». تبخر كل شيء كانت تعتقده عنه. ظلت الأفكار تدور وتتلاطم في ذهنها وتنحرف لتأخذ اتجاهًا مرعبًا. مرتان شعرت خلالهما بالإعياء وكان عليها أن تغادر الطاولة وترش وجهها بالمياه الباردة وأسندت وجهها إلى البورسلين البارد لحوض المياه.

في نوفمبر الماضي، ساعدت شركة تريس أند ريترن في إعادة لوحة للرسام الفرنسي سيزان لعائلة روسية من أصول يهودية. وتردد أن قيمة

(1) برنامج تلفزيوني بريطاني تبثه هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، حيث يسافر خبراء التحف إلى مناطق مختلفة من المملكة المتحدة لتقييم التحف التي يجلبها السكان المحليون. تم تشغيله منذ عام 1979.

اللوحة في المنطقة تقدر بخمسة عشر مليون جنيه. وتقول الشركة في موقعها على شبكة الإنترنت في الجزء الخاص بمعلومات بشأننا إنها تعمل على أساس تلقي العمولات.

أرسل إليها رسائل نصية ثلاث مرات يقول فيها: «هل يمكن أن نتحدث؟ أعلم أن الأمر صعب لكن أرجوك هل يمكن أن نناقشه معًا؟». كان يحاول أن يبدو عقلانيًّا كشخص جدير بالثقة.

كانت تنام بشكل متقطع وتجاهد كي تتناول الطعام.

وشاهدت كل هذا ولم تتفوه بكلمة.

كانت ليف تجري كل صباح وفي بعض الأمسيات أيضًا، احتل الجري مكان التفكير والطعام، والنوم في بعض الأحيان. كانت تجري حتى تلتهب ساقاها وتشعر وكأن رئتيها ستنفجران. جرت في شوارع جديدة حول الشوارع الخلفية لحي ساوثوارك Southwark، وعبر الجسر حتى الممرات الخارجية المضيئة للمدينة. كانت تجري مسرعة محاولة تفادي الاصطدام بأولئك المصرفيين ذوي الحلل الأنيقة أو السكرتيرات اللاتي يحملن القهوة في طريقهن إلى العمل.

خرجت للركض في مساء يوم جمعة الساعة السادسة مساء. كانت أمسية باردة جميلة من تلك الأمسيات التي تبدو فيها لندن وكأنها خلفية جميلة لفيلم رومانسي. كان البخار يخرج من فمها واضحًا في الهواء البارد وكانت تضع قبعة صوفية على رأسها تجذبها لأسفل بعض الشيء فوق جبهتها وتخلعها قبل أن تبلغ جسر ووترلو Waterloo Bridge ببعض الوقت. ومن بُعد تلألأت أضواء مدينة السيتي سكويرميل Square Mile عبر الأفق، وكانت الحافلات تسير ببطء عبر طريق إمبانكمت Embankment فالشوارع تعج بالحركة. وضعت سماعة الأذن Ipod وأغلقت باب المبنى ودست المفاتيح في سروالها وانطلقت في سرعة. وجعلت عقلها ينغمس مع ضربات الموسيقى العالية، موسيقى راقصة مستمرة لا تترك أي مساحة للتفكير.

- ليف.

قطع عليها طريقها فتعثرت ورفعت يدها للأمام فجأة ثم سحبتها للوراء ثانية وكأن شيئًا أحرقها حينما أدركت أنه هو.

كان يرتدي السترة البنية، وياقة قميصه مرفوعة إلى أعلى اتقاء للبرد ويمسك بملف تحت ذراعه. نظرا إلى بعضهما بعضًا وسارت للأمام قبل أن تلمح أي نوع من المشاعر وانطلقت مبتعدة وضربات قلبها تتسارع.

سار خلفها ولم تلتفت وراءها، لكنها تبينت صوته فوق صوت الموسيقى فرفعت صوتها وكادت تستشعر اهتزاز خطواته على الطريق.

مد يده فلامس ذراعها وبصورة غريزية استدارت ولكمته بشدة في وجهه. كان تأثير الصدمة عظيمًا لدرجة ترنح معها الاثنان للخلف، ووضع راحة يده على أنفه.

خلعت سماعة الأذن وصرخت به بعد أن استعادت توازنها: «دعني وشأني، اغرب عن وجهي».

- أريد التحدث إليك.

سال الدم من بين أصابعه ونظر إلى أسفل ورآه وقال: «يا إلهي!».

أسقط الملفات ومد يده الأخرى الخالية بصعوبة في جيبه وأخرج منديلًا قطنيًّا وضغط به على أنفه، ثم رفع يده الأخرى في إشارة إلى التوقف في سلام.

- ليف، أعلم أنك غاضبة مني الآن، لكنك...

- غاضبة منك؟ غاضبة منك؟ إن هذا لا يستطيع أن يصف شعوري نحوك الآن. لقد خدعتني حتى تسللت إلى منزلي، وكذبت حينما قلت إنك عثرت على حقيبتي، وأغرقتني بمعسول الكلام حتى وصلت إلى فراشي ثم –ويا للمفاجأة- تصادف أن هناك لوحة عينت لاستعادتها مقابل عمولة باهظة.

قال وقد اخترق صوته المنديل: «ماذا؟ هل تعتقدين أنني سرقت حقيبتك ودبرت كل هذا؟ هل فقدت صوابك؟».

ارتعش صوتها وطنت أذنيها وهي تقول: «ابتعد عني». واستدارت عائدة وسارت مبتعدة عنه عبر الطريق وقد توقف الأشخاص ليشاهدوا ما يحدث.

شرع في السير وراءها وقال: «لا، أنصِتي لي لدقيقة واحدة. إنني شرطي سابق، لست أنا من يسرق الحقائب أو حتى بصراحة أعيدهم ثانية، لقد قابلتك وأعجبت بك، ثم اكتشفت –مصادفة- أنك تملكين اللوحة التي عينت

لاستردادها. إن كان بمقدوري أن أعطي هذه المهمة لأي شخص آخر، لكنت فعلت. أنا آسف. لكن يجب أن تنصتي إليَّ».

أزاح المنديل بعيدًا عن وجهه، وكان هناك بعض من الدماء على شفتيه.

- هذه اللوحة مسروقة ليف، لقد بحثت في الأوراق ملايين المرات. إنها صورة لصوفي ليفيفر زوجة الرسام، لقد قبض عليها الألمان ثم اختفت اللوحة بعد ذلك مباشرة.

- كان ذلك منذ مئات السنوات.

- وهل هذا يجعلها من حقك؟ إنك تعرفين ما الذي يعنيه أن يُنتزع منك شيء تحبينه.

بصقت وقالت: «من الطريف أنني أعرف».

- ليف، أعلم أنك شخص جيد، وأدرك أن هذا كان بمنزلة صدمة، لكن إن فكرت في الأمر ستفعلين ما هو صواب. إن مرور الوقت لا يجعل من الخطأ شيئًا صحيحًا، ولوحتك مسروقة من عائلة تلك الفتاة المسكينة. هذا آخر ما يملكونه من أشيائها ويجب أن تكون معهم، والصواب هو أن تعود لهم.

كان صوته ناعمًا يكاد يكون مقنعًا.

- حينما تعرفين الحقيقة بشأن ما حدث لها، أعتقد أنك ستنظرين إلى صوفي ليفيفر على نحو مختلف.

- وفر على نفسك ذلك النفاق.

- ماذا؟

- أتعتقد أنني لا أدري كم تساوي؟

حدق إليها في دهشة.

عبست في وجهه وهي تقول: «ألا تدري أنني بحثت عنك وعن شركتك؟ وكيف تعمل؟ إنني أدرك ما وراء الأمر برمته بول، إن المسألة ليست لها علاقة بالخطأ أو الصواب. يا إلهي، لا بد وأنك ظننت أنني بالمهمة اليسيرة. تلك الفتاة الغبية التي تعيش في المنزل الخاوي وما زالت حزينة على زوجها، تجلس في مكانها وهي لا تدري شيئًا عما يجري حولها. إن الأمر يتعلق بالنقود بول، فأنت وأيًّا كان من ورائك تريدون اللوحة لأنها تساوي ملايين الجنيهات. أما

بالنسبة لي فالأمر لا يتعلق بالنقود؛ فلا أحد بمقدوره شرائي؛ ولا هي أيضًا. والآن اتركني وشأني».

استدارت وشرعت في الركض قبل أن يتفوه بكلمة أخرى، وأصوات دقات قلبها العالية تتردد في أذنيها وتغطي على أي صوت آخر. لم تبطئ من حركتها إلا حينما بلغت قاعة ساوث بانك سنتر South Bank Centre والتفتت وكان قد ذهب. ذاب وسط آلاف الأشخاص الذين يعبرون شوارع لندن في طريق عودتهم للمنزل. وحينما وصلت إلى منزلها كانت تغالب دموعها، ورأسها مليء بصوفي ليفيفر. **هذا آخر ما يملكونه من أشيائها. الصواب هو أن تعود لهم.**

غمغمت قائلة: «عليك اللعنة، عليك اللعنة، عليك اللعنة».

- ليف.

انتفضت حينما ظهر الرجل عند المدخل، لكنه كان أباها. كان يرتدي على رأسه بيريه أسود، ووشاحًا بألوان قوس قزح يلفه حول عنقه، ومعطفه القديم الصوفي الذي يصل حتى ركبتيه. لمع وجهه أسفل ضوء مصباح بخار الصوديوم. فتح ذراعيه ليحتضنها فكشفتا عن قميص ماركة Sex Pistols سكس بيستول بالأسفل.

- ها هي أنت، لم نسمع عنك من بعد ذلك الموعد الساخن الرائع. ظننت أنني يجب أن آتي لأرى كيف تسير الأمور.

19

- هل تريدين بعض القهوة؟

رفعت ليف نظرها إلى أعلى نحو السكرتيرة وقالت: «أشكرك».

كانت تجلس ساكنة على المقعد الجلد الفخم تنظر بلا هدف نحو الجريدة التي تظاهرت بمطالعتها خلال الدقائق الخمس عشرة الماضية.

كانت ترتدي حلة؛ الوحيدة التي تمتلكها، ربما تكون قد انتهت موضتها لكنها كانت بحاجة إلى أن تشعر بأنها متماسكة منظمة. شعرت منذ أول زيارة لمكاتب المحامين أنها لم تكن لديها الخبرة الكافية في مثل هذه الموضوعات، والآن تريد أن تشعر أن هناك شيئًا يساندها أكبر من مجرد شجاعتها في المواجهة.

- لقد هبط هنري لأسفل لانتظارهم في ردهة الاستقبال، لن يطول الوقت كثيرًا.

وبابتسامة شخص محترف، استدارت المرأة بحذائها ذي الكعب العالي وغادرت الحجرة.

كانت القهوة ممتازة، ينبغي أن تكون كذلك بالنظر إلى المبلغ الذي تدفعه بالساعة. أصر سفين على أنه لا جدوى من التصدي لهذه القضية دون وجود القوة والنفوذ اللازمين، وقد استشار أصدقاءه في صالات المزادات، ومعارفه في الحانة للتوصل إلى أفضل من يتابع دعوى الاسترداد. وأضاف قائلًا: «إنه لسوء الحظ أن القوة والنفوذ يحتاجان إلى الكثير من المال». عندما نظرت إلى هنري فيليب، وشعره المصفف بعناية، وإلى حذائه الجميل المصنوع يدويًا

وإلى لمعان وجهه المكتنز إثر عطلة باهظة الثمن أمضاها، فكل ما حدثت به نفسها هو «إنك تتمتع بهذا الثراء بسبب مثلي من الأشخاص».

سمعت وقع أقدام وأصوات خارج الردهة، فوقفت وعدلت من وضع تنورتها ولم ترسم أي تعبيرات على وجهها، ورأته هناك. كان يرتدي وشاحًا صوفيًا أزرق ويمسك بملف تحت ذراعه، وقد ظهر بوضوح وهو يقف بجانب هنري وشخصين آخرين لا تعرفهما. التقت عيناه عينيها لكنها حولت نظرها سريعًا عنه وشعرت أن الشعر الصغير في مؤخرة عنقها يسبب لها وخزًا خفيفًا.

- ليف، نحن جميعًا هنا، هل تودين الذهاب إلى غرفة الاجتماعات؟ لقد أخبرتهم أن يحملوا قهوتك إلى هناك.

نظرت بثبات نحو هنري الذي تجاوزها وفتح الباب من أجل أن تدخل المرأة الأخرى. شعرت بحضور بول كما لو أنه يشع حرارة، إنه هنا بجوارها. ارتدى سروالًا من الجينز كما لو أن هذا النوع من المقابلات ليس له أهمية كبيرة بالنسبة له فبدا وكأنه ذاهب إلى جولة للتريض.

قالت له بصوت خفيض للغاية لم يسمعه سواه: «هل خدعت أي امرأة أخرى وجردتها من مقتنياتها مؤخرًا؟».

- لا، كنت مشغولًا للغاية في سرقة الحقائب وإغواء امرأة ضعيفة.

رفعت رأسها نحوه وسلطت عينيها عليه، وقد رأت -لدهشتها- أنه يستشيط غضبًا مثلها تمامًا.

كانت جدران غرفة الاجتماعات مكسوة بالألواح الخشبية، وذات مقاعد جلد ضخمة، واصطفت على حوامل أحد الجدران كتب ذات أغلفة جلدية تشير إلى عدد من التسويات القانونية المنطقية الملأى بالحكم العظيمة. تبعت هنري وخلال دقائق كان الجميع يجلسون مصطفين على جانبي الطاولة. نظرت إلى دفتر الأوراق الذي أمامها، وإلى يديها، وإلى قهوتها، نظرت إلى كل شيء ما عدا بول.

انتظر هنري حتى صبت القهوة ثم شبك أصابعه وقال: «إذًا نحن مجتمعون هنا لمناقشة -مع عدم الإخلال- الدعوى المقدمة ضد السيدة هالستون من خلال مؤسسة تريس أند ريترن وبحث إمكانية التوصل إلى أي نوع من الاتفاق دون اللجوء إلى الإجراءات القانونية.

نظرت إلى الأشخاص الذين يجلسون قبالتها. كانت المرأة في منتصف الثلاثينيات، ذات شعر أسود ينسدل في تموجات حول وجهها وكانت تعبيرات وجهها قاسية، وراحت تدون شيئًا في مفكرة أمامها. الرجل الذي بجانبها كان فرنسي الجنسية يحمل ملامح غليظة تشبه ملامح الشاعر سيرج جينسبور Serge Gainsbourg. كانت ليف تعتقد دومًا أنه من الممكن تخمين جنسيات الوجوه المختلفة دون سماعهم وهم يتحدثون. كان الرجل نموذجًا للشخصية الفرنسية المثالية حتى يمكن أنه يدخن سجائر جولواز Gauloise ويرتدي سلاسل من البصل.[1]

ثم ها هو بول.

- أعتقد أنها ستكون فكرة جيدة إذا ما عرضنا بعض المقدمات البسيطة: اسمي هنري فيليب، أنا أنوب عن السيدة هالستون، وهذا هو شون فلاهرتي يمثل مؤسسة تريس أند ريترن، وبول مكفرتي وجاني ديكنسون هما مديراها، وهذا هو السيد أندريه ليفيفر من عائلة ليفيفر الذي قدم الدعوى بالتعاون مع مؤسسة تريس أند ريترن. سيدة هالستون هذه مؤسسة متخصصة في تتبع واستعادة...

قالت: «أعرف ما هي».

لقد كان قريبًا منها للغاية. كانت تستطيع أن ترى عبر المائدة مباشرة عروق يديه والطريقة التي يثني بها أساور قميصه فوق الأكمام. كان يرتدي القميص الذي ارتداه في الليلة التي جمعتهما معًا. إذا مدت قدمها قليلًا تحت المائدة فستلامس قدمه، لكنها ضمتهما بعناية أسفل المقعد ومدت يدها نحو قدح القهوة.

- بول، ربما ترغب في أن تشرح للسيدة هالستون كيف بدأت هذه الدعوى.

قالت بلهجة جافة: «نعم، أود أن أسمع ذلك».

رفعت رأسها ببطء ونظر بول إليها مباشرة، وتساءلت إن كان بمقدوره أن يكتشف مدى ارتجافها بشدة من الداخل. من المؤكد أن هذا مكشوف للجميع: فكل نفس من أنفاسها يخونها.

---

(1) نظرة الإنجليز النمطية للشخصية الفرنسية.

قال: «أود أن أبدأ حديثي باعتذار، إنني مدرك تمامًا أن هذا الأمر جاء بمنزلة صدمة، وهذا مؤسف للغاية. والحقيقة المحزنة أنه ليست هناك وسيلة للبدء بصورة لطيفة».

كان ينظر إليها مباشرة، وشعرت أنه يريد أن تقر بصحة حديثه ولو من خلال أي إشارة. من أسفل الطاولة، كانت تضم ركبتيها وتغرز أظفارها فيهما حتى يساعدها ذلك على التركيز.

- ما من أحد يريد أن يأخذ شيئًا يؤول بشكل قانوني إلى شخص آخر، نحن لا نهدف إلى هذا، لكن الحقيقة الواقعة -والتي تعود لفترة الحرب- تقضي بأن هناك خطأ ارتُكب، فقد سُرقت لوحة الفتاة التي تركتها لإدوارد ليفيفر -والتي تمتلكها وتحبها زوجته- ووُضعت بحوزة الألمان.

قالت: «إنك لا تعرف هذا».

انطوى صوت هنري على لهجة تحذير وهو يقول: «ليف».

- حصلنا على مستندات مكتوبة -عبارة عن مذكرات تمتلكها جارة السيدة ليفيفر- التي تشير إلى وجود لوحة لزوجة الرسام سرقها أو أخذها عنوة أحد القادة الألمان الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة في ذلك الوقت. والآن هذه القضية تعد غير مألوفة، وذلك لأن معظم الأعمال التي نؤديها تتعلق بفقد الأعمال الفنية خلال الحرب العالمية الثانية، ونحن نعتقد أن السرقة الأولى وقعت خلال الحرب العالمية الأولى، ولكن لا تزال معاهدة لاهاي تنطبق على تلك الفترة.

قالت: «ولم ظهر ذلك الآن بعد ما يقرب من مئة عام من سرقتها كما تقول؟ من المفيد أن يتصادف ويساوي السيد ليفيفر الكثير من النقود الآن، ألست معي في ذلك؟».

- إن القيمة غير مادية.

- حسنًا، إن كانت القيمة غير مادية، سأقدم تعويضًا لكم. والآن، هل تريدون أن أعطيكم ما دفعته مقابل اللوحة؟ لأن الإيصال ما زال معي. هل تأخذون ذلك المبلغ وتدعوني وشأني؟

أطبق الصمت على المكان.

مد هنري يده وربت على ذراعها. ابيضت مفاصل أصابعها إثر إحكام قبضتها على القلم.

قال برقة: «اسمحوا لي أن أتدخل. إن هدف هذا الاجتماع هو عرض عدد من الحلول للقضية ونرى إن كان أي منها مقبولًا لدينا».

تبادلت جاني ديكنسون بضع كلمات هامسة مع أندريه ليفيفر وهي تُظهر على وجهها ذلك الهدوء المدروس لمعلمة ابتدائي.

قالت: «أود أن أقول إنه فيما يتعلق بعائلة ليفيفر، فإن الشيء الوحيد المقبول هو إعادة اللوحة».

قالت ليف: «فيما عدا أنها ليست لوحتهم».

قالت بهدوء: «إنها لوحتهم في إطار اتفاقية لاهاي».

- هذا هراء.

- إنه القانون.

نظرت إلى أعلى وكان بول يحدق إليها. لم يتغير تعبير وجهه، لكن كانت هناك لمحة اعتذار في عينيه. عن ماذا؟ عن الصراخ عبر تلك الطاولة اللامعة من خشب الماهوجني؟ أم تلك الليلة المسروقة؟ أم اللوحة المسروقة؟ إنها لا تدري. حدثت نفسها قائلة: «*لا تنظر إليَّ هكذا*».

قال شون فلاهرتي: «ربما -كما قال هنري- يمكننا تحديد بعض الحلول الممكنة».

قالت ليف: «نعم، يمكنك تحديدها».

- هناك عدد من السوابق القضائية بالنسبة لمثل هذه الحالات، إحداها أن السيدة هالستون لها الحرية في أن تسقط الدعوى، وهذا يعني أن السيدة هالستون ستدفع إلى عائلة ليفيفر قيمة اللوحة وتحتفظ بها.

لم ترفع جاني ديكنسون عينيها عن المفكرة التي أمامها وهي تقول: «لقد أوضحت لتوي أن عائلة ليفيفر لا تهتم بالنقود، إنهم يريدون اللوحة».

قالت ليف: «تمامًا. هل تعتقدون أنني لم أتفاوض على أي شيء من قبل؟ وأنني لا أعرف فن إدارة الحوار لصالحي؟».

قال هنري ثانية: «ليف، إن كان يمكننا أن...».

أطلقت تنهيدة وكانت يداها ترتعشان أسفل الطاولة.

- هناك بعض الحالات التي يتم خلالها الاتفاق على مشاركة اللوحة، وتلك الحالة نطلق عليها «أصول غير قابلة للتجزئة» كهذه الحالة، وأعترف أن الأمر يكون هنا معقدًا. لكن هناك حالات اتفق خلالها الأطراف -إن كنتم ترغبون في هذا- على مشاركة الوقت بالنسبة للعمل الفني، أو الاتفاق على أن يكون ملكية مشتركة مع السماح بأن يعرض في معرض لوحات كبير، ويصاحب ذلك بالطبع بعض الإخطارات التي تخبر الزائرين بأنه تعرض للنهب في الماضي وإلى كرم مالكيه السابقين.

هزت ليف رأسها بالنفي.

- هناك إمكانية البيع والتقسيم بحيث يمكننا...

قالت ليف وليفيفر في وقت واحد: «لا».

- آنسة هالستون.

قالت: «السيدة هالستون».

قال وقد أصبحت لهجته جافة: «سيدة هالستون، عليَّ أن أخبرك أن حجتنا قوية، لدينا عدد كبير من الأدلة التي تدعم الاسترداد، ومجموعة من السوابق القضائية التي تعطي صقلًا لقضيتنا. أقترح من أجل مصلحتك أن تفكري في التسوية».

ساد الصمت في الحجرة.

سألته ليف: «هل تقصد أن تخيفني بذلك؟».

قال بهدوء: «لا، لكن وددت أن أذكرك أنه من مصلحة الجميع أن تحل هذه القضية بالطرق الودية ولن نترك الأمر. أنا- نحن لن نتخلى عن القضية».

رأته فجأة وذراعه تلتف حول خصرها العاري وكتلة من شعره البني فوق صدرها الأيسر، ورأت عينيه وهي تبتسم في الضوء الخافت.

رفعت رأسها قليلًا وهي تقول: «إنها ليست ملكك لكي تأخذها، أراك في المحكمة».

كانا في مكتب هنري. احتست قدرًا كبيرًا من الويسكي، إنها لم تشرب الويسكي في النهار من قبل، لكن صب لها هنري كأسًا كما لو أنه يتوقع ما سيحدث. انتظر حتى تجرعت رشفتين.

قال وهو يتكئ بظهره للوراء على مقعده: «عليَّ أن أحذرك، إنها قضية باهظة التكلفة».

- كم هي مكلفة؟

- في العديد من القضايا يضطر أصحاب العمل الفني إلى بيعه بعد انتهاء القضية لسداد الأتعاب القانونية. هناك مُدعون في ولاية كونيتيكت الأمريكية استعادوا مؤخرًا عملًا فنيًّا يساوي اثنين وعشرين مليون دولار، لكنهم كانوا مدينين لأحد المحامين بأكثر من عشرة ملايين، ونحن سنحتاج إلى أن ندفع للخبراء بخاصة الخبراء القانونيين الفرنسيين بالنظر إلى تاريخ اللوحة. وهذه القضايا تستغرق وقتًا طويلًا ليف.

- لكن هل سيسددون تلك الأتعاب إذا ما كسبنا القضية؟

- ليس بالضرورة.

استوعبت ذلك وقالت: «هل تتحدث في خمسة أرقام؟».

هز هنري كتفيه وقال: «أتوقع ستة أرقام، هذا يعتمد على مدى قوة حجتهم، لكنهم لديهم سوابق، لكن باستطاعتنا أن نثبت أن لديك ملكية صحيحة، وهناك بعض الفواصل الزمنية في تاريخ اللوحة -كما هو واضح الآن- لكن إن كان لديهم دليل إنها سرقت في وقت الحرب، إذًا...».

قالت وقد نهضت وراحت تذرع الحجرة جيئة وذهابًا: «ستة أرقام، إنني لا أصدق هذا. لا أستطيع أن أصدق أن يقتحم أحدهم حياتي ويطالب بشيء أمتلكه، شيء أمتلكه للأبد».

- إن قضيتهم بعيدة عن أي مجال للشك، لكن أحب أن أوضح أن المناخ السياسي يعمل لصالح المدعين في مثل هذه القضايا في هذا الوقت، فقد باعت دار مزادات سوذبي ثمانية وثلاثين عملًا فنيًّا من مثل هذه الأعمال العام الماضي فقط. إنهم لم يبيعوا أي شيء منذ عقد كامل قبل ذلك.

كانت لا تزال تشعر بالاضطراب والتوتر الشديدين إثر ما حدث في الاجتماع.

قالت: «لكنهم لا يمتلكونها الآن».

قال: «وماذا عن النقود؟ لقد ألمحت إلى أن ميزانيتك محدودة بالفعل».

قالت: «سأعيد رهن المنزل ثانية، هل هناك شيء يمكن أن أفعله لخفض التكلفة؟».

مال هنري إلى الأمام على مكتبه وقال: «إذا اخترت خوض تلك الحرب، فهناك الكثير لتفعليه. الشيء الأكثر أهمية هو أنك كلما علمت المزيد عن منشأ اللوحة، ازدادت قوة موقفك. وإلا سأعين شخصًا يفعل ذلك وستدفعين له الأجر بالساعة، وذلك بخلاف تكلفة الشهود من الخبراء بمجرد عرض القضية على المحكمة، وإن استطعت فعل كل هذا سنحدد موقفنا حينها ويمكن أن أعين محاميًا».

- سأبدأ البحث.

كانت لا تزال تتردد في أذنيها كلماتهم الواثقة. حجتنا قوية، لدينا مجموعة من السوابق القضائية التي تمنح صقلًا لقضيتنا. رأت وجه بول أمامها واهتمامه المزيف وهو يقول: «إنه من مصلحة الجميع أن تحل هذه القضية بالطرق الودية».

ارتشفت الويسكي وقد أضعف توترها قليلًا، وفجأة شعرت بأنها وحيدة.

- هنري، ماذا كنت لتفعل؟ أعني إن كانت لوحتك؟

شبك أطراف أصابعه معًا ووضعها على أنفه وقال: «في رأيي أن الموقف غير عادل بالمرة، لكن ليف، أنا شخصيًا سأكون حذرًا بشأن رفع الدعوى إلى المحكمة، فهذه القضايا تسوء فيها الأمور. قد يستحق الأمر التفكير قليلًا في إيجاد طريقة للتسوية».

ظل وجه بول يتراءى أمامها فقالت بصراحة شديدة: «لا، لن يحصل عليها».

- حتى لو...

- لا.

شعرت بعينيه مصوبتين نحوها وهي تلملم أشياءها وتغادر الحجرة.

طلب بول الرقم للمرة الرابعة ووضع إصبعه فوق زر الاتصال، ثم غير رأيه وأدخل هاتفه في جيبه الخلفي. وفي الطريق، وقف رجل في حلة يجادل مع رجل المرور وأخذ يلوح بشدة بينما نظر إليه رجل المرور بلا مبالاة.

ظهرت جاني عند الباب وهي تقول: «هل ستأتي معنا من أجل الغداء؟ فالمائدة قد حجزت الساعة الواحدة والنصف».

لا بد وأنها وضعت بعض العطر، فقد ملأت رائحته الهواء حتى وصلت إلى جانب مكتبه.

- هل تحتاجين إلى وجودي هناك حقًا؟

لم يكن في مزاج يسمح بتبادل أي أحاديث ولو قصيرة. لم يرغب في أن يكون ذلك الشخص الساحر، وأن يسرد سجل الإنجازات المذهل للشركة في استعادة المسروقات. لم يكن يريد أن يجد نفسه جالسًا بجانب جاني ويشعر بها وهي تميل نحوه حينما تضحك وركبتاها تنجذبان إلى ركبتيه. والأكثر صلة من هذا، أنه لم يحب أندريه ليفيفر بعينيه اللتين يملؤهما الشك وفمه المتدلي. إنه نادرًا ما يشعر بذلك النفور السريع تجاه أحد العملاء.

كان قد سأله: «هل يمكنني أن أسألك متى أدركت أن اللوحة مفقودة؟».

- اكتشفنا هذا خلال عملية مراجعة.

- إذًا فأنت لم تفقدها بشكل شخصي؟

هز كتفيه باستهجان لاستخدام هذه الكلمة وقال: «شكل شخصي؟ لماذا يستفيد شخص آخر ماليًا من وراء عمل من المفترض أن يكون بحوزتنا؟».

قالت جاني: «لا تريد أن تأتي؟ لماذا؟ ماذا لديك بخلاف هذا؟».

- أرى أنه من الأفضل أن أطلع على بعض الأوراق.

أطالت جاني النظر إليه. نظر إليها في شرود وهو يفكر أنها تضع أحمر شفاه، وتنتعل حذاء ذا كعب عال ولها ساقان جميلتان.

- نحن بحاجة إلى هذه القضية بول، ونحتاج إلى أن نُشعره بالثقة في أننا سنكسب القضية.

قال دون أن ينظر إليها وقد تدلى فكه: «إذًا في تلك الحالة من الأفضل أن أمضي الوقت في بعض المراجعات بدلًا من تناول الغداء معه».

كان متجهمًا مع الجميع طيلة الأسبوع الماضي.

ثم أردف قائلًا: «اصطحبي مريام، فهي تستحق غداءً لطيفًا».

- لا أعتقد، فميزانيتنا محدودة ولا تكفي لأن ندعو السكرتيرات حينما ومتى نرغب في هذا.

ظلت نظرته مصوبة نحوها وقد مال إلى الوراء في مقعده وقال: «لا أرى سببًا لعدم دعوتها، وربما تنال إعجاب ليفيفر. مريام؟ مريام؟».

أطلت برأسها من الباب وفمها مملوء بشطيرة التونة وقالت: «نعم؟».

- هل تنوبين عني في تناول الغداء مع السيد ليفيفر؟

- بول، نحن...

ثم أطبقت جاني فكيها.

نقلت مريام نظراتها بينهما، ثم ابتلعت الطعام الذي يمتلئ به فمها.

- هذا كرم منك، لكن...

- لكن مريام معها شطيرة، ولديها عقود تحتاج إلى من ينسخها. أشكرك مريام.

انتظرت حتى أغلقت مريام الباب ثم زمت شفتيها في شرود وقالت: «هل كل شيء على ما يرام بول؟».

- كل شيء بخير.

لم تستطع أن تمنع رنة الغضب في صوتها وهي تقول: «أرى أنني لا أستطيع إقناعك. إنني أتطلع إلى سماع ما ستصل إليه في هذه القضية، وأنا على ثقة من أنها ستكون أدلة دامغة».

وقفت للحظة أطول ثم غادرت المكان.

سمعها وهي تتحدث بالفرنسية مع ليفيفر وهما يغادران المكتب.

جلس بول ونظر أمامه ونادى مريام.

ظهرت مجددًا وهي تحمل قطعة من الشطيرة.

- آسف، كان هذا...

ابتسمت وهي تدفع إلى فمها قطعة خبز كانت قد أفلتت منه، وأضافت شيئًا لم يستطع فك شفرته. لم يكن واضحًا إن كانت سمعت أيًا من المحادثة السابقة.

- هل هناك أي مكالمات؟

أصدرت صوتًا مزعجًا وهي تبتلع الطعام وقالت: «رئيس اتحاد المتاحف فقط كما قلت لك من قبل. هل تريد أن أعاود الاتصال به؟».

ابتسم ابتسامة خفيفة لم تصل إلى عينيه وقال: «لا، لا تقلقي بشأن هذا».

جعلها تغلق الباب وأطلق تنهيدة على الرغم من أنها خفيفة وبصوت خفيض فإنها شقت السكون.

أنزلت ليف اللوحة من على الحائط، ومررت أصابعها برفق فوق السطح الزيتي واستشعرت تدرجات الأشكال الدائرية وآثار ضربات الفرشاة وتساءلت ما إذا كانت وُضعت بيد الفنان نفسه، ونظرت إلى المرأة المرسومة على قماش الكانفا. احتوى الإطار الذهبي على بعض الشروخ؛ لكنها كانت تراها جذابة؛ وتستمتع بذلك التناقض بين ما هو قديم ومزين بنقوش باهتة وبين تلك الخطوط الواضحة النظيفة حولها. لقد أعجبتها حقيقة أن **الفتاة** هي الشيء الوحيد المفعم بالحيوية في الغرفة، تحفة قديمة وغالية تتلألأ كقطعة مجوهرات صغيرة عند نهاية فراشها.

إلى الآن، فلم تعد تلك **الفتاة** مجرد قطعة يتقاسمها التاريخ، نكتة حميمة بين زوج وزوجته، الآن هي زوجة فنان مشهور، مفقودة، وربما قتلت، وهي الصلة الأخيرة لزوجها في معسكر الاعتقال. إنها لوحة مفقودة، جوهر قضية، نقطة تركيز أساسية في تحقيقات مستقبلية، لا تعرف كيف ستكون مشاعرها حيال تلك النسخة الجديدة منها؛ كل ما تعرفه أنها فقدت جزءًا منها بالفعل.

لقد استُولي على اللوحة ووُضعت في حوزة الألمان. لم يهتم أندريه -بملامح وجهه العدوانية- حتى بالنظر إلى اللوحة ومكفرتي. في كل مرة تتذكر فيها بول مكفرتي في حجرة الاجتماعات يتملكها الغضب، وفي بعض الأحيان تشتعل غضبًا كما لو أنها تعاني من حرارة دائمة. كيف يمكن أن تسلم صوفي هكذا بمنتهى البساطة؟

جذبت ليف حذاء الجري من صندوقه أسفل الفراش، وارتدت سروال الرياضة، ودست المفتاح والهاتف في جيبها وذهبت لتجري.

مرت أمام فران وهي تجلس على صندوقها الخشبي المقلوب وراقبتها في صمت وهي تتجه نحو النهر ورفعت يدها بالتحية. لم تكن تريد أن تتحدث إلى أحد.

خرجت في وقت مبكر من بعد الظهيرة، وكانت ضفاف نهر التيمز Thames تعج بالموظفين الذين يسيرون على مهل بعد عودتهم من فترة راحة

غداء طويلة، ومجموعات من أطفال المدارس يتقدمهم ويقودهم مدرسوهم الذين تبدو عليهم علامات الاستياء، وبعض الأمهات الشابات اللاتي يشعرن بالملل بصحبة أطفالهن الرضع فيسرن وهن يبعثن برسائل نصية دافعات بعربة أطفالهن المهملين دون تركيز. كانت تجري بينهم متفادية إياهم ولا يبطئ من حركتها إلا شعورها بضيق أنفاسها وذلك الوخز في جسمها بين الحين والآخر. كانت تجري حتى تصبح جسدًا آخر وسط تلك الحشود، جسد غير مرئي، مبهم. هي تمضي قدمًا في طريقها، تجري حتى تؤلمها ساقاها، وينساب العرق حتى يشكل بقعًا بطول ظهرها، ويلمع وجهها، تجري حتى ينتابها الألم، حتى لا تفكر في شيء إلا في ذلك الألم الجسدي البسيط.

كانت تسير عائدة بجوار مجمع سومرست هاوس Somerset House حينما أشار هاتفها إلى قدوم رسالة نصية. توقفت وأخرجته من جيبها ومسحت العرق الذي سبب حرقة في عينيها.

«ليف، هاتفيني».

هرولت نحو ضفة المياه، وقبل أن تفكر بشأن ما ستفعله، راحت تؤرجح ذراعها وقذفت به بهدوء في مياه نهر التيمز فهبط دون صوت، ودون أن يلاحظه أحد، في دوامة المياه الرمادية التي تسرع نحو المنتصف.

20

فبراير 1917

أختي العزيزة

مرت ثلاثة أسابيع وأربعة أيام منذ أن غادرتنا. لا أدري إن كان هذا الخطاب سيصل إليك أو إن كانت وصلت إليك الخطابات الأخرى بالفعل؛ لقد فتح العمدة خط اتصال جديد وقد وعد أنه سيرسل هذا الخطاب بمجرد أن يعرف أن الجو آمن. إنني أنتظر وأبتهل إلى الله.

لقد أمطرت السماء لنحو أربعة عشر يومًا، وأحالت ما تبقى من الشوارع إلى طين يلتصق بأرجلنا ويجذب حدوات الأحصنة من حوافرها. نحن نادرًا ما نخاطر ونذهب إلى أبعد من الميدان؛ فالطقس شديد البرودة وصعب للغاية، وللحق إنني لم أعد أرغب في ترك الأطفال حتى ولو لبضع دقائق. جلست إديث بجوار النافذة لمدة ثلاثة أيام بعدما غادرت، رافضة أن

تتحرك حتى خشيت أن تكون مريضة، ودفعتها دفعًا نحو الطاولة، ومن ثم إلى الفراش فيما بعد. لم تعد تتحدث ولا يبدو من وجهها سوى عينين غائرتين من شدة السهاد، ويداها تتشبثان دومًا بتنورتي كما لو أنها تتوقع بشدة أن يأتي أحدهم وينتزعني من وسطهم كما حدث معك. وأخشى أنني ليس لديّ الوقت الكافي لكي أهدئ من روعها. أصبح عدد الألمان الذين يأتون في المساء أقل الآن لكنه عدد كاف ليجعلني أعمل كل ليلة حتى منتصف الليل لكي أطعمهم وأنظف المكان حينما يغادرون.

اختفى أوريلين، فقد غادر بعدك بفترة قصيرة، وسمعت من السيدة لوفير أنه ما زال في سان بيرون حيث يمكث عند جيك أريج فوق حانة التبغ. وأصدقك القول، ليس لديّ أي رغبة في رؤيته فلا فرق بينه وبين القائد في خيانته لك. ومع كل إيمانك بصلاح الأشخاص، لا أستطيع أن أصدق أن القائد يتمنى لك الخير لأنه لو كان كذلك حقًّا لما انتزعك هكذا من أحضاننا بهذه الطريقة حتى تعلم البلدة كلها بخطاياك المزعومة. لا أرى أي دليل على الإنسانية في تصرفات أي منهما. لا أرى ذلك ببساطة.

إنني أصلي من أجلك صوفي. إنني أرى وجهك حينما أستيقظ في الصباح وأنزعج حينما أتقلب ولا أجدك على الوسادة الأخرى بشعرك المعقوص في جديلة كبيرة، وكيف كنت تجعلينني أضحك وأنت تستحضرين الطعام من مخيلتك فأهبط إلى الحانة وأهتف باسمك ولا أجد إلا الصمت حيث ينبغي أن تكوني. إن ميمي تصعد إلى غرفة نومك وتنظر بداخلها

كما لو أنها هي الأخرى تتوقع أن تجدك أمام مكتبك تكتبين أو تتطلعين في شرود نحو الفراغ ورأسك يعج بالأحلام. هل تتذكرين حينما كنا نقف عند تلك النافذة ونتساءل عما يكمن وراءها؟ حينما حلمنا بالجنيات والأميرات وأولئك النبلاء الذين يأتون وينقذوننا؟ إنني أتساءل الآن عما فعلته تلك الروح الطفولية في هذا المكان بطرقه التي تملؤها الحفر، ورجاله الذين أضحوا كخيالات في ملابسهم الرثة، وأطفاله الذين يتضورون جوعًا.

أصبحت المدينة ساكنة منذ أن غادرت وكأنك أخذت معك روحها. تأتي السيدة لوفير إلى هنا وتظهر عنادها الشديد وتصر على أن يتردد اسمك وتخطب فيمن يود أن ينصت إليها. ولا يأتي القائد ضمن مجموعة الرجال القليلة التي تأتي لتناول العشاء في المساء. أعتقد أنه لا يقوى على النظر إليّ، أو ربما يعرف أنني سأقضي عليه بسكّيني الحاد فآثر الابتعاد.

ولا تزال بعض المعلومات القليلة تجد السبيل إلينا؛ فقد أجد قصاصة ورق تحت الباب تخبرنا بتفشٍّ آخر للأنفلونزا بالقرب من مدينة ليل، وأن الألمان قبضوا على بعض جنود الحلفاء قريبًا من مدينة دواي Douai، وقتل بعض الأحصنة على حدود بلجيكا من أجل الحصول على اللحم. ولم تأت أي معلومات عن جين ميشيل.

ينتابني الشعور في بعض الأيام وكأنني مدفونة في بئر أستمع لصدى الأصوات من بُعد. كل من أحبهم -فيما عدا الأطفال- قد انتزع مني ولا أدري إن كان

أي منكم حيًّا أم ميتًا. في بعض الأيام يتعاظم خوفي عليكم فأشعر وكأنني شللت وأنا أقلب بعض الحساء أو أجهز إحدى الموائد لكنني أجبر نفسي على التقاط أنفاسي وأحدث نفسي بأنني يجب أن أتحلى بالقوة من أجل الصغار. والأكثر من هذا كله يجب أن أتحلى بالإيمان. وأسأل نفسي بحزم ماذا عساها أن تفعل صوفي؟ والإجابة دومًا واضحة.

أرجوك أختي الحبيبة اعتني بنفسك. لا تحاولي أن تشعلي غضب الألمان حتى وإن كانوا هم سجانوك. لا تخاطري بنفسك مهما كانت دوافعك. كل ما يهم الآن أن تعودي لنا سالمة؛ أنت وجين ميشيل وحبيبك إدوارد. إنني أخبر نفسي بأن هذا الخطاب سيصل إليك وأخبرها أيضًا أنه ربما قد تكونان أنتما الاثنان معًا ولكن ليس بالطريقة التي أخشاها بشدة. أقول لنفسي إن الله عادل حتى وإن اختار ابتلاءنا في هذا اليوم الأسود.

احرصي على سلامتك صوفي.

أختك الحبيبة هيلين

21

وضع بول الخطاب الذي حصل عليه من المراسلات المخبأة التي احتفظ بها نشطاء المقاومة خلال الحرب العالمية الأولى. إنه الدليل الوحيد الذي وجده عن عائلة صوفي ليفيفر، ومن الواضح أن شأنه شأن المراسلات الأخرى؛ لم يصل إليها.

أصبحت لوحة الفتاة الآن من القضايا ذات الأولوية بالنسبة لبول، وقد شق طريقه في البحث خلال مصادره المعتادة؛ كالمتاحف، وموظفي المحفوظات، وصالات المزادات، والخبراء في قضايا الفن الدولية. وبالنسبة للمصادر غير الرسمية، فقد تحدث إلى مصادر أقل تأثيرًا مثل المعارف القديمة في شرطة سكوتلاند يارد، جهات اتصال معنية بجرائم الفن، روماني معروف بالتسجيل الحسابي لكل التحركات السرية لمجموعات كاملة من الفن الأوروبي المسروق.

وقد اكتشف هذه الحقائق؛ إن إدوارد ليفيفر حتى وقت قريب كان أقل الفنانين شهرة في أكاديمية ماتيس. وهناك أكاديميتان فقط تخصصتا في أعماله، ولا تعرف أي واحدة منهما أكثر مما يعرفه هو عن لوحة الفتاة التي تركتها.

وقد أظهرت إحدى الصور وبعض المذكرات المكتوبة التي حُصل عليها من عائلة ليفيفر حقيقة أن اللوحة كانت معلقة على مرأى من الجميع في فندق عرف باسم الديك الأحمر في بلدة سان بيرون، وهي بلدة احتلها الألمان

خلال الحرب العالمية الأولى. وقد اختفت دون أن يتعقبها أحد بعد ما تم القبض على صوفي ليفيفر.

ثم كانت هناك فجوة زمنية نحو ثلاثين عامًا قبل أن تظهر اللوحة مجددًا بحوزة واحدة تدعى لوان بيكر، التي احتفظت بها في منزلها في الولايات المتحدة لما يقرب من ثلاثين عامًا حتى انتقلت إلى إسبانيا حيث توفيت واشتراها ديفيد هالستون فيما بعد.

ماذا حدث للوحة خلال تلك الفترات الزمنية؟ هل سرقت؟ وإلى أين أخذت؟ ماذا حدث لصوفي ليفيفر التي يبدو أنها اختفت من التاريخ؟ التوصل إلى هذه الحقائق يشبه لعبة توصيل النقاط لكي تكتمل الصورة، ودون التوصل إليها بشكل صحيح لن تتضح الصورة. هناك الكثير الذي كتب عن لوحة صوفي ليفيفر أكثر مما كتب عنها هي ذاتها.

خلال الحرب العالمية الثانية، احتُفظ بالكنوز المنهوبة في غرف سرية في ألمانيا، وكانت محمية تحت الأرض. واستهدف ذوو الكفاءات العسكرية تلك الأعمال الفنية، الملايين منهم، يعاونهم التجار والخبراء معدومو الضمير. لم يكن هذا مجرد سلب عشوائي لجنود في معركة؛ بل هي سرقة ممنهجة، محكمة، منظمة وموثقة.

لكن في الحرب العالمية الأولى لم يكن هناك سوى مجموعة قليلة من الوثائق الباقية فيما يتعلق بالممتلكات المنهوبة، وخاصة في شمال فرنسا. وقالت: جاني *إنها* بمنزلة *قضية اختبارية*، قالتها ببعض الكبرياء. وللحق، فهذه القضية مهمة بالنسبة لشركتهم فهناك عدد متزايد من المؤسسات التي تشبه مؤسستهم والتي ظهرت فجأة، وجميعهم يبحثون عن مصدر الأعمال الفنية، ويضعون قائمة بالأعمال الفنية التي مضى أقارب أصحابها المتوفين عقودًا في محاولة لاقتفاء أثرها. أصبح هناك الآن المؤسسات التي تعمل بمبدأ لا ربح لا رسوم وبالتالي فهي تضعف من وجودهم، وهم يعدون بأشياء خيالية لأولئك الأشخاص المستعدين لتصديق أي شيء من أجل استعادة ممتلكات أحبائهم.

قدم شون تقريرًا بأن محامي ليف جرب عدة وسائل قانونية من أجل شطب القضية؛ فقد ادعى أنها خارج قانون التقادم، وأن عملية البيع إلى ديفيد من ماريان بيكر كانت «بريئة». وللعديد من الأسباب المعقدة، أخفقت

كل هذه المحاولات. وقال شون بابتهاج: «إنهم سيلجؤون إلى المحكمة ربما الأسبوع القادم. ونحن لدينا القاضي بيكر، وهو يحكم لصالح المدعي في مثل هذه القضايا. يبدو الأمر جيدًا».

قال بول: «عظيم».

كانت هناك نسخة مصورة من لوحة الفتاة بحجم ورق متوسط معلقة في مكتبه ضمن لوحات أخرى مفقودة أو موضوع لطلبات استرداد. كان بول ينظر إليها بشكل دوري ويتمنى وهو يفعل ذلك ألا تتذكر ليف ما حدث منه في الماضي. حول بول انتباهه إلى الأوراق التي أمامه. كتب القائد إلى زوجته في لحظة ما قائلًا: «لا يتوقع أحد أن يجد مثل هذا الرسم في فندق ريفي متواضع كهذا، في الحقيقة أنا لا أستطيع أن أرفع عيني عنه».

وتساءل بول: «عنه؟ أم عنها؟».

وعلى بعد أميال، كانت ليف تعمل هي الأخرى. فهي تستيقظ كل يوم في السابعة، وتنتعل حذاءها الرياضي وتذهب لتعدو بجوار النهر، والموسيقى تترد في أذنيها، وضربات قلبها تتفق مع وقع خطوات قدميها. تعود للمنزل بعدما تكون مو قد غادرت، وتأخذ حمامًا ثم تعد لنفسها الإفطار، وتتبادل أحاديث النميمة مع فران، لكنها الآن غادرت المنزل وتمضي أوقاتها في المكتبات الفنية المختصة، وفي أماكن الأرشيف العتيقة للمعارض، وعلى شبكة المعلومات الدولية وتتعقب هدفها بعزم وتصميم. وهي على اتصال يومي بهنري وتزوره زيارات خاطفة حينما يطلبها من أجل عقد اجتماع، وشرح أهمية الشهادة القانونية الفرنسية وصعوبة العثور على شهود خبراء. قالت: «إذًا باختصار، أنت تريد أن تأتي بدليل ملموس على لوحة لم يُسجل أي شيء عنها لامرأة لا يبدو أنها موجودة بالأساس».

ابتسم لها هنري بعصبية، فهو يفعل هذا كثيرًا.

أصبحت تعيش على اللوحة وتتنفسها. لم تنتبه حتى لقدوم عيد الميلاد، ولمكالمات أبيها الحزينة. لم تر لأبعد من عزمها على أن بول لن يأخذ اللوحة، وقد أعطاها هنري ملفات بكل المعلومات عن الجانب الآخر، نسخ من الخطابات بين صوفي وزوجها، ومراجع عن اللوحة والمدينة التي كانا يعيشان فيها. وقد قرأت كل الأوراق الأكاديمية والسياسية، وتقارير الصحف عن استرداد المسروقات؛ عن العائلات التي أبيدت في داخاو Dachau

بألمانيا، وعن أحفادهم الناجين الذين اقترضوا النقود لاستعادة لوحة من أعمال الرسام تيتيان، وهناك عائلة بولندية توفي الشخص الوحيد الناجي فيها منذ شهرين وهو يشعر بالسعادة بعد استعادة تمثال صغير من أعمال النحات الفرنسي رودان. كل هذه المقالات كتبت في الغالب من وجهة نظر المدعين؛ الأسرة التي فقدت كل شيء ووجدت لوحة الجدة رغم كل العقبات. والقارئ مدعو للابتهاج معهم حينما استعادوها. وتظهر كلمة «الظلم» تقريبًا في كل فقرة. ونادرًا ما تذكر مثل هذه المقالات الشخص الآخر الذي اشتراها بحسن نية وفقدها.

وفي كل مكان كانت تذهب إليه تكتشف بصمة بول فيه كما لو أنها تسأل الأسئلة الخاطئة، وتبحث في الأماكن الخطأ، كما لو أنها ببساطة تعالج معلومات حصل هو عليها بالفعل.

نهضت من مكانها وتمطت، ودارت حول المكتب. كانت قد نقلت لوحة الفتاة إلى أحد أرفف الكتب لتراها وهي تعمل كما لو أنها تمنحها بعض الإلهام. وجدت نفسها تنظر إليها طوال الوقت وكأنها تشعر بأن الوقت الذي سيقضيانه معًا ربما يكون محدودًا، وموعد المحكمة يقترب وهو دومًا أمامها كطبول الحرب التي تقرع إيذانًا ببدء المعركة. أعطيني بعض الإجابات صوفي، على الأقل أعطيني أي دليل لعين.

- مرحبًا.

ظهرت مو عند الباب وهي تتناول علبة من الزبادي. مرت ستة أسابيع وهي ما زالت تعيش في المنزل الزجاجي، وليف ممتنة لوجودها معها. تمطت ونظرت إلى ساعتها.

- يا إلهي إنها الثالثة بالفعل. إنني تقريبًا لم أذهب إلى أي مكان اليوم.

سحبت مو من تحت ذراعها نسخة من جريدة لندن المسائية وهي تقول: «ربما تحتاجين إلى أن تلقي نظرة على هذه، صفحة ثلاثة».

فتحت ليف الجريدة.

كان العنوان يقول: *أرملة المعماري الحائز على الجائزة تخوض معركة المليون جنيه من أجل عمل فني نُهب أيام الحكم النازي*. وتحت العنوان نصف صورة تجمعها وديفيد في حفل خيري منذ عدة سنوات مضت. كانت ترتدي رداء أزرق سماويًا وتحمل في يدها كأسًا من الشمبانيا كما لو أنها تشرب

نخب شيء أمام الكاميرا. وبجوارها صورة صغيرة للوحة الفتاة تحتها تعليق يقول: لوحة المدرسة الانطباعية التي تساوي ملايين «سرقها الألمان».

قالت مو: «رداء لطيف».

تصاعدت الدماء إلى وجه ليف. لم تتعرف إلى تلك المشاركة التي تعلو الابتسامة وجهها في هذه الحفلة، امرأة تعيش حياة مختلفة.

- أوه، يا إلهي!

شعرت وكأن أحدهم قد فتح أبواب منزلها وغرفة نومها.

- أعتقد أنه من مصلحتهم أن يجعلوك وكأنك ساحرة من المجتمع الراقي، وبهذه الطريقة يخدعون الآخرين لصالح ضحيتهم الفرنسية المسكينة.

أغمضت ليف عينيها، ربما إن ظلت هكذا يتلاشى ذلك كله من الوجود.

- من الواضح أن هذا خطأ تاريخي. أعني أنه لم يكن هناك نازيون في الحرب العالمية الأولى، لذا أشك إن كان أحد سيلاحظ الخبر، أعني أنه ليس مدعاة للقلق أو ما نحو ذلك.

سادت فترة صمت طويلة.

- لا أعتقد أن هناك أحدًا سيتعرف عليك، تبدين مختلفة تمامًا هذه الأيام، مختلفة كثيرًا.

ثم استحضرت الكلمات بصعوبة وأكملت: «أكثر فقرًا، وأكبر في العمر إلى حد ما».

فتحت ليف عينيها. ها هي تقف بجوار ديفيد ونسخة منها تبدو ثرية، هانئة البال.

أخرجت مو الملعقة من فمها وتفحصتها ثم قالت: «لا تنظري إلى النسخة الإلكترونية، اتفقنا؟ فتعقيبات القراء إلى حد ما... حادة».

نظرت مو نحوها.

- تعلمين أن لكل شخص رأيه هذه الأيام، شيء سخيف.

وضعت مو الغلاية على وضع التشغيل وأردفت قائلة: «هل لا تمانعين إن جاء رانيك هذا الأسبوع؟ إنه يشارك شقته مع خمسة عشر شخصًا. لطيف أن يجلس المرء ويمد ساقه أمام التلفزيون دون أن تصطدم بأحد يمر أمامه».

ظلت ليف تعمل طوال الليل في محاولة للتغلب على قلقها المتزايد، واستمرت في النظر إلى تقرير تلك الصحيفة؛ العنوان: سيدة المجتمع وفي

يدها كأس الشمبانيا. هاتفت هنري الذي طلب منها أن تتجاهل ذلك؛ فهذا شيء طبيعي في مسار القضية، ووجدت نفسها تستمع وهي تحاول تحليل رنة صوته لتستشف إن كان على هذا القدر من الثقة الذي يظهرها أمامها.

- أنصِتي لي ليف، إنها قضية كبيرة، وسيستخدمون فيها الأساليب القذرة، فعليك أن تستعدي لحدوث أي شيء.

لقد عين محامي مرافعات وأخبرها باسمه كما يفترض لو أنها سمعت عنه. وسألته عن أتعابه وسمعت هنري وهو يقلب أوراقه، وحينما أخبرها عن المبلغ شعرت وكأن الهواء قد هرب من رئتيها.

رن جرس الهاتف ثلاث مرات؛ في المرة الأولى كان والدها يخبرها أنه حصل على دور في أحد المسارح المتجولة في عمل باسم اركض وراء زوجتك Run ForYour wife، فأخبرته في شرود أنها مسرورة من أجله وحثته على ألا يركض وراء أحد آخر.

قال لها متعجبًا: «هذا ما قالته كارولين تمامًا».

المكالمة الثانية كانت من كريستين وقد دخلت في صلب الموضوع دون أن تلقي التحية وقالت: «يا إلهي، لقد رأيت الصحف لتوي».

- نعم، ليس أفضل شيء لقراءته في وقت ما بعد الظهيرة.

سمعت يد كريستين هي تتحرك على سماعة الهاتف، فكان صوت المحادثة مكتومًا.

- قال سفين عليك ألا تتحدثي إلى أحد، لا تتفوهي بكلمة.

- لم أفعل.

- إذًا من أين حصلت على تلك الأخبار الفظيعة؟

- يقول هنري ربما عن طريق مؤسسة تريس أند ريترن، فمن مصلحتهم تسريب معلومات تجعل القضية سيئة قدر الإمكان.

- هل آتي إليك؟ ليس لديَّ الكثير لأفعله الآن.

- هذا لطيف منك كريستين، لكني بخير.

لم تكن تريد أن تتحدث إلى أحد.

- إذًا يمكنني أن آتي معك إلى المحكمة إذا رغبت أو إن كنت تريدين أن أعاونك في إنجاح الأمر، فلدي معارف. ربما شيء في...

ألو...

- هذا... لا أشكرك.

وضعت ليف سماعة الهاتف. سينتشر الخبر في كل مكان الآن، فكريستين أكثر فعالية في نشر المعلومات عن الصحيفة ذاتها. تتوقع ليف أن عليها توضيح موقفها للأصدقاء والمعارف، فاللوحة إلى حد ما لم تعد ملكها فقد أصبحت معروفة للجميع، محور نقاش، رمزًا للخطأ.

بمجرد أن وضعت سماعة الهاتف رن على الفور مما جعلها تنتفض.

- كريستين، إنني...

- هل المتحدث أوليفيا هالستون؟

جاءها صوت رجل.

قالت في تردد: «نعم».

- اسمي روبرت شيلر. إنني مراسل قسم الفنون في مجلة تايمز The Times. آسف إن كنت أتحدث في وقت غير مناسب ولكني أجمع بعض المعلومات عن خلفية تلك القطعة الفنية التي تمتلكينها وأتساءل إن كان يمكنك أن...

- لا، لا. أشكرك.

ثم أغلقت سماعة الهاتف بقوة ونظرت نحوه بشك ثم انتزعت السماعة من مكانها خشية أن يرن ثانية. ثلاث مرات تعيد سماعة الهاتف مكانها وبمجرد أن تفعل يدق الهاتف على الفور وتجد عددًا من الصحفيين الذين يتركون أسماءهم وأرقام هواتفهم. كانوا يتعاملون بود وتملق. كانوا يعدونها بالعدالة والإنصاف، ويعتذرون عن اقتطاع جزء من وقتها. جلست في المنزل الخالي ولا تسمع شيئًا إلا صوت دقات قلبها.

وصلت مو إلى المنزل بعد الواحدة صباحًا ووجدتها أمام شاشة الحاسوب وسماعة الهاتف مرفوعة. كانت ترسل رسائل عبر البريد الإلكتروني لكل خبير حي مختص بالفن الفرنسي في مطلع القرن العشرين.

أتساءل إن كان لديك معلومات عن... أنا أحاول أن أتوصل إلى تاريخ... أي معلومات لديك عن... إن كنت تدري أي شيء عن...

قالت مو وهي تخلع سترتها: «هل ترغبين في بعض الشاي؟».

- أشكرك.

لم ترفع ليف نظرها عن الشاشة، وقد تقرحت عيناها. هي تعلم أنها وصلت إلى مرحلة أنها تنتقل بصورة عشوائية بين المواقع وتتفقد بريدها الإلكتروني وتعيد تفقده كل فترة، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها عن ذلك. فالشعور بأنها تفعل شيئًا حتى وإن كان عديم الجدوى أفضل من عدم فعل شيء على الإطلاق.

جلست مو أمامها في المطبخ ودفعت إليها بقدح الشاي وقالت: «تبدين مخيفة».

- أشكرك.

شاهدت مو ما تكتبه بفتور، ثم تناولت رشفة من الشاي ودفعت بمقعدها بالقرب من ليف وقالت: «دعينا ننظر ذلك من خلال تاريخي في دراسة الأدب مع مرتبة الشرف بشكل مباشر. لقد بحثت خلال أقسام الحفظ بالمتاحف، وقوائم المزادات؟ والتجار؟».

أغلقت ليف الحاسوب وقالت: «لقد بحثت خلالها جميعًا».

- قلت إن ديفيد حصل على اللوحة من سيدة أمريكية، ألا يمكن أن تسأليها من أين حصلت عليها؟

قلبت ليف خلال بعض الأوراق وقالت: «لقد سألها بالفعل الجانب الآخر وهي لا تعرف. كانت ملك لوان بيكر ثم اشتريناها نحن، هذا كل ما تعرفه. هذه المعلومات اللعينة كل ما كانت بحاجة إلى معرفتها».

نظرت إلى نسخة الجريدة المسائية وتلميحاتها إلى أنها هي وبول قد أخطآ وافتقارهما بطريقة ما إلى القيم الأخلاقية في ملكيتهما للوحة من الأساس. لترى وجه بول وعينيه مصوبتين نحوها في مكتب المحامي.

جاءها صوت مو هادئًا على غير المعتاد وهي تقول: «هل أنت بخير؟».

- نعم، لا. إنني أحب هذه اللوحة مو، أحبها حقًا. أعلم أن الأمر قد يبدو غبيًا لكن فكرة فقدها... أشبه بفقد جزء مني.

رفعت مو حاجبيها لمسافة ربع بوصة.

- أنا آسفة... إن الأمر... أن تجدي نفسك في الجرائد الإخبارية كعدو الشعب رقم واحد... إنه شيء مرعب.

- لا أدري ما أفعله بحق الجحيم. إنني أحارب رجلًا يفعل ذلك من أجل لقمة العيش وأنا أفتش عن قصاصات ورق ولا أجد أي دليل لعين.

أدركت ذلك وقد شعرت بالإهانة وكانت على وشك البكاء.

جذبت مو الملفات نحوها وقالت: «اذهبي إلى الخارج. اذهبي إلى السطح وحدقي إلى السماء لنحو عشر دقائق وذكري نفسك بأن وجودنا تافه لا معنى له وأن كوكبنا سيبتلعه ثقب أسود عميق، لذا فكل ما حولنا عديم الجدوى. وسأرى إن كنت أستطيع مساعدتك».

- أحتاج إلى الاسترخاء بعد مناوبة العمل، وهذا سيجعلني أنام بشكل أفضل. هيا.

ثم شرعت في الانتقال بين الملفات الموضوعة على المائدة.

مسحت ليف عينيها وارتدت كنزة وغادرت إلى السطح. شعرت في الخارج أنها خفيفة بلا أثقال في ظلمة الليل اللانهائية تلك. نظرت نحو المدينة الشاسعة التي تمتد أسفلها وتنفست في ذلك الهواء البارد. تمطت وشعرت بتيبس في كتفيها وشد عضلي في عنقها. هناك دومًا ذلك الشعور أنها تفتقد شيئًا في مكان خفي؛ أسرار بعيدة عن مرآها.

حينما دخلت المطبخ بعد عشر دقائق وجدت مو تكتب بعض الملاحظات في دفتر ملاحظاتها القانونية.

- هل تتذكرين السيد شمبر؟

- شمبر؟

- فن القرون الوسطى. أنا واثقة من أنك حصلت على تلك الدورة الدراسية. إنني أفكر بشأن معلومة قالها وقد استوقفتني؛ إنها عن الشيء الوحيد الذي يؤتي ثماره؛ قال في بعض الأحيان لا يكون تاريخ اللوحة عن اللوحة فقط، بل عن تاريخ العائلة بكل أسرارها وخطاياها.

نقرت مو بقلمها فوق المائدة وأردفت: «وعند هذه النقطة لم أفهم، ولكن يتملكني الفضول بالنظر إلى أنها كانت تعيش معهم حينما اختفت اللوحة وحينما اختفت كانوا جميعًا بالقرب منها بما يكفي، فلمَ لا يوجد دليل في أي مكان عن عائلة صوفي؟».

أمضت ليف الليلة وهي تتصفح ملفات الأوراق المكتظة تتفحصها جيدًا وتعيد التدقيق بها. وتصفحت شبكة المعلومات الدولية أيضًا وقد استقر منظارها فوق أنفها. وحينما وجدت في النهاية ما تبحث عنه قبل أن تشارف الساعة على الخامسة بوقت قصير، حمدت الله على دقة السجلات المدنية الفرنسية ثم جلست وانتظرت مو لكي تستيقظ.

قالت حينما ظهرت مو عند مدخل الباب وكانت عيناها غائمتين وشعرها ينسدل فوق كتفيها كغراب أسود: «هل هناك أي طريقة يمكن أن أنتزعك بها من رانيك هذا الأسبوع؟».

بدا وجهها ورديًا هادئًا بشكل غريب دون قلم تحديد العيون الكثيف.

- لا أريد أن أذهب للركض أو أي شيء آخر يجعلني أتعرق.
- إنك تتحدثين الفرنسية بطلاقة، هل ترغبين في أن تأتي معي إلى باريس؟
- هل هذه طريقتك في إخباري بأنك أصبحت مولعة بصحبة النساء؟ لأنني بالرغم من حبي لباريس لا أهوى مرافقة النساء.
- لا، إنني أريد إخبارك بأنني أحتاج إلى قدراتك الخارقة بصفتك متحدثة بالفرنسية للتحدث إلى رجل تجاوز الثمانين من عمره.
- إنها الإجازة المفضلة لدي.
- وبمقدوري أن أحجز في فندق نجمة واحدة، وربما يوم تسوق في متجر جاليري لافاييت Galeries Lafayette ومشاهدة المعروضات من خلال نوافذ المحال التجارية.

استدارت مو نحوها ونظرت بطرف عينها وقالت: «كيف لي أن أرفض هذا؟ متى سنغادر؟».

22

قابلت مو في الخامسة والنصف مساء عند محطة قطار سانت بانكراس St Pancras، وعند رؤيتها -وهي تلوح باقتضاب والسيجارة في يدها وتقف خارج المقهى- أيقنت أنها ارتاحت على استحياء لفكرة الابتعاد ليومين. يومان بعيدًا عن الصمت القاتل للمنزل الزجاجي، يومان بعيدًا عن الهاتف الذي أصبحت تراه يشع نشاطًا طوال الوقت؛ أربعة عشر صحافيًّا من مختلف الأماكن يتركون رسائل تعبر عن مختلف مشاعر الود على آلة الرد الآلي في هاتفها. يومان بعيدًا عن بول الذي يذكرها وجوده بكل شيء أخطأت فيه.

أخبرت سفين الليلة الماضية عن خطتها وقال لها على الفور: «هل يمكنك تحمل نفقات ذلك؟».

- لا أستطيع تحمل نفقات أي شيء، لقد أعدت رهن المنزل.

كان صمت سفين ينم عن أسفه.

- كان عليَّ أن أفعل ذلك، فالمؤسسات القانونية تريد ضمانات.

إن المصروفات القانونية تلتهم كل ما لديها، ومحامي المرافعات وحده يكلفها خمسمئة جنيه في الساعة ولم يترافع بعد في المحكمة.

قالت على الفور: «سيكون كل شيء على ما يرام بمجرد أن تعود اللوحة لملكيتي».

وبالخارج غرقت لندن في ضباب المساء وألقت الشمس بأشعتها البرتقالية الوهاجة في كبد السماء بلونها البنفسجي الداكن.

قالت وهما يستقران في مقعديهما: «أتمنى ألا أكون أبعدتك عن أي شيء».

وضعت مو مجموعة من مجلات الموضة وبعضًا من الشوكولاتة أمامهما وقالت: «أبعدتني فقط عن مجموعات الغناء الجماعي الشهرية بدار الرعاية كومفورت لودج Comfort Lodge، ولا أندهش حينما تتغير نغمات أغنية سنعلق الغسيل على خط سيجفريد We're Going To Hang Out The Washing On The Siegfried Line». إذًا من الرجل الذي سنذهب لمقابلته وما علاقته بقضيتك؟».

فيليب بيسيت هو ابن أوريلين بيسيت الأخ الأصغر لصوفي ليفيفر، وقد أوضحت لها ليف أن أوريلين هو الذي كان يعيش في فندق الديك الأحمر خلال سنوات الاحتلال. كان هناك حينما قُبض على صوفي، وظل هناك لسنوات بعدها.

- إنه الوحيد من بين كل الأشخاص الذي يمكن أن يعرف كيف اختفت اللوحة. لقد تحدثت إلى مشرفة دار الرعاية التي يعيش فيها وقالت إنه بإمكانه أن يتحدث، فهو لا يزال متنبهًا لما حوله بصورة جيدة لكن عليَّ أن آتي بشخصي لأنه لا يسمع جيدًا ولن أتمكن من إدارة الحوار عن طريق الهاتف.

- سأكون سعيدة لمعاونتك.

- أشكرك.

- لكن أتعلمين أنني لا أتحدث الفرنسية؟

أدارت ليف رأسها نحوها، وكانت مو تصب زجاجتين من النبيذ في كأسين من البلاستيك وقالت لها: «ماذا؟».

- إنني لا أتحدث الفرنسية، لكنني جيدة في فهم تمتمات كبار السن لذا يمكنني أن أفهم منه شيئًا.

انكمشت ليف في مقعدها.

مدت لها مو يدها بالنبيذ وتناولت رشفة كبيرة وقالت لها: «يا إلهي، إنك سريعة التصديق. إنني أقلق عليك أحيانًا، حقًا أفعل».

تذكرت القليل عن رحلة القطار هذه فيما بعد. شربتا النبيذ ثم زجاجتين صغيرتين منه وتحدثتا. إنها أول مرة تمضي فيها وقتًا بالخارج منذ أسابيع.

تحدثت مو عن اغترابها عن والديها اللذين لا يفهمان افتقادها للطموح أو دار الرعاية التي تحبها.

- أدرك أننا من أقل المستويات، مشرفو رعاية، لكن كبار السن أشخاص جيدون، بعضهم يتحلى بالذكاء وآخرون يتمتعون بخفة الظل. إنني أحبهم أكثر ممن هم في مثل أعمارنا.

وانتظرت مو أن تقول لها «باستثنائك طبعًا» وحاولت ألا تشعر بالإهانة حينما لم تذكر ذلك.

وأخيرًا حكت لها ليف عن بول وصمتت مو مؤقتًا.

قالت حينما استعادت القدرة على الحديث: «لقد أقمت معه علاقة دون أن تبحثي عنه من خلال جوجل، يا إلهي حينما قلت إنكِ خارج دائرة المواعدات لم أظن للحظة أنك ستقيمين علاقة مع شخص لا تعرفين شيئًا عن خلفيته».

رجعت بظهرها إلى الوراء وأعادت ملء كأسها. وللحظة بدت مبتهجة على نحو غريب ثم استطردت قائلة: «لقد أدركت لتوي؛ لقد اتضح أنك أنت ليف هالستون قد أقمت أكثر علاقة باهظة الثمن في التاريخ».

قضتا الليلة في فندق منخفض التكلفة في ضواحي باريس حيث دورة المياه مصبوبة من قطع من البلاستيك الأصفر والشامبو له نفس رائحة ولون سائل الاستحمام. وبعد تناول الكرواسون الجاف المدهن وقدح القهوة، هاتفتا دار الرعاية، حزمت ليف أشياءها وقد تلوت معدتها من فرط قلقها مما هو قادم.

قالت مو حينما أغلقت الهاتف: «لقد أفسد هذا كل شيء».

- ماذا حدث؟

- إنه ليس بصحة جيدة ولن يستطيع رؤية زوار اليوم.

نظرت إليها ليف في صدمة وكانت تضع بعضًا من مساحيق التجميل على وجهها ثم قالت: «هل أخبرتهم أننا قطعنا كل تلك المسافة من لندن؟».

- لقد أخبرتها أننا قادمتان من سيدني، لكن المرأة قالت إنه يشعر بالوهن اليوم وقد يكون نائمًا عند وصولنا. لقد أعطيتها رقم هاتفي الجوال ووعدت بالاتصال إذا ما تحسنت حالته.

- ماذا لو مات؟

- إنه نائم بعمق.

- لكنه طاعن في السن.

- هيا بنا؛ دعينا نذهب لتناول المشروبات في الحانة ونحدق إلى الملابس التي لن نشتريها، وإذا هاتفتنا سنكون في سيارة أجرة قبل حتى أن تقولي اسم الممثل جيرارد دوبارديو Gérard Depardieu.

أمضتا النهار في التجول حول أقسام متجر لافاييت اللانهائية التي زينت بكرات أعياد الميلاد واكتظت بالمتسوقين قبيل الاحتفالات. حاولت ليف أن تشتت انتباهها وتستمتع بالتغيير لكنها كانت متنبهة بشدة لأسعار كل شيء. منذ متى وكانت مئتا جنيه سعرًا مقبولًا لسروال من الجينز؟ وهل ذلك المرطب الذي يساوي ثمنه مئة جنيه يزيل التجاعيد حقًا؟ كانت تجد نفسها تلقي بحمالات الثياب سريعًا بمجرد أن تلتقطها.

- هل الأشياء بهذا السوء؟

- يتقاضى محامي المرافعات خمسمئة جنيه في الساعة.

انتظرت مو دقيقة كي تعرف النهاية المضحكة لهذا لكنها لم تأت.

- أوه، أرجو أن تستحق اللوحة كل هذا.

- يعتقد هنري أننا لدينا دفاع جيد، هو يقول إنهم يتكلمون عن ثقة.

- إذًا كفي عن القلق ليف بحق السماء، وتمتعي بنفسك قليلًا. هلُمّي بنا، هذه هي العطلة الأسبوعية التي ستغير مجرى الأمور.

لكنها لا تستطيع أن تستمتع بنفسها، فهي هنا لكي تحصل على معلومات من رجل في الثمانين من عمره والذي قد يقوى على الحديث معها أو لن يستطيع. إن القضية ستعرض في المحكمة يوم الاثنين، وهي تحتاج إلى قوة أكبر مما تحارب به الآن.

- مو.

- ماذا؟

كانت مو تحمل رداءً حريريًا أسود، وظلت تنظر إلى كاميرات المراقبة بشيء من الانزعاج.

- هل يمكن أن أقترح مكانًا آخر؟

- بالطبع، إلى أين تريدين أن تذهبي؟ قصر باليه رويال Palais Royal؟ أم حي ماريه Le Marais؟ بإمكاننا أن نجد حانة لكي ترقصي فيها إن كنت حقًا تريدين اكتشاف نفسك من جديد.

جذبت الخريطة من حقيبتها وبدأت تفردها.

- لا، أريد الذهاب إلى سان بيرون.

استأجرتا سيارة أجرة واتجهتا شمالًا. كانت مو لا تعرف القيادة، لذا تولت ليف القيادة وذكرت نفسها بالالتزام بالجانب الأيمن من الطريق، فقد مرت سنوات منذ أن قادت سيارة. شعرت باقتراب سان بيرون كصوت قرع طبول يأتي من بعيد. استحالت الضواحي إلى أراضي زراعية ومنشآت صناعية ضخمة. وفي النهاية وبعد مرور ساعتين تقريبًا ظهرت سهول الشمال الشرقي. اتبعتا العلامات، وقد ضلتا الطريق في بعض الأحيان، فاستدارتا عائدتين إلى المكان نفسه الذي قدمتا منه، وقبل الرابعة بقليل كانتا تقودان ببطء عبر الشوارع الرئيسية للبلدة. خيم الهدوء على المكان، وكانت الأكشاك القليلة الموجودة تلملم أغراضها ولم يكن هناك سوى بضعة أشخاص في الميدان المكسو بالحجارة الرمادية.

- إنني أشعر بعطش شديد، هل تعرفين الطريق إلى أقرب حانة هنا؟

توقفتا على جانب الطريق ونظرتا نحو الفندق القابع في الميدان. أخفضت ليف نافذة السيارة ونظرت إلى أعلى نحو الواجهة الحجرية وقالت: «ها هو ذا».

- ما هو؟

- الديك الأحمر، هذا هو الفندق الذي عاشوا فيه جميعًا. غادرت السيارة ببطء وضاقت حدقتاها وهي تنظر نحو اللافتة التي بدت أنها صنعت في بدايات القرن الماضي. كانت نوافذه مطلية بألوان زاهية، وأحواض الزهور ملأى بزهور عيد الميلاد السيكلامين، وتدلت اللافتة من دعامة مقوسة من الحديد المطاوع. ومن خلال المدخل المقوس حتى الفناء الحجري اصطفت عدة سيارات فارهة. شعرت ببعض التقلصات في معدتها نتيجة القلق أو الترقب. لا تدري أيًّا منهما السبب.

- إنه حاصل على نجمة ميشلان[1]. ممتاز.

- حدقت إليها ليف.

---

(1) نظام تقييم للمطاعم يركز على الطبق والمطبخ وليس المطعم فحسب ويتألف من ثلاثة مستويات فقط.

- الجميع يعلم أن المطاعم الحاصلة على نجمة ميشلان لديها أفضل طاقم عمل من حيث المظهر.
- وماذا عن رانيك؟
- ينطبق عليه القوانين الأجنبية، الجميع يعلم أن علاقتي به لا يعتد بها إن كنت في دولة أخرى.

دلفت مو من الباب ووقفت عند الحانة، وحياها شاب وسيم بمريلته المنشاة. وقفت ليف بجوارها وهي تحدثه بالفرنسية.

تنفست ليف روائح الطهو، وشمع العسل، والزهور التي تفوح رائحتها في المزهريات ونظرت نحو الجدران. لقد عاشت لوحتها هنا ما يقرب من مئة عام، لوحة الفتاة عاشت هنا كل ما مر من أحداث. وتوقع جزء غريب في داخلها أن تظهر اللوحة على أحد الجدران هنا كما لو أنها تنتمي بالأساس إلى هذا المكان.

التفتت نحو مو وطلبت منها أن تسأله إن كانت عائلة بيسيت ما زالت تمتلك المكان.

- بيسيت؟ لا.
- من الواضح أنه ملك لاتيفيا، فلديه سلسلة من المطاعم.

شعرت بالإحباط، وتخيلت الحانة ملأى بالألمان، والفتاة ذات الشعر الأحمر منهمكة في العمل خلف النضد، وتطل من عينيها نظرات الاستياء.

- جذبت نسخة اللوحة المصورة من حقيبتها وبسطتها وسألتها: «هل يعرف شيئًا عن تاريخ البار؟».

رددت مو ذلك سريعًا بالفرنسية. انحنى الساقي نحو النسخة المصورة وهز كتفيه.

- إنه يعمل هنا منذ أغسطس الماضي ولا يعرف شيئًا عنها.

تحدث الساقي ثانية، فأضافت مو: «إنه يقول إنها فتاة جميلة». وقد بدأ صبرها ينفد.

- ويقول إنك ثاني شخص يسأل عنها.

- ماذا؟

- هذا ما قاله.

- اسأليه عن شكل الرجل؟

لم يكن يحتاج أن يقول.

- أواخر الثلاثينيات أو نحو ذلك، يبلغ طوله نحو ستة أقدام ويتخلل الشيب شعره القصير «كأنه شرطي» وقال النادل: «يبدو أنه شرطي، وقد ترك البطاقة الخاصة به».

ثم أعطاها إلى ليف.

بول مكفرتي
مدير مؤسسة تريس أند ريترن

شعرت وكأنها تحترق في داخلها. أنت ثانية؟ لقد جئت حتى إلى هنا قبلي! شعرت وكأنه يسخر منها.

قالت: «هل يمكن أن أحتفظ بهذا؟».

هز النادل كتفيه بلا مبالاة وقال: «بكل تأكيد، هل أحجز لك مائدة؟».

احمر وجهها. «لا نستطيع تحمل تكلفتها».

لكن هزت مو رأسها بالموافقة وهي تتفحص قائمة الطعام.

- نعم، إنها أعياد الميلاد، لنتناول وجبة واحدة رائعة.

- لكن...

- إنها على حسابي. لقد أمضيت حياتي كلها وأنا أقدم الطعام للآخرين، لذا إن كنت سأتناول وجبة هائلة سأتناولها هنا في مطعم حاصل على نجمة ميشلان وأنا محاطة بأولئك الفرنسيين حسني المظهر. ثم إني مدينة لك بوجبة.

تناولنا الطعام في المطعم. كانت مو تثرثر كثيرًا وراحت تغازل طاقم الندل، وتصيح على غير عادتها مع كل طبق تتناوله، وأحرقت بطاقة بول بشكل احتفالي في نيران الشمعة الطويلة البيضاء.

حاولت ليف جاهدة أن تشاركها. كان الطعام شهيًا، نعم. والندل يظهرون اهتمامهم وكانوا على قدر من المعرفة. وظلت مو تردد أن الطعام أوصلها إلى حالة السعادة القصوى. لكن بينما كانت تجلس في المطعم المزدحم حدث شيء غريب؛ لم تكن تراه كمجرد حجرة لتناول الطعام، بل رأت صوفي ليفيفر في الحانة، وسمعت وقع أصوات أحذية الألمان وهي تتردد على الأرض الخشبية القديمة. رأت الحطب في موقد المدفأة وسمعت أصوات القوات الزاحفة، ودوي البنادق من بعيد. ورأت الطوار بالخارج والقوات تجر امرأة نحو الشاحنة العسكرية، وأخت تبكي ورأسها يستند إلى النضد هناك يغمرها حزن شديد.

قالت مو بفارغ صبر عندما رفضت كعك الشوكولاتة واعترفت لها بالسبب: «إنها مجرد لوحة».

قالت ليف: «أعرف ذلك».

وحينما عادتا أخيرًا للفندق، أخذت ملف المستندات إلى دورة المياه البلاستيكية، وبينما كانت مو تغط في النوم أخذت تقرأ لوقت طويل على شريط ضوئي خفيف محاولة أن تكتشف ما فات عليها من أحداث.

في صباح يوم الأحد، عندما قطمت كل أظفارها إلا واحدًا، حدثتها مشرفة الدار وأعطتهما عنوانًا في شمال شرق المدينة ووصلتا إلى هناك في سيارة صغيرة استأجرتاها وكانت تصارع في طريقها وسط الطرقات غير المألوفة والطريق الدائري المغلق. كانت مو -التي شربت ما يقرب من زجاجتين من النبيذ الليلة الماضية- هادئة وسريعة التأثر. وكانت ليف صامتة أيضًا ومتعبة من قلة النوم، وعقلها يضج بالأسئلة.

كانت شبه متوقعة أن تجد شيئًا باعثًا على الوحشة؛ ربما حجرة تعود لفترة السبعينيات مبنية من الطوب اللبن الكئيب، ونوافذ من الصلب uPVC، ومرأب قديم للسيارات، لكن المبنى الذي توقفتا عنده كان مكونًا من أربعة طوابق، له نوافذ أنيقة مؤطرة بمصاريع، وواجهة المبنى مغطاة بشجر اللبلاب ويحاط بحدائق تدل على العناية الجيدة بها مع زوج من البوابات الضخمة المصنوعة من الحديد المطاوع، وطرق ممهدة تؤدي إلى أماكن مغلقة ومنفصلة.

دقت ليف جرس الباب وانتظرت بينما كانت مو تعيد وضع أحمر الشفاه.

قالت ليف وهي ترقبها: «من أنت؟ أنا نيكول سميث؟». وراحت مو تثرثر وزالت حدة التوتر.

وقفتا في ردهة الاستقبال عدة دقائق قبل أن ينتبه إليهما أحد. وتعالت أصوات مرتعشة بالغناء من خلال الأبواب الزجاجية ناحية اليسار حيث كانت امرأة شابة ذات شعر قصير تعزف على جهاز إلكتروني. وفي حجرة صغيرة، جلست امرأتان في منتصف العمر تعكفان على العمل من خلال بعض السجلات.

وأخيرًا التفت أحد إليهما وقال: «صباح الخير».

قالت مو: «صباح الخير. لمن نأتي مرة ثانية؟».

- السيد بيسيت.

تحدثت مو إلى السيدة بفرنسية متقنة.

أومأت برأسها ثم قالت: «إنجليزيتان؟».

- نعم.

- سجلا اسميكما، ونظفا أيديكما ثم اتبعاني.

سجلتا اسميهما في أحد الدفاتر، ثم أشارت لهما نحو موزع سائل ضد البكتيريا، وتظاهرتا بفرك السائل جيدًا بين أصابعهما.

غمغمت مو قائلة بلهجة العالم ببواطن الأمور: «مكان لطيف». ثم اتبعتا خطوات السيدة السريعة عبر متاهة من الممرات حتى بلغتا بابًا نصف مفتوح.

- سيدي، لديك بعض الزوار.

انتظرتا وهما تشعران بالحرج خارج الباب بينما دلفت المرأة إلى الداخل ودخلت في نقاش سريع مع ما بدا لهما أنه ظهر المقعد. ثم ظهرت عند الباب وقالت: «بمقدوركما الدخول». ثم أضافت: «أتمنى أن يكون معكما شيء من أجله».

قالت المشرفة إنه ينبغي أن أحضر معي بعضًا من حلوى الماكرون.

نظرت إلى الصندوق المغلف باهظ الثمن الذي أخرجته ليف من حقيبتها.

قالت وهي تمنحهما ابتسامة خفيفة: «نعم، هذه هي الحلوى التي يحبها».

غمغمت مو وهي تغادر: «ستكون في حجرة الموظفين قبل الخامسة».

جلس بيسيت على مقعد ذي مساند عريضة وظهر عال يتطلع نحو فناء صغير تتوسطه نافورة، وخزان أكسجين على نقالة موصل بأنبوب صغير مثبت عند فتحة أنفه. كان وجهه باهتًا، ومجعدًا كما لو أن ملامح وجهه قد انكمشت تمامًا، وكان جلده شبه شفاف في بعض الأماكن ويكشف عن الأوردة الرفيعة تحته. ولديه كتلة كثيفة من الشعر الأبيض، وحركة عينيه توحي بأن هناك شيئًا أكثر وضوحًا بالنسبة له من الوسط المحيط بهم.

دارتا حول المقعد حتى أصبحتا تواجهانه، وانحنت مو حتى تقلل من فرق المسافة. وقالت ليف لنفسها إنها تبدو في منزلها وكأن هؤلاء عائلتها.

قالت له صباح الخير، ثم عرفت نفسها إليه. تصافحا وقدمت إليه ليف حلوى الماكرون. تفرسها لدقيقة ثم نقر على غطاء العلبة، ففتحتها ليف وقدمتها إليه. أشار لها أولًا كي تأخذ واحدة وحينما امتنعت اختار واحدة وانتظر.

تمتمت مو قائلة: «ربما يريدك أن تضعي واحدة في فمه».

ترددت ليف، ثم عرضتها عليه. فتح بيسيت فمه كالطائر الصغير ثم أغلقه، وأغلق عينيه حيث سمح لنفسه أن يتذوق الطعم.

- أخبريه أننا نريد أن نطرح عليه بعض الأسئلة بشأن عائلة إدوارد ليفيفر.

استمع بيسيت ثم تنهد بصوت مسموع.

- هل تعرف إدوارد ليفيفر؟

جعلت مو تترجم ثم انتظرت.

- لم ألتق به مطلقًا.

كانت لهجته بطيئة كما لو أنه يبذل مجهودًا في إخراج الكلمات.

- لكن هل يعرفه أبوك أوريلين؟

- التقاه أبي في عدة مناسبات.

هل عاش أبوك في سان بيرون؟

- عاشت عائلتي كلها في سان بيرون حتى أتممت الحادية عشرة. عاشت عمتي هيلين في الفندق، وأبي فوق حانة التبغ.

قالت ليف: «كنا في الفندق الليلة الماضية».

لم يبدُ أنه لاحظ ما قالته. فبسطت نسخة اللوحة.

- ألم يأت أبوك مطلقًا بذكر تلك اللوحة؟

نظر إلى الفتاة.

- على ما يبدو أنها كانت في الفندق لكنها اختفت، نحن نحاول أن نكتشف المزيد عن تاريخها.

قال أخيرًا: «صوفي».

قالت ليف وهي تومئ برأسها بقوة: «نعم. صوفي». وقد شعرت ببعض الحماس.

استقرت نظرته إلى الصورة، وغارت عيناه وأدمعت -وبدا فيهما الغموض- كما لو أنهما يحملان أفراح ومآسي العصور. طرف بعينه، وأغلق جفونه الملأى بالتجاعيد ببطء كما لو أنه رأى مخلوقًا غريبًا يعود لعصر ما قبل التاريخ.

رفع رأسه أخيرًا وقال: «لا أستطيع أن أخبرك، غير مسموح لنا بالحديث عنها».

نظرت ليف إلى مو.

- ماذا؟

- لم يكن يُذكر اسم صوفي في منزلنا.

طرفت ليف بعينيها وقالت: «لكنها كانت متزوجة بفنان كبير، أليس كذلك؟».

- لم يتحدث أبي عن ذلك مطلقًا.

- لا أفهم شيئًا.

- ليس كل ما يحدث في العائلات يمكن تفسيره.

خيم الصمت على الغرفة. شعرت مو بالحرج. حاولت ليف أن تغير الموضوع.

- إذًا هل تعرف الكثير عن السيد ليفيفر؟

- لا، لكني أمتلك عملين من أعماله. بعدما اختفت صوفي أرسل أحد التجار في باريس بعض اللوحات إلى الفندق؛ كان هذا قبل أن أولد

بفترة. لم تكن صوفي هناك، فاحتفظت هيلين باثنتين، وأعطت اثنتين لأبي فأخبرها أنه لا يريدهما، لكن بعد أن مات وجدتهما في السندرة. وكم كانت دهشتي حينما اكتشفت قيمتهما، فأعطيت واحدة لابنتي التي تعيش في مدينة نانت، والأخرى بعتها منذ سنوات، وهي تسدد نفقات معيشتي هنا، فالمكان هنا جميل للعيش فيه. لذا أعتقد أن علاقتي بعمتي صوفي علاقة جيدة رغم كل شيء.

لانت تعبيرات وجهه قليلًا.

مالت ليف نحوه وقالت: «رغم كل شيء؟».

كانت تعبيرات وجه الرجل غير مفهومة، وتساءلت للحظات إن كان قد غلبه النعاس، لكنه بدأ الحديث وقال: «كان هناك بعض الحديث الدائر... بعض الشائعات التي انتشرت في سان بيرون عن أن عمتي عميلة، ولهذا السبب طلب منا أبي ألا نتناول سيرتها. من السهل التظاهر وكأنها ليست موجودة. ولم يتحدث أي من أبي أو عمتي هيلين عنها حينما كنت أكبر وأشب عن الطوق».

- عميلة؟ تعني جاسوسة؟

انتظر لحظة قبل أن يجيب.

- لا. أعني أن علاقاتها مع المحتلين الألمان لم تكن علاقة... سليمة.

نظر إلى أعلى نحو المرأتين وأردف: «كان الأمر مؤلمًا بالنسبة لعائلتنا، إن لم تعيشا هذه الأوقات، ولم تأتيا من عائلة تنتمي لمدينة صغيرة، فلن تفهما ما الذي كان يعنيه هذا بالنسبة لنا. ليس ثمة جوابات عنها، أو صور أو رسومات، ومنذ اللحظة التي قُبض فيها عليها اختفت عمتي من الوجود بالنسبة لأبي».

تنهد ثم أكمل قائلًا: «كان أبي رجلًا قاسيَ القلب، وللأسف قررت بقية العائلة أيضًا محوها من التاريخ».

- حتى أختها؟

- حتى هيلين.

صُدمت ليف مما سمعته، فلفترة كبيرة اعتقدت أنها من المناضلين ضد مصاعب الحياة، فتعبيراتها توحي بالانتصار، وولعها بزوجها مرسوم على وجهها. حاولت التوفيق بين الصورة التي في مخيلتها عن صوفي وبين صورة تلك المرأة غير المحبوبة المرفوضة من الجميع.

كانت أنفاسه الطويلة المتعبة توحي بجبل من الألم، وشعرت ليف بالذنب لأنها جعلته يسترجع ذلك ثانية.

قالت له إنها آسفة ولم تدر ما الذي يمكن أن تقوله ثانية، ورأت أنهما لم تحصلا على شيء من وراء الزيارة، فلا عجب إذًا بعدم اهتمام بول بالمجيء.

طالت فترة الصمت. تناولت مو حلوى الماكرون في الخفاء، وحينما رفعت بصرها، كان بيسيت ينظر إليها.

لمست ذراعه وقالت: «أشكرك سيدي على مقابلتنا، لقد وجدت من الصعب الربط بين المرأة التي وصفتها وبين المرأة التي رأيتها... فلدي لوحتها، وكنت دومًا أحبها».

رفع رأسه قليلًا، وراح يرمقها وكانت مو تترجم.

- كانت تبدو في اعتقادي وكأنها شخص يعرف أنه محبوب، كانت لديها شجاعة وتصميم.

ظهرت الممرضة عند مدخل الباب تراقبهم، ومن خلفها امرأة تقف ومعها عربة الطعام تنظر إليهما بنفاد صبر وقد تسللت رائحة الطعام عبر المدخل.

نهضت استعدادًا للرحيل، وبينما كانت تفعل، رفع بيسيت يده وقال وهو يشير نحو رف كتب بسبابته: «انتظري. ذلك الكتاب ذو الغطاء الأحمر».

مررت ليف أصابعها على كعوب الكتب حتى أشار برأسه موافقًا على أحدها، فجذبت ملفًّا مهترئًا من فوق رف الكتب.

- هذه أوراق عمتي صوفي، مراسلاتها، ولا تحتوي على الكثير فيما يتعلق بعلاقتها بإدوارد ليفيفر، أشياء اكتشفوها مخبأة في حجرتها. لم تذكر شيئًا عن لوحتك حسبما أتذكر، لكنها يمكن أن تمنحك صورة أوضح عنها. في الوقت الذي لطخوا فيه اسمها كشفت لي هذه الأوراق عن حقيقة عمتي... كإنسانة... كإنسانة رائعة.

فتحت ليف الملف بحرص، ووجدت بداخله بطاقات بريدية، خطابات قديمة، ورسومات صغيرة مندسة وسطها. رأت كتابات صغيرة متشابكة بخط اليد على قصاصات مهلهلة من الورق موقعة باسم صوفي.

شعرت وكأن شيئًا علق في حلقها وعلى وشك الاختناق.

- لقد وجدتها بين متعلقات أبي حينما توفي، وقد أخبر هيلين أنه أحرقها، أحرق كل شيء. لقد ذهبت إلى قبرها وهي تعتقد أن كل ما يتعلق بصوفي قد انمحى. هذه كانت نوعية ذلك الرجل.

بالكاد استطاعت أن ترفع عينيها عن تلك الأشياء وتلعثمت وهي تقول: «سأنسخها وأرسلها لك ثانية على الفور».

لوح بيده بعدم اكتراث وقال: «ما الفائدة التي ستعود عليَّ منها؟ فلم أعد أستطيع القراءة».

- سيدي أريد أن أسأل؛ فأنا لا أفهم شيئًا. بالقطع كانت ترغب عائلة ليفيفر في الاطلاع على كل هذا.

- نعم.

تبادلت النظرات مع مو.

- إذًا، لمَ لَم تعطها إليهم؟

غشت عينيه سحابة من المرارة وقال: «إنها المرة الأولى التي زاروني فيها. ماذا أعرف عن اللوحة؟ هل بمقدوري أن أساعدهم في شيء؟ أسئلة؟ أسئلة؟».

حرك رأسه وارتفع صوته وهو يكمل حديثه: «لم يهتموا بشأن صوفي من قبل، فلم يحققوا استفادة على حسابها الآن. إن عائلة إدوارد لا تهتم بأحد سواهم، كل ما يهتمون به هو النقود فقط. سأكون سعيدًا إذا ما خسروا قضيتهم».

كانت هناك مسحة من العناد على وجهه وبدا أن الحوار انتهى. دلفت الممرضة ببطء وهي تشير إلى ساعتها بانتهاء الوقت، وعلمت ليف أنهما غير مرحب بهما الآن، لكن كان عليها أن تطرح سؤالًا آخر، ومدت يدها نحو معطفها.

- هل تعلم ماذا حدث لعمتك صوفي بعدما غادرت الفندق؟ ألم تعرف عنها أي شيء مطلقًا؟

نظر نحو صورتها وأسند يده إليها وأطلق تنهيدة من أعماق صدره.

- لقد قبض عليها الألمان وأخذوها إلى معسكر الاعتقال، وشأنها شأن الكثيرين منذ أن غادرت، لم يرها أو يسمع عنها أحد مرة أخرى.

23



1917

سارت شاحنة نقل الماشية وهي تحدث ضجيجًا عاليًا وترتج عبر الطرق الملأى بالحفر، وكانت تنحرف بين الحين والآخر نحو الجوانب العشبية لتفادي بعضًا من تلك الحفر العريضة. وتساقطت حبات المطر الخفيفة فجعلت العجلات تدور على الأرض الزلقة، فأعلنت العربة عن احتجاجها وألقت كتلًا من الطين وكان العجل يصارع كي يظل متماسكًا على الأرض.

وبعد مضي عامين داخل حدود مدينتنا الصغيرة الهادئة، صدمت حينما شاهدت نوع الحياة -والدمار- خارجها. فعلى بُعد أميال قليلة من سان بيرون، بدت العديد من القرى والمدن غير واضحة المعالم، وأضحت في غياهب النسيان. وكانت المتاجر والمنازل مجرد أكوام من الأحجار والركام، تتوسطها حفر كبيرة ملأى بالمياه ودلت الطحالب الخضراء وبعض النباتات على طول مدة وجودها في المكان. وكان أهل المدينة يشاهدوننا في صمت ونحن نمر أمامهم. مررت بثلاث مدن من دون أن أتمكن من تحديد مكاننا، وشيئًا فشيئًا بدأت أستوعب بعضًا مما يحدث حولنا. نظرت من خلال غطاء القماش المشمع المتمايل وشاهدت صفوفًا من الجنود الخيالة وهم ينقلون الخيول الهزيلة، والرجال ذوي الوجوه المتعبة يجرون النقالات بزيهم الداكن المبتل، وشاهدت الشاحنات المتمايلة تطل منها وجوه حذرة بنظرات صعبة الفهم خالية من أي تعبيرات. وكان السائق يتوقف بين الحين والآخر ويتبادل بضع

كلمات مع سائق آخر، وتمنيت لو أنني أعرف بعض كلمات من الألمانية لكي أعلم شيئًا عن وجهتنا. كانت صور الأشكال أمامي غير واضحة مع وجود المطر ولكن يبدو أننا كنا نتجه صوب الجنوب الشرقي. وأخبرت نفسي وأنا أحاول أن أتحكم في أنفاسي بأن هذا اتجاه إقليم أردينز، فقد قررت أن الطريقة الوحيدة للسيطرة على خوفي الشديد الذي ينذر بشعوري بالاختناق هو أن أطمئن نفسي بأننا في الطريق إلى إدوارد.

والحقيقة أنني كنت أشعر بخدر في جسمي، فالساعات القليلة الأولى التي أمضيتها في مؤخرة الشاحنة لم أستطع أن أكوّن فيها جملة واحدة إن سألني أحد. لقد جلست وأصوات أهل البلدة القاسية لا تزال تتردد في أذني، وفي ذهني صورة أخي وتعبيرات الاشمئزاز تعلو وجهه، وجف حلقي بشدة نتيجة ما حدث لتوه في تلك اللحظات. ورأيت أختي والحزن يحتل تقاسيم وجهها، وقبضة ذراعي إديث الصغيرتين تقبض عليَّ بشدة وهي تحاول التشبث بي. اعتراني خوف هائل في تلك اللحظات ورأيت أنني ربما قد أكون جلبت لنفسي العار. وتملكتني تلك الموجة من الخوف حتى إنني شعرت بقدميَّ ترتعشان وأسناني تصطك ببعضها بعضًا. ثم حينما نظرت إلى المدن التي دُمرت أيقنت أن ما هو أسوأ قد أتى بالفعل وأخبرت نفسي أنه عليَّ أن أبقى هادئة، فهذه مجرد مرحلة في طريق عودتي لإدوارد، وهذا هو ما طلبته بنفسي وعليَّ أن أومن بذلك.

وبعدما غادرنا سان بيرون بساعة عقد الجندي الذي يجلس قبالتي ذراعيه وأمال رأسه إلى الخلف على حائط الشاحنة وغط في النوم. من الواضح أنه قرر أنني لا أمثل أي تهديد، أو ربما كان متعبًا فلم يتحمل اهتزاز الشاحنة بشكل كاف لكي يبقى مستيقظًا.

وحينما تسلل الخوف إليَّ مرة أخرى كوحش مفترس، أغمضت عينيَّ وضغطت بيدي على حقيبتي وفكرت في زوجي.

***

ضحك إدوارد ضحكات خافتة

فقلت وأنا ألف ذراعيَّ حول رقبته وأجعل كلماته تهوي بنعومة فوق بشرتي: «لماذا تضحك؟».

- كنت أفكر فيك وأنت تطاردين السيد فاراج حول النضد.

لقد تعاظمت ديوننا، وكنت قد دفعت إدوارد للتجوال حول حانات بيجال نطلب النقود من أولئك الذين يدينون له ورفضنا أن نغادر حتى يسددوا لنا. وقد رفض فاراج ثم أهانني، فرفع إدوارد -الذي كان لا ينفعل بسهولة- قبضته سريعًا ولكمه بشدة، وقد فقد الوعي حتى قبل أن يرتطم بالأرض. وغادرنا الحانة ونحن نصيح استنكارًا وقد قلبت الموائد، وطارت الكؤوس بجوارنا، ورفضت أن أجري، ورفعت تنورتي وسرت بهدوء وتوقفت لأخذ المبلغ نفسه الذي يدينون به لإدوارد من درج النقود.

- يا لك من شجاعة زوجتي الصغيرة.

- أنا هكذا لأنك بجواري.

لا بد وأنني غفوت واستيقظت حينما توقفت الشاحنة فجأة وارتطم رأسي بدعامة السقف، وكان الحارس بالخارج يتحدث إلى جندي آخر. وتطلعت ببصري خارج الشاحنة وأنا أدلك رأسي وأمط أطراف يدي وقدمي الباردة المتيبسة. لقد وصلنا إلى إحدى المدن، لكن محطة القطار تحمل اسمًا ألمانيًّا لا أعرفه. امتدت الظلال وخفت الضوء مما أوحى بقرب حلول المساء. رفع أحدهم الغطاء القماش وظهر من خلاله وجه جندي ألماني وبدت الدهشة على وجهه حينما لم يجد سواي، فصاح وأشار إليَّ أن أغادر الشاحنة. وحينما لم أتحرك بالسرعة اللازمة جذبني من ذراعي بشدة فتعثرت وسقطت حقيبتي على الأرض المبتلة.

مرت سنتان منذ أن رأيت هذا الكم الكبير من الأشخاص في مكان واحد. اكتظت المحطة -التي تتألف من رصيفين- بجموع من البشر معظمهم من الأسرى والجنود بقدر ما أمكنني أن أرى. وكان ما يميز الأسرى ملابسهم القذرة المخططة ذات أربطة الأذرع، وقد ساروا مخفضي رؤوسهم. ووجدت نفسي أتفرس وجوههم وأنا أسير وسطهم بحثًا عن إدوارد، لكن الجنود دفعوني سريعًا فلم تعد ملامحهم واضحة.

وقال أحدهم: «توقفي هنا». انفتح أحد الأبواب جانبًا وألقوا بي داخل عربة نقل بضائع، وكشفت جوانبها المغطاة عن كتل من الأجساد المتلاحمة. حاولت جاهدة التشبث بحقيبتي، وسمعت الباب يصفق خلفي بينما كانت عينيَّ تعتاد الضوء الخافت.

وبالداخل وجدت مقعدين طويلين من الخشب على الجانبين، وتراصت الأجساد على كل سنتيمتر فيهما، بينما احتل الأرض المزيد منهم. وقد جلس البعض في أركان العربة وأسندوا رؤوسهم إلى بعض الحزم الصغيرة التي تبدو أنها ملابسهم. كان من الصعب وصف كم القذارة بالداخل، والهواء خانق يمتلئ بالروائح الكريهة لأولئك الذين لم يتمكنوا من الاغتسال- أو الأسوأ لفترة طويلة.

قلت وسط هذا السكون: «هل يتحدث أحد الفرنسية؟». نظرت إليَّ عدة وجوه خالية من أي تعبيرات دون رد. حاولت مرة أخرى.

ثم أتى صوت بالقرب من الخلفية وقال: «نعم».

بدأت أشق طريقي بحذر بطول العربة وأنا أحاول ألا أزعج أولئك النائمين، وسمعت صوتًا خمنت أنه روسي ودست بقدمي على شعر أحدهم فوجه إليَّ اللعنات. وأخيرًا وصلت إلى مؤخرة العربة، ورأيت رجلًا حليق الرأس ينظر إليَّ، وجهه مملوء بالندوب كما لو أنه مصاب بالجدري، وعظام وجنتيه بارزة كهيكل عظمي.

قال: «هل تتحدثين الفرنسية؟».

أجبت: «نعم، ما هذا؟ إلى أين نتجه؟».

تطلع إليَّ في دهشة، ثم أدرك أن سؤالي جاد فضحك ضحكة حزينة.

قال: «تورز، أميان، ليل. كيف لي أن أعرف؟ فهم يرسلوننا عبر الضواحي المترامية بلا نهاية حتى لا نعرف أين نحن».

كنت على وشك التحدث ثانية حينما رأيت جسمًا مُلقى على الأرض، ومعطفًا أسود مألوفًا لي بشدة حتى إنني في البداية لم أجرؤ على النظر من قرب. خطوت إلى الأمام وتجاوزت الرجل وانحنيت نحوه.

- ليليان؟

استطعت أن أرى وجهها -ما زال يمتلئ بالكدمات- تحت ما تبقى من شعرها. فتحت عينيها كما لو أنها لا تصدق أذنيها.

- ليليان. أنا صوفي.

نظرت إليَّ، وهمست قائلة: «صوفي». ثم رفعت يدها ولمست يدي وقالت: «إديث؟». تبيت رنة الخوف في صوتها برغم حالة الوهن التي كانت عليها.

- إنها مع هيلين. إنها في أمان.

أغلقت عينيها.

- هل أنت مريضة؟

ثم رأيت الدم وقد تجمد حول تنورتها، ووجهها شاحب كشحوب وجه الموتى.

- أهي على تلك الحال من فترة طويلة؟

هز الرجل كتفيه بلا مبالاة كما لو أنه شاهد العديد من الأجساد المشابهة لليليان بدرجة جعلته لا يشعر بشيء مختلف حيالها كالشفقة.

- كانت هنا قبل أن نأتي على متن العربة بساعات.

وجدت شفتيها مشقوقتين وعينيها غائرتين.

فصحت بهم: «هل لدى أحد منكم قليل من المياه؟». التفتت إليَّ بعض الوجوه.

قال الرجل الفرنسي باستغراب: «هل تظنين أن هنا مقصفًا؟».

حاولت ثانية وارتفع صوتي وأنا أقول: «أما من أحد لديه رشفة من المياه؟».

لمحت الوجوه تنظر إلى بعضها بعضًا.

- هذه المرأة خاطرت بحياتها لكي تجلب معلومات إلى بلدتنا، فإن كان لديكم بعض المياه ولو بضع قطرات أرجوكم.

سرت بعض الهمهمات في العربة.

- أرجوكم حبًا لله.

ولدهشتي مرروا بينهم -بعد عدة دقائق- وعاء عميقًا مطليًا بالمينا، وقد احتوى على قطرات قليلة في القعر لا تتعدى سنتيمترًا ويبدو أنها من مياه المطر. أطلقت عبارات الشكر ورفعت رأس ليليان برفق وأنا أسكب تلك القطرات الثمينة في فمها.

ويبدو أن مشاعر الرجل الفرنسي قد تحركت قليلًا فقال: «علينا أن نحمل الأقداح، والأوعية وأي شيء خارج العربة إن أمكن أثناء المطر».

ابتلعت ليليان المياه في ألم، وعدلت من وضع جلستي على الأرض حتى تستطيع أن تستند إليَّ. تحرك القطار وعلا صرير عجلاته وهي تحتك بالقضبان متجهًا في طريقه نحو الريف.

لم أستطع أن أخمن عدد الساعات التي أمضيناها في ذلك القطار، لقد تحرك ببطء، وكان يتوقف بين الحين والآخر دون سبب واضح. ونظرت بين الفراغات في الألواح المشقوقة وشاهدت التحركات اللانهائية للقوات والأسرى والمدنيين في دولتي الممزقة وأنا أطوق ليليان النائمة بذراعيَّ. زاد انهمار المطر وسادت العربة همهمات تعبر عن الرضى، حيث وزع الركاب المياه التي جمعوها فيما بينهم. شعرت بالبرد لكني كنت سعيدة بالمطر وبانخفاض درجة الحرارة؛ فلا أستطيع أن أتخيل مدى الفظاعة التي ستكون عليها العربة في الحرارة المرتفعة حينما تزداد الروائح سوءًا.

ومع طول الساعات تحدثت إلى الرجل الفرنسي وسألته عن الأرقام الموجودة فوق قبعته، والشريط الأحمر على سترته وأخبرني أنه جاء من كتائب العمال المدنيين Zivilarbeiter Battalione,ZAB[1]، وهم الأسرى الذين استُخدموا للقيام بأسوأ الأعمال، وأُرسلوا إلى الجبهة وتعرضوا لنيران الحلفاء. وأخبرني بالقطار الذي يشاهده كل أسبوع محملًا بالصبية، والنساء، والفتيات الصغيرات الذين يجوبون المدينة إلى إقليم سوم، وسخيلدة Escaut، وأردينز كعمال سخرة في خدمة الألمان. وأخبرها أنهم اليوم سيقيمون في أحد الثكنات المحطمة أو المصانع، أو المدارس في القرى التي أُخليت، ولا يدري إن كانوا سيذهبون إلى معسكر اعتقال أم كتيبة عمل.

- إنهم يضعفون قوتنا بقلة الطعام، وبالتالي لن نحاول الهرب. يشعر البعض بالامتنان لأنهم ما زالوا على قيد الحياة.

سألني إن كنت أحمل بعض الطعام في حقيبتي وشعر بالخيبة حينما أجبته بالنفي، فأعطيته منديلًا كانت هيلين قد وضعته، فقد شعرت أنه من واجبي أن أعطيه شيئًا. نظر إلى نعومة القطن ونظافته كما لو أنه يحمل في يده حريرًا طبيعيًّا، ثم أعاده لي ثانية وقال وقد خلا وجهه من أي تعبيرات: «احتفظي به واستخدميه من أجل صديقتك. ماذا كانت تعمل؟».

---

(1) السكان من أصل بولندي في وسط بولندا الذي كان يحتله النازيون، والذين استخدموا خلال الحرب العالمية الثانية كعمال قسريين.

حينما أخبرته عن شجاعتها والمعلومات الحيوية التي كانت تجلبها نظر إليها بمنظور جديد، فلم يعد يرى أمامه مجرد جسد من ضمن الأجساد وإنما يرى إنسانًا. وأخبرته أنني أسعى للحصول على معلومات عن زوجي وأنه قد أرسل إلى إقليم أردينز، فظهرت أمارات الجدية والقلق على وجهه وقال: «لقد قضيت هناك عدة أسابيع. هل تعلمين أن التيفود متفشٍّ هناك؟ سأصلي من أجلك كي ينجو زوجك».

شعرت بغصة شديدة في حلقي من فرط الخوف.

سألته وأنا أحاول أن أغير الموضوع: «وأين بقية الكتيبة؟».

أبطأ القطار من حركته ومررنا بصف آخر من الأسرى الذين كانوا يسيرون بتثاقل، ولم يرفع أحد منهم بصره نحو القطار الذي يمر بجوارهم كما لو أن كلًّا منهم يشعر بالخزي من ذلك الأسر القهري. وتفرست جميع الوجوه خشية أن يكون إدوارد من بينهم.

مرت دقيقة قبل أن يرد على سؤالي: «إنني الوحيد الذي تبقيت منهم».

بعد مرور ساعات أمضيناها بعد حلول الظلام، دخل القطار على إحدى التحويلات ثم انفتحت الأبواب محدثة ضجيجًا عاليًا وصاح بنا الألمان كي نغادر العربة. انتزعت الأجساد نفسها بتثاقل من على الأرض وهم يقبضون بأيديهم على الأوعية المطلية بالمينا وشقوا طريقهم عبر المسارات المهجورة. كان يصطف جانبنا جنود الألمان من المشاة يوكزوننا ببنادقهم كي ندخل في الصف، وشعرت وكأنني حيوان يسوقه الرعاة كما لو أنني لست إنسانًا، وتذكرت الهروب اليائس لذلك الأسير، فجأة استشعرت ما الذي جعله يقدم على الهرب رغم علمه أنه حتمًا مقضي عليه.

أبقيت ليليان بالقرب مني أساندها وأنا ممسكة بها من أسفل ذراعها. كانت تسير ببطء؛ بطء شديد. فجاء جندي ألماني من ورائنا وركلها.

قلت له في احتجاج: «اتركها». فما كان منه إلا أن رفع عقب بندقيته وانهال بها على رأسي فتعثرت وسقطت على الأرض، وشعرت بيد تعاونني على النهوض، ثم تحركت إلى الأمام ثانية وأنا أشعر بدوار وكانت الرؤية أمامي غير واضحة، وحينما وضعت يدي على جبهتي وجدتها ملطخة بالدماء.

قادونا إلى مصنع ضخم فارغ، أرضه ملأى بالزجاج المهشم، وصوت صفير النسيم البارد يأتي من النوافذ. ومن على بعد مسافة سمعنا دوي

البنادق، بل إننا كنا نرى وميض الانفجارات من حين إلى آخر. ونظرت إلى الخارج كي أعرف أين نحن، لكن المنطقة المحيطة كانت تسبح في الظلام.

سمعنا صوتًا يقول: «هنا». وكان الرجل الفرنسي يقف بيننا، يساندنا ويوجهنا نحو أحد الأركان.

- انظروا، هناك طعام.

كان بعض الأسرى الآخرون يقدمون الحساء على مائدة طويلة عليها إناءان كبيران. لم أتناول أي طعام منذ الصباح الباكر لهذا اليوم. كانت خفيفة للغاية وملآنة بأشكال غريبة، وكانت معدتي تعتصر من شعوري بالترقب لما سيحدث. ملأ الفرنسي الوعاء المطلي بالمينا وقدحًا كانت هيلين قد وضعته في حقيبتي وثلاث شرائح من الخبز الأسود. جلسنا في ركن نتناول طعامنا وأنا أجعل ليليان تتناول بعض الرشفات (كانت أصابع إحدى يديها مكسورة فلم تتمكن من استخدامها)، وكنا نمسح الوعاء بأصابعنا حتى نستعيد كل بقايا الحساء. قال الفرنسي لكن دون اقتناع: «في العادة لا يقدمون أي طعام، لكن ربما قد تغير حظنا».

اختفى متجهًا نحو المائدة التي عليها آنية الحساء، حيث تجمع حشد كبير حولها على أمل الحصول على المزيد، ولعنت نفسي لأنني لم أكن سريعة بما يكفي كي أندس وسطهم، لكني كنت أخشى أن أترك ليليان بمفردها. عاد بعدها بدقائق وقد ملأ الوعاء وأعطاه لي وأشار إلى ليليان: «ها هو ذا، إنها تحتاج إلى بعض القوة».

رفعت ليليان رأسها ونظرت إليه كما لو أنها لا تستطيع أن تتذكر متى عطف عليها أحد، واغرورقت عيناي بالدموع. أومأ إلينا الرجل الفرنسي برأسه كما لو أننا في عالم آخر ثم تمنى لنا ليلة سعيدة بأسلوب مهذب. جلست وأطعمت ليليان بيتون وأعطيتها رشفة تلو الأخرى مثلما أفعل مع طفل صغير. حينما انتهت من تناول الوعاء الثاني، أطلقت تنهيدة مرتعشة واستكانت برأسها عليَّ وغطت في نوم عميق. جلست هناك في الظلام محاطة بأجساد تتحرك في هدوء، بعضهم كان يسعل، والبعض الآخر يبكي، وسمعت لكنات الروس والإنجليز والبولنديين المفقودين. كنت أشعر ببعض الاهتزازات عبر الأرض بين الحين والآخر حيث القذائف تضرب الوطن، لكن لم يبدُ أن أحدًا يلحظ ذلك. استمعت إلى أصوات البنادق التي تأتي من بعيد وهمهمات

الأسرى الآخرين. وحينما انخفضت درجة الحرارة سرت في جسمي ارتعاشة، وتخيلت منزلي، وهيلين تنام بجواري، ويد الصغيرة إديث تعبث بشعري، وبكيت بصمت في الظلام حتى غلبني التعب في النهاية فغشيني النوم أنا الأخرى.

استيقظت، ولعدة ثوان لم أدرك أين أنا. وجدت ذراع إدوارد تلتف حولي وشعرت بثقل جسده بجانبي. سقطت في فجوة زمنية صغيرة غمرني خلالها الارتياح -*إنه هنا بجواري*- قبل أن أدرك أنه ليس زوجي الذي يلتصق بي. فشعرت بيد رجل تتسلل في خلسة وإصرار إلى داخل تنورتي المحمية بالظلام لثقته في خوفي وتعبي. تصلبت في مكاني، وقد سيطر على عقلي غضب شديد عارم وأنا أدرك ما الذي يتخيل ذلك المتطفل أن يأخذه مني. هل أصرخ؟ لكن هل يعبأ بي أحد إذا فعلت؟ هل سيأخذونها الألمان كذريعة لكي يعاقبوني؟ وبينما كنت أحرك ذراعي المثنية أسفل جسدي ببطء، اصطدمت يدي بقطعة من الزجاج باردة وحادة كانت قد سقطت جراء تحطم النافذة. أطبقت أصابعي عليها، وقبل أن أفكر فيما سأفعله، تقلبت سريعًا على جانبي الآخر وضغطت بحافتها الحادة على رقبة ذلك المعتدي المجهول.

همست قائلة: «حاول أن تلمسني مرة أخرى وسأغرزها فيك».

استطعت أن أشم أنفاسه اللاهثة وأستشعر صدمته، فلم يكن يتوقع أي مقاومة، ولم أكن حتى واثقة إن كان قد فهم كلامي، لكنه فهم ما تعنيه الحافة الحادة. فرفع يده كعلامة على الاستسلام أو ربما الاعتذار. أبقيت قطعة الزجاج مكانها لدقيقة أطول كرسالة تعلن عما أنتويه. والتقت عينه بعيني في شبه الظلام الدامس ورأيت أنه كان خائفًا أيضًا. فقد وجد نفسه هو الآخر في عالم لا تحكمه القوانين أو النظم. لكن إن كان هذا العالم يمكنه فيه أن يهاجم غريبًا، فإنه أيضًا عالم يمكنها فيه أن تقطع عنقه. وفي اللحظة التي أرخيت فيها ضغط يدي نهض على قدميه، واستطعت أن أتبين هيئته وهو يتعثر بين الأجساد النائمة متجهًا نحو الجانب الآخر من الفندق.

دسست قطعة الزجاج في جيب تنورتي وجلست باستقامة وذراعاي تحميان جسد ليليان النائمة وانتظرت.

ويبدو أنني غفوت لدقائق حينما أيقظتنا أصوات صياح. كان الجنود يتحركون في منتصف الحجرة وهم يلكزون النائمين بأعقاب بنادقهم، ويركلونهم بأحذيتهم الطويلة. دفعت نفسي دفعًا لكي أنهض، وكان الألم يعصف برأسي وصدرت عني صيحة. وخلال رؤيتي المشوشة رأيت الجنود يتقدمون نحونا ويجذبون ليليان لجعلها تنهض قبل أن يضربونا.

ومن خلال ضوء الفجر الأزرق الكالح، تبينت البيئة المحيطة بوضوح. كان المصنع ضخمًا وشبه مهجور، وتتوسط السقف فجوة كبيرة، وقد تناثرت قطع من النوافذ والعوارض على الأرض، واستقرت في نهايته طاولات يقدم عليها شيء ربما تكون القهوة وكتلة من الخبز الأسود. وساعدت ليليان كي تنهض، فعليَّ أن أساعدها لتسير عبر تلك المساحة الكبيرة قبل أن ينفد الطعام.

قالت وهي تنظر خلال النوافذ المحطمة: «أين نحن؟». وأخبرنا دوي انفجار بعيد بأننا بالقرب من الجبهة.

قلت وأنا أشعر بالراحة لأنها تحسنت بقدر يسمح لها بالمشاركة في حوار بسيط: «لا أدري».

ملأنا القدح بالقهوة، ووضعنا بعضًا منها في وعاء الرجل الفرنسي، وبحثت عنه خشية أن نكون حرمناه بعضًا منها، لكن الجنود الألمان قسموا الرجال بالفعل إلى مجموعات، وبعضهم أرسلوا بعيدًا عن المصنع. وأصدروا الأوامر لي أنا وليليان بالانضمام إلى مجموعة منفصلة معظمها من النساء وجعلونا نتوجه نحو دورة مياه مشتركة. واستطعت في ضوء النهار أن أرى القاذورات العالقة في تنورات النسوة، والقمل الذي يزحف بحرية فوق رؤوسهن، فشعرت بحكة ونظرت إلى أسفل فرأيت واحدة على تنورتي فأزحتها بعيدًا وأنا أشعر أن ذلك بلا فائدة، فلن أفلت منه. أنا أدرك تمامًا أنه من المستحيل أن تمضي وقتًا بالقرب من الآخرين وتتجنب الإصابة به.

كان هناك نحو ثلاثمئة امرأة يحاولن الاغتسال واستخدام دورة المياه في مساحة مصممة لاحتواء اثني عشر شخصًا فقط. وعندما جعلت ليليان تقترب من إحدى المقصورات كنا على وشك التقيؤ مما وجدنا. فنظفنا أنفسنا بمياه المضخة الباردة قدر الإمكان واتبعنا خطى السيدات الأخريات؛ فبالكاد كن يخلعن ملابسهن للاغتسال كما لو كن يتوقعن أي حيَل من جانب الألمان.

قالت ليليان: «في بعض الأحيان يقتحمون المكان، فالأيسر والأكثر أمانًا أن يظللن بملابسهن».

وبينما كان الألمان مشغولين مع الرجال، رُحت أستكشف المكان بالخارج وسط أكوام من الأغصان الصغيرة والأحبال، ثم جلست مع ليليان. وفي ضوء الشمس الخفيف ربطت أصابع يدها اليسرى بجبيرة من الخشب. كانت غاية في الشجاعة ونادرًا ما جفلت حتى وأنا أعلم أنني أُولمها بشدة. توقفت عن النزف، لكنها كانت لا تزال تسير بحذر شديد، ولم أجرؤ على سؤالها عما حدث لها.

قالت وهي تتفحص يدها: «من الجميل أن أراك صوفي».

في مكان ما هناك رأيت أنه ما زالت توجد لمحة من تلك المرأة التي عرفتها في سان بيرون.

قلت وأنا أمسح وجهها بمنديلي النظيف وأعني كل كلمة أقولها: «وأنا لم أكن سعيدة هكذا من قبل لرؤيتي إنسانًا حقيقيًّا».

أُرسل الرجال للقيام بمهام الأعمال فرأيناهم من بُعد يصطفون للحصول على المعاول والمجارف، وتشكلوا في صفوف من أجل السير باتجاه ذلك الضجيج اللعين القادم. صليت في صمت من أجل أن يبقى الفرنسي الكريم في أمان ثم صليت من أجله ثانية كما أفعل دومًا من أجل إدوارد، وفي الوقت نفسه صدرت أوامر للنساء بالتوجه نحو عربة القطار، وغاص قلبي في قدمي حينما فكرت في الرحلة الطويلة البشعة القادمة، لكني عدت ووبخت نفسي، فقد أكون على بعد ساعات فقط من إدوارد. فربما يكون هذا هو القطار الذي سيحملني إليه.

صعدت على متن العربة دون تذمر. كانت هذه العربة أصغر، ومع ذلك بدا أنهم توقعوا أنها ستحمل السيدات الثلاثمئة. كان هناك بعض السباب والجدال بصوت مكتوم حينما حاولنا أن نجلس. ووجدت أنا وليليان مساحة صغيرة على المقعد الطويل، فجلست أنا عند قدميها ودفعت بحقيبتي تحتها وأقحمتها للداخل، إنني أعامل تلك الحقيبة بلطف ممزوج بحذر كما لو أنها طفل رضيع. صاح أحدهم وجاء صوته كانفجار قذيفة قريبة بما يكفي فجعلت القطار يتحرك محدثًا صوت صرير عاليًا.

قالت بينما كان القطار يتحرك: «حدثيني عن إديث».

حاولت أن أضع قدرًا من الطمأنينة في صوتي وأنا أقول: «إنها تتمتع بمعنويات عالية، إنها تأكل جيدًا، وتنام بأمان، وهي وميمي لا يفارقان بعضهما بعضًا، كما أنها تعشق الرضيع وهو أيضًا مولع بها».

وبينما كنت أتحدث وأرسم لها صورة حياة طفلتها في سان بيرون، أغلقت عينيها، ولم أستطع أن أعرف إن كان هذا بسبب الشعور بالارتياح أم الحزن.

- هل هي سعيدة؟

أجبتها بحرص: «إنها طفلة على أي حال، فهي تريد أمها، لكنها تعلم أنها بأمان في الديك الأحمر».

لم أستطع أن أخبرها بالمزيد فقد كان هذا يبدو كافيًا. ولكني لم أخبرها عن كوابيس إديث، والليالي التي بكت فيها من أجل أمها. ليليان ليست غبية؛ وأنا أشك أنها تشعر بالفعل في أعماقها بكل تلك الأشياء. حينما انتهيت، تطلعت خارج النافذة لفترة طويلة وغرقت في أفكارها.

سألتني بعد أن استدارت نحوي أخيرًا: «وما الذي أحضرك إلى هنا صوفي؟».

ربما لا يوجد شخص في العالم يمكن أن يفهمني أفضل من ليليان. تفرست وجهها وأنا أشعر ببعض الخوف الآن، لكن فكرة أن تشارك حملك الثقيل مع إنسان آخر هي فكرة شديدة الإغراء.

أخبرتها. أخبرتها عن القائد، والليلة التي ذهبت فيها إلى الثكنة التي يقيم فيها، والصفقة التي عرضتها عليه. نظرت إليَّ لفترة طويلة، ولم تخبرني أنني حمقاء، أو أنني ما كان ينبغي أن أصدقه، أو أن إخفاقي في تلبية ما يريده القائد كان يمكن أن يعرضني للموت ناهيك بمن أحبهم.

لم تتفوه بشيء.

قلت بأكبر قدر من الاقتناع: «إنني أومن بأنه سيحافظ على عهده، وسيجعلني أذهب إلى إدوارد».

مدت يدها الحنونة وضغطت على يدي.

وعند الغسق، وفي غابة صغيرة، توقف القطار وارتج بقوة، وانتظرنا لكي يتحرك ثانية، لكن هذه المرة انفتحت الأبواب الجرارة في الخلفية، وسرت

همهمات الشكوى بين الركاب الذين كان معظمهم نائمين. كنت شبه نائمة واستيقظت على صوت ليليان في أذني.

- صوفي، استيقظي. استيقظي.

وقف أحد الحراس الألمان عند مدخل الباب، واستغرق الأمر دقيقة لكي أدرك أنه ينادي اسمي، فانتفضت واقفة وتذكرت أن أجذب حقيبتي، وأشرت إلى ليليان لكي تأتي معي.

سألنا قائلًا: «البطاقة». فقدمت له أنا وليليان بطاقة الهوية، فبحث عن أسمائنا في قائمة يمسك بها، ثم أشار إلى شاحنة. صدرت عن النسوة همهمات تنم عن خيبة الأمل بينما كان باب القطار يغلق خلفنا.

دفعنا الحارس دفعًا نحو الشاحنة وشعرت أنها تتخلف عني قليلًا فسألتها: «ما الخطب؟».

ظهرت على وجهها تعبيرات تنم عن الارتياب.

قالت وهي تنظر خلفها بينما كان القطار يتحرك مبتعدًا: «لا يروق لي ما يحدث».

قلت بإصرار: «إنه شيء جيد، هذا يعني أنهم يميزوننا، أعتقد أن هذا بأمر القائد».

قالت: «هذا ما لا أرتاح له».

- أنصِتي أيضًا؛ أنا لا أستطيع أن أسمع أصوات البنادق، فلا بد وأننا ابتعدنا عن الجبهة. هذا أمر جيد، ألست واثقة؟

سرنا ببطء نحو الشاحنة، وساعدتها لكي تصعد على متنها وأنا أحك رقبتي، شعرت بحكة واكتشفت حشرات القمل تحت ملابسي، وحاولت أن أتجاهلها. لقد كانت علامة جيدة أننا ابتعدنا عن ذلك القطار.

قلت وأنا أضغط على يدها: «تحلي بالإيمان، على أي حال لدينا أخيرًا مساحة لنحرك أرجلنا».

صعد حارس شاب إلى ظهر الشاحنة ونظر إلينا بسخط. حاولت أن أبتسم لكي أطمئنه أنه ليس هناك احتمال لأي محاولة هرب، لكنه نظر إليَّ باشمئزاز ووضع بندقيته بيننا كعلامة تحذير. وأدركت أنا أيضًا أنه ربما بسبب رائحتي غير النظيفة، ومن هذه المسافة القريبة التي أجبرنا على الوجود فيها فقد يرى

الحشرات تزحف على شعري بعد قليل. شغلت نفسي بالبحث في ملابسي وانتشال ما عثرت عليه منها.

ابتعدت الشاحنة، وكانت ليليان تجفل كلما توقفت، وخلال عدة أميال كانت قد غطت في النوم ثانية منهكة من الألم. شعرت بألم نابض في رأسي وشكرت الله على توقف صوت البنادق. قلت وأنا أشحذ عزيمتنا في صمت: «علينا التحلي بالإيمان».

قضينا نحو ساعة في الطريق السريع، وراحت شمس الشتاء تتوارى ببطء خلف الجبال البعيدة، واستكانت بلورات الثلج فوق الجوانب العشبية فأضفت إليها بريقًا. وحينما رفع الغطاء القماش كاشفًا عن جزء من لافتة الطريق، اعتقدت أنني ربما أكون مخطئة. مِلت إلى الأمام ورفعت طرف الغطاء حتى لا يفوتني رؤية العلامة التالية وطرفت بعيني في الضوء. ها هي اللوحة تقول مانهايم **Mannheim**.

توقف العالم من حولي.

همست وأنا أهزها لكي تستيقظ: «ليليان، انظري. ماذا ترين؟». أبطأت الشاحنة من حركتها لكي تتخطى بعض النتوءات. مدت بصرها إلى الخارج وأنا أعلم أنها رأتها بالقطع.

قلت: «من المفترض أننا نتجه نحو الجنوب، نحو الجنوب إلى أردينز». والآن أرى الظلال خلفنا. نحن نتجه صوب الشرق وفي طريقنا نحوه منذ فترة.

لم أستطع أن أمنع رنة الفزع في صوتي: «لكن إدوارد في أردينز، أخبروني أنه هناك. من المفترض أن نتجه إلى أردينز في الجنوب».

تركت ليليان الغطاء ينسدل، وحينما تحدثت لم تنظر إليَّ. وهرب ما تبقى في وجهها من دماء وقالت بفتور: «صوفي، نحن لم نعد نسمع صوت البنادق لأننا عبرنا الجبهة، نحن نتجه إلى ألمانيا».

24

ساد القطار جو من المرح. انفجرت في الضحك عاليًا مجموعة من النسوة يجلسن في نهاية العربة الرابعة عشرة. وجلس في المقعد المقابل زوجان في منتصف العمر -ربما كانا في طريق عودتهما لمنزلهما بعد رحلة احتفلا خلالها بأعياد الميلاد- وقد ارتديا الأشرطة اللامعة. واكتظت الأرفف بالمشتريات، وتشبع الهواء بروائح الأطعمة الموسمية: الجبن الطازج، والنبيذ، والشوكولاتة باهظة الثمن. لكن بالنسبة لمو وليف كانت رحلة عودتهما لإنجلترا هادئة؛ فجلستا في العربة شبه صامتتين. استمر الصداع الذي تشعر به مو طوال اليوم ومن الواضح أنها حاولت علاجه بزجاجات صغيرة غالية الثمن من النبيذ. قرأت ليف المذكرات وأعادت قراءتها وهي تترجم كل كلمة باستخدام القاموس الفرنسي-الإنجليزي الذي تضعه أمامها على الطاولة المتحركة. إن محنة صوفي ليفيفر ألقت بظلال قاتمة على الرحلة، وقد شعرت بمطاردة قدر تلك الفتاة التي اعتقدت أنها مبتهجة دومًا بالنصر. هل كانت حقًا عميلة؟ وماذا حدث لها؟

دفع النادل بعربة المأكولات عبر ممر العربة وهو يعرض المشروبات والوجبات الخفيفة من الأطعمة السكرية، لكنها كانت غارقة في حياة صوفي فبالكاد رفعت بصرها. فقد بدا لها أن العالم الذي تُفقد فيه الأزواج، ويغلب عليه الحنين، والجوع، والخوف من الألمان هو أكثر واقعية الآن من عالمها. شمت روائح دخان الخشب في فندق الديك الأحمر، وسمعت وقع الأقدام على الأرض، وفي كل مرة تغلق عينيها تتحول لوحتها إلى وجه صوفي الذي يغلب

عليه الفزع، والجنود يجذبونها نحو الشاحنة التي تنتظرها وينفونها بعيدًا عن أسرتها الحبيبة.

كان الورق مائلًا إلى الصفرة وأطرافه مهترئة وعليه آثار أصابعها. وكانت هناك خطابات قديمة من إدوارد إلى صوفي حينما التحق بكتيبة المشاة وانتقلت هي للعيش في سان بيرون مع أختها. كتب إدوارد يقول لها إنه يفتقدها كثيرًا، وفي بعض الليالي يأخذ أنفاسه بصعوبة، وأخبرها أنه يستدعي صورتها في ذهنه، ويرسم صورًا لها في الليالي الباردة. وفي كتاباتها، كانت صوفي تجسد ذاتها الوهمية، وتصلي من أجل زوجها، وتوبخه أحيانًا وتلقبه بكثير الشعر. كان الانطباع الذي كونته كلماتها قويًّا، وعميقًا لدرجة أن ليف -حتى وهي تحاول بصعوبة الترجمة من الفرنسية- شعرت بتلاحق أنفاسها. مررت أصابعها عبر الورق الباهت وهي تتعجب من أن الفتاة التي في اللوحة هي المسؤولة عن تلك الكلمات. لم تعد صوفي ليفيفر مجرد صورة مغرية في إطار ذهبي مكسور؛ بل أصبحت شخصًا مفعمًا بالحيوية، كائن ثلاثي الأبعاد يتنفس، امرأة تتحدث عن غسل الملابس، ونقص الطعام وتناسق الزي الرسمي لزوجها، وعن مخاوفها وإحباطاتها، وأدركت مرة أخرى أنها لن تسمح لأحد أن يأخذ منها اللوحة.

تصفحت ورقتين، ووجدت أن النص هنا مكتظ بالكلمات تقطعه صورة باللون البني الداكن لإدوارد ليفيفر وهو ينظر في شرود.

أكتوبر 1914

كانت محطة قطار الشمال شديدة الزحام، عدد هائل من الجنود والنساء الباكيات، وامتلأ الهواء برائحة الدخان والأبخرة وكلمات الوداع الحزينة. أنا أعلم أن إدوارد لا يريدني أن أبكي. إلى جانب ذلك، فهذا فراق قصير؛ فكل الصحف تقول هذا.

قلت له: «أريد أن أعرف كل شيء عنك. ارسم الكثير من الصور لك من أجلي، وتناول طعامك جيدًا، ولا تأت بفعل أحمق كأن تكون ثملًا وتتشاجر

فيقبضون عليك، أنا أريدك أن تعود لمنزلك في أسرع وقت ممكن».

جعلني أعده بأن نتوخى الحذر وقال: «إذا اكتشفت أن خطوط العدو في أي مكان ما بالقرب منكم، عاهديني أنك ستأتين على الفور إلى باريس».

وحينما أومأت له بالموافقة قال: «لا تنظري إليّ هكذا بوجه غامض صوفي، عديني أنك ستفكرين في نفسك أولًا، لن أستطيع أن أحاربِ إذا شعرت بأنك في خطر».

- أنت تعلم أنني قوية للغاية.

نظر وراءه نحو الساعة، وأطلق القطار من مكان ما على بعد صافرته العالية، وتصاعد من حولنا البخار برائحة الزيت المحترق فحجب الحشود المنتظرة على رصيف المحطة. مددت يدي لأسوي قبعته الزرقاء الصوفية، ثم رجعت خطوة إلى الوراء لأنظر إليه. أي نوع من الرجال زوجي هذا، إنه ضخم بالنسبة للآخرين، تظهر كتفاه العريضتان الزي الرسمي، وطوله يفوق الآخرين من حوله، له حضور مادي قوي. حينما أنظر إليه أشعر بالفخر. إنني لا أستطيع أن أصدق أنه سيغادر.

كان قد انتهى الأسبوع الماضي من لوحة رسمها لي بألوان الجواش المائية. ربت على جيبه العلوي وقال: «إني أحملك معي».

فلمست قلبي بيدي وقلت: «وأنت معي في قلبي». وكنت أحسده في أعماقي لأنني لم أحمل صورة له.

نظرت حولي فرأيت الأبواب تفتح ثم تغلق والأيادي ممتدة أمامنا والأصابع متشابكة للمرة الأخيرة.

قلت له: «لن أشاهدك وأنت تغيب إدوارد. سأغلق عينيّ لأحتفظ بصورتك في ذهني وأنت تقف أمامي».

أومأ برأسه. إنه يفهمني جيدًا.

قال فجأة: «قبل أن تنصرفي». ثم جذبني إليه وقبلني، وضغط بفمه على فمي، وأحكم ذراعيه الضخمتين حولي وضمني إليه بشدة. عانقته بقوة وأغلقت عيني لأتنفسه وأتشبع برائحته لكي أجعل تلك اللحظات الأخيرة بقربه تعوضني عن فترة غيابه كلها. حينها أدركت فقط أنه سيرحل. إن زوجي سيذهب بعيدًا عني. ثم حينما طال الوقت أكثر من اللازم، دفعت بنفسي بعيدًا وكان وجهي هادئًا.

ظلت عيناي مغلقتين وأمسكت بيده بقوة وأنا لا أريد أن أرى التعبير المرتسم على وجهه، واستدرت سريعًا للخلف وظهري مستقيم، ودفعت بنفسي وسط الحشود بعيدًا عنه.

لا أدري لماذا لم أرغب في رؤيته وهو يصعد إلى القطار. لقد كنت أندم على ذلك كل يوم منذ أن مضى.

ولم يحدث أن مددت يدي في جيبي إلا حينما بلغت المنزل، ووجدت قصاصة من الورق يبدو أنه دسها في جيبي حينما كان يعانقني؛ كانت عبارة عن رسم كاريكاتوري لنا نحن الاثنين، هو في شكل دب ضخم ويرتدي زيه الرسمي يبتسم ويلف ذراعه حولي وأنا كنت صغيرة الحجم ذات خصر نحيل للغاية، ووجهي جاد متجهم، وكتب تحت الصورة بخط يده

ذي الحروف الدائرية المتصلة: «لم أعرف معنى السعادة الحقيقية إلا حينما التقيتك».

طرفت ليف بعينيها ووضعت الأوراق بعناية في الملف، وجلست تفكر. ثم فردت صورة صوفي ليفيفر بوجهها المبتسم المتواطئ. إلى أي مدى يبدو كلام السيد بيسيت صحيحًا؟ كيف يمكن لامرأة تهيم عشقًا بزوجها مثلها أن تخونه؟ وليس مع شخص آخر وإنما مع أحد الأعداء؟ يبدو الأمر غير مفهوم. طوت ليف الصورة وأعادت المذكرات إلى حقيبتها.

جذبت مو السماعات من أذنيها وقالت: «لم يبق سوى نصف ساعة للوصول إلى حي سانت بانكراس Pancras. هل تعتقدين أنك حصلت على ما تريدين؟

هزت كتفيها بعدم معرفة، فلم تستطع الكلام بسبب غصة كبيرة في حلقها.

أزاحت مو شعرها للخلف عن وجهها في شكل تموجات سوداء، وكانت وجنتاها شاحبتين وقالت: «هل تشعرين بالقلق بشأن الغد؟».

ازدرت ليف ريقها وابتسمت ابتسامة واهنة، فهي لم تفكر في أي شيء آخر طيلة الأسابيع الستة الماضية.

قالت مو كما لو أنها كانت تفكر في الأمر لبعض الوقت: «لا أدري إن كان كلامي ذا فائدة، لكن بول مكفرتي لم يخدعك».

- ماذا؟

- إنني أعرف الكثير من الأشخاص الكاذبين سيئي الخلق، لكن بول مكفرتي ليس واحدًا منهم.

قالت وهي تزيل بفمها قطعة جلد من إصبعها وأردفت قائلة: «أعتقد أن القدر قرر أن يخدعكما ويجعلكما خصمين».

- كان يجب عليه ألا يتعقب لوحتي.

رفعت مو حاجبها وقالت: «حقًّا؟».

تطلعت مو خارج النافذة بينما كان القطار يتجه نحو لندن وهي تحاول ابتلاع تلك الغصة التي وقفت ثانية في حلقها.

وعبر المائدة مال كل من الزوجين اللذين يرتديان الأشرطة اللامعة إلى بعضهما بعضًا وغُطًا في النوم وأصابعهما متشابكة.

وفيما بعد لم تدر ما الذي جعلها تقدم على ذلك. فقد أعلنت في سان بانكراس أنها ستتجه إلى بيت رانيك، وأعطت ليف بعض التعليمات بألا تمضي الليل تتصفح الإنترنت باحثة عن قضايا الاسترداد الغامضة، وترجوها أن تضع جبن الكمبر الفرنسي في الثلاجة قبل أن تتسرب رائحته وتفسد المنزل كله. وقفت ليف في المحطة المزدحمة وهي تحمل حقيبة بلاستيكية من الجبن ذي الرائحة النفاذة وتشاهد تلك الهيئة الصغيرة السوداء وهي تتجه نحو مترو الأنفاق تحمل حقيبتها على كتفيها بلا مبالاة. هناك شعور مبهج قوي في الطريقة التي تتحدث بها عن رانيك؛ شعور يوحي بأن شيئًا قد تغير في داخل كل منهما.

انتظرت حتى غابت مو وسط الزحام. سار المسافرون بجوارها وتجاوزوها وكأنها حجر عبور وسط السيل المتدفق من الأشخاص. كانوا جميعهم أزواجًا متشابكي الأذرع، يتجاذبون أطراف الحديث، يرمون بعضهم بعضًا بنظرات وَلَهٍ ولهفة أو إن كانوا يسيرون بمفردهم يتجهون بإصرار إلى منازلهم حيث يوجد أحباؤهم. رأت خواتم الزواج، وخواتم الخطوبة، وسمعت بعض المقتطفات من أحاديث هامسة عن مواعيد القطارات وشراء زجاجات الحليب في آخر لحظة. أو أحدهم يقول: «هل يمكن أن تأتي لتصطحبني من المحطة؟». فكرت بعقلانية فيما بعد في العديد من الأشخاص الذين يخشون العودة لشركائهم ويبحثون عن أعذار لعدم الصعود على متن القطار والاختباء في الحانات. لكن الآن اختفى المصابون بالملل، والتعساء ومن يشعرون بالوحدة. هي تقرأ ما يدور بخلد ذلك الجمع الذي أمامها وتعد ذلك بمنزلة تحقير من حالة الوحدة التي هي عليها. حدثت نفسها قائلة: «كنت واحدة منكم في يوم من الأيام». ولا تستطيع أن تتخيل كيف سيكون حالها إن أصبحت مثلهم مرة أخرى.

لم أعرف معنى السعادة الحقيقية إلا حينما التقيتك.

أضاءت لوحة المغادرة معلنة عن وجهات جديدة، واكتظت المتاجر ذات الواجهات الزجاجية بمتسوقي أعياد الميلاد المتأخرين. وتساءلت هل يمكن أن يعود المرء للحالة التي كان عليها قبل ذلك؟ وقبل أن توقفها الإجابة عن حركتها، حملت الحقيبة واتجهت مهرولة نحو محطة مترو الأنفاق.

كانت هناك سمة غريبة في ذلك الصمت الذي خيم على الشقة حينما عاد جيك لأمه؛ صمت قاس ثقيل يختلف تمامًا عن ذلك الهدوء الذي يلف المكان حينما يذهب ليمضي عدة ساعات في منزل أحد أصدقائه. إنه يعتقد أحيانًا أن ذلك السكون الشديد الذي يغرق فيه المنزل في تلك الساعات ممزوج بالشعور بالذنب، والإحساس بالفشل، وما يزيد من وطأته معرفته أنه ليست هناك فرصة أن يعود ابنه قبل أربعة أيام. انتهى بول من تنظيف المطبخ (فقد كان جيك يعد كعكة الشوكولاتة بالأرز، وقد تناثرت حبات الأرز المنتفخة أسفل كل جهاز من أجهزة المطبخ). ثم جلس يتطلع إلى جريدة الأحد التي يحضرها كل أسبوع كإحدى عاداته ثم يخفق في قراءتها دومًا.

في الأيام الأولى التي غادرت فيها ليوني كان أكثر ما يخشاه ساعات الصباح الأولى. لم يكن يدري مدى حبه لباطن قدم جيك الصغير العارية، ورؤيته لشعره غير المرتب، وعيناه نصف مفتوحتين وهو يقف أمامها في غرفة النوم ويطلب أن يصعد لينام وسطهما فيستشعر برودة قدميه الرائعة، ورائحته الدافئة التي تشبه الخميرة الذكية. هذه المشاعر التي تتحرك بداخله حينما يندس ابنه وسطهما في الفراش يشعره بأن كل شيء على ما يرام في هذا العالم، وبعد أن رحلا كان يستيقظ في تلك الشهور الأولى ليجد نفسه وحيدًا ويشعر أن كل صباح يبشر بقدوم يوم آخر يفتقد فيه جزءًا من حياة ابنه؛ سلسلة مغامرات صغيرة أو حوادث، ومزيج من الأحداث العادية التي ستشكل شخصيته فيما بعد ولن يكون بول جزءًا منها.

أصبح الآن أفضل في صباحات هذه الأيام (على الأقل لأنه في التاسعة نادرًا ما يكون جيك قد استيقظ قبله) لكن الساعات الأولى لتلك الأيام التي ذهب فيها إلى ليوني لا يزال تأثيرها حتى الآن.

سوف يكوي بعض القمصان، وربما يذهب إلى صالة الألعاب الرياضية، ثم يأخذ حمامًا ويتناول طعامه، فهذه الأشياء القليلة ستعطي للمساء معنى، وربما يمضي ساعتين أمام التلفزيون، أو يتصفح ملفاته للتأكد من أن كل شيء معد جيدًا من أجل القضية.

كان على وشك أن ينتهي من كي القميص حينما دق جرس الهاتف.

قالت جاني: «مرحبًا».

قال بالرغم من أنه يعرف جيدًا من المتحدث: «من المتحدث؟».

قالت وهي تحاول ألا يبدو على صوتها أي شعور بالإهانة: «إنه أنا جاني. اعتقدت أنه من الأفضل أن أتواصل معك وأعرف ترتيباتنا من أجل الغد».

قال: «نحن في موقف جيد. انتهى شون من إعداد جميع الأوراق، ومحامي المرافعات على أتم استعداد، نحن جاهزون بقدر الإمكان».

- هل لدينا المزيد من المعلومات عن الاختفاء الأول؟

- ليست معلومات كثيرة، لكن لدينا مراسلات كثيرة من الطرف الثالث تكفي لأن تضع علامة استفهام كبيرة على الأمر.

سادت فترة صمت قصيرة من الطرف الآخر.

قالت: «إن بريج وسوستون ينشئان وكالة التعقب الخاصة بهما».

- من؟

- صالة المزادات. من الواضح أنهم يضيفون مهارة جديدة إلى مهاراتهم الأساسية، ومن الواضح أن لهم داعمين كبارًا.

نظر بول إلى كومة الأوراق التي أمامه وقال: «اللعنة».

- لقد بدأوا بالفعل الحديث مع الوكالات الأخرى بشأن اختيار الموظفين، إنهم يختارون الأعضاء السابقين في اتحاد الفنون والآثار. سمع السؤال الخفي: «هل هناك أحد ممن لهم خلفية في أعمال التحقيقات».

- إنهم لم يقتربوا مني.

سادت فترة صمت قصيرة. وتساءل إن كانت صدقته أم لا.

- يجب أن نفوز بهذه القضية بول، علينا أن نؤكد أننا دومًا في الصدارة، وأننا خبراء في مساعدة الأشخاص للعثور على أشيائهم القيمة واستعادتها.

قال: «أفهم ذلك».

- أردت فقط أن تعرف مدى أهميتك. أعني بالنسبة للشركة.

- كما قلت لك جاني لم يتواصل معي أحد.

سادت فترة صمت قصيرة أخرى.

- حسنًا.

ثم استرسلت في الحديث وأخبرته عن كيفية قضائها لعطلة نهاية الأسبوع، ورحلتها لزيارة أبويها، وعن حفل زفاف دعيت إليه في مقاطعة ديفون Devon، وتحدثت عن حفل الزفاف طويلًا حتى إنه تساءل إذا كانت تستجمع شجاعتها لدعوته للزواج، لكنه غير الموضوع بحزم. وأخيرًا أغلقت الخط.

أدار بول بعض الموسيقى، ورفع الصوت عاليًا لكي يحجب ضوضاء الشارع بالأسفل. كان يحب الضجة دومًا، والعيش في منطقة الوست إند المفعمة بالحركة، لكنه تعلم خلال السنوات أنه إن لم يتمتع بمزاج جيد، فإن ذلك الصخب الاستفزازي لن ينجح إلا في زيادة الحزن المتأصل لليلة الأحد. ضغط على زر الصوت. هو يعلم السبب وراء تلك الحالة، لكنه لن يعترف به. فليس ثمة فائدة من التفكير في شيء لن تنجح في تغييره.

كان قد انتهى لتوه من غسل شعره حينما انتبه إلى أن جرس الباب يدق. ألقى بكلمات سباب وراح يبحث عن منشفة ومسح وجهه. كان سيهبط الطابق الأسفل وهو يلتف بالمنشفة لكن انتابه شعور بأنها جاني، فلم يكن يريد أن تعتقد أنها بمنزلة دعوة.

أخذ يردد الأعذار في عقله بالفعل وهو يهبط إلى أسفل وقد التصق قميصه بجسده المبتل.

آسف جاني إنني في طريقي للخارج.

نعم. علينا أن نناقش ذلك في المكتب، ونعقد اجتماعًا وندعو الجميع للمشاركة.

جاني، أعلم أنك شخصية رائعة.

فتح الباب الأمامي وهو يكاد ينطق بالجملة الأخيرة. لكنها لم تكن جاني.

كانت ليف هالستون تقف في منتصف الطوار وتمسك بحقيبة الرحلات، ومن فوقها سلسلة من أضواء الاحتفالات تزين السماء. وضعت حقيبتها عند قدميها ونظرت إليه بوجه شاحب جامد كما لو كانت الكلمات قد تبخرت من عقلها.

قال حينما رآها لا تزال صامتة: «إن القضية ستبدأ غدًا».

أطال النظر إليها.

- أعرف.

- من المفترض أننا لا نتحدث إلى بعضنا بعضًا.

- لا.

- إننا هكذا يمكن أن نزج بأنفسنا في المتاعب.

وقف في مكانه ينتظر. اكتسى وجهها بتعبيرات القلق وتحيطه ياقة معطفها الأسود الثقيل، وعيناها تطرفان كما لو أن هناك ملايين من الأحاديث التي لا يعلمها تدور في داخلها.

بدأ حديثه باعتذار، لكنها هي من تحدثت أولًا.

- انظر إليّ، أعلم أنه قد لا يكون لكلامي معنى، لكن هل يمكننا أن ننسى كل شيء بشأن القضية ولو لليلة واحدة؟ هل يمكن أن نعود مجرد شخصين؟

كان صوتها ضعيفًا.

ذلك الاختناق الذي شعر به في صوتها جعله ينهار ويسلم كل أسلحته، وكان على وشك أن يتفوه بالكلام لكنه مال نحوها وأمسك بالحقيبة وجرها نحو الردهة، وقبل أن يغير أحد منهما رأيه جذبها إليه وأحاطها بذراعيه بقوة وظلا هكذا حتى تلاشى العالم من حولهما.

- استيقظي أيتها النعسانة.

استيقظت وهبت معتدلة في فراشها وهي تستوعب ببطء المكان من حولها. كان بول يجلس على الفراش ويصب بعض القهوة في قدح يمسك به، ثم أعطاه إليها. وبدا يقظًا بطريقة غريبة، والساعة تشير إلى السادسة واثنتين وثلاثين دقيقة صباحًا.

- أعتقد أنه ربما تحتاجين إلى بعض الوقت لكي تعودي للمنزل قبل أن...

- قبل أن...

القضية، استغرقت دقيقة لكي تستوعب تلك الفكرة. انتظر للحظات بينما كانت تفرك عينيها ثم مال نحوها وقبلها قبلة سريعة. ولاحظت أنه قد نظف أسنانه وأدركت أنها لم تفعل.

التقط قطعة من الخبز المحمص من فوق صينية الطعام وقال: «لا أدري ما الذي تفضلينه فوق الخبز، أتمنى أن تكون المربى مناسبة لك، إنها اختيار جيك، تحتوي على تسعة وثمانين بالمئة سكر أو نحو ذلك».

طرفت بعينيها وهي تنظر نحو الصحن الذي وضعه في حجرها وقالت: «أشكرك».

لم تستطع أن تتذكر المرة الأخيرة التي أحضر أحد لها طعام الإفطار في فراشها.

نظرا إلى بعضهما بعضًا، ثم تذكرت أحداث الليلة الماضية، وتلاشت كل الأفكار من ذهنها. وبدا وكأنه قرأ أفكارها فابتسم وظهرت خطوط التجاعيد بجانب عينيه.

قالت: «هل ستعود إلى هنا؟».

اعتدل مقتربًا منها وتشابكت ساقاه الدافئتان القويتان مع ساقيها، وتحركت حتى تتيح له أن يلف ذراعه حول كتفيها ثم التصقت به وأغلقت عينيها لتستمتع بذلك الشعور، كانت رائحته دافئة تشعرها بالهدوء. كانت ترغب في أن تتكئ بوجهها على جسده وتظل هكذا تتنفسه حتى تمتلئ رئتاها بكل ذرة من بول. وفجأة تذكرت ولدًا كانت قد واعدته في فترة المراهقة، وكانت تعشقه، وحينما تبادلا القبلات في النهاية صدمت حينما وجدت أن رائحة جسمه، وشعره، رائحته كلها غريبة، كما لو أن جزءًا أساسيًّا منه به تركيبة كيميائية تنفرها. أما جسد بول فهي ترغب في أن تستلقي هكذا وتتنفس رائحته كأي رائحة عطرة.

- هل أنت بخير؟

- أكثر من اللازم.

ثم تناولت رشفة من قهوتها.

- تولَّد لديَّ حب جديد لليالي الأحد ولا أدري لمَ.

- إنهم بالقطع يقللون من شأن ليالي الأحد.

فكر قليلًا ثم قال: «كما هو الحال مع الزوار غير المتوقعين. كنت أخشى أن أجد شهود يهوه أمامي أمس[1]، لكن لو فعلوا معي كما فعلت أنت أعتقد أنني كنت سأستقبلهم بحفاوة».

---

(1) **شهود يهوه** هي طائفة مسيحية ذات معتقدات لا ثالوثية لا تعترف بالطوائف المسيحية الأخرى، ويفضلون أن يُدعوا بشهود يهوه تمييزًا لهم عن الطوائف المسيحية الأخرى، يتميز الشهود بروابطهم المتينة دون أي حواجز عرقية أو قومية.

- عليك أن تخبرهم بذلك.

- قد أفعل هذا.

خيم عليهما صمت طويل، وسمعا صوت عربة القمامة بالخارج وهي تقلب القمامة وصوت الارتطام المكتوم للحاويات وهما يتناولان الخبز المحمص في صمت تسوده الراحة والاسترخاء.

قال: «لقد افتقدتك ليف».

مالت برأسها واتكأت عليه. وبالخارج، كان هناك شخصان يتحدثان الإيطالية بصوت عال. آلمتها عضلاتها لكنه كان ألمًا ممتعًا، شعرت وكأنها تتخلص من قدر هائل من التوتر كانت تحمله لفترة طويلة وبالكاد كانت تشعر به. شعرت وكأنها شخص نسي كل شيء، وتساءلت ماذا ستقول مو عن هذا، ثم ابتسمت لأنها تعرف الإجابة.

ثم شق الصمت صوت بول وهو يقول: «ليف، أخشى أن تؤدي هذه القضية إلى إفلاسك».

كانت تحدق إلى قدح القهوة الذي أمامها.

- ليف؟

- لا أريد أن أتحدث عن القضية.

- لن أتحدث عنها بالتفصيل. لكن عليَّ أن أخبرك أنني أشعر بالقلق.

حاولت أن تبتسم.

- إذًا لا تتحدث، فإنك لم تكسبها بعد.

- حتى لو كسبت القضية، ستسددين الكثير من الأموال مقابل الأتعاب القانونية. لديَّ خبرة في مثل هذه القضايا، لقد تناولت مثلها عدة مرات، لذا، أعرف جيدًا ما هو مكلف بالنسبة لك.

وضع قدح القهوة جانبًا ثم أمسك يدها ووضعها في يده.

- أنصِتي لي، لقد تحدثت الأسبوع الماضي إلى عائلة ليفيفر على انفراد، وحتى زميلتي جاني المديرة لا تعلم شيئًا عن هذا، وشرحت القليل عن حالتك، وأخبرتهم عن مدى حبك للوحة، وعدم رغبتك في أن تضيع من يدك، وجعلتهم يوافقون على عرض تسوية مناسب لك، تسوية

جادة، مبلغ من ستة أرقام سيغطي تكاليف الأتعاب القانونية حتى الآن ويفيض.

نظرت ليف إلى يدها التي يحتويها بيده، وتغيرت حالتها المزاجية.

- هل تحاول إقناعي بأن أتراجع عن القضية؟

- ليس من أجل الأسباب التي تتصورينها.

- ماذا يعني هذا؟

نظر أمامه وقال: «لقد عثرت على أشياء جديدة».

ظل جزء بداخلها هادئًا وهي تقول: «في فرنسا؟».

ضم شفتيه كما لو أنه يحاول التفكير في كيفية إخبارها.

- لقد وجدت مقالًا في جريدة قديمة كتبته الصحفية الأمريكية التي كانت تقتني لوحتك، وتحدثت فيه عن كيفية حصولها على اللوحة من مخزن للأعمال الفنية المسروقة بالقرب من معسكر داخاو Dachau الألماني.

- وماذا إذًا؟

- هذا يعني أن كل تلك الأعمال مسروقة، وهو ما سيؤدي بدوره إلى إعطاء صقل لقضيتنا بأن اللوحة حُصل عليها بطريقة غير مشروعة ثم وضعت في حوزة الألمان.

- هذا مجرد افتراض كبير.

- لكنه يلقي بالشبهات على أي حيازة للوحة فيما بعد.

- هذا ما تقوله أنت.

- إنني بارع في عملي ليف، نحن قطعنا نصف المسافة، ولو كان هناك المزيد من الأدلة فسأعثر عليها.

شعرت بأنها أصبحت أكثر عنادًا وقالت: «أعتقد أن الكلمة المهمة هنا هي «لو».

ثم أزاحت يده عن يدها.

استدار يواجهها وقال: «حسنًا، هذا ما لا أفهمه، فبعيدًا عن الصواب والخطأ، أنا لا أفهم لماذا امرأة ذكية مثلك تقتني لوحة لا تكلفها شيئًا، وتعلم أن ماضيها مشكوك فيه ولا تعيدها إلى أصحابها مقابل مبلغ من المال».

- إن المسألة لا تتعلق بالمال.

- أوه، حبًّا بالله، إنني ألقي الضوء على ما هو واضح بالفعل، وهو أنك إذا ما استمررت في تلك القضية وخسرتها، ستخسرين مئات الآلاف من الجنيهات، وربما منزلك، وكل ما يضمن معيشتك. كل هذا من أجل لوحة؟ فعلًا؟
- صوفي لا تنتمي إليهم. إنهم لا يهتمون بشأنها.
- إن صوفي ماتت من ثمانين عامًا، وأنا واثق أن هذا لن يحدث فارقًا بالنسبة لها بطريقة أم بأخرى.

غادرت ليف الفراش وهي تبحث عن سروالها ثم جذبته بعنف وارتدته وأغلقت السحاب بحدة وقالت: «إنك حقًّا لا تفهم، أليس كذلك؟ يا إلهي، إنك لست الرجل الذي ظننته».

- لا، إنني الرجل الذي لا يريد أن يراك تخسرين منزلك في مقابل لا شيء.
- لا، لقد نسيت أنك أنت الرجل الذي جلب كل هذا الهراء إلى منزلي في المقام الأول.
- هل تعتقدين أنه ما من أحد غيري كان سيؤدي هذه المهمة؟ إنها قضية واضحة ليف. هناك الكثير من المؤسسات كمؤسستنا في كل مكان وكانت ستقبل هذه القضية.

استكملت ارتداء ملابسها وجذبت الكنزة من فوق رأسها وقالت: «هل انتهينا؟».

- أنصِتي لي بحق الجحيم. أريدك أن تفكري في الأمر. أنا لا أريدك أن تفقدي كل شيء بسبب المبادئ.
- إذًا تريد أن تقول إن كل ذلك لأنك تعتني بأمري، أليس كذلك؟

فرك جبهته وهو يحاول الحفاظ على هدوئه، ثم هز رأسه وقال: «أتدرين؟ إن كل هذا ليس له علاقة باللوحة، كل هذا في اعتقادي بسبب عدم مقدرتك على تجاوز علاقتك بديفيد، إن التخلي عن اللوحة يعني ترك ديفيد في الماضي، وأنت لا تستطيعين فعل ذلك...».

- لقد تجاوزت ذلك، وأنت تعلم أني فعلت، وإلا ماذا كانت تعني الليلة الماضية بحق الجحيم؟

حدق إليها وقال: «أتدرين؟ أصبحت لا أعرف شيئًا، لا أعرف شيئًا حقًّا».

وحينما اندفعت أمامه لتغادر لم يحاول إيقافها.

25

بعد مرور ساعتين كانت ليف تجلس في سيارة أجرة وهي تشاهد هنري يلتهم القهوة وقطعة من المعجنات، وكانت معدتها منقبضة تعتصر بداخلها.

قال وهو ينثر بعض الفتات على ساقه: «كان عليَّ أن أصطحب الأطفال إلى المدرسة، فلم يكن هناك وقت لتناول الإفطار».

ارتدت سترة رمادية داكنة ضيقة أسفلها قميص أزرق به لمعة بسيطة، كانت ترتدي هذه الملابس بمنزلة الدرع الواقي. أرادت أن تقول شيئًا ولكن فكَّيها كانا مطبقين بقوة. لم يعد لديها أعصاب لتتحمل؛ فقد أصبحت لديها جرأة هائلة وإن اقترب منها أحدهم ستوبخه بشدة.

- أؤكد لك أنه إذا ما جلست وقدح القهوة في يدي يأتي أحدهم ويطلب مني خبزًا أو عصيدة الشوفان أو ما شابه.

أومأت برأسها في صمت. ظل صوت بول يتردد في ذهنها. كل تلك الأعمال مسروقة.

- أعتقد أنني ظللت لمدة عام أتناول ما أستطيع جذبه من سلة الخبز وأنا في طريقي للخارج، إنني مغرم بالفطائر غير الناضجة في الواقع.

كان هناك بعض الأشخاص خارج المحكمة، وجمع صغير يتحرك أمام سلالم الدرج الرئيسية. اعتقدت في البداية أنهم مجموعة من المتفرجين؛ لكن بول مد يده وأمسك بذراعها وهي تغادر السيارة الأجرة.

قال: «يا إلهي، أخفضي رأسك لأسفل».

- ماذا؟

وبمجرد أن وطأت قدمها الطوار، امتلأ المكان بوميض الكاميرات الباهر للبصر، وتسمرت للحظة في مكانها ثم دفعتها ذراع هنري للأمام لتشق طريقها بالقوة وسط الرجال، وسمعت أحدهم يصيح باسمها، ثم دفع بورقة في يدها الخالية، واستطاعت أن تسمع صوت هنري ورنة الفزع فيه بينما كان الحشد يقترب ويحيط بها. أحاطتها مجموعة من السترات ورأت الانعكاسات الداكنة العميقة للعدسات الضخمة.

- تراجعوا إلى الوراء جميعًا من فضلكم. تراجعوا إلى الوراء.

لمحت وميض الأزرار النحاسية على زي رجل الشرطة ثم أغلقت عينيها وشعرت بنفسها تندفع جانبًا، ولا يزال هنري يحكم قبضته حول ذراعها.

ثم دلفوا إلى قاعة المحكمة الهادئة، واتجهت نحو فريق الأمن، وكانت على الجانب الآخر ونظرت إليه في صدمة.

تنفست بصعوبة وهي تقول: «ما هذا بحق الجحيم؟».

سوى هنري شعرها واستدار لينظر من خلال الأبواب.

- إنها الصحافة، أخشى أن القضية جذبت الكثير من الاهتمام بشكل سخيف.

عدلت من وضع سترتها ثم نظرت حولها في الوقت المناسب لترى بول يخطو بخطوات واسعة ويمر من خلال فريق الأمن. كان يرتدي قميصًا أزرقَ فاتحًا وسروالًا داكنًا وبدا عليه الهدوء الشديد، لم يضايقه أحد. وحينما التقت أعينهما حدجته بنظرة غضب. أبطأ من خطواته قليلًا، لكن تعبيرات وجهه لم تتغير. نظر خلفه ودس أوراقه أسفل ذراعه واستمر في سيره متوجهًا نحو قاعة المحكمة رقم اثنين.

حينها فقط رأت قصاصة الورق التي في يدها ففردتها بحرص.

إن امتلاك ما سرقه الألمان يعد جريمة.

ضعي نهاية لمعاناة الشعب اليهودي، أعيدي ما هو حق لهم.

نظر هنري من فوق كتفيها وقال: «ما هذا؟».

تساءلت في تعجب: «لماذا يعطونني هذه، حتى المدعون ليسوا يهودًا».

- لقد حذرتك أن السرقة وقت الحرب موضوع مثير. أخشى أن كل أنواع أصحاب المصالح تتعلق به سواء إن كان يؤثر عليهم مباشرة أم لا.

- لكن هذا سخف، إننا لم نسرق هذه اللوحة اللعينة، إنها ملك لنا ما يزيد على عقد كامل.

- حبًا بالله ليف، هيا بنا نتجه إلى القاعة رقم2. سأبحث عن أحد ليجلب لك بعض الماء.

كانت المنطقة المخصصة للصحافة مكتظة، رأت الصحفيين متلاصقين بجانب بعضهم بعضًا، يهمهمون ببعض الكلمات ويضحكون، ويتصفحون الصحائف اليومية قبل أن يصل القاضي؛ كانوا كقطيع الحيوانات المفترسة- يغلب عليهم الاسترخاء إنما متربصون وهم يشاهدون فريستهم. جالت ببصرها عبر المقاعد لترى إن كان هناك أحد تعرفه من الفريق الآخر. كانت تريد أن تقف وتصيح بهم.

إنها لعبة بالنسبة لكم، أليس كذلك؟ إن كل ذلك سيُنسى غدًا.

وتسارعت دقات قلبها.

قال هنري: «إن القاضي له خبرة في مثل هذه القضايا. إنه عادل بشدة».

ولكنه كان غامضًا على غير العادة حينما سألته كم عدد المرات التي حكم فيها لصالح المالكين الحاليين.

كل جانب كان مثقلًا بحمل ملفات المستندات الضخمة، وقوائم الشهود الخبراء، وبعض التصريحات عن النقاط القانونية الغامضة في القانون الفرنسي.

قال هنري مازحًا: «إن ليف الآن تعلم الكثير عن متخصصي الدعاوَى القضائية لدرجة أنه يمكن أن يُعرض عليها وظيفة فيما بعد».

قالت في تجهم: «ربما أحتاج إليها».

- ليقف الجميع.

لمس هنري مرفقها وهو يمنحها ابتسامة مطمئنة وهو يقول: «ها قد بدأنا».

كان اثنان من عائلة ليفيفر -رجلان من كبار السن- يجلسان بالفعل على أحد المقاعد الطويلة وبجوارهما شون فلاهرتي، وراحا يراقبان الإجراءات القانونية في صمت حيث شرع محامي المرافعات -كريستوفر جينكز- في إيجاز وقائع القضية. نظرت إليهما وشاهدت تعبيرات وجهيهما الجامدة، والطريقة التي يعقدان بها أذرعهما أمام صدريهما كما لو أنهما يميلان إلى الشعور بالاستياء. شرح للمحكمة أن موريس وأندريه ليفيفر هما الأمناء على الأعمال المتبقية وإرث إدوارد ليفيفر، وإن كل ما يهمهما هو الدفاع عن عمله الفني، وحماية إرثه في المستقبل.

همهمت ليف قائلة: «وحشو جيوبهم». هز هنري رأسه بالموافقة.

راح هنري يخطو القاعة ذهابًا وإيابًا، ويشير بين الحين والآخر إلى المذكرات، وتعقيباته موجهة إلى القاضي. حينما ازدادت شهرة ليفيفر في الآونة الأخيرة، أجرى أحفاده مراجعة لأعماله المتبقية، التي كشفت عن مصادر مرجعية للوحة تسمى الفتاة التي تركتها، والتي كانت في يوم من الأيام من ممتلكات زوجة الرسام صوفي ليفيفر.

وقد أوضحت بعض الصور والمذكرات المكتوبة حقيقة أن اللوحة كانت معلقة بوضوح في فندق يعرف باسم الديك الأحمر في سان بيرون، وهي بلدة احتلها الألمان أثناء الحرب العالمية الأولى.

وسجل في هذه المذكرات أن القائد المسؤول عن البلدة -الذي يدعى فريدريك هينكن- قد أبدى إعجابه بالعمل الفني في مناسبات عدة، وأن الألمان استولوا على الفندق من أجل استخدامهم الشخصي، وكانت صوفي ليفيفر واضحة في مقاومتها للاحتلال.

تم القبض على صوفي ليفيفر وأُبعدت عن سان بيرون في أوائل عام 1917، وفي الوقت نفسه تقريبًا اختفت اللوحة.

قال جينكز: «إن كل ذلك دليل كاف على الإكراه، على الامتلاك «المشبوه» للوحة يحبها مالكوها بشدة».

ثم قال مؤكدًا: «إن ذلك ليس الدليل الوحيد على أنه حُصل على اللوحة بشكل غير قانوني».

- سجلت الأدلة التي حصلنا عليها ظهور اللوحة خلال الحرب العالمية الثانية في ألمانيا –في بلدية بيرتشسجادن Berchtesgaden– في مخزن يعرف بكولكشن بوينت، يستخدم لتخزين الأعمال المسروقة والمنهوبة التي وقعت في حيازة الألمان. ردد كلمات «أعمال فنية مسروقة، ومنهوبة» مرتين للتأكيد على وجهة نظره.

واستطرد جينكز: «وهنا أصبحت اللوحة بشكل غامض في ملكية سيدة أمريكية تُدعى لوان بيكر التي أمضت يومًا في مخزن كولكشن بوينت وكتبت عن ذلك في صحيفة أمريكية. وذكرت تقاريرها في ذلك الوقت أنها تلقت «هدية»، أو تذكارًا من وراء الحدث، واحتفظت باللوحة في منزلها وهي حقيقة أكدتها عائلتها إلى أن بيعت منذ عشر سنوات إلى ديفيد هالستون».

كل ذلك لم يكن جديدًا بالنسبة لليف التي شهدت الكشف الكامل عن كل تلك الأدلة، لكنها استمعت إلى تاريخ لوحتها يسرد بصوت عال في المحكمة ووجدت أنه من الصعب الربط بين اللوحة التي كانت معلقة بسلام في غرفة نومها وبين تلك التجربة المؤلمة، وهذه الأحداث التي اكتسبت أهمية على المستوى العالمي.

نظرت نحو مقعد الصحافة، وبدا أن الصحفيين مستمتعون بما يسمعونه، وفكرت بشرود في أنه إن لم يكن مستقبلها كله يعتمد على ذلك، فكانت هي الأخرى ستشعر بذلك الاستمتاع. وبالقرب من المقعد، جلس بول متكئًا إلى الخلف عاقدًا ذراعيه في حالة تأهب.

تجولت بعينيها جانبًا فنظر إلى عينيها مباشرة، فاحمرت وجنتاها قليلًا وأدارت وجهها بعيدًا، وتساءلت إن كان سيحضر كل أيام الجلسة، وإن كان من الممكن قتل رجل في قاعة محكمة مكتظة.

وقف كريستوفر جينكز أمامهم وقال: «سيدي القاضي، إنه لمن سوء الحظ الشديد أن السيدة هالستون غرقت دون قصد في بعض الأخطاء التاريخية وهي في النهاية أخطاء. وحجتنا هنا أن اللوحة سرقت مرتين؛ مرة من منزل صوفي ليفيفر، ثم المرة الأخرى من الورثة خلال الحرب العالمية الثانية ومنحت كهدية غير قانونية من مخزن كولكشن بوينت، وكان ذلك في فترة يغلب عليها الفوضى الشديدة فلم يُسجل هذا الفعل ولم تُكتشف ملابساته حتى الآن».

- لكن القانون في إطار معاهدة جينيف وتشريعات الاسترداد الحالية ينص على أنه يجب إصلاح تلك الأخطاء. وقضيتنا هنا أن تعود تلك اللوحة لأصحابها الفعليين، وهم عائلة ليفيفر. أشكركم.

نظرت ليف إلى جانب الغرفة حيث وضعت صورة مطبوعة بالحجم الطبيعي للوحة على حامل صغير، وطلب فلاهرتي أن توضع اللوحة تحت الحماية القانونية حتى يصدر الحكم بشأنها، لكن هنري أخبرها أنها ليست ملزمة بالموافقة على ذلك.

ومع ذلك كان من المزعج رؤية الفتاة هنا، في مكان لا تنتمي إليه، بدت نظرتها وكأنها تسخر من الأحداث التي تتم أمامها. وفي المنزل، تجد ليف نفسها تسير في غرفة النوم لتنظر ببساطة إليها، وما زاد من حدة النظرة في عينيها احتمالية أنها لن تتمكن من النظر إليها مرة ثانية في القريب.

طالت فترة ما بعد الظهيرة، تدفق الهواء ببطء وملأ القاعة من خلال التدفئة المركزية، وفند كريستوفر جينكز محاولتهم لإسقاط القضية بالتقادم بكفاءة البحث الجنائي التي يتسم بها جراح يشعر بالملل وهو يشرِّح أحد الضفادع. ونظرت إلى أعلى بين الحين والآخر لتسمع عبارات مثل «نقل الملكية»، «والأصل غير متكامل».

سعل القاضي وتفحص المذكرات التي أمامه، وهمس بول إلى مديرة شركته، وحينما فعل ابتسمت وكشفت عن أسنان بيضاء صغيرة مثالية.

شرع كريستوفر جينكز في قراءة المذكرات.

15 يناير 1917

«اليوم قبضوا على صوفي ليفيفر، إنه مشهد لن ترى مثله. كانت منهمكة في القيام ببعض الأعمال في قبو الفندق حينما عبر جنديان ألمانيان الميدان ودفعا بها فوق سلالم الدرج وسحباها إلى الخارج كما لو أنها أحد المجرمين. وكانت أختها تبكي وتتوسل وكذلك فعلت الطفلة اليتيمة ابنة ليليان بيتون، وهبت جموع من البشر واحتجَّت على ما يحدث لكنهما أزاحاهم

كالذباب، وطرحا أرضًا اثنين من كبار السن وسط الفوضى. أقسم إنه إن كان هناك جزاء عادل في الحياة الأخرى، فسيدفع الألمان الثمن غاليًا.

حملوا الفتاة في شاحنة مواشٍ صغيرة، وحاول العمدة منعهم، لكنه أضحى شخصية ضعيفة هذه الأيام وزاد من ضعفه موت ابنته، وأصبح أكثر عرضة لتقبل إهانتهم، ولم يأخذوا تصرفاته على محمل الجد، وحينما غابت الشاحنة في النهاية عن الأنظار اتجه نحو الحانة وأعلن بمنتهي الغطرسة أنه سوف يصعد الأمر إلى أعلى المستويات. لم ينصت أحد منا إليه، وراحت أختها تبكي وأسندت برأسها إلى النضد، وهرب أخوها أوريلين كالكلب المحروق، ووقفت الطفلة التي منحتها صوفي مأوى -ابنة ليليان بيتون- على الجانب كشبح صغير شاحب.

قلت لها: «إن هيلين ستعتني بك». وانحنيت نحوها ووضعت عملة في يدها، فنظرت إليها كما لو أنها لا تعرف كنهها. وحينما نظرت إليّ كانت عيناها متسعتين من شدة الفزع.

- لا تخافي طفلتي، إن هيلين امرأة طيبة، وستعتني بك.

كانت هناك حالة من الهياج انتابت شقيق صوفي قبل أن ترحل، لكني لم أكن أسمع جيدًا، ووسط الجلبة والضوضاء فاتني سماع جوهر الموضوع. ومع هذا، فأنا أخشى أن يسيء الألمان معاملتها. كنت أشعر أنه بمجرد استيلائهم على الفندق، فإن الفتاة ستواجه صعوبات شديدة، لكنها ما كانت لتستمع إليّ

مطلقًا. لا بد وأنها أهانتهم بطريقة ما، فهي دومًا تلك الشخصية المندفعة، لكني لا أستطيع أن أدينها في هذا؛ فأنا أشك إن كان الألمان في منزلي لكنت أهنتهم أنا الأخرى.

نعم أنا أختلف مع صوفي ليفيفر في بعض الأشياء، لكن قلبي مفطور عليها الليلة، أن أراها هكذا وهم يدفعونها نحو شاحنة الماشية كما لو أنها جثة حيوان، وأن أتخيل مصيرها. هذه أيام حالكة، وإنني قد عشت حتى رأيت هذه الأيام. فتمر عليّ أيام لا أستطيع أن أصدق فيها أن بلدتنا الصغيرة أصبحت مكانًا به مس من الجنون».

وبصوته الخفيض الرنان أنهى هنري جينكز قراءته. ساد الهدوء القاعة إلا من صوت كاتب الاختزال الذي اخترق ذلك الصمت. وفوق رؤوسنا راحت تدور مروحة ببطء شديد محدثة صوت أزيز ولم تنجح في تحريك الهواء.

«كنت أشعر أنه بمجرد استيلائهم على الفندق، فإن الفتاة ستواجه صعوبات شديدة».

- السيدات والسادة، أعتقد أن هذه المذكرات تخبرنا بشكل قاطع أن أي علاقة بين صوفي ليفيفر وبين الألمان لم تكن بالعلاقة السعيدة.

سار عبر القاعة كشخص يستنشق الهواء على الشاطئ ويتفحص الصفحات المصورة بفتور.

- لكن ليس هذا هو المرجع الوحيد، فقد أثبتت تلك المقيمة المحلية -فيفيان لوفير- أنها موثق رائع للحياة في تلك البلدة الصغيرة، وإذا ما عدنا للوراء عدة أشهر سنجد أنها كتبت التالي:

يتناول الألمان وجباتهم في فندق الديك الأحمر، ويجعلون الأختين بيسيت تطهوان لهم طعامًا شهيًا للغاية لدرجة أن رائحته تتسلل وتغمر الميدان فتجعلنا جميعًا على وشك أن نفقد صوابنا من فرط الاشتياق. لقد أخبرت صوفي بيسيت -أو ليفيفر الآن- في المخبز أن أباها لم يكن ليتحمل ذلك لكنها قالت إنه ليس في يدها شيء لتفعله».

رفع رأسه وقال: «ليس في يدها شيء لتفعله». لقد احتل الألمان فندق زوجة الرسام وأجبروها على أن تطهو لهم. كان العدو في منزلها بالفعل، وكانت قليلة الحيلة تمامًا. جميعها أشياء مقنعة، لكن ليس هذا الدليل الوحيد؛ فقد كشف البحث في سجلات ليفيفر عن خطاب كتبته صوفي ليفيفر إلى زوجها، لكن من الواضح أنه لم يصل إليه لكن ذلك من الصعب إثباته.

رفع الورقة كما لو أنه يحاول بصعوبة قراءة ما فيها.

«إن القائد ليس في حماقة القائد بكنباور لكنه يثير أعصابي أكثر منه. إنه يحدق إلى اللوحة التي رسمتها لي وأنا أريد أن أخبره أنه ليس لديه الحق في ذلك. هذه اللوحة دونًا عن الأخرى تؤول إلينا أنا وأنت فقط. هل تعرف ما الشيء الغريب إدوارد؟ إنه معجب بعملك ويعرف عنه بعض المعلومات؛ إنه يعرف ماتيس، وويبر، وبورمان. يا له من شيء غريب أن أجد نفسي أدافع عن رسوماتك البارعة بالفرشاة أمام قائد ألماني.

لكني رفضت أن أزيحها من مكانها أيًا ما كان ستقوله هيلين. إنها تذكرني بك، وبوقت كنا فيه نرفل في السعادة معًا. إنها تذكرني أن الإنسان قادر على الحب، والجمال وكذلك على الدمار.

إنني أصلي من أجل سلامتك وعودتك سريعًا
حبيبي.
حبيبتك إلى الأبد صوفي».

- هذه اللوحة دونًا عن الأخرى تؤول إلينا أنا وأنت فقط.

جعل جينكز هذه العبارة تتردد في الهواء.

- إذًا يخبرنا هذا الخطاب الذي عُثر عليه بعد وفاتها بفترة طويلة أن اللوحة تعني الكثير جدًا لزوجة الرسام، وهي تخبرنا بشكل قاطع أن القائد الألماني كانت عينه على تلك اللوحة، وليس هذا فقط وإنما كانت لديه فكرة جيدة عن السوق ككل. لقد كان إن أردتم *شغوفًا*. لقد أعلن تلك الكلمة وهو يؤكد على كل مقطع فيها كما لو أنها المرة الأولى التي يستخدمها.

- ومن هنا فإن السرقة في الحرب العالمية الأولى هي مؤشر للسرقات في الحرب العالمية الثانية. وهنا علمنا بشأن الضباط الألمان، فهم يعرفون ما يريدون، ويعرفون ما له قيمة فيستولون عليه.

هبت محامية المرافعات أنجيلا سيلفر على قدميها وقالت: «أعترض. هناك فارق بين شخص معجب بلوحة ولديه معلومات عن الرسام وبين الاستيلاء عليها فعليًا. فلم يقدم زميلي أي دليل كان على أن القائد استولى على اللوحة، إنه ببساطة أعجب بها وإنه كان يتناول الطعام في الفندق الذي كانت تعيش فيه السيدة ليفيفر. كل تلك الأشياء مجرد أدلة ظرفية».

تمتم القاضي: «اعتراض مقبول».

مسح كريستوفر حاجبه وقال: «إنني أحاول ببساطة أن أرسم صورة -إن جاز التعبير- للحياة داخل بلدة سان بيرون عام 1916، فمن المستحيل أن نفهم كيف أصبحت لوحة في عهدة شخص ما دون فهم المناخ المحيط لذلك الوقت، وكيف أن الألمان لديهم صلاحية تامة في الاستيلاء، أو الحصول على ما يحلو لهم من أي منزل يختارونه».

تفحصت أنجيلا مذكراتها وقالت: «أعترض. هذا ليس له صلة بالموضوع، فليس ثمة دليل يوحي بالاستيلاء على اللوحة».

- اعتراض مقبول. فلتبق في جوهر الموضوع.
- مرة أخرى سيدي القاضي، إنني أحاول ببساطة أن أرسم الصورة.
- اترك الرسم إلى ليفيفر -إذا ما سمحت- سيد جينكز.

سادت همهمات ضاحكة في القاعة.

- أردت أن أوضح أن الجنود الألمان استولوا على بعض الأشياء القيمة ولم تُسجل، كما أن هناك أشياء لم يسددوا ثمنها كما وعد بتسديدها القادة الألمان من قبل. إنني أذكر الجو العام لذلك السلوك لأن حجتنا هنا أن لوحة الفتاة هي واحدة من تلك الأشياء.

«إنه يحدق إلى اللوحة التي رسمتها لي وأنا أريد أن أخبره أنه ليس لديه الحق في هذا».

- قضيتنا هنا سيدى القاضي أن القائد فريدريك هينكن شعر بأن له كل الحق بالفعل، ولم تفارق هذه اللوحة حوزة الألمان لثلاثين عامًا أخرى.

نظر بول نحو ليف لكنها أشاحت بوجهها بعيدًا.

صبت تركيزها على لوحة صوفي ليفيفر. «حمقى» بدا وكأنها تقول ذلك، وبدت نظرتها الغامضة تخدع كل شخص هنا.

قالت ليف لنفسها: «نعم، نحن هكذا».

رفعت الجلسة في الثالثة والنصف. كانت أنجيلا سيلفر تتناول شطيرة في حجرتها، والشعر المستعار بجوارها على المائدة، وقدح القهوة على مكتبها، وجلس هنري قبالتها.

أخبروها أن اليوم الأول مر كما توقعوا، لكن هناك مسحة من التوتر عالقة في المكان كالملح العالق في الهواء ينتظر المياه ويبعد أميالًا عن الساحل. راحت ليف تقلب كومة من النسخ المترجمة بينما كان هنري ملتفتًا نحو أنجيلا.

- ليف، ألم تقولي إنكِ حينما تحدثت إلى ابن أخ صوفي ذكر شيئًا عن أنها كانت موصومة بالعار؟ إنني أتساءل إن كانت هناك أهمية في تتبع ذلك الخيط؟

قالت: «أنا لا أفهم». ونظر إليها الاثنان في ترقب.

انتهت سيلفر من تناول قطعة من الشطيرة قبل أن تتحدث وقالت: «إن كانت موصومة بالعار ألن يوحي ذلك بأنه كان هناك تراضٍ في علاقتها مع القائد؟ ما أقصده هو إن كان بمقدورنا إثبات أن الأمر كذلك، أو نشير إلى وجود علاقة خارج إطار الزواج مع جندي ألماني، فيمكننا حينئذ القول بأن اللوحة ربما كانت هدية. فليس من المستبعد احتمالية أن امرأة في علاقة حب شديدة تمنح حبيبها لوحة لها.

قالت ليف: «لكن صوفي لم تفعل».

قال هنري: «نحن لا نعلم، فقد أخبرتني أنه بعد اختفائها لم تتحدث عنها العائلة مطلقًا. وإن كانت بريئة فبالقطع كانوا سيودون تذكرها، لكن بدلًا من ذلك يبدو أن العار كان يلحق بها».

أعادت ليف فتح ملفها وقالت: «لا أعتقد أن هناك تراضيًا في علاقتها مع القائد. انظر إلى هذه البطاقة البريدية: «إنك نجمتي الهادية في هذا العالم المليء بالجنون». كان هذا قبل ثلاثة أشهر من هذا التعاون الذي يفترض أنه كان بينهما. لا يبدو أنهما زوج وزوجة لا يحبان بعضهما بعضًا، أليس كذلك؟».

قال هنري: «هذا بالقطع زوج يحب زوجته، نعم، لكن ليس لدينا أي فكرة إن كانت تبادله هذا الحب أم لا، فربما كانت واقعة في حب جندي ألماني في ذلك الوقت. فليس معنى أنها تحب زوجها أن يمنعها ذلك من الوقوع في حب شخص آخر بمجرد رحيل زوجها».

أزاحت ليف شعرها بعيدًا عن وجهها وقالت: «إن الأمر مرعب، إننا نلطخ اسمها».

قالت: «إنني لا أريد أن أستغل كلمات ابن أخيها ضدها، إنه الوحيد الذي يبدو أنه يهتم بها، إنني فقط... إنني فقط غير مقتنعة أننا حصلنا على القصة كلها».

كورت أنجيلا علبة الشطيرة في يدها وألقت بها بحرص في سلة القمامة وقالت: «إن القصة كلها ليست ذات أهمية. أنصتي لي سيدة ليف، إن استطعت إثبات أن هناك علاقة بينها وبين القائد، فإن ذلك سيحسن من فرص احتفاظك باللوحة، فما دام الطرف الآخر يستطيع الإشارة إلى أن اللوحة مسروقة، أو أُخذت عنوة، فذلك يضعف موقفك في القضية».

مسحت يدها وأعادت وضع الشعر المستعار وأردفت قائلة: «إنها لعبة قواعدها لا ترحم، ويمكنك أن تراهني بأن الطرف الآخر يلعبها بلا هوادة، والأمر في النهاية يتعلق بهذا السؤال: إلى أي مدى ترغبين في الاحتفاظ بتلك اللوحة؟».

جلست ليف أمام الطاولة وشطيرتها لم تُمَس بينما كان المحاميان الآخران يستعدان للمغادرة، وحدقت إلى المذكرات التي أمامها، لا تستطيع أن تلطخ ذكريات صوفي، لكنها لن تسمح بأن تضيع اللوحة من بين يديها، والأهم من هذا كله، أنها لن تسمح لبول أن ينتصر.

قالت: «سألقي نظرة أخرى».

26

إنني لست خائفة، لكن من الغريب أن أجدهم هنا يأكلون، ويتحدثون في منزلي. إنهم مهذبون إلى حد كبير، يكادون يراعون شعورنا، إنني أعتقد أن القائد لن يسمح بأي تصرفات سيئة من جانب رجاله. لذا فقد بدأت الهدنة غير المريحة بيننا.

الشيء الغريب أن القائد رجل مثقف، فلديه معلومات عن ماتيس، وويبر، وبورمان، هل تتخيل كم هو غريب أن أناقش أدق تفاصيل رسوماتك مع ألماني؟

أكلنا جيدًا الليلة، وقد دلف القائد إلى المطبخ وأعطى أوامره بأن نأكل بقايا السمك، وبكى الصغير جين حينما نفد الطعام. إنني أدعو أن تجد ما يكفيك من الطعام أينما كنت.

قرأت ليف هذه المقتطفات محاولة أن تملأ الفراغات بين كلماتها. من الصعب إيجاد تسلسل زمني -فكتابات صوفي كانت على قصاصات من الورق، والحبر قد تلاشى في بعض المواضع- لكن هناك بعض الود المؤكد

في علاقتها بفريدريك هنكن، فقد أشارت إلى المناقشات الطويلة، والعطف غير المبرر الذي جعله يستمر في إعطائهم الطعام. وبالقطع ما كانت صوفي لتناقش الفن أو تقبل طعامًا من شخص تعده همجيًا.

وكلما تعمقت في القراءة، اقتربت أكثر من مشاعر كاتبة هذه القصاصات. قرأت قصة الخنزير الصغير، وترجمتها مرتين لتتأكد أنها قرأتها على نحو صحيح، وأرادت أن تبتهج بنتائجها. رجعت إلى نسخ المحكمة، وإلى وصف السيدة لوفير الممتزج بالشموخ للفتاة وعدم خضوعها وشجاعتها وقلبها الطيب. كانت روحها تكاد تقفز من بين الصفحات. تمنت للحظات لو كان بإمكانها أن تخبر بول.

أغلقت الملف بعناية، ثم نظرت إلى جانب مكتبها حيث تحتفظ ببعض الأوراق التي لم تُرِها لهنري وقد انتابها الشعور بالذنب.

أما القائد فهو قاس ماكر ومع هذا كان يبدو ذلك كستار كأنما يخفي به مشاعره الحقيقية. خشيت أن يرى ما وراء ذلك العزم الواهن.

باقي الورقة كان مفقودًا، ممزقًا أو ربما تآكل بفعل الزمن.

قلت: «سأرقص معك أيها القائد، لكن في المطبخ».

ثم وجدت قصاصة من الورق مكتوب فيها بخط يد يختلف عن خط صوفي.

ما يقع لا يمكن تغييره.

شعرت ليف بأن قلبها غاص في قدميها في المرة الأولى التي قرأت فيها تلك العبارة.

قرأت الكلمات، وأعادت قراءتها وهي تتخيل امرأة تعانق رجلًا في الخفاء يفترض أنه عدوها. أغلقت الملف وأعادته بحرص تحت كومة الأوراق.

- كم عددها اليوم؟

قالت وهي تسلمه حصيلة اليوم من رسائل السب والقذف: «أربعة».

أخبرها هنري بألا تفتح أي رسالة لا تعرف مرسلها، بل سيفعل ذلك الموظفون الذي يعملون لديه، وسيبلغونهم بأي رسالة قد تمثل مصدر تهديد. حاولت أن تبدو متفائلة بشأن تلك التطورات الجديدة، لكن في داخلها كانت تجفل في كل مرة ترى فيها رسالة غير مألوفة؛ فالفكرة في كل هذا الكم من الكراهية التي خرجت بلا هدف وتنتظر هدفًا. لم تعد تستطيع أن تكتب «الفتاة التي تركتها» في محرك البحث. كان هناك قبل ذلك مرجعان تاريخيَّان، لكن الآن هناك نسخًا من تقارير الصحف في جميع أنحاء العالم أعادت نسخها مجموعات المصالح، وهناك غرف الدردشة التي تتناول أنانيتها الواضحة هي وبول، وتجاهلهم المتأصل لما هو صحيح. وانطلقت الكلمات كالضربات الموجعة: منهوبة. مسروقة. مسلوبة. عاهرة.

ووضع أحدهم مرتين براز كلب في صندوق الخطابات في الردهة.

لم يكن هناك إلا ثائرة واحدة هذا الصباح؛ سيدة في منتصف العمر ذات شعر أشعث ترتدي معطفًا ضد المطر، أصرت على إعطائها نشرة ورقية أعدتها عن الهولوكوست.

قالت ليف وهي تدفع بها إليها: «هذا ليس له علاقة بي أو بالقضية».

ارتسم الغضب الشديد على وجه المرأة وهي تقول: «إن لم تفعلي شيئًا فأنت متواطئة».

أبعدها هنري وهو يقول: «ليست هناك فائدة في الاشتباك». والغريب أن ذلك لم يخفف شعورها الغامض بالذنب.

هذه كانت الدلائل الصريحة للرفض، لكن كانت هناك عواقب أقل وضوحًا للقضية المتداولة في المحكمة؛ فالجيران لا يلقون إليها بالتحية، لكن يومئون برؤوسهم وينظرون إلى أحذيتهم وهم يمرون، وليس هناك أي دعوات منذ أن أعلنت الصحف عن القضية. لا دعوة عشاء، أو عروض خاصة، أو دعوة إلى إحدى المناسبات المتعلقة بفن العمارة التي تدعى إليها في العادة حتى لو لم تذهب إليها. ظنت في البداية أن كل هذا من قبيل المصادفة، والآن بدأت تتساءل في تعجب.

تتناول الصحف الملابس التي ترتديها كل يوم ويصفونها «بالكئيبة»، وأحيانًا بـ «المتحفظة»، ودومًا بـ «الشقراء». إن شغفهم بكل جوانب القضية لا ينتهي. ولا تدري إن كان قد حاول أحدهم الوصول إليها لإبداء أي تعليق؛ لكن هاتفها كان مفصولًا لعدة أيام.

نظرت عبر المقاعد المكتظة نحو أبناء ليفيفر. كانت وجوههم جامدة تغلب عليها تعبيرات العداء الكامن كحالهم في اليوم الأول. وتساءلت: ماذا سيكون شعورهم حينما يسمعون أن عائلة صوفي طردتها، وكانت وحيدة، غير محبوبة. هل سيختلف شعورهم حيالها؟ أم أنهم لن يدركوا وجودها في وسط كل هذا، ولا يرون إلا علامات الجنيه فقط؟

كان بول يجلس كل يوم على طرف المقعد، ولم تكن تنظر إليه، لكنها كانت تشعر بوجوده كالنبضات الكهربائية.

أعطى كريستوفر جينكز الكلمة وأخبر المحكمة أنه سوف يعرض إيجازًا لأحدث الأدلة التي تثبت أن لوحة الفتاة هي في حقيقة الأمر لوحة فنية مسروقة، وقال إنها قضية غير عادية لأن التحقيقات تشير إلى أنه حُصل على اللوحة بطرق مشبوهة وهذا لم يحدث مرة واحدة فقط، بل مرتين. لم تفشل كلمة «طرق مشبوهة» في أن تجعلها تجفل كل مرة.

- اشترى المالكون الحاليون -وهم عائلة هالستون- اللوحة من إرث لوان بيكر، أو كما تعرف بالجريئة بيكر التي كانت مراسلًا عسكريًا عام 1945 وهي من السيدات القلائل اللاتي شاركن في ذلك. وهناك قصاصات من جريدة نيويورك ريجيستر **New York Register** التي أوردت تفاصيل عن وجودها بالقرب من معسكر الاعتقال (داخاو) في نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد قدموا سجلًا قويًا عن وجودها بينما كانت قوات التحالف تحرر المعسكر.

شاهدت ليف الصحفيين الذكور وهم يدونون الملاحظات باهتمام. وغمغم هنري بينما كانوا يجلسون: «هناك أشياء متعلقة بالحرب العالمية الثانية، فالصحافة تحب نازيًا». تقسم ليف إنها شاهدتهم قبل يومين وهم يلعبون لعبة حبل المشنقة **Hangman**.

- وذكرت إحدى قصاصات الصحف أن السيدة بيكر أمضت يومًا وقت تحرير المعسكر بمخزن شاسع يدعى كولكشن بوينت يقع في مكاتب

النازيين السابقة بالقرب من ميونخ، الذي وضعت فيه قوات الولايات المتحدة الأعمال الفنية الضائعة.

ثم تحدث عن قصة صحفية أخرى مُنحت لوحة كنوع من الشكر على مساعدتها للحلفاء في ذلك الوقت، وكانت مادة للطعن القانوني وقد أعيدت لمالكيها الفعليين منذ ذلك الوقت.

هز هنري رأسه كإشارة بسيطة.

- سيدي القاضي سأوزع نسخًا من مقال هذه الجريدة المؤرخ 6 نوفمبر 1945 الذي يحمل عنوان: «كيف أصبحت حاكمًا لبيرتشسجادن»، والذي يوضح -ونحن نؤكده- كيف أن لوان بيكر الصحفية المتواضعة، امتلكت بطرق غير تقليدية تحفة فنية حديثة.

ساد الصمت القاعة، ومال الصحفيون إلى الأمام مستعدين للتدوين في مفكراتهم، وشرع هنري في القراءة:

«إن الحرب تؤهلك للعديد من الأشياء، لكن لم يؤهلني شيءٌ إلى اليوم الذي وجدت نفسي فيه حاكمًا لبيرتشسجادن، ولغنائم جورينج[1] من الأعمال الفنية المسروقة التي تقدر بنحو مئة مليون دولار».

تردد صوت الصحفية عبر السنوات، كانت شجاعة، ماهرة. وقد ذهبت مع فرقة سكريمينج إيجل Screaming Eagle [2] إلى شاطئ أوماها[3]، وتمركزت

(1) هيرمان جورينج قائد عسكري نازي، ومؤسس الجهاز السري، وقائد قوات الطيران الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية.

(2) هي فرقة عسكرية تابعة للقوات البرية الأمريكية، وشاركت في الحرب العالمية الثانية ضد اليابان عام 1944، كما شاركت في حرب فيتنام سنة 1965.

(3) شاطئ أوماها هو الاسم الكودي لواحد من نقاط الإنزال الخمسة التي حددها الحلفاء خلال غزو نورماندي في الحرب العالمية الثانية على الساحل الفرنسي المحتل في 6 يونيو 1944. وقد قسم الحلفاء شاطئ النورماندي إلى خمسة أقسام، كانت القوات الأمريكية مسؤولة عن أوماها وأوتاها.

معهم هناك بالقرب من ميونخ. وقد سجلت أفكار الجنود الصغار الذين لم يمضوا وقتًا طويلًا من قبل بعيدًا عن أوطانهم، وعن التدخين، والتظاهر بالشجاعة والكآبة المستترة بداخلهم. ثم ذات صباح شاهدت القوات تخرج متجهة إلى معسكر اعتقال للأسرى على بعد أميال ووجدت نفسها مسؤولة عن اثنين من قوات البحرية وسيارة إطفاء. «فالجيش الأمريكي لن يسمح باحتمالية وقوع أي حوادث بينما في حوزته تلك الكنوز».

وتحدثت عن شغف جورينج للفن، وأدلة عن السلب الممنهج داخل جدران المبنى، ومدى ارتياحها حينما عاد الجيش الأمريكي وأخلى مسؤوليتها بتلك الغنائم.

ثم توقف كريستوفر جينكز عن الحديث.

«وحينما كنت أغادر، أخبرني الرقيب أنني يمكن أن أصطحب معي تذكارًا كتعبير عن الشكر لما وصفه بالعمل الوطني. وأخذته بالفعل وهو ما زال معي إلى اليوم؛ تذكار صغير لأغرب يوم أمضيته في حياتي».

وقف ورفع حاجبيه وقال: «تذكار!».

هبت أنجيلا واقفة وقالت: «أعترض، ليس ثمة شيء في المقال يقول أن التذكار هو لوحة الفتاة التي تركتها».

- إنها مصادفة غريبة أن تذكر أنهم سمحوا لها بأخذ قطعة من المخزن.
- إن المقال لم يذكر في أي موضع أن تلك القطعة لوحة، ناهيك بتلك اللوحة.
- اعتراض مقبول.

جلست أنجيلا على المقعد وقالت: «سيدي القاضي لقد راجعنا السجلات من بيرتشسجادن وليس ثمة سجل يذكر تلك اللوحة، ولم تظهر في أي كشوفات أو قوائم جرد في ذلك الوقت، لذا فمن المضلل هنا زميلي أن تقوم بذلك الربط».

- لكنه موثق هنا بالفعل أنه لم تُسجل بعض الأشياء، وقد سمعنا شهادة خبير بأن بعض الأعمال الفنية لم تسجل على الإطلاق لأنها سرقت خلال وقت الحرب وعرف فيما بعد أنها مسروقة بالفعل.

- سيدي القاضي، إن كان زميلي الموقر يريد أن يقول إن لوحة الفتاة سرقت في بيرتشسجادن، فلا يزال عبء الإثبات يقع على المدعين أن يثبتوا بما لا يدع مجالًا للشك أن اللوحة كانت هناك بالفعل في المقام الأول. فليس ثمة دليل قوي على أنها كانت جزءًا من تلك المجموعة.

هز جينكز رأسه وقال: «في كلمة له قال هالستون إنه حينما اشترى اللوحة أخبرته ابنة لوان بيكر أن أمها حصلت على اللوحة عام 1914 في ألمانيا، ولم تستطع أن تقدم له دليلًا على أصل مصدرها وهو لم يكن على دراية كافية بسوق الفن ليدرك أنه كان عليه الحصول على ما يثبت الأصل».

- وأعتقد أنه من الغريب أن لوحة تختفي من فرنسا خلال الاحتلال الألماني ثم يُسجل أن قائدًا ألمانيًّا كان يرغب فيها، ويعاد ظهورها في منزل سيدة عائدة لتوها من ألمانيا، ويسجل أيضًا أنها أحضرتها إلى وطنها كتذكار ثمين بعد رحلتها وأنها لن تعود ثانية لهناك أبدًا.

غرقت القاعة في الصمت. وعبر ذلك المقعد الطويل انتبهت سيدة ذات شعر داكن ترتدي ملابس باللون الأخضر الليموني، ومالت إلى الأمام وأسندت يدها المتغضنة بالتجاعيد إلى ظهر المقعد المقابل لها. وتساءلت ليف أين رأتها من قبل، وهزت المرأة رأسها بشدة. كان هناك العديد من كبار السن الذين يجلسون في المقاعد العامة؛ كم واحدًا منهم يتذكر تلك الحرب بشكل شخصي؟ كم منهم فقد لوحاته؟

وجهت أنجيلا حديثها إلى القاضي، وقالت: «سيدي القاضي، مرة أخرى هذه كلها أشياء ثانوية، وليس ثمة إشارات محددة في المقال إلى اللوحة. إنه مجرد تذكار كما أشير إليه هنا، فيمكن أن يكون شارة جندي أو قطعة من الحجارة. المحكمة يجب أن تبني حكمها على الأدلة فقط، ولا يوجد جزء في هذا الدليل المقدم يشير إلى اللوحة».

جلست أنجيلا سيلفر.

- هل يمكن أن نستدعي السيدة ماريان أندرو؟

وقفت السيدة التي ترتدي الأخضر الليموني بتثاقل، وشقت طريقها نحو المنصة، ونظرت حولها وهي تطرف بعينيها قليلًا بعدما حلفت اليمين. كانت تحكم قبضتها على حقيبتها مما جعل مفاصل أصابعها العريضة تبدو شديدة البياض. وحدقت إليها ليف حينما تذكرت أين رأتها من قبل؛ في شارع خلفي شديد الحرارة ببرشلونة منذ ما يقرب من عقد كامل، وشعرها كان أشقر بدلًا من ذلك الأسود الداكن، إنها ماريان جونسون.

- سيدة أندرو، هل أنت الابنة الوحيدة للوان بيكر؟

- إنني أرملة الآن لم أعد متزوجة، ونعم أنا الابنة الوحيدة.

استرجعت ليف تلك اللكنة الأمريكية القوية.

أشارت أنجيلا سيلفر إلى اللوحة وقالت: «سيدة أندرو، هل تعرفين تلك اللوحة -إنها نسخة من اللوحة- التي أمامك في المحكمة؟».

- أعرفها بالقطع، فقد كانت في غرفة الجلوس لدينا طوال فترة طفولتي، وتسمى الفتاة التي تركتها لإدوارد ليفيفر.

وقد نطقتها لو فيفر.

- سيدة أندرو، هل أخبرتك أمك بشأن التذكار الذي أشارت إليه في المقال؟

- لا سيدتي.

- ألم تذكر أنه كان لوحة؟

- لا سيدتي.

- ألم تذكر قط من أين جاءت باللوحة؟

- لم تذكر لي أنا شيئًا. لا. لكنني أود أن أقول إنه من المستحيل أن تأخذ أمي تلك اللوحة إذا ما عرفت أنها تؤول إلى أحد ضحايا هذه المعسكرات. لم تكن أمي من هذا النوع.

مال القاضي نحوها وقال: «سيدة أندرو، علينا أن نلتزم بحدود ما هو معروف. لا نستطيع أن ننسب الدوافع إلى أمك».

نفخت بغضب وقالت: «حسنًا، تبدون جميعًا هكذا، لكنكم لا تعرفونها. أمي تؤمن بالعدل، والتذكار الذي تحتفظ به يمكن أن يكون رؤوسًا أو بنادق قديمة، ولوحات أرقام سيارات. أشياء لا يهتم بها أحد».

فكرت لدقيقة ثم استطردت: «إن الرؤوس المتقلصة قد تؤول إلى شخص ما، لكن يمكنكم المراهنة أنه بالقطع لا يريد استعادتها».

سادت موجة من الضحك في القاعة.

- إنها كانت حزينة بالفعل لما حدث في داخاو، وبالكاد تحدثت عنه لسنوات فيما بعد. أنا أعرف أنها لن تأخذ شيئًا إذا ما علمت أنه يمكن أن يجرح واحدًا من هؤلاء الأرواح المسكينة فيما بعد.

- إذًا فأنت لا تعتقدين أن أمك قد أخذت تلك اللوحة من بيرتشسجادن؟

- إن أمي لم تأخذ أي شيء من أي أحد، إنها تدفع ثمن كل شيء، هذه كانت شخصية أمي.

وقف جينكز وقال: «هذا جيد جدًّا سيدة أندرو، لكن كما قلت إنك ليست لديك أي فكرة عن المصدر الذي حصلت منه أمك على اللوحة، أليس كذلك؟».

- كما قلت، أعلم أن أمي ليست لصّة؟

شاهدت ليف القاضي وهو يدوِّن شيئًا، ونظرت إلى ماريان وهي تلوي قسمات وجهها لأنهم يريدون تشويه سمعة أمها. نظرت إلى جاني ديكنسون، وابتسمت ابتسامة نصر خفية نحو إخوة ليفيفر. ثم نظرت نحو بول الذي كان يميل إلى الأمام والذي يشبك يديه على ركبتيه كما لو أنه يبتهل إلى الله.

أشاحت ليف بوجهها عن صورة لوحتها وشعرت بثقل جديد، كان أشبه بغطاء استقر فوقها فحجب الضوء.

قالت وهي تدلف إلى المنزل: «مرحبًا». إنها الرابعة وليس هناك أي أثر لمو. دلفت إلى المطبخ وأمسكت بورقة على طاولة المطبخ مكتوب فيها: «لقد ذهبت إلى رانيك، وسأعود غدًا. مو».

أسقطت ليف الورقة من يدها وأطلقت تنهيدة صغيرة. لقد اعتادت وجود مو وهي تفعل بعض الأشياء بالمنزل؛ صوت وقع قدميها، همهماتها من بُعد، جريان مياه الاستحمام، رائحة الطعام وهو ينضج في الفرن. إن المنزل خاو الآن. إنه لم يكن خاليًا هكذا قبل مجيء مو.

لاحظت ابتعاد مو هذه الأيام، وتساءلت إن كانت قد خمنت ما حدث بعد رجوعهما من باريس، وهو مثل كل شيء آخر يمكن أن يعيدها لبول.

لكن ليس ثمة فائدة تذكر من التفكير في بول الآن.

ليست هناك أي رسائل بريدية، فيما عدا إعلان عن المطابخ، وفاتورتين.

خلعت معطفها وأعدت لنفسها قدحًا من الشاي، وهاتفت والدها الذي كان بالخارج، وطلبت منها رسالة الرد الآلي العالية أن تترك اسمها ورقم هاتفها.

- يجب عليك ذلك، نود أن نسمع عنك.

تجولت بين محطات الراديو، لكن الموسيقى كانت مزعجة، وكانت الأخبار باعثة على الكآبة. ولم ترغب في تصفح شبكة الإنترنت؛ فمن غير المحتمل أن يكون هناك رسائل إلكترونية تحمل عروض عمل، وخشيت أن ترى شيئًا يتعلق بقضية المحكمة، فهي لا ترغب في تسلل الغضب المستتر من الملايين من أولئك الذين لا يعرفونها إلى شاشة الحاسوب أو إلى رأسها.

ولم ترغب في الخروج.

فراحت توبخ نفسها قائلة: «لا عليك، إنك أقوى من هذا، تذكري ما تحملته صوفي».

أدارت بعض الموسيقى لكسر حاجز الصمت، ووضعت الغسيل في المغسلة لكي يمنحها ولو القليل من الشعور بالمعيشة المنزلية السوية. ثم حملت كومة الأظرف والخطابات التي كانت تجاهلتها خلال الأسبوعين الماضيين وجذبت مقعدًا وراحت تتفحصها بتثاقل.

وضعت الفواتير في المنتصف، والمطالبات النهائية ناحية اليمين، وعلى اليسار وضعت أي شيء ليس مُلحًّا.

تجاهلت كشوفات الحساب البنكية، أما الكشوفات المصرفية للمحامين فقد وضعتها في كومة بمفردها.

كانت لديها مفكرة ضخمة دونت فيها عمودًا من الأرقام، وبدأت عملية حسابية في تلك القائمة وراحت تضيف مبالغ وتطرح مبالغ أخرى وتسجل النتائج وتضع ما توصلت إليه في جانب الصفحة. مالت بمقعدها إلى الوراء ونظرت خلال فتحات السقف. كانت الظلمة تغشى السماء وكأن الوقت منتصف الليل فتفحصت ساعتها ووجدت أنها لا تزال السادسة مساءً. نظرت نحو خطوط تصميمات ديفيد المنظمة الخالية من أي أخطاء والطريقة التي تبرز بها مساحة ضخمة من السماء المتلألئة من أي زاوية تنظر إليها. تطلعت

إلى الجدران وإلى الزجاج الحراري المتداخل مع ألواح خاصة من مادة رقيقة عازلة كان قد جلبها من كاليفورنيا والصين حتى يصبح المنزل هادئًا ودافئًا. نظرت إلى الحائط الخرساني المصنوع من المرمر الذي كتبت عليه ذات مرة بقلم تحديد **لماذا لا ترحل؟** وذلك حينما تشاجرت هي وديفيد بسبب إهمالها في الأيام الأولى من الزواج. وعلى الرغم من الحرص على استخدام المزيلات المتخصصة فإنه ما زال يمكن ملاحظة آثار الخطوط الخفيفة لتلك الكلمات إذا كانت الأحوال الجوية ملائمة. تطلعت إلى السماء التي كانت واضحة خلال كل حائط واحد شفاف على الأقل في كل غرفة، فبدا البيت الزجاجي وكأنه معلق في الفضاء يعلو الشوارع المزدحمة.

توجهت إلى غرفة نومها وتطلعت إلى لوحة صوفي ليفيفر. وكالعادة التقت عيناها بعيني صوفي التي كانت تنظر إليها مباشرة، ومع ذلك فهي اليوم لا تجد تلك النظرة الهادئة المتعالية. اليوم تعتقد ليف أنها يمكن أن تكتشف معلومات جديدة خلف تعبيرات وجهها.

ماذا حدث لك صوفي؟

عرفت أنه عليها اتخاذ ذلك القرار على مدى أيام. وربما كانت دومًا تعرف ما حدث، ومع ذلك يبدو الأمر وكأنه خيانة.

قلبت صفحات دفتر الهاتف ورفعت السماعة وطلبت الرقم.

- مرحبًا، هل هذا مكتب وكيل عقاري؟



27

- إذًا متى اختفت لوحتك؟

- ضحكت السيدة الشقراء بحزن وقالت: «ربما 1941 أو 1942. إن تحديد ذلك صعب لأن كل شخص معني بالموضوع قد توفي كما تعلم».

- نعم هذا ما قلته. هل يمكنك أن تعطيني وصفًا كاملًا؟

دفعت المرأة إليه بملف عبر الطاولة وقالت: «هذا كل شيء لدينا، ومعظم الحقائق كانت في الخطاب الذي أرسلته إليك في نوفمبر».

قلب بول صفحات الملف وهو يحاول أن يسترجع التفاصيل.

- إذًا فأنت حددت مكانه في معرض في أمستردام، وتقدمت بطلب مبدئي إلى...

طرقت مريام الباب ودخلت وهي تحمل القهوة. انتظر وهي توزع قدحي القهوة وأومأت برأسها معتذرة، ثم تراجعت ثانية كما لو أنها فعلت شيئًا خاطئًا. رد بعبارة شكر فغمزت له.

- نعم، لقد كتبت لهم خطابًا. كم قيمتها في رأيك؟

- آسف؟

- كم قيمتها في رأيك؟

رفع بول نظره عن المفكرة. كانت المرأة تستند إلى الوراء في مقعدها. كان وجهها جميلًا، وبشرتها صافية ومشدودة ولا تكشف عن العلامات الأولى للتقدم في السن. لكنه لاحظ أن وجهها خالٍ من أي تعبيرات كما لو أنها

اعتادت على أن تخفي مشاعرها. أو ربما خضعت لعملية تجميلية. اختلس نظرة إلى شعرها الكثيف وهو يعلم أن ليف يمكن أن تكتشف على الفور إن كان شعرها أم مستعارًا.

- لأن رسومات كاندينسكي Kandinsky تجلب الكثير من النقود، أليس كذلك؟ هذا ما قاله زوجي.

انتقى بول كلماته بعناية وقال: «نعم، إن ثبت أن العمل الفني ملك لك، لكن هذا لا يزال بعيدًا بعض الشيء. هل يمكن أن نعود لموضوع الملكية؟ هل لديك أي دليل على المكان الذي حصلتم منه على اللوحة؟».

- كان جدي صديقًا لكاندينسكي.

تناول رشفة من القهوة وقال: «هل لديك أي أدلة موثقة؟».

نظرت إليه دون أي تعبيرات.

- صور؟ خطابات؟ مراجع تثبت أنهما كانا صديقين؟

- لا، لكن كانت جدتي تتحدث دومًا عنه.

- هل ما زالت على قيد الحياة؟

- لا، لقد ذكرت ذلك في الخطاب.

- سامحيني ما اسم جدك؟

- أنطون بيروفسكي، نطقت لقبه وهي تشير إلى مفكرته.

- أليس هناك أحد على قيد الحياة من العائلة يمكن أن يكون لديه فكرة عن الأمر؟

- لا.

- هل تعرفين إن كان العمل قد عرض من قبل؟

كان يدرك أنه من الخطأ أن يبدأ في الدعاية لأنها ستؤدي إلى مثل هذه القضايا السخيفة، لكن جاني أصرت على ذلك. فقد قالت له: «علينا أن نستبق الأحداث. وكانت تميل إلى استخدام مصطلحات الإدارة. علينا أن نعمل على استقرار حصتنا في السوق، وترسيخ سمعتنا، يجب أن ننتشر في السوق».

كانت قد أعدت قائمة بكل شركات التعقب والاسترجاع الأخرى واقترحت أن ترسل مريام إلى منافسيها كعميل مزيف لتتعرف على الأساليب التي يستخدمونها. ولم تحرك ساكنًا حينما قال لها إن هذا ضرب من الجنون.

- هل بحثت بشكل مبدئي عن تاريخها؟ من خلال جوجل أو كتب الفن؟

- لا، أعتقد أنني سأدفع لك أتعابك من أجل هذا. إنك الأفضل في مجال عملك، أليس كذلك؟ لقد عثرت على لوحة ليفيفر.

عقدت ساقيها ونظرت نحو ساعتها ثم أردفت قائلة: «كم من الوقت تستغرق تلك القضايا؟».

- إنه سؤال لا أعلم إجابته، فبعض القضايا تُحل سريعًا إن كان لدينا تاريخ موثق وأصل العمل الفني، وهناك قضايا أخرى تستغرق سنوات، وأنا واثق أنك تعرفين أن الإجراءات القانونية نفسها مكلفة للغاية، إنها ليست شيئًا أنصحك أن تشرعي فيه سريعًا.

- وهل تعمل بنظام العمولة؟

- إن الأمر يختلف، لكننا نأخذ نسبة من التسوية النهائية نعم، ولدينا قسم قانوني هنا في المؤسسة.

راح يتصفح الملف. لم يكن يحتوي على شيء أكثر من مجرد بضع صور للوحة، وإفادة خطية من أنطون بيروفسكي تقول إن كانديـنسكي أعطاه اللوحة عام 1938، وقد أُبعدوا عن منزلهم عام 1941 ولم يروها مرة أخرى. وهناك خطاب من الحكومة الألمانية تقبل فيه الدعوى، وخطاب من متحف ريكز ينكر فيه أنها بحوزته. إنها أدلة ضعيفة لكي يبني عليها دعوى.

كان يحاول أن يحسب إن كان هناك أي فائدة من وراء ذلك حينما تحدثت ثانية وقالت: «لقد ذهبت إلى مؤسسات أخرى. بريج أند سوستون، وقالوا إنهم يتقاضون نسبة أقل منكم بواحد بالمئة».

كانت يد بول ما زالت على الملف وقال: «آسف؟».

- العمولة. قالوا إنهم يتقاضون نسبة أقل منكم بواحد بالمئة من أجل استعادة اللوحة.

انتظر بول دقيقة قبل أن يتحدث.

- سيدة هاركورت، نحن ندير شركة ذات سمعة طيبة، فإن كنت تريدين أن نستخدم سنواتنا من المهارة والخبرة والعلاقات لتعقب واحتمالية استعادة العمل الفني العزيز لأسرتك، فبالقطع سأفكر في ذلك، وأسدي إليك النصح إن كان ذلك ممكنًا أم لا، لكني لن أجلس هنا وأساومك على السعر.

- إنه مبلغ كبير من النقود، وإن كانت لوحة كاندينسكي تساوي ملايين، فمن مصلحتنا التوصل إلى أفضل اتفاق ممكن.

ضغط بول على فكيه: «أعتقد أننا إن استعدنا اللوحة -مع العلم أنك كنت حتى لا تعرفين أن هناك ما يربطك بتلك اللوحة منذ ثمانية عشر شهرًا- فهناك احتمالية أن تحصلي على صفقة جيدة».

- هل هذا أسلوبك في القول بأنك لن تفكر في أتعاب أفضل.

نظرت إليه دون أي تعبيرات، كان وجهها جامدًا، لكنها كانت تعقد ساقيها بأناقة، وتنتعل حذاء مفتوحًا. إنها امرأة اعتادت أن تحصل على ما تريده، وتفعل ذلك دون استخدام أي مشاعر أو عواطف.

وضع بول قلمه وأغلق الملف ودفع به ناحيتها وقال: «سيدة هاركورت، سررت لمقابلتك، لكن أعتقد أننا انتهينا هنا».

سادت لحظة صمت، وطرفت بعينيها ثم قالت: «آسفة؟».

- لا أعتقد أن لدينا ما نقوله لبعضنا بعضًا.

كانت جاني تخطو إلى المكتب وهي تحمل صندوقًا من شوكولاتة أعياد الميلاد حينما توقفت عند سماعها لتلك الجلبة.

كانت السيدة هاركورت تقول له بازدراء: «إنك أوقح رجل قابلته».

كانت تمسك بحقيبة يدها غالية الثمن تحت ذراعها اليسرى، وكان يدفع بملف الخطابات نحوها وهو يرشدها نحو الباب.

- إنني أشك في ذلك.

- إن كنت تظن أنك بهذا الأسلوب تدير شركة، فإنك أكثر حماقة مما كنت أظن.

قال بلهجة خالية من أي تعبير: «إذًا فإنك لا تثقين بطريقة بحثي المطولة عن اللوحة التي من الواضح أنك تحبينها كثيرًا».

فتح لها الباب، وفي سحابة من العطر باهظ الثمن غادرت السيدة هاركورت المكتب، وهي تصيح بكلمات غير مفهومة حينما بلغت سلالم الدرج.

قالت جاني بينما كان يخطو متجاوزًا إياها في طريقه إلى المكتب: «ما هذا بحق الجحيم؟».

قال: «أرجوك. أرجوك».

صفق الباب وراءه وجلس خلف مكتبه، وحينما رفع رأسه في النهاية أول ما وقعت عليه عيناه هي لوحة الفتاة التي تركتها.

طلب رقم هاتفها وهو يقف على ناصية شارع جودج ستريت Goodge street خارج محطة مترو الأنفاق. لقد سار عبر طريق ماريليبون Marylebone Road وهو يفكر فيما سيقوله لها، وحينما أجابت تبخر كل ذلك.

- ليف؟

أخبرته فترة الصمت القصيرة التي سبقت إجابتها أنها علمت من المتحدث.

كانت لهجتها مقتضبة حذرة وهي تقول: «ماذا تريد بول؟ إن كان هذا بشأن صوفي...».

- لا، إن الأمر لا علاقة له بـ... إنني فقط...

ثم رفع يده نحو رأسه ونظر حوله إلى الشارع المزدحم وأردف قائلًا: «إنني فقط أريد أن أعرف... إن كنت بخير».

سادت لحظة صمت أخرى.

- نعم، إنني ما زلت هنا.

- كنت أفكر أنه ربما يمكن أن نلتقي حينما ينتهي كل هذا.

جاء صوته فاترًا ضعيفًا على غير عادته، وأدرك فجأة أن كلماته غير ملائمة ولا تضاهي كم الفوضى التي جلبها إلى حياتها. ماذا فعلت لكي تستحق كل هذا في النهاية؟

لذا حينما جاءت إجابتها في النهاية لم تكن مفاجئة بالنسبة له.

- إنني لا أستطيع أن أفكر فيما بعد تاريخ الجلسة القادمة حاليًا... فالأمر غاية في التعقيد.

سادت فترة صمت أخرى.

مرت بجانبه حافلة مسرعة تصدر صريرًا مزعجًا وزادت من سرعتها التي لا تستطيع السيطرة عليها فحجبت الصوت. ألصق الهاتف على أذنه وأغمض عينيه، ولم تحاول أن تملأ ذلك الصمت.

- إذًا هل ستخرجين في أعياد الميلاد؟

- لا.

سمع إجابتها دون أن تتفوه بها: «لأن تلك القضية قد أتت على كل نقودي، لأنك فعلت كل هذا بي».

- وأنا أيضًا، سنذهب إلى منزل جريج، لكن...

- كما قلت من قبل بول، لا يجب أن نتحدث إلى بعضنا بعضًا.

- حسنًا، أنا سعيد أنك بخير. إن هذا ما أردت قوله.

- أنا بخير.

كان الصمت هذه المرة موجعًا.

- إذًا، الوداع.

- الوداع بول.

وأغلقت الهاتف.

وقف عند تقاطع شارع توتنهام كورت رود **Tottenham Court Road** وتراخت قبضته على الهاتف، وأصوات ترانيم عيد الميلاد الرنانة تتردد في أذنه، فدس الهاتف في جيبه وسار عائدًا لمكتبه.

28

- كما ترون هذا هو المطبخ، وهناك مناظر رائعة ترونها من خلال الجوانب الثلاث التي تطل على النهر وعلى المدينة نفسها. فعلى اليمين جسر البرج Tower Bridge، وأسفل هناك عجلة عين لندن السياحية London Eye، وفي الأيام المشمسة يمكنكم الضغط على زر هنا؛ أليس صحيحًا سيدة هالستون؟

ثم ببساطة فتح سقف المنزل.

راقبت ليف الزوجين وهما ينظران إلى أعلى. كان الرجل في الخمسينيات من عمره، وهو رجل أعمال يرتدي ذلك النوع من النظارات التي تشير إلى شخصيته المبدعة، ووجهه لا يشي بأي تعبيرات منذ أن وصل، ربما لأنه يفترض أن أي تعبير بسيط عن الحماس يمكن أن يضره إذا ما قرر أن يقدم عرضًا.

لكنه لم يفلح في أن يخفي دهشته نحو السقف الزجاجي الذي كان ينحسر إلى الوراء. وبصوت طنين مسموع تراجع السقف إلى الوراء وراحوا يحدقون إلى اللون الأزرق اللانهائي. تسلل هواء الشتاء برفق إلى المطبخ فتطايرت الصفحات العلوية من ملف الأوراق الموضوع على المائدة.

- هل تظنون أننا سنتركه مفتوحًا هكذا لوقت طويل؟

ارتجف وكيل العقارات الشاب بطريقة مسرحية ولم يكن قد سئم منذ الصباح من استخدام تلك الآلية في المناظر الثلاث التي يطل عليها المنزل، ثم راح يرقب السقف بنظرة رضى وهو يغلق بعناية. وكزت السيدة زوجها -كانت يابانية صغيرة القد وتحيط عنقها بوشاح معقود بإحكام- وهمست له بشيء. فأومأ برأسه ثم نظر إلى أعلى.

- وكما ترون، السقف -مثل بقية المنزل- مصنوع من زجاج خاص يحتفظ بالحرارة بنفس درجة الجدران العازلة العادية، بل هو في الواقع صديق للبيئة أكثر من المنازل النمطية المتلاصقة.

بدا الاثنان وكأن أقدامهما لم تطأ حتى المنازل المتلاصقة العادية من قبل. تجولت السيدة اليابانية حول المطبخ وراحت تفتح وتغلق أدراج الخزانة وخزانة الصحون وهي تتفرس ما بالداخل بحماسة جراح سيغوص بيده في جرح مفتوح.

وقفت ليف صامتة بجوار الثلاجة، ووجدت نفسها تعض خدها من الداخل. كانت تعلم أن الأمر لن يكون سهلًا، لكنها لم تكن تدري أنها ستشعر بهذا الكم من عدم الراحة، وبالذنب وأولئك يتجولون داخل المنزل ويفتشون في أشيائها بعيون شرهة خالية من أي مشاعر. راقبتهم وهم يلمسون الأسطح الزجاجية، ويمررون أصابعهم عبر الرفوف ويتحدثون بصوت خفيض عن وضع بعض اللوحات بأعلى «والتغيير في ألوانها قليلًا»، وأنهم يريدون دفعها نحو الباب الأمامي.

قال الوكيل العقاري وهو يفتح باب الثلاجة: «كل الأجهزة من أغلى الماركات وتشملها عملية البيع».

أضاف صوت من عند المدخل: «والموقد خاصة لم يستخدم تقريبًا».

كانت مو تضع ظل جفون أرجوانيًا لامعًا وتضع معطفًا فوق الرداء الخاص بدار رعاية كومفورت لودج.

أصابت الوكيل العقاري بعض الدهشة.

قالت: «إنني مساعدة السيدة هالستون الشخصية، فإذا ما سمحتم لنا فهذا وقت تناول الدواء الخاص بها».

ضحك الوكيل العقاري في ارتباك واصطحب الزوجين مسرعًا نحو الردهة. دفعت مو ليف جانبًا وقالت لها: «دعينا نخرج لتناول بعض القهوة».

- أود أن أبقى هنا.

- لا، لن تمكثي هنا، هذا تعذيب للنفس. هيا أحضري معطفك.

إنها المرة الأولى التي ترى فيها مو منذ أيام. شعرت ليف براحة غير متوقعة في وجودها، لقد أدركت أنها تتوق إلى ذلك الانطباع الغامض بالحياة السوية

الذي يأتيها في وجود تلك الفتاة القوطية ذات الأقدام الخمس، التي تضع ظل جفون أرجوانيًا وترتدي رداءً طويلًا مُسح جيدًا. أصبحت حياتها غريبة وغير مستقرة، تركز على المحاكم بمحاميها المتباريين، ومقترحاتها وتفنيداتها، والحروب، والقادة وما سلبوه. لقد استبدلت حياتها القديمة والروتين اليومي بنوع من الإقامة الجبرية، وتمركزت حول نافورة المياه في الدور الثاني من المحكمة العليا، والمقاعد الطويلة غير المريحة، وعادة القاضي الغريبة في حك أنفه قبل أن يتحدث، وصورة لوحتها على الحامل.

وبول يبتعد ملايين الأميال على مقعد المدعين.

أشارت مو تجاه المنزل وهي تقول: «هل أنت راضية حقًا عن بيع المنزل؟».

فتحت ليف فمها لتتحدث، ولكنها قررت أنها إذا ما بدأت الحديث عما تشعر به بالفعل فلن تتوقف. ستظل هنا تثرثر وتشكو حتى عيد الميلاد القادم. كانت تريد أن تخبر مو أن هناك بعض الأخبار عن القضية في الصحف كل يوم، ويتداولون اسمها داخل تلك الأخبار حتى أصبح لا يعني لها شيئًا كلما رأته. وكانت تتضمن كلمات مثل السرقة، والإنصاف، والجريمة. أرادت أن تخبرها أنها لم تعد تجري؛ فقد انتظرها رجل خارج البناية لكي يبصق عليها، وأن الطبيب أعطاها حبوبًا منومة إلا أنها تخشى استخدامها. وحينما شرحت موقفها في حجرة المشاورات الخاصة به تساءلت إن كانت رأت عدم الرضى في تعبيراته هو أيضًا.

قالت: «إنني بخير».

ضاقت حدقتا عيني مو.

– حقًا، إنها مجرد حجارة وأسمنت في نهاية الأمر. حسنًا، زجاج وخرسان.

قالت مو وهي لا تزال تقلب قهوتها: «لقد كانت لديَّ شقة في يوم من الأيام، وفي اليوم الذي قررت فيه بيعها جلست أبكي كالطفل الرضيع».

رفعت ليف قدح القهوة لكنه لم يلامس شفتيها.

هزت كتفيها بلا مبالاة وقالت: «لقد كنت متزوجة لكن الزواج لم ينجح».

ثم شرعت في الحديث عن الطقس.

كان هناك شيء مختلف بشأن مو، لم يكن أسلوبها مراوغًا، بل شعرت أن هناك حاجزًا خفيًا -حائط زجاجي- أقيم بينهما. حدثت ليف نفسها قائلة:

«ربما كان خطئي، لقد كنت منشغلة بشأن النقود والقضية فلم أسألها تقريبًا عن أي شيء يتعلق بحياة مو».

بدأت الحديث بعد فترة صمت وقالت: «أتعلمين، إنني كنت أفكر بشأن أعياد الميلاد، وتساءلت إن كان رانيك يرغب من قبل في أن يمضي الليلة معنا». ثم ابتسمت وهي تقول: «إنها أسباب تنطوي على الأنانية حقًا. لقد اعتقدت أنكما يمكن أن تساعداني في إعداد الطعام، ففي حقيقة الأمر لم أُعد طعام أعياد الميلاد من قبل، وأبي وكارولين كانا يطهوان جيدًا فلم أكن أرغب في إفساد الأمر». سمعت نفسها تهذي بكلام «كنت *أريد شيئًا* أتطلع إليه». وكانت ترغب في أن تقول: «*أردت أن أبتسم* دون*ما* جهد».

نظرت مو إلى أسفل نحو يدها، وكان هناك رقم هاتف مكتوب بالحبر الأزرق بطول إبهامها.

- نعم بشأن...

- أعلم أنك قلت إن شقته مزدحمة، فإذا ما كان يرغب في أن يمضي معنا ليلة عيد الميلاد فلا بأس من ذلك.

ثم رسمت ابتسامة مشرقة وهي تقول: «سيكون العثور على سيارة أجرة في تلك الليلة كالكابوس. أعتقد أن الأمور ستكون على ما يرام، ونستطيع أن نمضي وقتًا ممتعًا».

- ليف، إنه لن يأتي.

- ماذا؟

زمت شفتيها وهي تقول: «إنه لن يأتي».

- لا أفهم.

حينما تحدثت مو أخرجت الكلمات بعناية، كما لو أنها تفكر في عواقب كل جملة وقالت: «إن رانيك من البوسنة، وفقد أبواه كل شيء في البلقان، وقضيتك؛ هذا الهراء حقيقة بالنسبة له. إنه لا يريد أن يأتي ويحتفل في منزلك. أنا آسفة».

حدقت ليف إليها ثم زفرت بقوة ودفعت بوعاء السكر عبر المائدة وقالت: «حسنًا، لقد نسيت مو أنني عشت معك فترة طويلة».

- ماذا؟

- أيتها السيدة الساذجة، إنك لن تنالي مني هذه المرة.

لكن مو لم تضحك، بل تحاشت النظر إليها.

وبينما كانت مو تنتظر إجابة أضافت قائلة: «حسنًا، إن كنا نفعل ذلك...». أخذت نفسًا عميقًا ثم أردفت: «لا أقول إنني أتفق مع رانيك، لكني أعتقد أنه عليك أن تعيدي اللوحة».

- ماذا؟

- أنصِتي لي، إنني لا أهتم بمن يمتلك اللوحة، لكنك ستخسرين. ليف، الجميع يرى ذلك حتى لو لم ترِي أنت.

حدقت إليها ليف.

- لقد قرأت الصحف، الأدلة كلها تتراكم ضدك. إن استمررت في تلك الحرب فستخسرين كل شيء، ومن أجل ماذا؟ بقع قديمة من الزيت وقطع القماش؟

- لا أستطيع أن أسلمها.

- لماذا بحق الجحيم؟

- هؤلاء الأشخاص لا يهتمون بشأن صوفي، فهم لا يرون إلا علامة الجنيه.

- ليف حبًّا بالله إنها لوحة.

- إنها ليست بلوحة، لقد خانها كل من حولها. لم يتبق لها أحد في النهاية. وهي كل ما تبقى لي.

نظرت إليها مو بثبات وقالت: «حقًّا؟ أريد كومة كاملة من اللا شيء إذًا».

نظرتا إلى بعضهما بعضًا لوهلة ثم أشاحتا بوجهيهما بعيدًا. تصاعدت الدماء وتناثرت حول عنق ليف.

أخذت مو نفسًا عميقًا ومالت إلى الأمام وقالت: «أنا أعرف أن لديك أزمة ثقة الآن بسبب موضوع بول، لكن عليك أن تتوقفي عن الأمر برمته لفترة. وبكل صدق يبدو أنك لن تجدي أحدًا حولك يقول لك هذا الكلام».

- حسنًا، سأتذكر ذلك المرة القادمة وأنا أفتح الرسائل الإلكترونية الملآنة بالكراهية صباحًا، أو أُعرِّف غريبًا آخر طريق منزلي.

كانت النظرة التي تبادلتاها السيدتان نظرة باردة بدرجة غير متوقعة واستقرت وسط الصمت الذي غرقتا فيه. ضغطت مو على شفتيها وهي تمنع انفجار خزان من الكلمات.

قالت في النهاية: «حسنًا، عليَّ أن أخبرك، وأنا أرى أن الأمر لن يكون محرجًا بعد الآن، إنني سأغادر المنزل».

مالت إلى الأمام وراحت تعبث بحذائها حتى ظهر صوتها مكتومًا بالقرب من سطح المنضدة وهي تقول: «سأذهب للإقامة عند رانيك، وليس هذا بسبب القضية. فكما قلت إن بقائي عندك لن يكون شيئًا طويل المدى».

- أهذا ما تريدينه؟

- أعتقد أن هكذا أفضل.

تسمرت ليف في مقعدها. لم يتوقف الرجلان اللذان يجلسان إلى الطاولة المجاورة عن حديثهما؛ أحدهما يحاول فهم الأجواء المحيطة فتتحرك عيناه جانبًا ثم تنظران في الاتجاه الآخر.

- إنني ممتنة لأنك سمحت لي بالبقاء طويلًا.

طرفت ليف عينها بشدة ثم نظرت بعيدًا، وشعرت بمعدتها تؤلمها، وقد تحول الحديث الدائر في الطاولة المجاورة إلى صمت مربك.

تناولت مو آخر جرعة من القهوة ودفعت بالقدح بعيدًا.

- أعتقد أن هذا كل شيء.

- حسنًا.

- سأغادر غدًا إن كان يناسبك، لديَّ مناوبة لوقت متأخر الليلة.

حاولت أن تجعل لهجتها هادئة وهي تقول: «حسنًا، لقد أوضحت لي الأمور». لم تقصد أن تبدو كلماتها ساخرة كما فعلت.

انتظرت مو لدقيقة أخرى قبل أن تقف وترتدي معطفها وتضع حقيبة الظهر على كتفها.

- مجرد فكرة ليف، وأنا أدرك أنني لا أعرفه أو أعرف أي شيء عنه، لكنك تحدثت عنه كثيرًا. هذا هو الشيء الذي تساءلت بشأنه؛ ماذا كان ليفعل ديفيد؟

شق اسمه الصمت كانفجار صغير.

- حقًا، إن كان ديفيد لا يزال على قيد الحياة وظهر كل هذا؛ كل الأشياء بشأن تاريخ اللوحة، ومن أين أتت، وما الذي عانته الفتاة وعائلتها، في رأيك ماذا كان ليفعل؟

وبينما تركت تلك الفكرة معلقة في الهواء، استدارت مو وغادرت المقهى.

طلبها سفين وهي تغادر المقهى. كان صوته ضعيفًا وهو يقول: «هل يمكن أن تمري عليّ في المكتب؟».

قالت وهي تفرك عينيها وتنظر إلى أعلى نحو المنزل الزجاجي: «إنه ليس بوقت جيد سفين».

كانت يداها لا تزالان ترتعشان.

- إنه أمر مهم.

أغلق الهاتف قبل أن تقول أي شيء.

استدارت ليف عائدة من منزلها واتجهت نحو المكتب. كانت تسير في كل مكان الآن مخفضة الرأس، وتعتمر قبعة تجذبها حتى أذنيها وتتحاشى أعين الغرباء.

مرتين راحت تجفف خفية دموعها التي سالت من جانب عينها وهي في طريقها إلى المكتب.

لم يكن هناك سوى شخصين في مكتب سولبيرج هالستون حينما وصلت؛ نيشا وهي سيدة شابة ذات شعر قصير، ورجل لا تتذكر اسمه. كانا مشغولَيْن فسارت ليف عبر الردهة المتلألئة إلى مكتب سفين دون أن تلقي السلام.

فتحت الباب ودلفت، ووقف حتى يغلقه خلفها. قبَّل وجنتيها، لكنه لم يعرض عليها تناول القهوة.

- كيف حال القضية؟

قالت: «ليست على ما يرام».

أزعجتها الطريقة الروتينية التي استدعاها بها. كان عقلها لا يزال يردد جملة مو الأخيرة: «*ماذا كان ليفعل ديفيد؟*»

ثم لاحظت شدة شحوب وجه سفين، بل كانت وجنتاه غائرتين، والنظرة الجامدة بعض الشيء التي ينظر بها نحو المفكرة التي أمامه.

قالت: «هل كل شيء على ما يرام؟».

- لدي مشكلة ليف.

جلست ووضعت حقيبتها على ساقيها.

- لقد انسحب الإخوة جولدستاين.

- ماذا؟

- لقد انسحبا من العقد بسبب قضيتك. هاتفني سيمون جولدستاين هذا الصباح، فقد كانا يتابعان قضيتك في الصحف. قال إن عائلته فقدت كل شيء بسبب النازية، وهو وأخوه لا يريدان الارتباط بشخص يرى أن هذا شيء عادي.

توقف العالم من حولهما. نظرت إليه وقالت: «لكنه لا يمكن أن يفعل ذلك. إنني لست جزءًا من الشركة، هل أنت متأكد؟».

- إنك ما زلت المدير الفخري ليف، واسم ديفيد يمثل جزءًا كبيرًا من قضية دفاعك. إن سيمون يعمل على تفعيل بند في شروط العقد مفاده أن الخوض في تلك القضية ضد كل الأدلة المقبولة، وإنك بذلك تسيئين إلى سمعة الشركة. أخبرته أن ذلك غير منطقي بدرجة كبيرة، فأجاب أننا يمكننا أن نطعن به لكنه لديه أموال كثيرة. وقد قال لي نصًّا: «يمكنك أن تحاربني سفين، لكني سأفوز». إنهم سيطلبون من فريق آخر تنفيذ المهمة.

صعقت مما قاله. إن مبنى جولدستاين هو تتويج لإنجازات عمره؛ الشيء الذي سيخلد ذكراه.

نظرت إلى جانب وجهه فوجدته جامدًا لا يتحرك وكأنه نُحت من الصخر.

- من الواضح أن لديه هو وأخاه وجهات نظر قوية بشأن قضية الاسترداد.

- لكن... لكن هذا ليس من العدل. نحن لا نعرف بعد الحقيقة الكاملة بشأن اللوحة.

- ليس هذا هو الهدف.

- لكننا...

- ليف إنني أناقش الأمر طيلة اليوم، والطريقة الوحيدة التي هما مستعدان من خلالها للعمل مع شركتنا هي أنه...

ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال: «لو لم يعد اسم هالستون مرتبطًا بالشركة. وهذا يعني أن تتنازلي عن إدارتك الفخرية، وتغيير اسم الشركة».

رددت الكلمات في رأسها قبل أن تتفوه بها، وهي تحاول أن تستوعبها وقالت: «تريد استبعاد اسم ديفيد من العمل؟».

- نعم.

نظرت نحو ركبتيها.

- آسف. أعلم أن هذا كان بمنزلة صدمة. لكنها كانت صدمة لنا أيضًا.

خطر على بالها شيء فقالت: «وماذا سيحدث بالنسبة لعملي مع الأطفال؟».

هز رأسه وقال: «إني آسف».

شعرت ببرودة شديدة تسري بداخلها. وكانت هناك فترة من الصمت، وحينما تحدثت خرجت كلماتها بطيئة، وجاء صوتها عاليًا بطريقة غير طبيعية في المكتب الهادئ: «إذًا فقد قررتم جميعًا أنني إذا لم أسلم لوحتنا، اللوحة التي اشتراها لي ديفيد بطريقة شرعية منذ سنوات، فنحن محتالون، ثم تريد أن تستبعدنا من أعماله الخيرية ومن شركته، تريد أن تمحو اسم ديفيد من المبنى الذي صممه».

بدا الارتباك على سفين لأول مرة وهو يقول: «هذه طريقة درامية للغاية في عرض الأمور. ليف إن الموقف غاية في الصعوبة، إذا ما اتخذت جانبك في القضية فكل شخص في هذه الشركة مُعرض لأن يفقد وظيفته. تعلمين كم نحن مرتبطون بمبنى جولدستاين، ولن يكون لسولبرج هالستون وجود إذا ما انسحبوا».

مال إلى الأمام على مكتبه: «لا يوجد الكثير من العملاء الذين يمتلكون الملايين، وعليَّ أن أفكر فيمن يعملون معي».

كان هناك شخص في الخارج يلقي بتحية الوداع، ثم صوت ضحكات عالية استمرت لفترة قصيرة، بينما غرق المكتب في صمت خانق.

- إذا سلمت اللوحة، هل سيحتفظون باسم ديفيد على المبنى؟

- هذا أمر لم أناقشه. محتمل.

حاولت ليف ابتلاع ذلك الكلام وقالت: «محتمل؟ وإذا ما رفضت؟».

طرق سفين بقلمه على المكتب.

- سوف نلغي الشركة وننشئ واحدة جديدة.

- وسيقبل جولدستاين بهذا؟

- من المحتمل أن يوافقوا.

- إذًا فلا يهم ما سأقوله، إنها مجرد زيارة ودية بالأساس.

- ليف، أنا آسف. إنه موقف شديد الصعوبة، إنني في موقف صعب للغاية.

ظلت ليف جالسة لدقيقة، ثم نهضت ودون أن تتفوه بكلمة غادرت مكتب سفين.

إنها الواحدة صباحًا. كانت ليف تحدق إلى سقف الحجرة وترامى إلى مسامعها صوت تحرك مو في الغرفة الإضافية وصوت غلق الحقائب وارتطامها الشديد وهي تكدسها بجانب الباب. سمعت صوت طرد المياه من المرحاض، ثم وقع خطواتها الخفيفة وبعدها أطبق الصمت الذي يوحي بأنها غطت في النوم. استلقت وهي تفكر هل تتجه نحو الردهة وتقنع مو بألا تغادر؟ لكن الكلمات التي تدور في رأسها منعتها من أن تتخذ أي أمر مناسب. فكرت في المبنى الزجاجي شبه المكتمل الذي يبعد عنها أميالًا، واسم المعمار الذي صممه يدفن كما دفنت أساساته.

مدت يدها نحو الهاتف الجوال بجوار فراشها، ونظرت إلى الشاشة الصغيرة في الضوء الخافت.

ليس ثمة رسائل جديدة.

اعترتها الوحدة التي صاحبتها بعض من القوة المادية، فبدت الجدران من حولها واهية لا تمثل أي حماية أمام ذلك العالم الخارجي القاسي، وهذا المنزل ليس واضحًا ونقيًا كما أراده ديفيد؛ فمساحته الخاوية باردة خالية من المشاعر، وخطوط تصميماته المتناسقة تتشابك مع التاريخ، وتحجب أسطحه الزجاجية الخبايا الخفية لحياة الآخرين.

حاولت أن تبعد تلك الموجات الغريبة من الفزع. فكرت في أوراق صوفي، وفي ذلك الأسير على متن القطار. هي تعلم أنها إن عرضت تلك الأوراق على المحكمة، فستحتفظ باللوحة لنفسها.

وقالت لنفسها: «وإن فعلت ذلك فستكتب صوفي للأبد كامرأة ضاجعت ألمانيًا، وخانت وطنها وكذلك زوجها، ولن أكون أفضل حال من أهل البلدة الذين تركوها تعاني وانفضوا من حولها».

ما وقع لا يمكن تغييره.

29

1917

لم أعد أبكي من أجل الوطن. ولا أستطيع أن أخمن كم من الوقت استغرقنا في طريق السفر، فاتصل الليل بالنهار، وأصبح النوم لا يأتي إلا لحظات خاطفة متقطعة. وقبل مانهايم بأميال، شعرت بألم في رأسي تبعته حمى جعلتني مرة أرتعش ومرة أخرى أجاهد لكي أخلع ما تبقى من ملابسي. كانت ليليان تجلس بجواري تمسح جبهتي بطرف تنورتها، وتساعدني حينما نتوقف. كان القلق يعلو وجهها، وظللت أردد لها أنني سأكون بخير قريبًا وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأن هذا مجرد دور برد عابر، وأن هذه هي النتيجة المحتومة للأيام الماضية، والهواء البارد والصدمة.

قفزت الشاحنة وانحرفت بعيدًا عن النتوء البارز، وارتفع الغطاء القماش قليلًا فاندفع رذاذ من مياه المطر الباردة، وتمايل رأس الجندي الشاب، وفتح عينيه حينما ارتجت الشاحنة بقوة وثبتهما علينا بنظرة غاضبة كما لو أنه يحذرنا لكي نبقى في مكاننا.

غفوت بجانب ليليان، وكنت أستيقظ بشكل متكرر وأنظر إلى ذلك المثلث الصغير في الغطاء القماش الذي يكشف الأرض التي خلفناها وراءنا. شاهدت الحدود التي تعرضت للقصف والملأى بالحفر وهي تفسح الطريق لمدن أكثر تنظيمًا، حيث تصطف المنازل دون أي خسائر تذكر والعوارض السوداء واضحة أمام طلاء المنازل الأبيض، وقد امتلأت حدائقها بالشجيرات المشذبة

ومساحات من الخضراوات المزروعة التي اعتنى بها أصحابها جيدًا. مررنا بالبحيرات الشاسعة، والمدن المزدحمة، وشققنا طريقنا وسط غابات من أشجار التنوب حيث راحت الشاحنة تزمجر وهي تجاهد لكي تسير في ثبات وسط المسارات الملأى بالطين. أعطوني أنا وليليان أكوابًا من الماء وقطعًا من الخبز الأسود وألقوا بها في الخلف كما يلقى ببقايا الطعام إلى الخنازير.

وكلما اشتدت بي الحمى، لم أهتم بنقص الطعام وصاحب الألم الذي يعصف بمعدتي آلام أخرى؛ في رأسي، ومفاصلي، وعنقي. فقدت شهيتي وحثتني ليليان على ابتلاع المياه وأنا أشعر بالتهاب الحلق، وذكرتني بأنه عليَّ أن آكل وقت وجود الطعام حتى أظل قوية. كل شيء تقوله كان به حدة كما لو أنها تعرف أكثر مما اختارت أن تظهره بشأن ما ينتظرنا هناك. ومع كل توقف للعربة، كانت عيناها تتسعان من الهلع، وعلى الرغم من أن المرض يشوش على أفكاري فإن الخوف أصبح معديًا.

حينما كانت تنام ليليان ترتعش تقاسيم وجهها من أثر الكوابيس، وتستيقظ في بعض الأحيان وكأنها تقبض على شيء في الهواء وتصدر أصواتًا غير مفهومة تنم عن الألم. وكلما استطعت كنت أمد يدي لألمس ذراعها وأنا أحاول جاهدة أن أعيدها مرة أخرى لعالم الأحياء، وفي بعض الأحيان أتساءل وأنا أنظر نحو الأراضي الألمانية لِمَ فعلت بها هذا.

ومنذ أن اكتشفت أننا لن نتجه إلى أردينز بدأ إيماني يتخلى عني. فالقائد واتفاقه يبعدان ملايين الأميال الآن. وأصبحت حياتي في الفندق والنضد الخشبي اللامع، وأختي، والقرية التي نشأت فيها كالحلم البعيد وبدت كأنها أشياء كنت أتخيلها منذ أمد بعيد. أما الواقع الذي نعيشه يمتلئ بعدم الراحة، والبرد، والألم، والخوف الدائم وكلها أشياء تطن في رأسي. حاولت أن أركز، وأن أتذكر وجه إدوارد وصوته ولكن حتى هو خذلني. لم أستطع أن أستحضر حتى الأجزاء الصغيرة منه؛ خصلات شعره البنية الناعمة على ياقته، ويداه القويتان، لم يكن بمقدوري أن أجمعها معًا لتكوِّن صورة متكاملة له تأتيني بالراحة. أصبحت أكثر اعتيادًا على ذراع ليليان المكسورة وهي تستند عليَّ، وكنت أنظر إليها وإلى الجبيرة التي صنعتها على أصابعها المرضوضة، وحاولت أن أذكر نفسي بأنه بالقطع هناك سبب من وراء كل هذا؛ فالهدف الحقيقي هو اختبار الإيمان، ولكن أصبح من الصعب أن أصدق ذلك مع كل ميل نقطعه.

توقف المطر، وتوقفنا في قرية صغيرة، وبسط الجندي الشاب ساقه الطويلة في تثاقل ثم قفز خارج الشاحنة. توقف المحرك وسمعنا أصوات ألمانيين يتحدثون بالخارج، وتساءلت إن كان يمكن أن أطلب منهم بعض المياه فقد جفت شفتاي وضعفت أوصالي.

جلست ليليان أمامي ساكنة كالأرنب الذي يشم رائحة الخطر. حاولت أن أفكر بعيدًا عن رأسي الذي ينبض من الألم وتدريجيًا بدأت أعي أصوات متجر من حولي؛ نداءات التجار المرحة، المفاوضات الهادئة بين النساء وأصحاب الأكشاك. وأغمضت عيني لدقيقة وحاولت أن أتخيل اللهجة الفرنسية بدلًا من الألمانية وأن هذه أصوات قاطني بلدة سان بيرون مهد طفولتي. أستطيع أن أرسم صورة أختي والسلة أسفل ذراعها وهي تلتقط حبات الطماطم والباذنجان ثم تحاول تخمين أوزانها وتعيدها مكانها ثانية بهدوء. كدت أستشعر الشمس فوق وجهي وأشم رائحة السجق ومصنع الجبن، وأرى نفسي أسير ببطء وسط الأكشاك، وفجأة رفع الغطاء وظهر منه وجه سيدة.

غمرني الفزع وأفلتت مني شهقة. حدقت إليَّ وللحظات اعتقدت أنها ستقدم لنا الطعام ولكنها استدارت -ويدها البيضاء لا تزال ترفع الغطاء- ثم صاحت ببضع كلمات بالألمانية. اندفعت ليليان نحو ظهر الشاحنة وجذبتني معها وهي تهمس: «غطي وجهك».

- ماذا؟

وقبل أن تتفوه بأي شيء آخر قذفت إحداهن بحجر من الخلف فأصابني محدثًا ألمًا في ذراعي، فنظرت إلى أسفل فإذا بآخر يضربني فيشج جانب رأسي، فطرفت بعيني وظهرت ثلاث أو أربع سيدات تعلو وجوههن الكراهية وأيديهن محملة بالحجارة، والبطاطس الفاسدة، وقطع الخشب وأي قذائف تطولها أيديهن.

- عاهرات.

تكومت أنا وليليان في الركن ونحن نحاول أن نغطي رأسينا بينما انهالت تلك الأسلحة، وآلمتني يداي ورأسي إثر كل هذا، وكنت على وشك أن أصرخ فيهن؛ لم تفعلن كل هذا؟ ماذا فعلن بكن؟ لكن الكراهية التي ارتسمت على وجوههن وأصواتهن أخافتني. هؤلاء النسوة يحتقِرْنَنا، وسيُقطِّعْنَنا إربًا إذا ما واتتهن الفرصة. ازداد الخوف مثل المرارة في حلقي. وفي تلك اللحظة

لم أستشعره كشيء طبيعي وإنما كمخلوق يهز شعوري بذاتي، ويعصف بأفكاري، ويحرك أحشائي من الرعب. دعوت الله، دعوت الله من أجل أن يذهبن ومن أجل أن يتوقف كل هذا، ثم حينما تجرأت ونظرت إلى أعلى لمحت الجندي الشاب الذي كان يجلس في الخلف. كان يقف جانبًا ويشعل سيجارة، وينظر نحو مربع السوق بهدوء، فاستشطت غضبًا.

استمر ذلك القصف لدقائق مرت وكأنها ساعات، وضربت قطع الحجارة فمي واستشعرت الطعم المعدني في الدم اللزج على شفتي.

لم تصرخ ليليان بل انتفضت بين ذراعي مع الشعور بكل قذيفة، وأمسكت بها كما لو أنه لا يوجد شيء ثابت في عالمي.

ثم وفجأة توقف كل هذا بغتة، توقفت أذني عن الطنين، وسال خيط من الدماء بجانب عيني، واستطعت أن أتبين محادثة بالخارج، ثم دار محرك السيارة، وقفز الجندي الشاب بلا مبالاة إلى مؤخرة الشاحنة، واندفعت العجلات مترنحة إلى الأمام.

ملأ صدري الشعور بالارتياح، وهمست بالفرنسية: «أبناء العاهرات». اعتصرت ليليان يدي بيدها المتعافية، وعدنا لمقاعدنا وقلوبنا تدق والرجفة تسري في أجسادنا، وحينما غادرنا المدينة في النهاية كان الأدرينالين قد استنفد ببطء من جسدي ووجدت نفسي في شدة الإنهاك، وكنت أخشى النوم، أخشى مما يمكن أن يحدث بعد ذلك، لكن عيني ليليان كانتا مفتوحتين لا تتحركان وتستطلعان المنظر المكشوف من خلال فتحة الغطاء، وأدرك جزء أناني بداخلي أنها ستعتني بي، ولن تنام ثانية، وحينما عادت دقات قلبي لمعدلها الطبيعي أغلقت عيني وسمحت لنفسي أن أغرق في اللاشيء.

كانت هناك بعض الثلوج حينما توقفنا في المحطة التالية التي كانت عبارة عن سهل خال وبعض من الشجيرات الصغيرة وكوخ مهجور لكسر ذلك الفراغ في الأرض. أخرجونا عند الغسق ودفعوا بنا نحو الأشجار، وأصدروا لنا تعليمات بصمت من خلال التلويح بالبندقية بما يجب أن نفعله. لم يتبق شيء مني. وبالكاد استطعت أن أقف وأنا أرتجف وأعاني الحمى. سارت ليليان وهي تعرج باتجاه ذلك الجزء الخصوصي من الكوخ. وشاهدتها وقد تمايلت الأرض بي فارتميت وسط الثلوج وأنا أشعر بوقع أقدام الرجال بجوار الشاحنة، وكان جزء مني يتلذذ بالبرودة على ساقي الساخنتين، وتركت الهواء البارد

يلفح بشرتي، والدماء الباردة تسري في عروقي وأنا أستمتع بذلك الإحساس القصير بأني رسيت مرة أخرى على الأرض. نظرت إلى أعلى حيث السماء اللامتناهية والنجوم الصغيرة اللامعة التي تظهر في وسطها حتى شعرت بالدوار. وجعلت نفسي أسترجع تلك الليالي، منذ شهور مضت، حينما كنت أعتقد أنه هو الآخر بالخارج ينظر إلى النجوم ذاتها. ومددت إصبعي لأسفل نحو السطح الذي تكسوه بلورات الثلوج وكتبت **إدوارد**.

وبعد دقيقة كتبتها ثانية على الجانب الآخر مني كما لو أنني أقنع نفسي أنه حقيقة، ويوجد في مكان ما، وهو –ونحن– ما زلنا أحياء. كتبتها وأنا أضغط بأصابعي الزرقاء في الثلوج حتى أحطت نفسي بها. **إدوارد، إدوارد، إدوارد.** كتبت اسمه نحو عشر، عشرين مرة. هذا كل ما استطعت رؤيته. أحطت نفسي بدائرة كبيرة من اسم إدوارد وجميعها ترقص معي، من السهل أن أسقط هنا وأجلس في قصري من اسم إدوارد وأنسى كل ما حدث. ملت بظهري قليلًا إلى الوراء وشرعت في الضحك.

خرجت ليليان من وراء الكوخ وتوقفت، ورأيتها تحدق إليَّ وفجأة رأيت على وجهها التعبير نفسه الذي ارتسم على وجه هيلين ذات مرة، شيء من التعب ولكنه ليس ذلك التعب الذي ينبع من داخلها وإنما من سأمها من هذا العالم مصحوبًا بحيرة خاطفة تجعلها تتساءل: أهذه معركة لا تزال لديها الطاقة لتحارب فيها؟ وفجأة جذبني شيء إلى الوراء.

قلت: «أنا، أنا، لقد ابتلت تنورتي». كان هذا الشيء الوحيد العاقل الذي فكرت في قوله.

جذبتني إلى أعلى من ذراعي وهي تزيح الثلوج وشققنا طريقنا وسط الجنود اللامبالين وبنادقهم، هي تعرج بقدميها وأنا أترنح وصعدنا إلى الشاحنة.

لاح الضوء. كانت ليليان تنظر في عيني ويدها على فمي. طرفت بعيني وانتفضت أمامها بشكل لا إرادي ولكنها وضعت إصبعها على شفتيها. انتظرت حتى أومأت برأسي لكي أريها أني فهمت ما تقصد، وحينما أزاحت يدها أدركت أن الشاحنة قد توقفت ثانية. كنا في غابة. غطت الثلوج الأرض في شكل بقع متناثرة متباينة، وكانت الحركة هادئة والأصوات مكتومة.

أشارت إلى الحارس، وقد غلبه النوم سريعًا وكان يرقد على المقعد ورأسه يستند إلى حقيبة عُدَّته، كان يصدر أصوات شخير وفي حالة ضعف تام، وكان جراب مسدسه واضحًا يبعد عدة سنتيمترات عن الرقبة فوق ياقة ملابسه. وجدت يدي تتسلل تلقائيًّا إلى جيبي وأنا أتحسس بأصابعي قطعة الزجاج.

همست ليليان: «اقفزي».

- ماذا؟

- اقفزي، إذا التزمنا بالسير في هذا المكان المنحدر هناك، حيث لا توجد ثلوج، فلن نترك أي آثار أقدام. سنكون قد ابتعدنا ساعات في الوقت الذي سيستيقظون فيه.

- لكننا في ألمانيا.

- إنني أتحدث القليل من الألمانية، وسنجد لنا مخرجًا هناك.

كانت مفعمة بالحيوية ممتلئة بالثقة. لا أعتقد أني رأيتها بهذا النشاط منذ أن كنا في سان بيرون. طرفت بعيني نحو الجندي ثم نحو ليليان التي كانت ترفع الغطاء بحرص وتنظر نحو الضوء الأزرق بالخارج.

- لكنهم سيطلقون علينا النار إذا أمسكوا بنا.

- وسيطلقون علينا النار إذا مكثنا، وإذا لم يطلقوا علينا النار سيكون هذا أسوأ. هيا، هذه فرصتنا.

كانت تحرك شفتيها بالكلمات وهي تشير لي في صمت بأن أحمل حقيبتي.

وقفت ونظرت نحو الغابة. ثم توقفت وقلت: «لا أستطيع».

استدارت نحوي، وهي لا تزال تحمل يدها المكسورة بالقرب من صدرها كما لو أنها تخشى أن يلامسها أي شيء. استطعت أن أرى الآن في ضوء النهار الخدوش والكدمات على وجهها حيث أصابتها القذائف اليوم الماضي.

ازدردت ريقي وقلت: «ماذا لو كانوا سيأخذونني إلى إدوارد؟».

حدقت إليَّ ليليان وهمست قائلة: «هل فقدت صوابك؟ هيا، هلمي صوفي هذه فرصتنا».

- لا أستطيع. أخفضت رأسها ثانية ونظرت بعصبية نحو الجندي الغارق في النوم ثم جذبت خصري بيدها المتعافية وكانت تعبيراتها حادة كشخص يتحدث إلى طفل شديد الغباء.

- صوفي، إنهم لن يأخذوك إلى إدوارد.
- لقد قال القائد...
- إنه ألماني صوفي وقد أهنتِه وأظهرت أنه ليس برجل، هل تعتقدين أنه سيرد هذا بإظهار العطف؟
- أعلم أنه أمل ضعيف، لكن هذا كل ما تبقى لي.

وبينما كانت تنظر إليَّ جذبت حقيبتي نحوي وقلت: «اذهبي أنت وخذي هذه، خذي كل شيء، بإمكانك إنجاح الأمر».

جذبت ليليان الحقيبة ونظرت من مؤخرة الشاحنة وهي تفكر وجهزت نفسها كما لو أنها تقيِّم أفضل مكان للذهاب. راقبت الحارس بعصبية وخشيت أن يستيقظ.

- اذهبي.

لم أفهم لماذا لم تتحرك. استدارت نحوي ببطء، وعلى وجهها علامات الألم.

- إذا هربت فسيقتلونك.
- ماذا؟
- لمعاونتك في هروبي. سيقتلونك.
- لكن لا يمكن أن تمكثي، فقد أمسكوا بك وأنت توزعين أشياء خاصة بالمقاومة، أما أنا فموقفي مختلف.
- صوفي، أنت الشخص الوحيد الذي عاملني كبشر، لن أجعل موتك يعذب ضميري.
- سأكون بخير، إنني دومًا بخير.

نظرت ليليان بيتون إلى ملابسي القذرة، وجسدي الهزيل المحموم الذي أصبح الآن يرتجف في هواء الصباح البارد. وقفت هناك لوقت طويل ثم جلست بتثاقل وأسقطت حقيبتها كما لو أنها لا تهتم بمن يمكن أن يسمعها. نظرت إليها لكنها حولت عينها عني. قفزت بنا الشاحنة حينما دار المحرك وسمعنا أحدهم يصيح. تحركت الشاحنة مبتعدة ببطء واصطدمت بأحد النتوءات فارتطمنا بشدة بجانب الشاحنة. أصدر الجندي صوت شخير عميق لكنه لم يتحرك.

مددت يدي نحو ذراعها وأنا أهمس: «ليليان، اذهبي ما دمت تستطيعين، ما زال أمامك وقت، إنهم لن يسمعوك».

تجاهلتني ودفعت بقدمها الحقيبة نحوي وجلست بجوار الجندي النائم. مالت إلى الخلف على جانب الشاحنة ونظرت في الفراغ.

خرجت الشاحنة من الغابة واتجهت نحو طريق مفتوح وسرنا الأميال القليلة القادمة في صمت. وترامى إلى مسامعنا من بعد أصوات طلقات الرصاص، ورأينا بعض المركبات العسكرية الأخرى. وأبطأت الشاحنة من حركتها حينما مرت بصف من الرجال يمشون بتثاقل وهم يرتدون ملابس رمادية رثة، يخفضون رؤوسهم. كانوا مثل الأشباح وليس الأشخاص الحقيقيين. راقبت ليليان وهي تنظر إليهم وقد شعرت بوجودها في الشاحنة كالعبء الثقيل. كان يمكن أن تنجح في الهروب لولا وجودي. كان يمكن أن ننجح معًا. وبينما أضحت أفكاري أكثر وضوحًا، أدركت أنني ربما أفسدت آخر فرصة بالنسبة لها لكي تعود لابنتها.

- ليليان.

هزت رأسها كما لو أنها لا تريد أن تسمع شيئًا.

واصلنا السير. أظلمت السماء وبدأت تمطر ثانية مطرًا محملًا بالثلوج ولسعتني قطراته التي تسللت من فتحات السقف. ارتجفت بشكل أعنف، ومع كل نتوء تتجاوزه الشاحنة يخترق الألم جسدي كما لو أن سهمًا صُوب إليه. أردت أن أخبرها بأني آسفة، وأقول لها إني فعلت شيئًا فظيعًا وأنانيًّا، كان عليَّ أن أمنحها الفرصة. إنها محقة؛ إنني أخدع نفسي حين أظن أن القائد سيكافئني على ما فعلته.

وتحدثت أخيرًا.

- صوفي؟

- نعم؟

كنت أتوق بشدة لحديثها معي. بالقطع بدوتُ شديدة الشغف لهذا.

ابتلعت ريقها وعيناها تركزان على حذائها وقالت: «إن... إن أصابني شيء، هل تعتقدين أن هيلين ستعتني بإديث؟ أعني هل ستعتني بها بحق وتحبها؟».

- إن هيلين لا يمكن أن تخفق في حب طفل، بل تفعل أقصى ما تستطيع... لا أدري... يمكنك أن تنضمي إلى الألمان.

وحاولت أن أبتسم. كنت عازمة على أن أبدو أقل تعبًا مما أشعر به، وأحاول أن أطمئنها بأن الأشياء الجيدة ما زال يمكن حدوثها. تحركت في مقعدي وأنا أحاول أن أدفع نفسي للنهوض، وكانت كل عظمة في جسدي تؤلمني حينما أفعل ذلك.

- لكن لا يجب أن تفكري هكذا، سنتخطى كل هذا ليليان، وستعودين لمنزلك حيث ابنتك، ربما يكون هذا خلال أشهر.

رفعت ليليان يدها المتعافية إلى جانب وجهها وهي تتحسس ندبة شديدة الاحمرار سرت من جانب حاجبها بطول وجنتيها. بدت غارقة في أفكارها بعيدًا عني. ودعوت أن يكون يقيني هذا قد طمأنها بعض الشيء.

استأنفت حديثي وقلت: «لقد نجونا حتى الآن بالفعل، أليس كذلك؟ فلم نعد على ظهر شاحنة المواشي الملعونة تلك، كما أنهم أحضرونا معًا. بالقطع إن القدر يرأف بنا في ذلك».

لقد ذكرتني بهيلين فجأة في الأيام الحالكة، ووددت لو أنني أمد ذراعي نحوها وألمسها لكني كنت واهنة. إنني بالكاد أستطيع أن أجلس معتدلة على هذا المقعد الخشبي.

- تحلي بالإيمان، فالأمور يمكن أن تصبح أفضل ثانية.

- هل تعتقدين أننا يمكن أن نعود حقًّا لسان بيرون بعد كل ما اقترفته كل منا؟

تلعثمت وأنا أقول: «حسنًا، ربما ليس على الفور. لكن يمكن العودة لفرنسا. يومًا ما ستصبح الأمور...».

رفعت ليليان رأسها، كانت عيناها واسعتين وشديدتي السواد. رأيتها الآن تختلف تمامًا عن ذلك المخلوق البراق الذي كان يتبختر عند الفندق. لكن ليست الكدمات والندبات هي التي غيرت من مظهرها؛ إنما شيء عميق في أعماق روحها قد فسد وتشوه.

- هل تعتقدين حقًّا أن الأسرى الذين ينتهي بهم المآل في ألمانيا يعودون ثانية؟

- ليليان أرجوك لا تتحدثي على هذا النحو. أرجوك إنك فقط تحتاجين...

خبت صوتي.

ارتسمت على شفتيها شبه ابتسامة كانت مرعبة وكئيبة وقالت: «صوفي العزيزة، بكل إيمانك، وتفاؤلك الأعمى بشأن الطبيعة البشرية، فإنك لا تدرين ماذا سيفعلون بنا».

وبهذه الكلمات وقبل أن أتفوه بكلمة أخرى سحبت المسدس من جراب الجندي وصوبته إلى جانب رأسها وضغطت على الزناد.

30

- إذًا أعتقد أنه من الممكن الذهاب لمشاهدة فيلم وقت ما بعد ظهيرة اليوم، وذلك الصباح سيساعدني جيك لأنزه الكلاب.

كان جريج يقود السيارة بطريقة سيئة، يضع قدمه ويرفعها عن دواسة الوقود متماشيًا مع إيقاع الموسيقى، فكان الجزء العلوي من جسد بول يميل إلى الأمام كل فترة على طول طريق شارع فلييت Fleet Street.

- هل يمكن أن أحضر معي لعبة نينتندو؟

- لا يمكن أن تحضر معك نينتندو، الصبي المغرم بالشاشات. إننا سنتجول بين الأشجار كما فعلت المرة السابقة.

- إنني أتدرب لأتسلق الأشجار مثل سوبر ماريو.

- محاولة جيدة أيها المتشرد.

- متى ستعود يا أبي؟

- مم؟

راح بول يتصفح الصحف وهو جالس على مقعد الراكب، فهناك أربع روايات عن أحداث اليوم السابق في المحكمة. وتشير العناوين إلى نصر وشيك لمؤسسة تريس أند ريترن ولآل ليفيفر. إنه لا يتذكر آخر مرة لم يشعر فيها بالسعادة الشديدة لفوزه في قضية.

- أبي؟

- اللعنة، إنها الأخبار.

تفقد ساعته ومال إلى الأمام وأخذ يعبث بأزرار المذياع.

«ناشد الناجون من معسكرات الاعتقال الألمانية الحكومة بسن تشريع للتعقب السريع الذي من شأنه أن يؤدي إلى استعادة الأعمال الفنية المنهوبة خلال فترة الحرب».

«ووفقًا لمصادر قانونية فقد توفي سبعة من الناجين هذا العام فقط، بينما كانوا ينتظرون الإجراءات القانونية التي ستعيد لهم ممتلكات عائلاتهم وهو موقف وصف بالمأساة».

«وجاءت تلك المطالبة بينما لا تزال المحكمة العليا تتداول قضية اللوحة التي يزعم أنها سرقت خلال الحرب العالمية الأولى».

مال بول إلى الأمام وقال: «كيف لي أن أرفع الصوت؟ من *أين يأتون بتلك الأخبار*؟».

- تريد أن تجرب لعبة باك مان Pac Man[1]. الآن هناك ألعاب الكمبيوتر.

- ماذا؟

- أبي؟ ما الوقت؟

- اصمت جيك، أريد أن أستمع إلى هذا!

«هالستون التي تدعي أنها اشترت اللوحة بنيَّة حسنة. وتبين تلك القضية المثيرة للجدل صعوبات النظام القانوني الذي يواجه عددًا متزايدًا من قضايا الاسترداد المعقدة خلال العقد الماضي. إن قضية ليفيفر قد جذبت الانتباه في جميع أنحاء العالم».

هز جريج رأسه وقال: «يا إلهي. مسكينة سيدة ليف».

- ماذا؟

- لا أرغب في أن أكون مكانها.

- ماذا من المفترض أن يعني هذا؟

- تلك الأخبار في الصحف والمذياع، إنها تمثل فضائح بعض الشيء.

---

(1) هي لعبة تم تطويرها من قبل شركة نامكو، صدرت لأول مرة في اليابان عام 1980م. وهي لعبة واسعة الانتشار والشهرة منذ صدورها حتى يومنا هذا، وتعد باك مان واحدة من ألعاب الفيديو التقليدية في العالم، وهي مثال حي لثقافة عقد الثمانينيات.

- إنها مجرد مصالح عمل.

حدجه جريج بتلك النظرة التي يحدج بها الزبائن الذين يطلبون السداد فيما بعد.

- إن الأمر معقد.
- حقًّا؟ أعتقد أنك قلت من قبل إن تلك الأمور إما أبيض وإما أسود.
- هل تريدني أن أنسحب جريج؟ أو ربما أمُر عليك فيما بعد وأخبرك كيف تدير حانتك؟ ولنرى كيف ستسير الأمور.

رفع كل من بول وجريج حاجبه للآخر. كان الأمر مثيرًا للغضب على نحو غريب.

استدار بول في مقعده وقال: «جيك، سأهاتفك بمجرد أن نغادر المحكمة. اتفقنا؟ وسنذهب إلى السينما أو أي مكان الليلة».

- لكننا سنفعل ذلك ما بعد ظهيرة هذا اليوم. لقد أخبرك جريج لتوه.
- إن المحكمة العليا أمامنا على اليسار، هل تريدني أن أتخذ ذلك الملف؟

قال هذا وهو يشير ناحية اليسار وتوقف فجأة فاندفعوا جميعهم للأمام. انحرفت بجانبهما سيارة أجرة وأعلن سائقها عن استنكاره.

- إنني لست واثقًا إن كان يمكنني التوقف هنا إذا ابتعت لك تذكرة ستسدد ثمنها، أليس كذلك؟ انظر، أليست هي؟

مال بول إلى الأمام وقال: «من؟».

نظر بول عبر الطريق نحو الحشد الذي تجمع خارج المحكمة، وقد اكتظت المساحة المفتوحة أمام الدرج بالأشخاص. ازداد التجمع خلال الأيام القليلة الماضية، وعلى الرغم من الضباب الذي يلف المكان، فإنه استطاع أن يلحظ شيئًا مختلفًا بشأنه اليوم؛ الجو المحيط يظلله الغضب، وتعلو وجوه المشاركين تعبيرات تنم عن العداء الخفي.

قال جريج: «أوه، يا إلهي».

وتتبع بول اتجاه نظرته.

عبر الطريق كانت ليف تقترب من مدخل المحكمة، وهي تقبض بيدها على حقيبتها ورأسها لأسفل كما لو أنها غارقة في التفكير، ثم نظرت إلى

أعلى لكي تفهم طبيعة المظاهرة التي أمامها وقد ظهر على وجهها تعبيرات القلق. نادى أحدهم باسمها: هالستون. استغرق الجمع ثانية لكي يدرك الأمر. أسرعت في خطاها لكي تمر أمامهم مسرعة، لكن تردد اسمها في همهمات خفيضة ازدادت حتى أضحت بمنزلة اتهام.

ظهر هنري على الجانب الآخر من المدخل، وسار بسرعة عبر الرصيف متجهًا نحوها كما لو أنه يعرف بالفعل ماذا يجري. تعثرت ليف في خطاها فقفز للأمام ـ لكن الجموع اندفعت بسرعة نحوها وراحت تتحرك سريعًا وانقسموا ليحيطوها ثم ابتلعوها ككائن حي عملاق.

- يا إلهي.

أسقط بول الملفات وقفز من السيارة وركض عبر الطريق، وقذف بنفسه وسط الجموع وشق طريقه حتى وصل إلى المنتصف. كانت هناك عاصفة من الأيادي واللافتات، وعلت الأصوات، وظهرت أمامه سريعًا كلمة «السرقة» على لوحة ملقاة على الأرض. رأى وميض كاميرا، ولمح شعر ليف فأمسك بذراعها وسمعها وهي تصيح في خوف. تدافعت الجموع للأمام وكادت تطرحه أرضًا. لمح هنري على الجانب الآخر منها وقد اندفع نحوه وهو يسب رجلًا تشبث بمعطفه. ظهر رجال الشرطة بستراتهم الفسفورية ودفعوا بالمتظاهرين بعيدًا وهم يقولون: «**تفرقوا. تراجعوا إلى الوراء. تراجعوا إلى الوراء**». التقط أنفاسه بصعوبة وقد لكمه أحدهم بشدة مكان كليتيه، ثم بعد ذلك حرروهم من وسط تلك الجموع وصعدوا الدرج مسرعين. كانت ليف وسطهم مثل الدمية. ووسط صرير وصفير لاسلكي الشرطة، قادهم الضباط ذوو البنية القوية عبر حاجز الأمن ومنه إلى مكان هادئ وآمن في الجهة الأخرى، وأخذت الجموع –التي مُنعت من الدخول– تطلق صيحات الاحتجاج من الخارج.

أضحت ملامح ليف شديدة الشحوب، ووقفت هادئة تضع إحدى يديها على وجهها، وقد أصيبت وجنتها ببعض الخدوش وأفلت نصف شعرها من عقدة ذيل الحصان.

قال هنري بغضب وهو يعدل من وضع سترته ويصيح في وجه الضباط: «يا إلهي! أين كنتم؟ أين كان الأمن؟ ينبغي أن تتوقعوا هذا».

أومأ الضابط له برأسه دون تركيز وهو رافع إحدى يديه واليد الأخرى تمسك باللاسلكي أمام فمه وهو يصدر تعليماته.

- هذا ببساطة غير مقبول.

أطلق بول سراحها وقال: «هل أنت بخير؟».

أومأت برأسها وخطت مبتعدة عنه في شرود كما لو أنها أدركت للتو أنه بجانبها. كانت يداها ترتعشان.

قال هنري وهو يعدل ياقته: «أشكرك سيد مكفرتي، أشكرك للدخول وسط الحشود... كان هذا...». ثم تلاشى صوته.

- هل يمكن أن نحضر مشروبًا من أجل ليف؟ وهل هناك مكان لتجلس فيه؟

- بصق أحدهم عليَّ.

قال بول وهو يرفع معطفها من فوق أكتافها: «هناك. اخلعيه. اخلعيه».

بدت فجأة أصغر في الحجم، وقد انحنت كتفاها ربما من كم الكراهية التي تنبعث من الخارج.

حمله هنري بدلًا عنه وقال: «لا تقلقي ليف سأخبر أحدًا من الموظفين أن ينظفه لك، وسوف نتأكد من أنك ستغادرين من المدخل الخلفي».

قال رجل الشرطة: «نعم سيدتي، سنجعلك تغادرين من المدخل الخلفي».

قالت بفتور: «مثل المجرمين».

قال بول وهو يتخذ خطوة للأمام: «لن أجعل ذلك يحدث لك ثانية. حقًّا، أنا آسف».

نظرت إليه وضاقت حدقتا عينيها واتخذت خطوة للوراء.

- ماذا؟

- لماذا ينبغي أن أثق بك؟

وقبل أن يجيب جذبها هنري من مرفقها وقادها فريقها القانوني إلى الممر ومنه إلى قاعة المحكمة، وكانت صغيرة الحجم بعض الشيء وهي ترتدي سترتها الداكنة غافلة عن حقيقة أن نصف ذيل الحصان خارج شريطة الشعر.

سار بول ببطء عبر الطريق وعدل من وضع كتفيه داخل السترة. كان جريج يقف بجوار سيارته يحمل الملفات المتناثرة والحقيبة الجلدية، وقد بدأت السماء تمطر.

- هل أنت بخير؟

أومأ برأسه.

- أهي كذلك؟

نظر بول إلى الخلف باتجاه المحكمة وهو يسوي شعره: «نعم، إلى حد ما. عليَّ أن أذهب الآن. سأراكما لاحقًا».

نظر بول نحوه ثم إلى الجمع الذي تفرق الآن -شيء مهادن- وراح الناس يتجولون ويتحدثون كما لو أن العشر دقائق الماضية لم يحدث خلالها شيء. كان تعبير وجهه باردًا على غير العادة وقال وهو يصعد إلى السيارة: «إذًا في المجمل إنني أؤيد ما هو صواب، فكيف تسير الأمور معك؟».

لم ينظر إلى بول وهو يسير مبتعدًا بالسيارة. كان وجه جيك شاحبًا، من خلال الزجاج الخلفي ينظر نحوه دون تأثر حتى غابت السيارة عن الأنظار.

كانت جاني بجانبه وهو يصعد الدرج متجهًا إلى قاعة المحكمة. كان شعرها مثبتًا بعناية وتضع طلاء شفاه أحمر براقًا وقالت: «كان الأمر مؤثرًا».

تظاهر بأنه لم يسمعها.

وضع شون فلاهرتي ملفاته على أحد المقاعد وهو يستعد للمرور من خلال الأمن: «لقد خرج الأمر عن السيطرة. لم أر شيئًا كهذا من قبل».

قال بول وهو يحك فكه: «إن الأمر أشبه بـ...لا أدري. كل تلك الهجمات التحريضية التي تصل إلى الإعلام لها تأثير». ثم التفت نحو جاني.

قالت جاني ببرود: «بمعنى؟».

- أعني أن من يُطلع الصحفيين ويثير جماعات المصالح لا يهتم بما يجلبه هذا من أشياء بغيضة.

نظرت إليه جاني بثبات وهي تقول: «بينما أنتم جميعًا من النبلاء».

- جاني، هل لك علاقة بتلك المظاهرة؟

على الرغم من أنها صمتت لنانو ثانية فإن الوقت بدا طويلًا.

- لا تكن سخيفًا.

- يا إلهي.

انتقلت نظرات شون بينهما كما لو أنه لاحظ لتوه أن هناك حوارًا متكاملًا يجري أمامه. استأذن في مغادرتهما وهو يتمتم بأنه سيذهب ليخبر محامي المرافعات. لم يتبق سوى بول وجاني في الممر الحجري الطويل.

رفع يده ليتخلل خصلات شعره ونظر خلفه نحو قاعة المحكمة وقال: «لا يروق لي ما يحدث. لا يروق لي على الإطلاق».

نظرت إلى ساعتها ثم خارج النافذة وقالت: «إنها مسائل عمل ولم تكن لتهتم من قبل».

لم يكن شارع ستراند Strand ظاهرًا من الخلفية، لكن هتافات المتظاهرين كانت مسموعة، تكاد تحجبها المباني المحيطة.

- على كل، لا أعتقد أنك لا يمكن أن تتظاهر بمظهر البريء.

- ماذا تعني؟

- ألن تخبرني بما يجري بينك وبين السيدة هالستون؟

- ليس هناك شيء.

- لا تستهن بذكائي.

- حسنًا. هذا ليس من شأنك.

- إن كانت هناك علاقة بينك وبين موضوع الادعاء فأعتقد أن ذلك من صميم عملي.

اقتربت منه جاني أكثر وقالت: «لا تخدعني بول، لقد تواصلت مع آل ليفيفر من وراء ظهري لتحاول التفاوض معهم من أجل تسوية».

- نعم، كنت سأتحدث إليك بشأن...

- رأيت ذلك العرض الصغير هناك. وأنت تحاول أن تتوصل إلى اتفاق لصالحها قبل الحكم بأيام.

خلع بول سترته وجلس بتثاقل على المقعد وقال: «حسنًا».

انتظرت ليكمل.

- كنت على علاقة قصيرة معها قبل أن أعرف من هي، وانتهت حينما اكتشفنا أننا في جهتين متعارضتين. هذا كل ما في الأمر.

تفحصت جاني شيئًا عاليًا في السقف المحدب وحينما تحدثت ثانية كانت كلماتها عادية.

- هل تعتزم أن تستعيد علاقتك معها ثانية بعد ما ينتهي كل هذا؟
- هذا ليس من شأن أحد.
- إنه شأني بحق الجحيم. أريد أن أعرف إن كنت تبذل قصارى جهدك من أجل عملك معي أم لا، فلم نتوصل إلى تسوية بعد بشأن هذه القضية.

دوى صوته في المكان الخالي وقال: «إننا نفوز بالفعل، ماذا تريدين ثانية؟».

دخل آخر شخص في فريق العمل إلى قاعة المحكمة. ظهر وجه شون بالقرب من الباب الخشبي المصنوع من البلوط الثقيل وحرك شفتيه بالكلمات لكي يدخلوا.

أخذ بول نفسًا عميقًا وقد اكتسى صوته برنة استعطاف وهو يقول: «أنصتِي لي. لندع الأمور الشخصية جانبًا. أنا أعتقد أنه من الصواب التوصل إلى تسوية، فلا يزال لدينا...».

مدت جاني يدها نحو ملفاتها وقالت: «لن نجري تسوية».

- لكن...
- ماذا بحق السماء يدفعنا لهذا؟ إننا على وشك الفوز بأشهر قضية تداولتها الشركة.
- نحن نحطم حياة شخص آخر.
- بل هي التي حطمت حياتها يوم أن قررت تحاربنا.
- لقد أخذنا ما تعتقد أنه من أملاكها، فبالقطع ستحاربنا. جاني إنها مسألة إنصاف.
- الأمر لا علاقة له بالإنصاف، لا تكن سخيفًا.

تمخطت، وحينما استدارت نحوه كانت عيناها تلمعان وهي تقول: «هذه القضية مدرجة في جدول المحكمة ليومين آخرين، وما دام لم يحدث شيء غير متوقع، ستعود صوفي ليفيفر لمكانها الصحيح».

- وواثقة أنت أنك تعلمين أين مكانها الصحيح؟

- نعم أعلم، كما يفترض أنك تعلم، والآن علينا أن ندخل القاعة قبل أن يتساءل أبناء ليفيفر ماذا نحن فاعلون هنا.

دلف إلى القاعة وتجاهل نظرات كاتب المحكمة. جلس وتنفس بضع مرات بعمق وحاول أن يصفي ذهنه. كانت جاني مشغولة ومنهمكة في حديث مع شون. حينما هدأت دقات قلبه تذكر محققًا متقاعدًا اعتاد أن يحدثه حينما جاء لندن لأول مرة وكانت قسمات وجهه ساخرة تحمل الكثير من التندر على النهج الذي يسير به العالم. كان يقول قبل أن تجعله الجعة يهذي: «كل ما يهم هو الحقيقة مكفرتي، ودون الحقيقة فإنك تتلاعب بأفكار الناس الحمقاء».

جذب دفتر ملاحظات من سترته ودون بعض الكلمات قبل أن يطوي الورقة إلى نصفين. نظر جانبًا ثم ربت على كتف الرجل الجالس أمامه وقال له: «هل يمكنك أن تمرر هذه إلى المحامي من فضلك؟». وراقب الورقة وهي تشق طريقها إلى الأمام إلى مقعد المحامي الشاب ثم إلى هنري الذي نظر إليها ومررها إلى ليف.

نظرت إليها بارتياب كما لو أنها تتردد في فتحها، ثم راقبها حينما فعلت وهدوءها وهي تستوعب ما بها:

سأصلح كل هذا.

استدارت وراحت عيناها تبحثان عنه، وحينما وجدته رفعت ذقنها قليلًا وكأنها تقول: «ما الذي يجعلني أثق بك؟».

بدا الزمن وكأنه توقف. أشاحت بوجهها بعيدًا.

قال: «أخبر جاني بأنه عليَّ أن أذهب، فلدي اجتماع عاجل».

نهض بول وبدأ يشق طريقه إلى الخارج. فيما بعد لم يكن واثقًا ما الذي قاده إلى هناك. كانت الشقة التي تقع في مبنى كبير خلف شارع مرليبون Marylebone مغطاة بورق حائط بلون السلمون الوردي وقد منحته الدوائر اللؤلؤية لمعة خفيفة بلون الخوخ. كانت الستائر باللون الوردي، والأرائك بالوردي الداكن. وامتلأت الجدران ببعض الأرفف التي علتها قطع حيوانات صغيرة صنع الصين تتزاحم في المكان بجانب بعض الأشرطة اللامعة وبطاقات عيد الميلاد، وكان عدد كبير منها باللون الوردي. وهناك وقفت أمامه ماريان أندرو ترتدي سروالًا وكنزة طويلة.

انحنت إلى الأمام قليلًا كما لو أنها أطول من إطار الباب وقالت: «هل أنت من فريق فلاهرتي؟». كانت لديها ما كانت أمه تطلق عليه «عظام كبيرة»؛ وكانت تبرز من فكيها كعظام الجمل.

- آسف إن كنت هبطت على شقتك هكذا فجأة. أود أن أتحدث إليك بشأن القضية.

كانت على وشك أن تمنعه من الدخول، ولكنها رفعت يدها الضخمة وقالت: «يمكنك الدخول لكني أحذرك، إنني في شدة غضبي مما تحدثتم به عن أمي كما لو أنها أحد المجرمين والصحف لم تكن أفضل حالًا. لقد تلقيت مكالمات الأيام القليلة الماضية من بعض الأصدقاء الذين عادوا للوطن وسمعوا عن القصة وحاولوا التلميح إلى أنها اقترفت شيئًا فظيعًا. فهاتفت صديقتي القديمة مايرا في المدرسة الثانوية وأخبرتها أن أمي فعلت أشياء مفيدة في ستة أشهر أكثر من تلك التي فعلها زوج تلك اللعينة في ثلاثين عامًا وهو جالس بجسده الضخم في بنك أمريكا».

- أنا واثق من هذا.

- أراهن أنك تفعل يا عزيزي.

أشارت إليه بالدخول. كانت تمشي بتثاقل وتجر إحدى قدميها.

- كانت أمي تقدمية في مجال العمل الاجتماعي. كتبت عن مشكلات العمال، والأطفال المشردين، وقد روعتها ويلات الحروب. إنها لا يمكن أن تسرق شيئًا أكثر من مجرد طلب موعد مع جورينج. الآن أعتقد أنك تريد مشروبًا.

وافق بول على تناول مشروب الكوكاكولا قليل السعرات. تسللت عبر النافذة أصوات السيارات وقت الذروة في ذلك الهواء الساخن. وتمددت قطة كان قد اعتقد خطأً في البداية أنها إحدى الوسائد وقفزت إلى حجره حيث راحت تتمسح في فخذيه بنشوة.

تراجعت ماريان إلى الوراء وأشعلت سيجارة وأخذت نفسًا بطريقة مسرحية وهي تقول: «أهذه لكنة أهل بروكلين Brooklyn؟».

- نيوجيرسي.

سألته عن عنوانه القديم ثم أومأت برأسها لتؤكد معرفتها به.

- هل تقيم هنا منذ مدة طويلة؟

- سبع سنوات.

- أنا قضيت ست سنوات. ثم انخفض صوتها قليلًا وهي تقول: جئت مع زوجي العزيز دونالد، لقد توفي يونيو الماضي. على أي حال، كيف يمكنني أن أساعدك؟ لست واثقة بأن لديَّ أكثر مما قلته في المحكمة.

- لا أدري، ولكني أتساءل إن كان هناك أي شيء، أي شيء يمكن أن نكون قد أغفلناه.

- لا، كما أخبرت فلاهرتي، فأنا ليس لديَّ أي فكرة عن المصدر الذي أتت منه اللوحة. ولكي أكون أمينة، حينما كانت أمي تسترجع ذكرياتها عن التغطيات الإعلامية كانت تفضل الحديث عن الوقت الذي حُبست فيه في دورة مياه الطائرة مع جون جيندي، وكما تعلم فأنا وبول لم نكن نهتم كثيرًا بهذه الأخبار. صدقني حينما تسمع إحدى روايات مراسل قديم فكأنك سمعتهم جميعًا.

تجول بول ببصره في الشقة، وحينما أعاد نظره نحوها وجد عينيها مسلطتين عليه. كانت تراقبه جيدًا وكانت تنفث الدخان فيشكل دوائر وسط الهواء الساكن.

- سيد مكفرتي هل سيطالبني زبائنك بتعويض إذا ما حكمت المحكمة بأن اللوحة مسروقة؟

- لا، إنهم فقط يريدون اللوحة.

هزت ماريان أندرو رأسها وقالت: «أراهن على ذلك».

حلت ساقيها وجفلت كما لو أن ذلك لم يشعرها بالراحة.

- هذه القضية برمتها كريهة ولا يروق لي الطريقة التي يزجون بها اسم أمي في الوحل، أو السيد هالستون. لقد كان يحب تلك اللوحة كثيرًا.

نظر بول نحو القطة وقال: «من المحتمل أن السيد هالستون لديه فكرة جيدة عن قيمتها».

- مع احترامي سيد مكفرتي إنك لم تكن هناك، وإن كنت تحاول أن توحي بأنه خدعني فإنك تتحدث إلى الشخص الخطأ.

- هل حقًا لا تهتمين بقيمة اللوحة؟

- أشك بأننا لدينا تفسيرات مختلفة لما تعنيه كلمة «القيمة».

نظرت القطة إليه بعينين يملؤهما الطمع وبعض العداء في الوقت نفسه.

أطفأت ماريان سيجارتها وقالت: «وإنني أشعر بالأسى حيال المسكينة أوليفيا هالستون».

تردد ثم قال بنعومة: «نعم، وأنا أيضًا».

رفعت حاجبيها.

تنهد وقال: «هذه القضية معقدة».

- ليست معقدة لدرجة أن تدفع بالمسكينة إلى حافة الإفلاس.

- إنني أقوم بعملي سيدة أندرو.

- نعم، أعتقد أن أمي سمعت هذه العبارة عدة مرات.

قالتها بهدوء لكنها دفعت بالدماء إلى وجنتيه.

نظرت نحوه لدقيقة ثم فجأة أطلقت تنهيدة عالية فأخافت القطة وجعلتها تقفز من على حجرها.

- أوه، بحق السماء هل تريد شيئًا أقوى؟ لأنني أريد مشروبًا حقيقيًا. أنا واثقة أن هذا هو الوقت المناسب لتناول الكحول.

نهضت واتجهت نحو خزانة المشروبات وسألته: «بعضًا من الويسكي الأمريكي؟».

- أشكرك.

حكى لها فيما بعد والشراب في يده، ولكنَة وطنه تتردد في أذنه، وجاءت كلماته متقطعة وغير منتظمة كما لو أنهما لم يتوقعا كسر حاجز الصمت. فقد بدأت قصته بحقيبة مسروقة وانتهت بوداع مفاجئ في المحكمة. وقد بدأت أجزاء جديدة من القصة دون أن يدري؛ سعادته المتوقعة وهو حولها، شعوره بالذنب، مزاجه السيئ الدائم الذي يتزايد ويدوي كنباح الكلاب. ولا يدري لمَ ينبغي له أن يخفف ثقل ما يشعر به حيال تلك المرأة، ولا يعرف لمَ يتوقع منها أن تفهمه دونًا عن باقي الناس.

لكن ماريان أندرو أنصتت إليه وكانت ملامحها الكبيرة تحمل علامات التعاطف.

- حسنًا، لقد أوقعت نفسك في ورطة سيد مكفرتي.

- نعم، أفهم ذلك.

أشعلت سيجارة أخرى ونهرت القطة التي كانت تصيح في شكوى من أجل الطعام في المطبخ المفتوح.

- عزيزي ليست لديَّ إجابات من أجلك، فإما ستحطم قلبها بانتزاع تلك اللوحة منها، وإما ستفعل هي حينما تفقدك عملك.

- أو أننا ننسى الأمر برمته.

- ويتحطم قلباكما أنتما الاثنان.

أوضحت كلماتها الأمر. جلسا في صمت، وكان الهواء بالخارج خانقًا بأصوات حركة المرور التي تتحرك بصعوبة.

ارتشف بول مشروبه وهو يفكر ثم قال: «سيدة أندرو، هل كانت تحتفظ أمك بدفاتر ملاحظتها؟ بملفات التقارير الصحفية؟».

نظرت ماريان إلى أعلى ثم قالت: «لقد أحضرتها معي من برشلونة لكن أخشى أنني ألقيت بجزء كبير منها، لقد أتى عليها نمل الأرض، وهكذا الحال مع أحد الرؤوس المتقلصة أيضًا. مخاطر الزواج القصير في فلوريدا. ومع ذلك...».

نهضت واستخدمت ذراعها الطويلة لكي تعاونها في النهوض.

- لقد جعلتني أفكر في شيء، فربما لديَّ كومة من سجل اليوميات.

- سجل اليوميات؟

- المذكرات أو أيًّا ما يكون، فقد كانت لديَّ فكرة مجنونة أنه ربما يرغب أحدهم في كتابة سيرتها الذاتية، فقد أنجزت العديد من الأشياء المثيرة للاهتمام، ربما يفعل ذلك واحد من أحفادي. أنا غالبًا واثقة بأن هناك صندوقًا من قصاصات الأخبار والمذكرات. دعني أحضر المفتاح وتذهب لنلقي نظرة.

تبع بول ماريان إلى الخارج نحو الردهة المشتركة، وقادته وهي تأخذ أنفاسها بصعوبة وهبطا درجتين على السلم الذي لم يعد مغطى بالسجاد، واصطفت بجوار الحائط قطع من الدراجات.

قالت ماريان أندرو وهي تنتظر بول لكي يفتح الباب المقاوم للنيران الثقيل: «إن الشقق صغيرة إلى حد ما، لذا يستأجر بعضنا خزانات الحارس الإضافية ونادرًا ما نحصل عليها. لقد طلب مني السيد شوا أن أتنازل عن عقد الإيجار مقابل أربعة آلاف جنيه لهذه السنة الأخيرة، لكني أخبرته أن عليَّ أن آخذ ثلاثة أضعاف ويزيد.

وصلا أمام باب طويل أزرق، وبحثت في حلقة من المفاتيح وهي تتمتم لنفسها ببعض الكلمات حتى وجدت المفتاح الذي تريده وقالت وهي تدير المفتاح: «هنا». كشف المصباح الخافت بالداخل عن حجرة خزن مظلمة طويلة. واصطفت على أحد الجوانب رفوف المرأب المعدنية، وكانت الأرض مكتظة بصناديق الكرتون، وأكوام من الكتب، وخريطة قديمة. كانت تفوح منها رائحة الصحف القديمة وجرار شمع العسل.

تنهدت ماريان وهي تجعد أنفها: «ينبغي لي أن أتخلص من كل هذا، لكن دائمًا ما يكون هناك شيء أكثر أهمية لفعله».

- هل تريدين مني إنزال أي شيء؟

قالت وهي تحتضن نفسها: «أتعلم يا عزيزي؟ هل تمانع إذا ما تركتك تبحث هنا؟ فالتراب يزيد من حدة الربو لدي. وليس ثمة شيء ذي قيمة. أنت تغلق على نفسك هنا وناديني إن وجدت شيئًا، أوه وإذا عثرت على حقيبة يد بلون أزرق مائل إلى الخضرة وبمشبك ذهبي أحضرها معك إلى أعلى، فأنا أود أن أعرف أين اختفت».

مضى بول ساعة في تلك الحجرة المكتظة وهو ينقل بعض الصناديق إلى الردهة ذات الضوء الخافت حينما كان يشك أنها قد تمثل فائدة وكدسها بجانب الحائط. عثر على صحف تعود لعام 1914، وقد علا الصفار صفحاتها وفقدت بعض جوانبها. كانت الحجرة الصغيرة عديمة النوافذ أشبه بأكشاك الهاتف. فرغ محتوياتها وكدسها في الردهة؛ وكانت عبارة عن حقائب ملأى بالخرائط القديمة، كرة أرضية، علبة ملأى بالقبعات، معاطف تآكلت من العث، ورأس آخر من الرؤوس المتقلصة المتينة، وكان ينظر إليه بأسنانه الأربعة الكبيرة. فكدس كل ذلك بجانب الحائط وغطى الرأس بغطاء وسادة مزخرف. غطى الغبار يديه واستقر عند تجاعيد وجهه. كانت هناك مجلات لتنورات من طراز جديد، وصور لحفلات التتويج، وشرائط كاسيت ذات بكرتين. أصبحت

ملابسه رمادية من التراب، ودخلت بعض ذرات الرمل إلى عينيه. عثر على مجموعة من المفكرات وقد كُتب التاريخ على الأغلفة الأمامية للتذكِرة؛ نوفمبر 1968، 1969، 1971. قرأ عن أزمة إضراب رجال الإطفاء في نيوجيرسي، ومحاكمات الرئيس، ومن وقت لآخر كان يجد ملاحظات كُتبت في الهوامش (دين، حفلة الرقص السابعة مساء، أو أخبر مايك أن فرانكي تحدثت). لم يكن هناك شيء ذو صلة بوقت الحرب أو اللوحة.

بحث بشكل منظم في كل صندوق، وتصفح بين أوراق كل كتاب، وفحص محتويات كل ملف. فتح كل صندوق وكل علبة وأخرج محتوياتها ثم أعادهما ثانية بعناية. وجد فيها سماعات ستيريو قديمة، وصندوقين من الكتب القديمة، وحقيبة قبعات ملأى بالهدايا. إنها الحادية عشرة، ثم الثانية عشرة والنصف. نظر إلى ساعته وأدرك أنه لا فائدة. مكتبة سُر مَن قرأ

اعتدل بول قائمًا ونفض الغبار عن سرواله، كان متلهفًا لأن يهرب من ذلك المكان الخانق الذي يعج بالفوضى، واشتاق فجأة لشدة إشراق منزل ليف، وخطوطه النظيفة، وتهويته الجيدة.

أفرغ كل شيء. أينما وجدت الحقيقة، فهي بالقطع ليست في تلك الحجرة المزدحمة التي تقع شمال شارع أيه فور A4. ثم لمح بعد ذلك في الخلف رباط حقيبة كتف جلد قديمة كانت بالية تمامًا ومقسومة نصفين كشريحة لحم البقر الجافة.

فمد يده أسفل رفوف التخزين وجذبها.

عطس مرتين، ومسح عينيه، ثم أزاح الغطاء فوجد بالداخل ست مفكرات مغلفة بورق مقوى حجم متوسط. فتح إحداها ورأى ما هو مكتوب باليد بحروف فنية متشابكة في الصفحة الأولى، والتقطت عيناه التاريخ 1941. فتح مفكرة ثانية فرأى مكتوبًا عليها عام 1944. تجول بنظره بينها جميعًا، ويُسقط كل واحدة في عجالة بعدما ينتهي من تصفحها إلى أن وجدها، وها هي، المفكرة قبل الأخيرة: 1945.

تعثر وهو في طريقه إلى الردهة حيث الضوء أكثر وضوحًا فيها، فتصفح جميع الصفحات أسفل مصباح الفلورسنت.

30 أبريل

«لم يمض اليوم على النحو الذي توقعته، فمنذ أربعة أيام أخبرني المقدم دانيس أنه يمكنني الذهاب إلى أورانينبورج Konzentrationslager بداخاو.

قرأ بول المزيد من السطور ولعن مرتين بحدة متزايدة. تسمر في مكانه، وزادت أهمية ما يحمله مع كل ثانية تمر. تجول سريعًا بين الصفحات ولعن مرة أخرى.

تسارعت الأفكار في ذهنه، بمقدوره أن يعيد ذلك لمكانه ثانية في طرف الحجرة البعيد ويعود لماريان أندرو في الحال ويخبرها أنه لم يجد شيئًا، وبالتالي يمكن أن يكسب قضيته ويحصل على نسبته. إنه يمكن أن يعيد صوفي ليفيفر لمالكيها الشرعيين.

أو

تراءت له ليف، وهي مخفضة الرأس تتعرض لموجة هجوم من الرأي العام، والكلمات القاسية من الغرباء، والإفلاس المالي الوشيك. رآها تمسك كتفيها وذيل الحصان يميل جانبًا وهي تمضي يومًا آخر في المحكمة.

رأى ابتسامة السعادة التي ارتسمت ببطء على وجهها حينما تبادلا القبلات لأول مرة.

إذا أقدمت على هذا الفعل فلن يمكن التراجع فيه.

وضع بول مكفرتي الكتاب والحقيبة بجانب سترته وشرع في تجميع الصناديق داخل الحجرة.

ظهرت عند عتبة الباب بينما كان يزيح آخر الصناديق، وقد تصبب العرق منه وملأ الغبار ملابسه. كانت تدخن سيجارة في حامل طويل كفتاة مراهقة في عشرينيات القرن.

- يا إلهي، لقد بدأت أتساءل عما حدث لك.

اعتدل واقفًا، ومسح حاجبيه وقال: «لقد وجدت هذه».

رفع الحقيبة ذات اللون الأزرق المائل إلى الخضرة.

- حقًا؟ أوه عزيزي!

ثم صفقت بيديها الاثنتين وأخذتها منه وتحسستها بحنان وقالت: «كنت أخشى أن أكون تركتها في مكان ما. أصبحت مشتتة الذهن بشكل كبير. أشكرك. أشكرك كثيرًا. الله يعلم كيف عثرت عليها في مثل هذه الفوضى».

- لقد عثرت على شيء آخر.

رفعت نظرها إلى أعلى.

- هل تمانعين إن استعرت هذه؟ رفع الحقيبة والمذكرات بداخلها.

- أهي كما كنت أعتقد؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم أخرجه وقال: «إنها تقول إن أحدهم أعطى اللوحة لأمك بالفعل».

قالت ماريان أندرو في تعجب: «لقد أخبرتكم جميعًا. لقد أخبرتكم أن أمي ليست لصة، لقد قلت لكم منذ البداية».

سادت فترة طويلة من الصمت.

قالت ببطء: «وهل ستمنحها إلى السيدة هالستون؟».

- لا أعتقد أن ذلك سيكون من الحكمة في شيء، فهذه المذكرات ستجعلنا نخسر القضية.

تجهمت تعبيرات وجهها وقالت: «ماذا تقول؟ هل يعني هذا أنك لن تعطيها لها؟».

- هذا بالضبط ما أقوله.

مد يده في جيبه وأخرج قلمًا.

- لكن إن تركتها هنا، فليس هناك شيء سيمنعك من إعطائها لها، أليس كذلك؟

ثم كتب رقمها وأعطاه لها وقال: «هذا رقم هاتفها المحمول».

نظرا إلى بعضهما بعضًا لدقيقة. أشرق وجهها كما لو أنه أعاد طمأنتها بشأن شيء مهم.

- سيدة أندرو؟

- أرجوك نادني بماريان.

- ماريان احفظي ذلك بيننا، فلن تستقبله بعض الأوساط بشكل جيد.

هزت رأسها في تأكيد وقالت: «إنك لم تأت إلى هنا أيها الشاب».

ثم خطر لها خاطر فقالت: «ألا ترغب في أن أخبر السيدة هالستون؟ أخبرها بأنك أنت من...»».

هز رأسه بالنفي وأعاد القلم لجيبه وقال: «أعتقد أن الفرصة قد فاتت ولم يتبق شيءٌ، فرؤيتها وهي تفوز بالقضية كافية بالنسبة لي».

انحنى وقبّل وجنتها وأردف قائلًا: «أكثرها أهمية هي تلك المدون عليها أبريل 1945. المذكرة ذات الطرف المثني».

- أبريل 1945.

شعر ببعض الدوار من فرط ما بذله. ستخسر المؤسسة وأبناء ليفيفر القضية، قطعًا سيخسرون القضية استنادًا إلى ما رأى.

أتظل خيانة حتى لو فعلها من أجل الأسباب الصحيحة؟ كان يحتاج إلى مشروب، ولبعض من الهواء، أي منهما. *هل فقدت صوابي هنا؟* كل ما استطاع رؤيته هو وجه ليف، وشعورها بالراحة. كان يرغب في رؤية تلك الابتسامة تشرق ثانية، ابتسامة بطيئة وعريضة وتشعره بالدهشة حينما ترسمها.

أمسك بسترته استعدادًا للمغادرة ومد يده ليعطيها مفاتيح الحجرة. أمسكت ماريان بمرفقه وأوقفته وقالت: «أتدري، سأخبرك شيئًا من واقع زيجاتي الخمس، أو زيجاتي الخمس التي ما زالت تربطني صداقة بأزواجي السابقين ممن هم على قيد الحياة». ثم أحصتهم على أصابعها المتغضنة واستطردت: «وهم ثلاثة».

انتظر لتكمل.

- هذا يعلمك كل شيء بشأن الحب.

شرع بول في الابتسام، لكنها لم تنته من حديثها، ولدهشته كانت قبضتها محكمة بقوة على ذراعيها.

- ما أعلمك إياه سيد مكفرتي هو أن هناك الكثير في هذه الحياة أكثر من مجرد الفوز.



31

قابلها هنري عند بوابة المحاكم الخلفية. كان يتحدث وسط كم من فتات الكرواسون بالشوكولاتة. اكتسى وجهه باللون الوردي، ولم يكن مفهومًا بالنسبة لها.

- إنها لن تعطيها لأي شخص آخر.

- ماذا؟ من التي لن تفعل؟

- إنها عند المدخل الأمامي. هلُمي.

وقبل أن تسأل عن المزيد، دفعها خلال المدخل الخلفي عبر مجموعة من الممرات وطبقات من السلالم الحجرية، ومنها إلى منطقة الأمن التي تتصدر المدخل الرئيسي. كانت ماريان أندرو تنتظرهم عند الحواجز مرتدية معطفًا أرجوانيًا وشريطة شعر عريضة صوفية بخطوط ملونة. لمحت ليف فأطلقت تنهيدة تنم عن الراحة بطريقة مسرحية.

وبَّختها وهي تحمل حقيبة كتف ذات رائحة عطنة وقالت: «يا إلهي إنك امرأة يصعب الوصول إليها، لقد هاتفتك مرارًا وتكرارًا».

قالت ليف وهي تطرف بعينها: «إنني آسفة، فأنا لا أرد على أي مكالمات».

أشارت ماريان إلى المفكرات وقالت: «إنها هنا، كل ما تحتاجين إليه هنا. أبريل 1945».

حدقت ليف إلى المفكرات القديمة ونظرت إليها غير مصدقة وقالت: «كل ما أحتاج إليه؟».

قالت المرأة العجوز في حنق: «بشأن اللوحة، بحق السماء عزيزتي، إنها ليست وصفة الجومبو بالمرق والبامية».

سارت الأحداث بشكل سريع. هرع هنري إلى حجرة القضاة وطلب تأجيل الجلسة لوقت قصير. نسخت المذكرات، وأبرزت الأجزاء المهمة، وأرسلت محتوياتها إلى محامي أبناء ليفيفر تحت قانون الإفصاح عن المعلومات. جلست ليف بصحبة هنري في جانب المكتب يطالعان الصفحات التي عليها علامات بينما كانت ماريان تتحدث دون توقف ببعض الكبرياء عن معرفتها بأن أمها ليست لصة، وليذهب السيد جينكز اللعين بعيدًا إلى الجحيم.

أحضر لهما المحامي المساعد بعضًا من القهوة والشطائر. كانت معدة ليف متوترة لدرجة منعتها من تناول الطعام؛ فظلا كما هما في علبتهما الكرتون دون أن تمسهما. ظلت تحدق إلى المذكرات، ولم تستطع أن تصدق أن تلك المفكرة المهترئة قد تحمل الحلول لكل مشكلاتها.

قالت حينما أنهت أنجيلا سيلفر وهنري حديثهما: «ما رأيكما؟».

قال: «أعتقد أنها يمكن أن تكون أخبارًا جيدة».

أخفت ابتسامته كلماته الحذرة.

قالت أنجيلا: «إنها واضحة بشكل كبير، وإذا ما أثبتنا أن آخر مرتين تم فيهما تبادل اللوحة اتسمتا بالبراءة، بينما ليس هناك دليل حاسم بالنسبة للمرة الأولى، وهكذا فنحن كما يقولون استعدنا وضعنا».

قالت ليف وهي لا تصدق هذا التحول في الأحداث: «أشكرك جزيلًا، أشكرك سيدة أندرو».

قالت ماريان وهي تنفث الدخان في الهواء بينما لم يهتم أحد بمنعها: «إنني في قمة السعادة».

مالت إلى الأمام ووضعت يدها الهزيلة على ركبة ليف: «وقد عثر أيضًا على حقيبتي المفضلة».

- آسفة؟

تلاشت ابتسامة المرأة العجوز، وتظاهرت بالانشغال في إصلاح وضع مشبك الزينة.

- أوه، لا شيء. لا تشغلي بالك بما أقول.

ظلت ليف تحدق إليها بينما هدأ احمرار وجهها.

قالت ماريان سريعًا: «هل تريدين هذه الشطائر؟».

رن جرس الهاتف. قال هنري: «تمامًا».

حينما أغلق الهاتف قال: «هل الجميع مستعدون؟ هل أنت مستعدة سيدة أندرو لترديد بعض من هذه الأدلة على مسامع المحكمة؟».

- لدي أفضل منظار للقراءة في الحقيبة.

أخذ هنري نفسًا عميقًا ثم قال: «إذًا فقد حان الوقت للدخول».

أكتوبر 1945

لم يمر اليوم مثلما توقعت. منذ أربعة أيام أخبرني المقدم دانيس أنه يمكنني الذهاب إلى معسكر اعتقال أورانينبورج Konzentrationslager بداخاو. لم يكن دانيس رجلًا سيئًا، لكنه كان متغطرسًا بعض الشيء حيال الصحفيين -كمعظمهم- لكن بمجرد أن ذهبت مع فرقة سكريمينج إيجل إلى شاطئ أوماها، وأدرك أنني لست ربة منزل قليلة الخبرة ستأتيه ببعض الأخبار عن وصفات البسكويت تراجع عن موقفه قليلًا. وتطلق علينا الفرقة 102 المحمولة جوا، الآن زميلة فخرية وقالوا ذلك حينما ارتديت شارة الذراع. أصبحت واحدة منهم. وكان الاتفاق على أنني سأتبعهم إلى المعسكر، وأكتب تقاريري الصحفية عن الأشخاص بالداخل، ومن الممكن أن أجري لقاءات مع بعض الأسرى بشأن أحوالهم بالمعسكر ثم أرسل الأخبار. وكانت إذاعة دبليو. أر. جي. إس WRGS تريد بعض الأخبار القصيرة فجهزت الشرائط واستعدَدْت.

كنت مستعدة في تمام السادسة صباحًا، ارتديت الشارة وأكاد أكون في كامل هندامي، وسألعنه إن لم يدق بابي.

قلت له مازحة: «لمَ أيها المقدم، إنني ما زلت أسوي شعري. لم تخبرني بأنك تهتم». إنها مزحة نعرفها فيما بيننا. قال إنه لديه زوجان من أحذية السير أكبر مني.

قال: «هناك تغيير في الخطة عزيزتي». كان يدخن على غير عادته ثم أردف قائلًا: «لا أستطيع أن أصحبك».

توقف عقلها عن التفكير.

- لا بد وأنك تمزح، أليس كذلك؟ إن محرري السجلات مستعدون لتلقي مقتطفات الأخبار، لقد أفردوا لي صفحتين دون إعلانات.
- إن ما عثرنا عليه لم يخطر على بالنا، لقد تلقيت الأوامر بألا أسمح لأحد بالدخول حتى الغد.
- أوه، لا عليك.

أخفض من صوته وقال: «إنك تعلمين أنني كنت سأسمح لك بالذهاب معنا، لكنك لن تصدقي ما وجدناه بالأمس... لقد ظللت مستيقظًا بالأمس... أنا والأولاد. لقد رأينا سيدات عجائز وأطفالًا يتجولون هناك مثل... أعني، الأطفال الصغار...».

حرك رأسه وأشاح بوجهه بعيدًا. إن دان رجل كبير لكني أقسم إنه كان سيبكي كالأطفال.

- هناك قطار بالخارج... والجثث... الآلاف منهم... إنه ليس من الإنسانية في شيء... هذا مؤكد.

إن حاول أن يرجئ الأمر فسيكون لذلك تأثير عكسي.

- عليك أن تسمح لي بالدخول هناك أيها المقدم.
- آسف. إنها أوامر صارمة. يوم واحد فقط لوان وسأمنحك كل التصاريح للدخول، وستكونين أول صحفية تدخل المكان، أعدك.
- نعم وستظل تحبني بعدها. بربك لا أصدق.
- لوان، لن يدخل المعسكر أو يخرج منه سوى العسكريين والهلال الأحمر فقط. إنني أحتاج إلى كل رجل ليساعدني.
- يساعدك في ماذا؟
- في احتجاز جميع النازيين ومعاونة الأسرى، ومنع رجالنا من قتل أولئك النازيين الأوغاد من هول ما رأوه. إن الشاب ماسلويتش حينما رأى ما فعلوه بالبولنديين أضحى كالمجانين وراح يبكي، وفقد صوابه. وقد وضعت صف ضابط ليحرس بندقيته. يجب أن يكون لديّ حراسة مشددة.

ثم ازدرد ريقه وقال: «علينا… ماذا سنفعل بالجثث؟».

- جثث؟

هز رأسه بالإيجاب وقال: «نعم جثث. الآلاف منهم. لقد أشعلوا فيهم النيران. أشعلوا النيران!».

نفخ وجنتيه وقال: «على أي حال عزيزتي أنا أريد أن تسدي لي معروفًا».

- هل تطلب مني خدمة؟

- أريد أن أجعلك مسؤولة عن المخزن.

حدقت إليه.

- هناك مخزن على أطراف بيرتشسجادن. لقد فتحناه ليلة أمس وكان مملوءًا عن آخره بالأعمال الفنية، فجورينج النازي قد نهب أعمالًا قيمة لن تصدقيها. فقد أشار كبار الضباط إلى أنها تساوي مئات الملايين من الدولارات ومعظمها مسروقة.

- وما شأني بذلك؟

- إنني أريد شخصًا أمينًا ليحرس تلك الأشياء. اليوم فقط. سيكون هناك طاقم من رجال الإطفاء تحت تصرفك، واثنان من مشاة البحرية، فالفوضى تعم المدينة، وأريد أن أتأكد من أنه لن يدخل أحد إليه أو يخرج منه. عزيزتي إنني لا أعرف الكثير عن الفن، لكن هناك أعمالًا مثل الموناليزا أو ما شابه.

أتدرون ما هو إحساس خيبة الأمل؟ إنه مثل برادة الحديد في القهوة الباردة. هذا ما استشعرته حينها. قادني دانيس إلى المخزن، وكان هذا قبل أن أكتشف أن الصحفية مارجريت هيجنز قد دخلت المعسكرات اليوم السابق برفقة العميد ليندن.

إنه لم يكن مخزنًا كبقية المخازن، رأيت مبنى من الحجارة الرمادية الضخمة لمباني البلدية أشبه بمدرسة ضخمة أو دار مجلس المدينة، وقد أشار إلى اثنين من ضباط البحرية اللذين قدما لي التحية، وكان

المكتب الذي من المفترض أن أجلس فيه بالقرب من الباب الرئيسي. كان عليّ أن أقول لا، لكني لم أقو على قولها وتقبلت الأمر على مضض. من الواضح لي أن القصة الحقيقية تدور بالخارج. كان الأولاد –الذين هم في العادة مبتهجون ويمتلئون حيوية- يجلسون في مجموعات. يدخنون السجائر ويعلو الشحوب وجوههم، وقد تحدث رؤساؤهم بهدوء وعلى وجوههم تعبيرات جادة توحي بالصدمة. كنت أريد أن أعرف ما الذي وجدوه مروعًا هناك. إنني بحاجة إلى أن أدخل هناك وأعرف القصة. كنت أخشى أن كل يوم يمر يجعل من السهل على القيادات العليا رفض مطلبي، كل يوم يمر يعطي المنافسين فرصة.

- كرابوفيسكي سيجلب لك أي شيء تحتاجين إليه، وسيتصل بي روجرسون إذا ما واجهت مشكلة. هل كل شيء على ما يرام؟

قلت وأنا أضع قدمي على المكتب وأتنهد بطريقة مسرحية: «بالتأكيد».

- إنه اتفاق. إنك تؤدين هذه المهمة من أجلي وأنا سأجعلك تدخلين المعسكر غدًا. أعدك بذلك عزيزتي.

قلت: «أراهن أنك قلت ذلك لكل الفتيات من قبل».

لكنه -ولأول مرة- لم يرسم أي ابتسامة على وجهه.

جلست هناك نحو ساعتين وأنا أتطلع إلى الخارج من خلال النافذة. كان يومًا دافئًا وأشعة الشمس تنعكس على الأرصفة الحجرية، لكن كان هناك

شعور غريب نحوها يشعرك بانخفاض درجة الحرارة من حولك. كانت محركات المركبات العسكرية تصدر ضجيجًا عاليًا في ذهابها وإيابها عبر الطرق الرئيسية وهي محملة بالجنود. كان الجنود الألمان يسيرون في الاتجاه المعاكس واضعين أيديهم على رؤوسهم، ووقفت مجموعات صغيرة من السيدات والأطفال الألمان دون حركة على جوانب الطريق ومن الواضح أنهم يتساءلون عن مصيرهم (علمت فيما بعد أنهم استُدعوا للمعاونة في عمليات الدفن). وطوال الوقت تنطلق صفارات سيارات الإسعاف من بُعد لتعلن عن فظائع ارتُكبت. فظائع فاتني أن أشهدها.

لم أدرِ لماذا كان يشعر دانيس بالقلق؛ فلم يعر أحد هذا المبنى أي اهتمام. شرعت في كتابة أحد المقالات ثم طويت الورقة وتناولت قدحين من القهوة، ودخنت نصف علبة سجائر. ازدادت حالتي المزاجية سوءًا، وبدأت أتساءل إن كانت تلك خدعة لإبعادي عن الحدث.

قلت في النهاية: «هيا كرابوفيسكي، اصطحبني في جولة حول هذا المكان».

بدأ حديثه قائلًا: «سيدتي، لا أدري إن كان...».

- لقد سمعت ما قاله المقدم كرابوفيسكي. السيدة هي المسؤولة عن المكان اليوم، وهي تطلب منك أن تريها المكان.

حدجني بنظرة تشبه النظرة التي يرمقني بها كلبي حينما أوشك أن أركله ليفهم ما أعنيه. لكنه تبادل كلمة مع روجرسون ثم بعدها انطلقنا.

لم يبد أنه ذو قيمة في البداية، مجرد صفوف كثيرة من أنظمة التخزين الخشبية، والكثير من الأغطية الرمادية التي تستخدم داخل المؤسسات العسكرية والتي ألقيت فوق المحتويات. لكني دنوت من تلك الأشياء وجذبت لوحة من أحد الرفوف؛ كانت عبارة عن قطعة فنية حديثة لحصان وسط منظر طبيعي في إطار ثقيل من الذهب، وكانت ألوانه -برغم الضوء الخافت في الحجرة الشاسعة- تتلألأ كالكنز. قلبتها في يدي فوجدتها من رسومات براك Braque. حدقت إليها لدقيقة ثم وضعتها بحرص في الرف الخاص بها واستأنفت السير. رُحت أجذب الأشياء بصورة عشوائية؛ فوجدت رموزًا من العصور الوسطى، وأعمالًا تعود للمدرسة الانطباعية، ولوحات ضخمة من عصر النهضة. كانت الأطر التي تحيط بها خفيفة، وبعض اللوحات وضعت في صناديق مخصصة لها. مررت أصابعي فوق لوحة لبيكاسو واعتراني الذهول وأنا ألامس بحرية أعمالًا فنية لم أشاهدها إلا في المجلات أو على جدران المعارض.

- يا إلهي كرابوفيسكي، هل رأيت هذه؟

نظر نحوي وقال: «نعم سيدتي».

- أتدري ما هذه؟ إنها لوحة من لوحات بيكاسو.

لم تبدُ أي تعبيرات على وجهه.

- بيكاسو، الرسام المشهور.

- إنني لا أعرف كثيرًا عن الرسم سيدتي.

- وتظن أن أختك الصغيرة يمكن أن ترسم أفضل من هذه، أليس كذلك؟

منحني ابتسامة تنم عن الراحة وقال: «نعم سيدتي».

أعدتها مكانها وجذبت لوحة أخرى. كانت عبارة عن فتاة صغيرة تمسك بتنورتها بشكل أنيق، وقرأت على ظهر اللوحة اسم كيرا 1922Kira.

- هل كل الحجرات هنا تشبه هذه الحجرة؟

- هناك حجرتان بالطابق العلوي تمتلئان بالتماثيل، والموديلات وأشياء أخرى مشابهة بدلًا من اللوحات. لكن بالأساس كل الحجرات الأخرى مماثلة، فهناك ثلاث عشرة حجرة تحتوي على لوحات سيدتي، وهذه الحجرة هي أصغرها.

- أوه، يا إلهي!

نظرت حولي نحو الرفوف الملأى بالغبار والمرصوصة في خطوط أنيقة بعيدًا في الخلفية، ثم إلى اللوحة التي في يدي. نظرت إلى الفتاة الصغيرة بوقار. أتدرون؟ لقد خطر على بالي حينها أن كل لوحة من تلك اللوحات يمتلكها شخص ما، وكل واحدة علقت على جدران منزل أحدهم وراقت لشخص آخر. وجلس شخص حقيقي ليرسمه آخر ويكون موضوع اللوحة، أو هناك من ادخر النقود ليشتريها، أو من رسمها، أو من كان يرغب في توريثها، ثم فكرت فيما قاله دانيس عن التخلص من الجثث على بعد أميال، وتذكرت وجهه المضطرب المجعد فاقشعر جسدي.

أعدت صورة الفتاة الصغيرة بحرص للرف ووضعت الغطاء فوقها.

- هيا بنا كرابوفيسكي لنهبط إلى أسفل، ويمكنك أن تأتي لي بقدح جيد من القهوة.

امتد الصباح حتى وقت الغداء ثم إلى وقت ما بعد الظهيرة. ارتفعت درجة الحرارة وسكن الهواء المحيط بالمخزن. كتبت مقالة عن المخزن من أجل **السجل**، وعقدت لقاءات مع كرابوفيسكي وروجرسون لكتابة مقالة صغيرة عن آمال الجنود الصغار في العودة لمنازلهم وإرسالها إلى مجلة وُمن هوم كومبانيون Woman's Home Companion. خطوت إلى الخارج لأفرد قدمي وأدخن سيجارة. صعدت على غطاء محرك السيارة الجيب العسكرية. شعرت بدفء الغطاء المعدني أسفل سروالي القطني. كادت الطرق تخلو من أي أصوات، فلم يكن هناك إلا أصوات العصافير. رفعت بصري إلى أعلى ونظرت بطرف عيني إلى الشمس بينما كانت هناك امرأة تسير عبر الطريق متجهة نحوي.

كانت تسير بصعوبة كما لو أنها تحتاج إلى بعض الجهد، وتعاني عرجًا في إحدى قدميها بالرغم من أنها لا يمكن أن تكون قد تجاوزت الستين. كانت ترتدي غطاء رأس بالرغم من حرارة الجو، وتحمل لفافة تحت إحدى ذراعيها. حينما رأتني وقفَت وتلفتت حولها. لمحت شريط الذراع الذي نسيت أن أخلعه حينما ألغيت رحلتي إلى المعسكر.

- هل أنت إنجليزية؟

- أمريكية.

أومأت برأسها كما لو أن ذلك مقبول بالنسبة لها.

- هذا مخزن اللوحات، أليس كذلك؟

لم أتفوه بكلمة. لم يبد عليها أنها جاسوسة، لكني لم أكن متأكدة من حجم المعلومات التي يمكن أن أفصح عنها. إنها أوقات غريبة ككل شيء هنا.

جذبت اللفافة من تحت ذراعيها وقالت: «أرجوك خذي هذه».

تراجعت إلى الخلف.

حدقت إليَّ لدقيقة ثم أزاحت الغطاء. كانت عبارة عن لوحة، ومن نظرة خاطفة رأيت أنها لوحة لامرأة.

- أرجوك خذي هذه وضعيها هنا.

- سيدتي، لماذا تريدين وضع لوحتك هنا؟

نظرت خلفها كما لو أنها تشعر بالإحراج لوجودها في هذا المكان.

- أرجوك تأخذينها، إنني لا أريدها في منزلي.

أخذت اللوحة منها. كانت اللوحة لفتاة في مثل عمري ذات شعر أحمر طويل. لم تكن صارخة الجمال وإنما كان بها شيء يجعلك لا تقوى على تحويل عينيك عنها.

- أهذه لوحتك؟

- إنها لوحة زوجي.

رأيت أنه كان ينبغي أن يرتسم على وجهها تلك الرقة التي تعلو وجوه الجدات، الوجوه التي تشي بالراحة والعطف، لكنها حينما نظرت إلى اللوحة ارتسمت على وجهها خطوط التجاعيد الرفيعة التي تعبر عن كم المرارة بداخلها.

- لكنها لوحة جميلة، لماذا تريدين أن تتخلصي من شيء جميل كهذا؟

قالت المرأة: «لا أريدها في منزلي، لكن زوجي فرض عليّ هذا لثلاثين عامًا. كان عليّ أن أتحمل هذا الوجه في منزلي؛ حينما أطهو، وحينما أنظف، وحينما أجلس مع زوجي، كان عليّ أن أنظر إلى وجهها».

قلت لها: «إنها مجرد لوحة، أتغارين من لوحة؟».

بالكاد كانت تسمعني.

- لقد ظلت تسخر مني لما يقرب من ثلاثين عامًا. كنت أنا وزوجي نعيش في سعادة، لكنها دمرته. وكان عليّ أن أتحمل هذا الوجه وهو يطاردني كل يوم من أيام زواجي. لقد توفي زوجي الآن، ولا أريدها أن تحدق إليّ. إنها يجب أن تذهب في النهاية إلى حيث تنتمي.

وبينما كنت أنظر إليها راحت تمسح عينيها بظهر يدها.

بصقت عليها وقالت: «إن لم تريديها، فأحرقيها».

أخذتها منها.

- ماذا عساي أن أفعل؟

عدت لمكتبي الآن، وجاء دانيس، وكان وجهه شديد الشحوب ووعدني بأن أذهب معه في الغد.

قال: «أواثقة من أنك تريدين الذهاب إلى هناك عزيزتي؟ إن المكان ليس جميلًا، ولست واثقًا إن كان المشهد ملائمًا لسيدة».

قلت له مازحة: «منذ متى وأنت تدعوني بسيدة؟».

لم يكن مستعدًّا لأي مزاح. جلس دانيس بتثاقل على طرف السرير ودفن رأسه بين يديه. وبينما كنت أنظر إليه اهتزت كتفاه. وقفت في مكاني لا أدري ماذا أفعل. وفي النهاية جذبت سيجارة من علبتي وأشعلتها وناولتها له. أخذها ورفع راحته كتعبير عن الشكر ثم مسح عينيه ولا يزال يخفض رأسه.

شعرت ببعض التوتر، لكن صدقوني، أنا في العادة لا ينتابني هذا التوتر.

- أشكرك لما قمت به هذا اليوم. هذا كل شيء... فالأولاد يقولون إنك أديت عملًا رائعًا.

لا أدري لماذا لم أخبره بشأن اللوحة. كان ينبغي أن أفعل، لكنها لا تنتمي لهذا المخزن الملعون في النهاية. ليس لها علاقة بذلك المخزن الملعون، وهذه المرأة الألمانية العجوز لن تهتم بما سيحدث لها ما دام أنها لن تنظر إليها بعد الآن.

أتدرون لماذا لم أخبره؟ لقد راقت لي فكرة أن يكون لديك لوحة بهذا التأثير الذي يمكّنها من زعزعة أركان علاقة زواج كاملة. وعلى الرغم من أنها ليست شديدة الجمال، فإنني لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر إليها. وبالنظر إلى كل شيء يدور حولي هنا، كان من اللطيف أن أحصل على شيء جميل أنظر إليه.

خيم على القاعة صمت مطبق بينما كانت ماريان أندرو تغلق المذكرات التي أمامها. صبت ليف كامل تركيزها على ما تسمعه لدرجة أنها كانت على وشك الإغماء. اختلست نظرة جانبها إلى المقعد بجوارها ورأت بول واضعًا مرفقيه على ركبتيه ويمد رأسه للأمام، وبجانبه جاني جيكنسون منهمكة بشدة في التدوين في مفكرتها.

حقيبة يد!

هبت أنجيلا سيلفر واقفة على قدميها وقالت: «دعونا نسأل بشكل مباشر سيدة أندرو، اللوحة التي تعرف بالفتاة التي تركتها لم تكن داخل المخزن، ولم تدخل هناك مطلقًا حينما أعطتها السيدة لأمك؟».

- نعم سيدتي.

- وإذ نعيد التأكيد، بينما كان المخزن يمتلئ بالأعمال الفنية المنهوبة، والأعمال الفنية المسروقة، هذه اللوحة بالذات مُنحت إلى أمك، ولكن ليس من داخل المخزن.

- نعم سيدتي كما أوضحت مذكراتها.

- سيدي القاضي، هذه المذكرات -التي في حوزة لوان بيكر- تثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه اللوحة لم تكن في مخزن كولكشن بوينت، لقد أهدتها اللوحة امرأة لم تكن ترغب في اقتنائها. أهدتها، لأي سبب كان؛ ربما كان بدافع الغيرة الجنسية الغريبة، أم الضغائن التاريخية، لن نعرف. ومع هذا فالنقطة الواضحة هنا أن هذه اللوحة التي كانت مشوهة تقريبًا -كما سمعنا- هي هدية.

- سيدي القاضي، لقد كان واضحًا خلال الأسبوعين الماضيين أن أصل اللوحة غير مكتمل شأنها شأن كثير من اللوحات التي وجدت في القسم الأعظم من هذا القرن الذي سادت فيه الكثير من الاضطرابات. ومع ذلك فما يمكن إثباته الآن بما لا يدع مجالًا للشك أن ديفيد هالستون اشترى اللوحة لزوجته على نحو شرعي عام 1997، وهي لديها الإيصال لإثبات هذا. أما لوان بيكر -التي اقتنتها قبله- فقد مُنحت اللوحة في عام 1945، وقد سمعنا كلماتها المكتوبة، وهي كلمات امرأة معروف عنها الأمانة والدقة لتثبت لنا أصل اللوحة. ولهذا السبب، نحن نؤكد أن لوحة الفتاة التي تركتها يجب أن تظل مع مالكتها الحالية.

جلست أنجيلا سيلفر، رفع بول عينيه نحوها. وفي تلك اللحظة التي تلاقت فيها أعينهما، كانت واثقة أنها لمحت شبح ابتسامة على وجهه.

رفعت الجلسة من أجل الغداء. وقفت ماريان على الدرجات الخلفية تدخن سيجارة وتحمل حقيبة يدها الزرقاء على مرفقها وهي تتطلع نحو الشارع

الكئيب. قالت حينما رأت ليف تقترب وكأنهما يحيكان مؤامرة: «ألم يكن ذلك رائعًا؟».

- كنت لامعة.

- عليَّ أن أعترف بأنني استمتعت بذلك جدًّا. سيقرون بأن كل ما قالوه عن أمي كان خطأ. أنا أعرف جيدًا أنها لن تأخذ شيئًا ليس ملكها.

أومأت برأسها ونفضت رماد السيجارة.

- أتعلمين أنهم يطلقون عليها السيدة بيكر الجريئة!

اتكأت ليف على سور الدرج، وجذبت ياقة ملابسها للأمام اتقاء للبرد. دخنت ماريان باقي السيجارة وأخذت أنفاسًا طويلة شرهة.

قالت ليف أخيرًا وهي تنظر إليها مباشرة: «لقد كان هو؟ أليس كذلك؟».

أدارت ماريان وجهها ولوت قسمات وجهها وهي تقول: «أوه عزيزتي، لقد وعدت أنني لن أتفوه بكلمة. لقد وبخت نفسي هذا الصباح. لكن بالقطع كان هو. إنه متيم بك».

وقف كريستوفر جينكز وقال: «سيدة أندرو، سؤال بسيط: هل سألت أمك هذه السيدة العجوز الكريمة بدرجة مدهشة عن اسمها؟».

طرفت ماريان أندرو عينها وقالت: «ليست لديَّ فكرة».

لم تستطع ليف أن ترفع عينيها من على بول. سألته في صمت: «**هل فعلت ذلك من أجلي؟**». والغريب أنه لم يعد ينظر إليها. جلس بجانب جاني ديكنسون وبدا عليه عدم الارتياح، وراح يتفقد ساعته، وينظر ناحية الباب. لا تستطيع أن تفكر فيما ستقوله له.

- من الغريب قبول هدية دون أن تعرف من الذي يمنحها إليك.

- حسنًا، إنها هدية غريبة، وأوقات غريبة، أعتقد أنه كان يجب أن تكون هناك.

سرت بعض همهمات الضحك في القاعة. اهتزت ماريان قليلًا، واكتشفت ليف طموحات تمثيل مسرحي لم تكتمل.

- حقًّا، هل قرأت كل مذكرات والدتك؟

قالت: «أوه، يا إلهي، لا. إنها أشياء حدثت في ثلاثين عامًا. لقد وجدناها -وجدتها- البارحة فقط». نقلت عينيها سريعًا نحو المقعد واستطردت قائلة:

«لكننا وجدنا أهم جزء، الجزء الذي مُنحت فيه أمي اللوحة، لذا أحضرتها إلى هنا». شددت على كلمة «مُنحت» وهي تنظر جانبًا نحو ليف وأومأت لنفسها وهي تقولها.

- إذًا فأنت لم تقرئي مذكرات لوان بيكر 1948؟

سادت فترة صمت قصيرة. انتبهت ليف لهنري وهو يمد يده نحو ملفاته. مد جينكز يده وأعطاه المحامي ورقة.

- سيدي القاضي، هل لي أن أطلب منكم الانتقال إلى الفقرة المدونة بتاريخ 11 مايو 1948 بعنوان الانتقال إلى منزل جديد؟

أخيرًا انتبهت ليف ثانية إلى القضية ومالت نحو هنري الذي كان يلقي نظرة على الصفحات وقالت: «ماذا يفعلون؟».

همس قائلًا: «إنني أبحث عنه».

- في هذه المذكرات تتناول لوان بيكر انتقالها من منزلها في نيويورك Newark في مقاطعة إسكس Essex County إلى حي نهر سادل Saddle River.

قالت ماريان: «هذا صحيح، لقد نشأت في حي نهر سادل».

- نعم، وسترون هنا أنها تتناول الانتقال إلى المنزل الجديد ببعض التفاصيل، فهي تتحدث عن محاولتها العثور على قدور الطهو، وكابوس الصناديق المفتوحة التي تحيط بها من كل مكان. جميعنا يعرف مثل هذه الأشياء، لكن ما هو وثيق الصلة بالموضوع أنها تتجول حول المنزل تحاول...

ثم توقف عن الكلام كما لو أنه يتأكد من أنه يقرأ الكلام حرفيًا.

وأكمل: «تحاول أن تجد الموقع المناسب لتعلق لوحة ليسل».

ليسل.

راقبت ليف الصحفيين وهم يبحثون خلال المذكرات، لكنها أدركت -وقد خالجها الشعور بالانزعاج- أنها تعرف ذلك الاسم.

قال هنري: «هراء».

إن جينكز يعرف الاسم. إن فريق شون فلاهرتي يتقدم عليهم، فلا بد وأنهم قرؤوا المذكرات خلال وقت الغداء.

- أود الآن أن ألفت انتباه سيادتكم إلى السجلات التي حفظها الجيش الألماني خلال الحرب العالمية الأولى. فالقائد الذي أقام في بلدة سان بيرون في الفترة من 1917، الرجل الذي جلب قواته إلى فندق الديك الأحمر، كان رجلًا يدعى فريدريك هنكن.

ثم توقف لكي يستوعب من في القاعة تلك الحقائق.

- تقول السجلات إن القائد الذي أقام هناك في ذلك الوقت، القائد الذي أعجبته لوحة زوجة إدوارد ليفيفر كان هو فريدريك هنكن.

والآن أود أن أعرض على المحكمة سجلات التعداد عام 1945 للمنطقة المحيطة ببيرتشسجادن. لقد استقر القائد السابق فريدريك هنكن وزوجته ليسل هناك بعد تقاعده، وكان يبعد عن مخزن كولكشن بوينت بشوارع قليلة، وقد ذكرت السجلات أيضًا أنها كانت تعاني عرجًا بسيطًا بسبب إصابتها بشلل الأطفال في طفولتها.

وقفت محامية المرافعات وقالت: «كل هذه مجرد استدلالات ظرفية».

- السيد والسيدة فريدريك هنكن. سيدي القاضي حجتنا أن القائد فريدريك هنكن أخذ اللوحة من الفندق عام 1917، ونقلها إلى منزله ومن الواضح أنه كان ضد رغبة زوجته التي من المنطقي أنها اعترضت على وجود صورة لامرأة أخرى. وظلت هناك حتى وفاته ومن ثم حرصت السيدة هنكن بعدها على التخلص منها فأخذتها إلى مكان يبعد عنها مسافة شوارع قليلة وكانت تعلم أنه يحوي ملايين من الأعمال الفنية، مكان سيبتلعها ولن تراها ثانية.

جلست أنجيلا سيلفر.

استطرد جينكز، وقد اكتسب بعض النشاط الآن:

- سيدة أندرو، دعينا نعود لمذكرات أمك في هذا الوقت. هل يمكن أن تقرئي على مسامعنا الفقرات التالية، وهي -للتسجيل- من نفس مقدمة المذكرات؟ فمن خلال المذكرات، عثرت لوان بيكر على ما اعتقدت أنه أفضل موقع للفتاة كما تطلق على اللوحة.

«بمجرد أن وضعتها في الردهة الأمامية بدا عليها الراحة. لم تكن موضوعة في ضوء الشمس المباشر، إنما عند النافذة التي تواجه ناحية الجنوب حيث الضوء الدافئ الذي جعل ألوانها تتلألأ. على أي حال، فقد بدت سعيدة».

قرأت ماريان ببطء، فقد كانت كلمات أمها غير مألوفة بالنسبة لها. نظرت نحو ليف وعيناها تحمل نظرة اعتذار كما لو أنها استطاعت بالفعل أن تعرف ما الذي سيقود إليه كل هذا.

«لقد طرقت المسامير بنفسي -عادة ما يضع هوارد قطعة كبيرة من اللاصق بحجم قبضة اليد- وحينما كنت أشرع في تعليقها، دفعني شيء إلى أن أدير اللوحة وأنظر إلى ظهرها. جعلني هذا أفكر في تلك المرأة المسكينة ووجهها العجوز الذي اكتسى بالحزن والمرارة، وتذكرت شيئًا كنت نسيته منذ الحرب.

كنت أفترض دومًا أنها شيء من العدم. ولكن بينما كانت ليسل تسلمني اللوحة، انتزعتها مني ثانية كما لو أنها غيرت رأيها. ثم راحت تفرك شيئًا في ظهر اللوحة كما لو أنها أرادت أن تمحو شيئًا، ظلت تفرك هذا الشيء كامرأة مجنونة. فركت ظهر اللوحة بشدة حتى هُيئ لي أنها قد جرحت أصابعها».

ما زالت المحكمة تستمع.

«إنني أنظر إلى ظهر اللوحة الآن كما نظرت إليها حينها، وهو الشيء الذي جعلني أتساءل هل كانت هذه المرأة في كامل عقلها حينما سلمتني إياها؟ لأنه لا يهم كم تطيل النظر إلى ظهر اللوحة -بعيدًا عن عنوانها- فلم يكن هناك شيء بالفعل، لم يكن هناك سوى بقع من الطبشور».

«هل من الخطأ أن تأخذ شيئًا من شخص ليس في كامل قواه العقلية؟ ما زلت أحاول فهم ذلك. وللحق فقد بدا وقتها أن العالم مصاب بالجنون الشديد - بكل ما يحدث داخل المعتقلات، ومن نحيب رجال كبار، ومسؤوليتي عن مقتنيات أشخاص آخرين تقدر بمليارات الدولارات- مما جعل العجوز ليسل ومفاصلها النازفة وهي تزيل شيئًا لا وجود له، شيء طبيعي للغاية وسط كل هذا».

- سيدي القاضي، نحن نشير إلى أن هذا -بجانب إخفاق ليسل في منح اسمها الأخير- دليل واضح على أن هناك شخصًا يحاول أن يخفي أو يدمر أي علامة تكشف عن أصل اللوحة، وبالقطع لقد نجح في هذا.

وحينما توقف عن الحديث، عبر واحد من فريقه قاعة المحكمة وسلمه قصاصة من الورق. قرأها وأخذ نفسًا عميقًا، ثم ألقى نظرة على القاعة.

- تقول سجلات التعداد التي حصلنا عليها للتو إن صوفي ليفيفر أصيبت بالأنفلونزا الإسبانية بعد وصولها إلى معسكرات ستروهن، وقد ماتت هناك بعدها بفترة قصيرة.

سمعت ليف كلماته وسط أصوات طنين في أذنيها، وظلت تتردد بداخلها مثل الصدمة التي يشعر بها المرء بعد لكمة شديدة.

- سيدي القاضي كما سمعنا هنا في المحكمة، لقد تعرضت صوفي لظلم شديد كما تعرض أحفادها أيضًا لظلم شديد. لقد انتزعوا منها زوجها، وكرامتها، وحريتها وفي النهاية انتزعوا حياتها. وقد سلبوا ما تبقى منها، وهي صورتها التي أخذها منها، وفقًا لكل الدلائل، الرجل ذاته الذي أساء إليها أكبر إساءة.

- لكن هناك طريقة واحدة لإصلاح هذا الخطأ -الذي تأخر- وهي إعادة اللوحة لعائلة ليفيفر.

بالكاد استوعبت باقي كلماته. جلس بول وقد وضع يده على جبهته. نظرت باتجاه جاني ديكنسون وحينما التقت عينا المرأة بعينيها، أدركت ببعض الصدمة أن هذه القضية بالنسبة لبعض المشاركين أيضًا لم تعد فقط مجرد قضية تتعلق بلوحة.

حتى هنري كان حزينًا حينما غادروا المحكمة، وشعرت ليف وكأن قوة ماحقة قد دهستهم جميعًا.

ماتت صوفي في المعسكرات، مريضة ووحيدة، ولم تر زوجها ثانية.

نظرت نحو آل ليفيفر الذين كانوا يبتسمون وهم يسيرون عبر المحكمة. أرادت أن تشعر وكأن هناك خطأ جسيمًا على وشك أن يُصلَّح، لكنها تذكرت كلمات بيسيت، وحقيقة أن العائلة منعت حتى ذكر اسمها. شعرت وكأنهم على وشك أن يسلموا صوفي -للمرة الثانية- إلى الأعداء. والغريب أنها شعرت وكأنها فقدت عزيزًا.

قالت وهي تحاول أن تبتسم له: «أشكرك هنري، سأحادثك».

انتابها شعور غريب بالخارج، في ضوء الشمس الخفيف كما لو أنهم قضوا فترة امتدت لما بعد الظهيرة داخل حدود المحكمة، لقد شعرت وكأنها قدمت مباشرة من عام 1945. لوح هنري إلى سيارة أجرة من أجلها ثم غادر وحياها مودعًا. رأته حينها يقف عند بوابة الأمن وبدا وكأنه ينتظرها ثم سار نحوها مباشرة.

قال وقد تجهم وجهه: «أنا آسف».

- بول، لا.

- إنني أعتقد أني آسف على كل شيء.

التقت أعينهما للمرة الأخيرة، ثم سار مبتعدًا غافلًا عن الزبائن الذين يجلسون في حانة سفن ستارز، والمساعدين القانونين الذي يجرون عربات الملفات. لمحت انحناءة كتفيه، ورأسه المُنكّس على غير عادته ولكن ذلك -فضلًا عن أي شيء آخر حدث اليوم- قد حسم شيئًا بالنسبة لها.

اضطرت إلى أن تصيح مرتين لكي يسمعها من خلال أصوات المرور: «بول، بول».

استدار نحوها. استطاعت أن ترى حدقة عينه من على مسافة.

وقف ساكنًا في مكانه لدقيقة، رجل طويل، منهار بعض الشيء، في حلة أنيقة.

- أشكرك على المحاولة.

قد تكون الحياة أحيانًا عبارة عن سلسلة من العواقب ولكن علينا أن نستمر فيها رغم صعوباتها، وقد أدركت فجأة أنها تكون مسألة إيمان أعمى.

ازدردت ريقها وقالت: «هل تود أن نذهب لتناول مشروب في أي وقت، حتى ولو الآن؟».

نظر إلى حذائه -يفكر قليلًا- ثم نظر إليها ثانية.

- هل يمكن أن تمنحيني دقيقة واحدة؟

اتجه عائدًا وصعد سلالم المحكمة، ورأت جاني ديكنسون منهمكة في حوار مع المحامية التي تعمل لديها. لمس بول مرفقها، وتبادلا بعض الكلمات.

شعرت ببعض التوتر؛ وبداخلها صوت يهمس في إزعاج: «*ماذا يقول لها* بحق *الجحيم*؟». ثم استدارت وصعدت إلى السيارة محاولة أن تسكته. حينما نظرت ثانية من خلال النافذة، رأته يسير عائدًا نحوها سريعًا وهو يضع وشاحًا حول رقبته. حدقت جاني ديكنسون بشدة في السيارة الأجرة وقد أرخت ذراعيها على الملفات.

فتح الباب وصعد إلى داخل السيارة وأغلق الباب وقال: «لقد استقلت».

ثم تنهد ومد يده نحو يدها: «حسنًا، إلى أين سنذهب؟».

32

لم يفصح وجه جريج عن أي شيء وهو يفتح الباب وقال كما لو أن ظهورها على عتبة الباب شيء متوقع: «مرحبًا سيدة ليف». وتراجع نحو الردهة بينما كان بول يخلع المعطف من فوق كتفيها ويبعد عنها الكلاب التي أسرعت لتحيتها.

- لقد أفسدت وجبة الأرز لكن جيك قال إنه لا يهم فإنه لا يحب الفطر على أي حال. ففكرنا أنه يمكن أن نتناول البيتزا.

قال بول: «البيتزا فكرة عظيمة وستكون على حسابي. علينا أن نتحملها لبعض الوقت».

كانت قد تشابكت أيديهما وسط الصمت والدهشة في منتصف شارع فليت.

ثم قالت أخيرًا: «لقد تسببت في فقدك لوظيفتك، والعمولة الكبيرة، وفرصتك في أن تشتري شقة أكبر لابنك».

نظر أمامه مباشرة وقال: «لم تتسببي في فقدي لأي شيء. لقد تركتها ونهبت».

رفع جريج حاجبه وقال: «هناك زجاجة نبيذ مفتوحة في المطبخ منذ الرابعة والنصف، وهذا ليس له علاقة برعاية ابن أخي طيلة اليوم. أليس كذلك جيك؟».

جاء صوت الصبي من الغرفة الأخرى وهو يقول: «يقول جريج دومًا إنها ساعة تناول النبيذ في هذا المنزل».

رد عليه جريج قائلًا: «إنها وشاية». ثم التفت قائلًا لليف: «أوه، لا، لن أدعك تشربين. انظري ماذا حدث المرة الأخيرة التي فعلت فيها ذلك في صحبتنا، لقد جعلت من أخي الأكبر مراهقًا حزينًا يفعل أشياء مجنونة».

قال بول وهو يقودها إلى المطبخ: «وهنا أذكرك أن فعل الأشياء المجنونة تجلب الكثير في هذه البلاد».

- ليف من الأفضل أن تتأقلمي على المكان لدقيقة، ففكرة بول عن الديكورات الداخلية للمنازل هي بالأساس أن الأشياء الكثيرة لا تكفي، فإنه لا يضع الأشياء باعتدال.

- أنا أضع طابع شخصيتي على منزلي الصغير، ونعم هو ليس بورقة بيضاء.

قالت ليف وهي تنظر إلى الجدران الملونة والطباعة الجريئة والصور الصغيرة التي تحيط بها. وللغرابة أنها شعرت بالراحة في ذلك المنزل الصغير الذي يشبه كوخ عامل السكة الحديد مع تلك الموسيقى المدوية والأشياء المفضلة التي لا حصر لها في كل رف والمكدسة على كل مساحة خاوية من الجدران، وذلك الطفل المستلقي على السجادة أمام التلفزيون.

قال بول وهو يدخل غرفة المعيشة بينما كان الصغير مستلقيًا على ظهره كالجرو الصغير.

نظر إليها، وقاومت رغبة لكي تترك يد بول حينما رأى أن الصغير قد لاحظ ذلك.

قال بعد دقيقة: «هل أنت الفتاة التي رأيناها هذا الصباح؟».

- أتمنى هذا إلا إن كانت هناك فتاة أخرى.

قال جيك: «لا أعتقد ذلك، اعتقدت أنهم كانوا سيسحقونك».

- نعم، اعتقدتُ ذلك أيضًا.

تفرسها لدقيقة ثم قال: «لقد وضع أبي عطر المرة الأخيرة التي رآك فيها».

قال بول وانحنى ليقبله: «عطر ما بعد الحلاقة. إنها وشاية».

حدثت نفسها قائلة: «إذًا هذا هو بول الصغير، وكانت الفكرة سارة بالنسبة لها».

- هذه ليف، وهذا جيك.

رفعت يدها للتحية وقالت: «إنني لا أعرف الكثير من الأشخاص ممن هم في مثل عمرك، لذا فقد أتفوه بأشياء قد لا تكون جذابة، ولكن من اللطيف أن ألتقيك».

- لا بأس، فقد اعتدت ذلك.

ظهر جريج وقدم لها كأسًا من النبيذ. وتنقلت عيناه بينهما وقال: «ماذا يعني هذا؟ هل هناك اتفاق ودي بين الفصائل المتحاربة؟ هل هناك تعاون سري؟».

طرفت ليف بعينها بسبب اختياره للكلمات، ثم التفتت لتنظر إلى بول.

قال بهدوء ويده تضغط على يدها: «أنا لا أهتم بأمر الوظيفة، كل ما أعرفه أنني حينما لا أكون معك أكون سيئًا وغاضبًا من كل شيء».

قالت وقد وجدت نفسها تبتسم: «لا، كل ما في الأمر أنه أدرك أنه كان على الجانب الخطأ طوال الوقت».

حينما وصل أندي -صديق جريج- إلى شارع إلوين كان الخمسة محشورين داخل المنزل الصغير، لكن لم يشعروا بأنه مكتظ بهم. جلست ليف حول برج من شرائح البيتزا وهي تفكر في منزلها الزجاجي البارد أعلى المخزن وفجأة بدا مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بقضية المحكمة، وبتعاستها لدرجة أنها شعرت أنها لا تريد العودة للمنزل.

لم ترغب في أن تنظر إلى وجه صوفي وهي تعلم ما سيحدث. جلست وسط أولئك الأشخاص شبه الغرباء بالنسبة لها تمارس الألعاب وتضحك على نوادرهم العائلية، وأدركت أن شعورها المستمر بالدهشة يأتي من اكتشافها أنها سعيدة رغم كل شيء؛ سعيدة لدرجة أنها لا تذكر أنها شعرت بهذا منذ سنوات.

وها هو بول، بول الذي بدا عليه الضعف الجسدي بسبب أحداث اليوم كما لو أنه هو -وليست هي- من فقد كل شيء. حينما كان يلتفت لينظر إليها كان هناك شيء يعيد ترتيب نفسه، كما لو أن جسدها يؤقلم نفسه على احتمالية الشعور بالسعادة ثانية.

وكأن نظراته تسألها هل *أنت بخير*؟

ونظراتها تجيب بنعم. وكانت تعني ذلك.

قال جريج وهم يجلسون حول المائدة: «إذًا ماذا حدث يوم الاثنين؟».

كان يريهم عينات من القماش من أجل تصميم جديد للألوان في الحانة. كانت الفتات والأكواب نصف المملوءة بالنبيذ تتناثر على المائدة. «هل ينبغي أن تسلمي اللوحة؟ وهل من المؤكد أنك ستخسرين؟».

قالت ليف وهي تنظر إلى بول: «أعتقد هذا... إنني فقط يجب أن أتجاوز فكرة... التخلي عنها». شعرت فجأة بغصة في حلقها وابتسمت وهي ترغب في التخلص منها.

وضع جريج يده على يدها وقال: «أنا آسف عزيزتي، لم أرغب في أن أسبب لك الضيق».

هزت كتفيها في لا مبالاة وقالت: «إنني بخير، حقًّا. إنها لم تعد ملكي على أي حال. كان عليَّ أن أفهم ذلك منذ زمن طويل. أعتقد أنني... لم أكن أرغب في رؤية ما هو واضح أمامي».

قال جريج: «ما زال لديك منزلك على الأقل، لقد أخبرني بول أنه رائع».

لمح نظرة بول المحذرة وأردف: «ماذا؟ أليس من المفترض أن تعرف أنك تتحدث عنها؟ ماذا نحن؟ طلاب الصف الخامس؟».

ظهر على وجه بول بعض الخجل.

- ماذا؟

- إنه معروض للبيع.

ظل بول هادئًا.

- كان عليَّ أن أبيعه لأوفر الأتعاب القانونية.

- وسيتبقى لديك مبلغ كاف لشراء منزل في مكان آخر، أليس كذلك؟

- لا أعرف بعد.

- لكن هذا المنزل...

- مرهون إلى أقصى حد، ومن الواضح أنه بحاجة إلى بعض الأعمال. أنا لم أفعل شيئًا به منذ أن توفي ديفيد. ويبدو أن الزجاج المستورد الرائع ذا الخصائص الحرارية لا يدوم لفترة طويلة حتى وإن اعتقد ديفيد أنه سيدوم.

ضغط بول على فكيه، ودفع بكرسيه للوراء وغادر المائدة.

نظرت ليف نحو جريج وأندي ثم إلى الباب.

قال جريج وهو يرفع حاجبه: «ربما ذهب إلى الحديقة، إنها بحجم منديل الجيب. لن تفقديه».

ثم وقف وهو يغمغم: «من اللطيف جدًّا أنك تستمرين في تحطيم أخي الأكبر. كنت أتمنى أن أحظى بمهارتك تلك وأنا في الرابعة عشرة».

كان يقف في الفناء الصغير المزدحم بالأواني الفخارية الملأى بالنباتات التي نمت في الصقيع الشتوي. أشاح بوجهه بعيدًا عنها، وقد دس يده في جيبه، وبدا مهزومًا.

- إذًا فقد خسرت كل شيء بسببي.

- مثلما قلت من قبل، إن لم تكن أنت فسيكون هناك آخر غيرك.

- فيما كنت أفكر حينها؟ فيما كنت أفكر بحق الجحيم.

- إنك كنت تؤدي عملك فقط.

رفع يده نحو فكه وقال: «أتعلمين؟ لا ينبغي لك أن تخففي عني».

- إنني حقًّا بخير.

- كيف لك هذا؟ لو كنت مكانك لن أكون بخير، سأكون غاضبًا ك... يا إلهي.

غلبت على صوته رنة الإحباط الشديد.

انتظرت ثم أمسكت بيده ودفعته نحو الطاولة الصغيرة. شعرت ببرودة المقاعد الحديدية حتى من خلال ملابسها ثم جذبت مقعدها إلى الأمام وأسندت ركبتيها إلى ركبتيه، وانتظرت حتى تأكدت أنه ينصت إليها.

- بول.

كان وجهه متجهمًا.

- بول انظر إليَّ. إنك بحاجة إلى أن تفهم هذا. إن أسوأ الأشياء التي يمكن أن تحدث لي قد حدثت بالفعل.

نظر إليها.

ابتلعت ريقها وتعلم أنها الكلمات التي تماطل في التفوه بها وترفض أن تخرج منها.

- منذ أربع سنوات ذهبت إلى الفراش أنا وديفيد مثل كل يوم، وقد نظفنا أسناننا، وقرأنا الكتب، وتحدثنا عن المطعم الذي سنذهب إليه في اليوم التالي... وحينما استيقظت في الصباح كان بجواري باردًا، بشرته زرقاء. لم أشعر بأنه ذهب... لم أقوَ حتى على قول...

سادت فترة قصيرة من الصمت.

- هل تتخيل أنك تعرف أنك تنام بجوار الشخص الذي تحبه وهو يحتضر بجانبك؟ وأنت تعلم أنه كان بإمكانك أن تفعل شيئًا لتنقذه؟ ولا تدري إن كان قد نظر إليك في صمت يتوسل إليك أن...

خانتها الكلمات، وتقطعت أنفاسها، وكانت على وشك أن تجتاحها موجة من المشاعر التي تألفها. مد يده ببطء واحتضن يدها حتى تستطيع أن تكمل حديثها.

- اعتقدت أن العالم قد انتهى بالفعل، وأنه لن يحدث لي شيء جيد بعد الآن، وظننت أن أي شيء يمكن أن يحدث لي إن لم أكن منتبهة. لم آكل، ولم أخرج، ولم أرغب في رؤية أي شخص، لكني تجاوزت ذلك بول. ولدهشتي تجاوزته، وأصبحت الحياة... حسنًا، أصبحت الحياة شيئًا فشيئًا محتملة مرة أخرى.

مالت نحوه أكثر.

- وقد اكتشفت حينما سمعت ما حدث لصوفي أن اللوحة والمنزل مجرد أشياء. بصراحة يمكنهم انتزاع كل شيء. كل ما يهم هو الأشخاص.

نظرت نحو يده وقد اختنق صوتها وهي تقول: «كل ما يهم هو من تحب».

لم يتحدث لكنه أخفض رأسه ليستند إلى رأسها. جلسا في الحديقة الممطرة يتنفسان الهواء المليء ببعض الدخان، ويستمعان إلى أصوات ضحكات ابنه المكتومة التي تأتي من داخل المنزل، وترامت إلى مسامعها عبر الطريق أصوات المساء المبكر في المدينة، وقعقعة المقالي في المطابخ البعيدة وأصوات بث التلفزيونات، وباب سيارة يغلق، ونباح كلب ينم عن غضب مستتر. الحياة بكامل فوضويتها وحيويتها.

قال بهدوء: «سأعوضك عن كل هذا».

- لقد عوضتني بالفعل.
- لا، سأفعل.

سالت العبرات على وجنتيها ولم تدر من أين جاءت، وفجأة امتلأت عيناه بنظرات هادئة، وأخذ وجهها بين راحتيه وقبّلها، وجفف دموعها بفمه، كانت شفتاه ناعمتين على بشرتها تَعِد بما هو قادم. ظل يقبلها حتى ابتسمت وقد شعرت بخدر في قدميها.

قالت وهي تبتعد عنه على مضض: «يجب أن أذهب الآن، فالمشترون سيأتون غدًا».

وقف المنزل الزجاجي خاويًا عبر المدينة، ولم تكن تروق لها فكرة العودة له، وشبه توقعت منه أن يحتج.

- هل تريد أن تأتي معي؟ ويمكن أن ينام جيك في الغرفة الإضافية، وأفتح وأغلق السقف له، ويمكن أن يكسبني ذلك بعض النقاط لديه.

نظر بعيدًا ثم قال بصراحة: «لا أستطيع». ثم استكمل: «أعني أود ذلك، لكنه...».

- هل سأراك خلال عطلة نهاية الأسبوع؟
- سيكون جيك معي... لكن بالطبع سأراك... سنرتب موعدًا.

بدا مشتتًا لدرجة غريبة، ولمحت علامات القلق التي اكتسى بها وجهه. وراحت تحدث نفسها بشكل عابر قائلة: «هل حقًا سنتسامح فيما تسبب فيه كل منا للآخر من خسارة؟». وسرت قشعريرة في جسدها لكنها لم تكن بسبب برودة الطقس.

قال: «سأصحبك إلى المنزل». وانتهى الحوار.

كان المنزل هادئًا حينما دخلت. أغلقت الباب ووضعت المفاتيح جانبًا واتجهت نحو المطبخ، ووقع خطواتها يتردد على أرضيات الحجر الجيري، ولم تصدق أنها غابت عن المنزل منذ الصباح فقط؛ فقد شعرت أنه قد مر عمر كامل.

ضغطت زر آلة الرد الآلي بالهاتف. كانت هناك رسالة من الوكيل العقاري ملأى بالاعتداد بالذات وهو يعلن أن المشترين سيرسلون المهندس المعماري

الخاص بهم في اليوم التالي، وتمنى أن تكون بخير. ثم رسالة من صحفي في مجلة فنية غامضة يطلب لقاءً بخصوص قضية ليفيفر.

ومدير البنك. ومن المطمئن أنه كان غافلًا عن الضجة الإعلامية. وقال في رسالته إن كان من الممكن أن تهاتفه في أقرب وقت ممكن لمناقشة حالة السحب على المكشوف، وأضاف بشكل واضح أنها محاولته الثالثة للتحدث إليها.

وكانت هناك رسالة أخرى من والدها يرسل فيها قبلاته الضخمة، وتقول كارولين: «*اللعنة على الكثير منهم*».

استطاعت ليف أن تميز أصوات جيتار عالية تصدر من الشقة التي تقع بالأسفل، وصوت الباب الأمامي وهو يصفق، وأصوات الضحك المعتادة في ليلة جمعة عادية. إنها مجرد تذكرة بأن العالم لا يبالي؛ وأن هناك حياة خلف حياتها هي المتوقفة على نحو غريب.

امتدت فترة المساء. أدارت التلفزيون، لكن لم يكن هناك شيء ترغب في مشاهدته فأخذت حمامًا بدلًا من ذلك وغسلت شعرها، وجهزت ملابسها لليوم التالي وتناولت بعض المقرمشات والجبن.

لكن مشاعرها لم تهدأ؛ كانت تتخبط كحوامل علّاقات المعاطف الفارغة. كانت متعبة، لكنها راحت تذرع المنزل جيئة وذهابًا ولا تقوى على الجلوس. ظلت تسترجع مذاق قبلات بول على شفتيها، وكلماته في أذنيها، وفكرت لوهلة في الاتصال به، ولكن حينما جذبت هاتفها توقفت أصابعها على الأزرار. ماذا ستقول له بعد كل هذا؟ *أردت فقط أن أسمع صوتك؟*

سارت متجهة إلى الغرفة الإضافية التي كانت نظيفة وخاوية كما لو أنها لم تطأها قدم أحد. تجولت حولها وراحت تلمس بخفة الأجزاء العليا من المقاعد، وخزانة الملابس وهي تمر. لم تعد تشعر بالراحة حيال الصمت والفراغ، وتخيلت مو وهي تتكور بجانب رانيك في المنزل المزدحم المملوء بالضجة الذي يشبه المنزل الذي غادرته لتوها.

وفي النهاية، أعدت لنفسها قدحًا من الشاي وسارت حتى غرفة نومها. جلست في منتصف الفراش واتكأت للوراء على الوسادة وتفرست صوفي في إطارها الذهبي.

لقد راقت لي سرًّا فكرة أن يكون لديك لوحة بهذا التأثير الذي يمكّنها من زعزعة أركان علاقة زواج كاملة.

حسنًا صوفي، لقد زعزعت أركان ما هو أكبر من هذا. وراحت تتطلع إلى اللوحة التي عشقتها لمدة عام وفي النهاية أطلقت العنان لنفسها لتتذكر اليوم الذي اشترتها فيه هي وديفيد، وكيف حملاها في أشعة الشمس الإسبانية وكيف ارتدّت ألوانها في الأشعة البيضاء عاكسة مستقبلهما معًا. تذكرت اليوم الذي علقا فيه اللوحة في الحجرة بعد عودتهما؛ والطريقة التي نظرت بها إلى الفتاة وهي تتساءل ما الذي رآه ديفيد في نفسها جعله يعكس الصورة والمشاعر بصورة أجمل مما رآه.

تبدين *مثلها حينما...*

تذكرت يومًا من أيام الأسابيع الأولى بعد وفاته حينما رفعت رأسها بتثاقل عن الوسادة المبللة وبدت صوفي تنظر إليها مباشرة. كانت تعبيراتها تقول إن هذا محتمل، قد لا تدركينه الآن، لكنك ستبقين على قيد الحياة.

ما عدا صوفي، لم تبق على قيد الحياة.

قاومت ليف تلك الغصة المفاجئة التي شعرت بها في حلقها وقالت وسط الحجرة الصامتة: «أنا آسفة لما حدث لك، كنت أتمنى أن تسير الأمور على نحو مختلف».

وفجأة وبينما كان الحزن يجتاحها. نهضت وسارت نحو اللوحة وأدارتها على الناحية الأخرى حتى لا تراها. ربما كان شيئًا جيدًا أنها ستغادر هذا المنزل؛ فالمساحة الخاوية مكانها على الجدران ستذكرها دومًا بإخفاقها. وبدا الأمر وكأنه يشبه بشكل رمزي الطريقة التي طُردت بها صوفي.

وفي اللحظة التي كادت ترفع فيها يدها عنها توقفت. فالمكتب أصبح غير مرتب وفوضويًا خلال الأسابيع الماضية، وكانت هناك أكوام من الأوراق التي تغمر كل سطح في الحجرة. راحت ترتب الأوراق ولكن من أجل غاية جديدة، فعدلت من وضعها في أكوام أنيقة داخل الملفات وربطتها بشريط مطاطي. لم تكن تعرف ماذا ستفعل بها حينما تنتهي القضية. وفي النهاية بحثت عن الملف الأحمر الذي أعطاها إياه فيليب بيسيت. تصفحت الأوراق البالية سريعًا حتى عثرت على الورقتين اللتين تبحث عنهما.

تفحصتهما وأخذتهما معها إلى المطبخ. أشعلت شمعة ورفعت الأوراق -الواحدة تلو الأخرى- فوق اللهب المتراقص حتى لم يتبق منهما شيء سوى الرماد.

قالت: «هنا صوفي، على الأقل، تفوقت عليَّ في هذا».

وحدثت نفسها قائلة: «والآن من أجل ديفيد».

33

- ظننت أنك قد تكون غادرت المنزل الآن.

كان جيك نائمًا أمام فيديوهات أمريكا المنزلية الأكثر إضحاكًا America's Funniest Home Videos، وكان جريج متجهًا نحو المطبخ عاري القدمين وهو يتثاءب.

- هل تريدني أن أنصب الفراش النقال؟ فالوقت متأخر لأن تسحبه إلى المنزل.

قال بول وهو بالكاد يرفع عينيه عن الملفات، وشاشة الحاسوب المحمول مفتوحة أمامه: «سيكون هذا رائعًا».

- لماذا تتصفح تلك الأوراق ثانية؟ فالحكم يوم الاثنين، أليس كذلك؟ ألم تترك وظيفتك لتوِّك؟

مرر بول أصابعه عبر الصفحة ثم قلبها بنفاد صبر وهو يقول: «هناك شيء قد فات عليَّ وأنا أعرفه، عليَّ أن أفحص جميع الأدلة».

جذب جريج مقعدًا وقال: «بول». ثم كررها ثانية بصوت أعلى.

- ماذا؟

- لقد انتهى الأمر أخي، وقد سامحتك، وقد أثبت حسن نياتك. أعتقد أنك يجب أن تترك هذا الأمر الآن.

مال بول بمقعده إلى الوراء ووضع يده على عينيه وقال: «أتظن هذا؟».

- حقًّا؟ لقد أصبت بالهوس.

تناول بول رشفة من قدح القهوة وكانت باردة.

- هذه اللوحة ستحطمنا.

- ماذا؟

- ليف تحب هذه اللوحة جريج، وفقدها سيتسبب في شعورها الدائم بالحزن. وأنا المسؤول عن انتزاعها منها. ربما لن تشعر بذلك الآن، أو ربما بعد عام أو اثنين. لكن هذا ما سيحدث.

اتكأ جريج على وحدة المطبخ وقال: «إنها يمكن أن تقول الشيء نفسه على وظيفتك».

- إنني راضٍ بشأن الوظيفة. والوقت قد حان لكي أغادر هذا المكان.

- وقالت ليف إنها موافقة بشأن اللوحة؟

- نعم، لكنها في ورطة.

وحينما هز جريج رأسه في إحباط، انحنى ينظر إلى الملفات وقال: «أنا أعرف كيف يمكن أن تتغير الأمور جريج، وكيف أن الأمور التي تُقسم أنها لن تزعجك في البداية يمكن أن تسبب لك القلق الشديد فيما بعد».

- لكن...

- وأنا أعلم أن فقدان الأشياء التي تحبها يطارد الأشخاص. أنا لا أريد أن تنظر إليَّ ليف ذات يوم وهي تقاوم فكرة أنني الرجل الذي دمر حياتها.

سار جريج بخطى خفيفة في المطبخ وأدار الغلاية، وصنع ثلاثة أقداح من القهوة وأعطى واحدًا لبول، ثم وضع يده على كتف أخيه وهو يستعد لكي يحمل الاثنين الآخرين إلى غرفة المعيشة.

- أنا أعلم أنك تريد إصلاح الأمور أخي الأكبر، ولكن أتريد الحق؟ في هذه القضية كل ما عليك أن تدعو الله أن تسير الأمور على ما يرام.

لم يسمع بول ما قاله وراح يتمتم قائلًا: «قائمة المالكين، قائمة المالكين الحاليين لأعمال ليفيفر».

بعد مرور ثماني ساعات استيقظ جريج ليجد وجه صبي صغير يطل من فوقه ويقول: «إنني جائع، لقد قلت إن هناك حبوب كوكو بوبوس لكني لا أجدها». ثم راح يحك أنفه بشدة.

قال وهو ناعس: «في الخزانة السفلية».

لم يكن هناك ضوء بين الستائر فأشار من بعد.

- لا يوجد لديك لبن.

- كم الساعة؟

- السابعة إلا ربع.

أدخل يده أسفل الغطاء وقال: «حتى الكلاب لا تستيقظ مبكرًا هكذا. اطلب من أبيك أن يعدَّه لك».

- إنه ليس هنا.

فتح جريج عينيه ببطء وثبتهما على الستائر وقال: «ماذا تعني بأنه ليس هنا؟».

- لقد ذهب، فحقيبة النوم ما زالت ملفوفة، ولا أعتقد أنه قد نام على الأريكة. هل يمكن أن نشتري كرواسون من هذا المكان الذي يقع في نهاية الطريق؟ كرواسون بالشوكولاتة؟

- إنني أستيقظ. إنني أستيقظ. سأنهض.

ثم انتزع نفسه ونهض معتدلًا في الفراش وراح يحك رأسه.

- لقد تبول بيريت على الأرض.

- حسنًا. إنها بداية جيدة ليوم السبت.

لم يكن بول حقًّا في المنزل لكنه ترك رسالة على مائدة المطبخ؛ كتبها على ظهر قائمة من أدلة المحكمة ووضعها أعلى كومة متناثرة من الأوراق.

اضطررت إلى الذهاب. هل يمكن أن تعتني بجيك؟ سأحادثك.

قال جيك وهو يتفرس وجهه: «هل كل شيء على ما يرام؟».

كانت ترتسم دوائر من آثار القهوة داخل القدح الموضوع على المائدة، وبدت بقايا الأوراق وكأنها تعرضت لبعض التلف.

قال جريج وهو يعبث بشعره: «كل شيء بخير يا صغيري».

طوى الورقة ووضعها في جيبه ثم راح يرتب وضع الأوراق والملفات.

- سأخبرك شيئًا. أنا أقترح أن نصنع كعكة المقلاة. ما رأيك أن نضع المعاطف فوق المنامة ونتجه إلى المتجر لنشتري بعض البيض؟

حينما غادر جيك الغرفة جذب هاتفه وكتب رسالة نصية.

«إن كنت الآن غارقًا في الحب معها، فإنك تدين لي بالكثير».

انتظر بضع دقائق قبل أن يضع الهاتف في جيبه ولكن لم تكن هناك إجابة.

من حسن الحظ أن يوم السبت كان مشغولًا. انتظرت ليف المشترين أن يأتوا ويأخذوا المقاسات، ثم جاء البناؤون والمعماريون لفحص الأعمال اللانهائية التي بحاجة إلى إنجاز. تجولت في منزلها وسط أولئك الغرباء وهي تحاول أن تحقق توازنًا بين المجاملة واللطف كما يليق ببائع المنزل ودون أن تكشف عن مشاعرها الحقيقية التي ترغب من خلالها في أن تقول لهم «**اغربوا من هنا**» ثم تشيح بيدها لكي يغادروا.

شغلت نفسها بحزم الحقائب وتنظيف المكان وإيجاد المواساة في المهام المنزلية الصغيرة. لقد تخلصت من كيسين من أكياس النفايات ملأتهم بالملابس القديمة. حادثت بعضًا من وكلاء العقارات وحينما كانت تخبرهم عن المبلغ الذي يمكن أن تدفعه في الإيجار كانت لا تجد إلا فترة طويلة من الصمت تنم عن الاستهزاء.

قال المهندس المعماري حينما وضعت السماعة: «ألم أركِ من قبل في مكان ما؟».

ردت سريعًا: «لا، لا أعتقد».

لم يهاتفها بول.

اتجهت في وقت ما بعد الظهيرة إلى منزل والدها.

قال والدها معلنًا: «لقد صنعت لك كارولين أروع وعاء من الفخار من أجل عيد الميلاد، ستحبينه بشدة».

قالت: «عظيم».

تناولت السلطة وطبقًا من الطعام المكسيكي في الغداء. كانت كارولين تدندن أثناء تناولها الطعام. وكان والد ليف يرغب في التأمين على السيارة.

- من الواضح أنني يجب أن أقلد الدجاجة حتى يخفض لي قسط التأمين بسبب عدم وقوع حوادث.

كانت تحاول أن تركز فيما يقوله لكنها كانت تفكر في بول وتسترجع أحداث اليوم السابق، وقد اندهشت لأنه لم يحادثها. يا إلهي لقد تحولت لواحدة من أولئك الفتيات شديدات التعلق، ونحن لم نمض أربعًا وعشرين ساعة رسميًّا معًا. ضحكت على كلمة «رسميًّا».

لم تكن ترغب في العودة للمنزل، فجلست في منزل والدها لفترة أطول عن المعتاد. بدا أنه مسرور، وشرب كثيرًا، وأخرج صورها بالأبيض والأسود التي وجدها حينما كان يبحث في أدراج الخزانة. كانت هناك حالة غريبة تمر بها؛ تذكرة بأن هناك حياة كاملة قبل هذه القضية، قبل صوفي ليفيفر، ومنزل لا تستطيع سداد ثمنه ويوم فظيع أخير تعيشه قريبًا في المحكمة.

- يا لها من طفلة جميلة.

جعلها الوجه البريء المبتسم في الصورة ترغب في البكاء. وضع أبوها يده حولها وقال: «لا تستائي من يوم الاثنين، أعلم أن الأمر كان قاسيًا، لكن هل تعلمين أننا فخوران بك بشدة».

تمخطت وهي تقول: «من أجل ماذا؟ لقد أخفقت يا أبي، ومعظم الناس يظنون أنه ما كان ينبغي لي حتى أن أحاول».

جذبها نحوه. شمت رائحة النبيذ الأحمر وجزء من حياتها بدا وكأنه كان موجودًا منذ ملايين السنوات.

- لمجرد استمرارك في المحاولة، هذا في بعض الأحيان ابنتي تصرف بطولي في حد ذاته.

كانت الساعة تشارف على الرابعة والنصف حينما حادثته. فكرت بعقلانية أنه قد مر أربع وعشرون ساعة. وبالتأكيد فإن قواعد المواعدة الطبيعية لا تطبق إن كان الطرف الآخر قد كرس نصف حياته لك. تسارعت دقات قلبها قليلًا وهي تطلب الرقم؛ إنها تتوقع أن تسمع صوته. تخيلته فيما بعد -في وقت متأخر من المساء- وقد تكور على نفسه فوق الأريكة في الشقة الصغيرة المزدحمة، وربما يلعب الأوراق مع جيك على السجادة. لكن آلة الرد الآلي قطعت الاتصال بعد ثلاث دقات. وضعت ليف السماعة سريعًا، والغريب أنها شعرت بعدم راحة ثم راحت تلعن نفسها لتصرفها الطفولي.

ذهبت لتجري، ثم أخذت حمامًا، وأعدت الشاي لفران (آخر كوب أعدته طلبت ملعقتين سكر فقط)، وجلست بجوار الهاتف، ثم طلبت رقمه ثانية في السادسة والنصف، لكن جاءها صوت آلة الرد الآلي مباشرة. لم يكن لديها رقم أرضي لشقته. هل تتجه إلى هناك مباشرة؟ ربما يكون في شقة جريج، لكنها أدركت أنه ليس لديها رقم جريج أيضًا كان ذهنها مشتتًا بسبب أحداث يوم الجمعة حينما وصلا إلى هناك حتى إنها لم تكن واثقة من العنوان بالتفصيل.

قالت لنفسها هذا سخف، إنه سيهاتفني.

لكنه لم يفعل.

وفي الثامنة مساء كانت تعلم أنها لن تستطيع قضاء المساء بمفردها في المنزل، فنهضت ووضعت معطفها وأخذت المفاتيح.

كانت المسافة قصيرة حتى حانة جريج، بل أقصر إن هرول المرء بحذائه الرياضي. دفعت الباب وقد فاجأتها الموسيقى العالية. وعلى المسرح الصغير على اليسار، وجدت رجلًا يغني بصوت غليظ على إيقاعات الديسكو تصاحبه صيحات استهجان من جمهور سابح في عالم آخر. وفي الطرف الآخر، ازدحمت الطاولات، وكانت المسافات بينها مكتظة بأجسام مشدودة ترتدي ملابس ضيقة.

استغرق الأمر عدة دقائق منها لكي تلمحه يتحرك بسرعة عبر النضد واضعًا المنشفة فوق كتفيه. شقت طريقها بصعوبة إلى الأمام وهي شبه تدفع نفسها أسفل إبط أحدهم ونادت باسمه.

استغرق الأمر منها عدة محاولات لكي يسمعها فاستدار نحوها، وتجمدت ابتسامتها؛ والغريب أن تعبيرات وجهه لم تكن مرحبة.

- حسنًا، هذا وقت مناسب للظهور.

طرفت بعينها وقالت: «آسفة؟».

- أهي تقترب من التاسعة؟ هل أنتم تمزحون معي يا شباب؟

- لا أعرف عما تتحدث؟

- لقد مكث عندي طيلة اليوم، وكان أندي يريد أن يخرج الليلة، لكنه لغى الموعد ليمكث في المنزل ويجالس الطفل، وأستطيع أن أقول لك إنه ليس سعيدًا.

كانت ليف تحاول سماعه بصعوبة وسط ضجيج الحانة. رفع جريج يده ومال نحو أحدهم ليدون طلباته.

قال لها حينما عاد: «أعني أنك تعرفين أننا نحبه. أليس كذلك؟ نحن مغرمون به، لكن أن يعاملنا وكأننا جلساء أطفال افتراضيون».

قالت: «إنني أبحث عن بول».

- أهو ليس معك؟

- نعم، ولا يجيب على الهاتف.

- أعلم أنه لا يجيب على الهاتف، وظننت أن هذا بسبب وجوده معك، أوه، هذا جنون. فلتجتازي النضد.

ثم رفع الحاجز حتى تدفع بنفسها للداخل، ثم رفع يده في اعتذار إلى أولئك الذين يصيحون في شكوى جراء انتظارهم.

- دقيقتين أيها الرجال. دقيقتين.

وفي الممر الضيق، راحت دقات الموسيقى تتردد عبر الجدران مما جعل قدم ليف تهتز.

قالت: «لكن أين ذهب؟».

كان غضب جريج قد تلاشى وهو يقول: «لا أدري. لقد استيقظنا هذا الصباح على رسالة تقول إنه يجب أن يذهب. هذا كل ما في الأمر. لقد كان غريبًا ليلة أمس بعدما غادرت».

- ماذا تعني بغريب.

بدا مراوغًا كما لو أنه أفصح عن الكثير.

- ماذا؟

- ليس هو ذاته، إنما هو يأخذ ذلك الأمر بجدية نوعًا ما.

عض على شفتيه.

- ماذا؟

بدا جريج مرتبكًا.

- حسنًا، لقد قال إنه يعتقد أن هذه اللوحة ستضيع أي فرصة لكما في الدخول في علاقة.

حدقت ليف إليه وهي تقول: «هل تعتقد أنه...».

- أنا واثق أنه لا يعني...

ولكن ليف كانت بالفعل تشق طريقها للخروج من الحانة.

لم يكن لديها ما تفعله، فبدا يوم الأحد طويلًا. جلست ليف في منزلها الساكن، وهاتفها صامت، والأفكار تدور في ذهنها وتنتظر نهاية العالم.

طلبت هاتفه مرة أخرى، ثم أنهت المكالمة سريعًا حينما جاءها صوت آلة الرد الآلي.

لقد أصبح غير مبالٍ.

بالطبع لا.

كان لديه الوقت ليفكر بشأن كل شيء يريد التخلص منه وهو يقف بجانبي ويساندني.

يجب أن تثقي به.

تمنت لو كانت مو بجوارها.

هبط المساء وتكاثفت السحب في السماء وأغرقت المدينة في ضباب كثيف. لم ترغب في مشاهدة التلفزيون، ونامت نومًا غريبًا متقطعًا واستيقظت في الرابعة حينما تكدست في ذهنها كتلة من الأفكار السامة. وفي الخامسة والنصف كانت قد يئست من النوم ثانية فجهزت حمامًا ومكثت لفترة تحدق إلى فتحة السقف نحو الظلام. جففت شعرها بعناية، وارتدت كنزة رمادية وتنورة مقلمة بخطوط رفيعة. لقد قال لها ديفيد ذات مرة إنه يحب تلك الملابس حينما ترتديها. فهي تجعلها تبدو كالسكرتيرة كما لو أن هذا شيء جيد. أضافت بعض اللآلئ المقلدة وارتدت خاتم الزفاف، ووضعت مساحيق التجميل بعناية، وكانت ممتنة للوسائل التجميلية التي جعلتها تخفي الهالات أسفل عينيها وتغطي بشرتها الشاحبة المتعبة.

حدثت نفسها قائلة إنه سيأتي، يجب أن يكون لديك إيمان بشيء.

بدأ العالم من حولها في الاستيقاظ ببطء، وكان الضباب قد اكتنف المنزل الزجاجي مؤكدًا انعزاله عن بقية المدينة. وتعطلت حركة سير السيارات بالأسفل وبدت وكأنها نقاط صغيرة مضيئة من مصابيح التوقف الحمراء وتحركت ببطء شديد مثلما يتحرك الدم في الشرايين المتجلطة. احتست

بعض القهوة وتناولت نصف شريحة من الخبز المحمص. وأعلنت أخبار الراديو عن تعطل مروري في منطقة هامرسميث Hammersmith، وكشف مخطط لقتل سياسي أوكراني بالسم. وحينما انتهت من تناول الطعام راحت ترتب وتمسح المطبخ فأضفت عليه النظافة لمعانًا.

جذبت غطاءً قديمًا من خزانة التهوية ولفته بعناية حول اللوحة، وثنته كما لو أنها تلف هدية، ووضعت الصورة بعيدًا عنها حتى لا تضطر إلى النظر إلى وجه صوفي.

لم تكن فران في صندوقها، فقد كانت تجلس على دلو مقلوب تتطلع عبر الأرض الملأى بالحصى نحو النهر، وهي تحاول فك تشابك حبل رفيع التف مئات المرات حول مجموعة ضخمة من أكياس السوبر ماركت.

نظرت إلى أعلى نحو ليف وهي تقترب وتحمل في يديها قدحين، ثم نظرت نحو السماء، وقد غرقت السماء من حولهما في قطرات مياه النهر الكثيفة وأصواته المكتومة وكأنها تنهي العالم عند حافة النهر.

- ألن تذهبي للجري؟

- هذا لا يشبه تصرفاتك المعتادة.

- يبدو أنه لم يعد هناك شيء يشبهني.

أعطتها ليف القهوة، فتناولت فران رشفة وأطلقت صوتًا ينم عن السعادة ثم نظرت إليها وقالت: «لا تقفي هكذا دون أن تفعلي شيئًا، اجلسي».

نظرت ليف حولها قبل أن تدرك أن فران تشير إلى صندوق صغير لزجاجات الألبان، فجذبته وجلست فوقه. سارت حمامة نحوها على الحصى، فطوت حقيبة ورقية وألقت لها ببعض القشور. كان المكان هادئًا بشكل غريب هناك وهما تسمعان صوت حاجز ثامب Thames وهو يدور بهدوء على الشاطئ، وأصوات حركة المرور من على بعد. فكرت ليف باستهزاء فيما يمكن أن تقوله الصحف عن رفيقة أرملة من سيدات المجتمع في تناول الإفطار. ظهر مركب عبر الضباب وأبحر بهدوء أمامهما ثم غابت أضواؤه في ضوء الفجر الخافت.

- غادرت صديقتك إذًا.

- كيف عرفت؟

- اجلسي هنا لفترة طويلة وستعرفين كل شيء، وتسمعين، أتعلمين؟

ثم ضربت جانب رأسها وأردفت قائلة: «لم يعد أحد يستمع حاليًا، كل فرد يعلم ما الذي يرغب في سماعه، لكن لا أحد ينصت بالفعل».

توقفت عن الحديث لدقيقة كما لو أنها تتذكر شيئًا ثم قالت: «لقد رأيتك في الصحف».

نفخت ليف في قهوتها ثم قالت: «أعتقد أن لندن كلها رأتني في الصحف».

أشارت نحو عتبة الباب وهي تقول: «إنها لديَّ هناك في الصندوق». ثم أشارت إلى اللفة التي تحملها ليف تحت ذراعها وقالت: «أهذه هي؟».

أخذت ليف رشفة من القهوة وقالت: «نعم».

انتظرت حتى تدلو فران بدلوها بشأن جريمة ليف، وتُعدد الأسباب التي لا تجعلها تحاول الاحتفاظ باللوحة، لكنها لم تفعل. وبدلًا من ذلك راحت تستنشق الهواء وتتطلع إلى النهر.

- هذا هو السبب الذي لا يجعلني أمتلك الكثير من الأشياء. فحينما كنت في الملجأ كان الناس هناك يسرقون الأشياء، ولا يهم أين تركتها -أسفل فراشك أو في الخزانة- إنهم ينتظرون حتى تخرجي ثم يأخذونها. فينتهي بك المطاف أنك لا تريدين الخروج خوفًا من فقدك لأشيائك. تخيلي هذا.

- أتخيل ماذا؟

ما تفقدينه. مجرد المحاولة للتعلق ببضعة أشياء.

نظرت ليف إلى وجه فران العجوز المجعد وامتلأت فجأة بالسعادة وهي تفكر في الحياة التي لم تفُتها بعد.

قالت فران: «إنه ضرب من الجنون».

نظرت ليف عبر النهر الرمادي وعلى غير المتوقع اغرورقت عيناها بالدموع.

34

كان هنري ينتظرها عند المدخل الخلفي، وكانت هناك كاميرات التلفزيون بالإضافة إلى المتظاهرين الذين ينتظرون عند الباب الأمامي للمحكمة العليا في اليوم الأخير. وقد حذرها من وجود كل هذا. ظهرت من السيارة الأجرة وحينما شاهد ما تحمله تحولت ابتسامته إلى تجهم.

- أهذا هو ما... ما كان عليك أن تفعلي هذا. إن لم تسر الأمور في صالحنا سنجعلهم يرسلون شاحنة مصفحة. يا إلهي. ليف! لا يمكن أن تحملي لوحة هكذا تقدر قيمتها بملايين الجنيهات كما لو أنك تحملين رغيفًا من الخبز.

كانت ليف تحكم يدها على اللوحة.

- هل بول هنا؟

- بول؟

كان يدفع بها سريعًا نحو المحكمة كطبيب يحمل طفلًا صغيرًا إلى المستشفى.

- مكفرتي.

- مكفرتي؟ لا أدري.

ثم نظر ثانية نحو اللوحة وقال: «اللعنة. ليف. كان يجب أن تحذريني».

تبعته من خلال الأمن ثم سارا عبر الممر. استدعى الحارس وأشار إلى اللوحة. بدا الحارس مذهولًا وأومأ برأسه ثم تفوه بشيء في اللاسلكي. كان

هناك عدد إضافي من رجال الأمن في طريقهم إلى المحكمة، ولم يشعر هنري بالراحة إلا حينما دخلوا القاعة.

جلس وأخرج نفسًا طويلًا ومسح يده براحتيه ثم التفت نحو ليف وقال وهو يبتسم بأسف نحو اللوحة: «هل تعلمين أن الأمر لم ينته بعد؟ بالكاد تصويت بالثقة».

لم تقل شيئًا وراحت تتفحص القاعة التي امتلأت سريعًا من حولها. ومن فوقها في الشرفة العامة المخصصة للجمهور راحت الوجوه تنظر إليها في تأمل ودون أي مشاعر كما لو أنها هي التي ستحاكم. حاولت ألا تلتقي عيناها بعيني أحد. لمحت ماريان وهي ترتدي ملابس باللون البرتقالي، وكان لون القرط البلاستيكي يتماشى مع اللون ذاته. ولوحت لها السيدة العجوز ورفعت إبهامها مشجعة؛ كانت وجهًا ودودًا وسط كل تلك النظرات الجامدة. وجدت جاني تجلس في مقعد صغير بجوار المقاعد الطويلة وكانت تتبادل بضع كلمات مع فلاهرتي. امتلأت القاعة بأصوات الأقدام المتحركة، والحوارات المهذبة، وأصوات جذب المقاعد وإلقاء الحقائب على الأرض. يتبادل الصحفيون أحاديث ودية مع بعضهم بعضًا ويتجرعون أقداح القهوة المصنوعة من البوليسترين ويتبادلون الملاحظات. وأعطى أحدهم لآخر قلمًا إضافيًّا. كانت تحاول أن تقاوم إحساسًا بالفزع. كانت الساعة التاسعة وأربعين دقيقة، وكانت عيناها تنظران في شرود نحو الباب مرات ومرات ترقب قدوم بول.

قالت لنفسها: «تحلي بالإيمان، إنه سيأتي».

قالت لنفسها الشيء ذاته في التاسعة وخمسين دقيقة والتاسعة واثنتين وخمسين دقيقة، ثم في الساعة التاسعة وثمانٍ وخمسين، وقبل أن تدق العاشرة دخل القاضي. وقف الحاضرون في القاعة، وشعرت ليف بحالة هلع مفاجئة. إنه *لن يأتي*. بعد كل هذا *لن يأتي. أوه يا إلهي، إنني لن أستطيع أن أفعل هذا إن لم يكن بجواري*. وأجبرت نفسها على أخذ نفس عميق، وأغلقت عينيها في محاولة لتهدئة نفسها.

تصفح هنري ملفاته وقال لها: «هل أنت بخير؟».

بدت وكأن فمها قد امتلأ بالمساحيق وهمست قائلة: «هنري، هل يمكنني أن أقول شيئًا؟».

- ماذا؟
- هل يمكنني أن أقول شيئًا للمحكمة؟ إنه أمر مهم.
- الآن؟ إن القاضي على وشك أن يصدر الحكم.
- إنه أمر مهم.
- ماذا تريدين أن تقولي؟
- أرجوك اطلب منه فقط، هنري.

بدت علامات الشك على وجهه، لكن شيئًا ما في تعبيرات وجهها أقنعه. مال إلى الأمام وهمس بشيء إلى أنجيلا سيلفر. نظرت خلفها نحو ليف وقطبت جبينها وبعد تبادل بضع كلمات وقفت وطلبت السماح لها بالاقتراب من منصة القاضي، ودُعِي كريستوفر جينكز للانضمام إليهم.

بينما كان محامو المرافعات والقاضي يتشاورون بهدوء، شعرت ليف بيدها تتعرق، وبوخز في جسدها. نظرت حولها في القاعة المكتظة، كان جو العداء السائد ملموسًا. زادت من إحكام يدها على اللوحة وحدثت نفسها قائلة: «تخيلي أنك صوفي، *فكانت لتجتاز هذا*».

وفي النهاية تحدث القاضي.

نظر إليها من فوق منظاره وقال: «من الواضح أن السيدة هالستون ترغب في مخاطبة المحكمة، تفضلي سيدة هالستون».

وقفت وشقت طريقها إلى الأمام وهي لا تزال تتشبث باللوحة. كانت تسمع وقع كل قدم تخطو على الأرض الخشبية وتنتبه بشدة لكل الأعين المسلطة عليها. وقف هنري -الذي كان ربما لا يزال قلقًا بشأن اللوحة- على بعد سنتيمترات منها.

أخذت نفسًا عميقًا وقالت: «إنني أريد أن أقول بضع كلمات بشأن اللوحة».

ثم توقفت لوهلة وقد لاحظت الدهشة المرتسمة على الوجوه من حولها ثم أكملت حديثها، كان صوتها ضعيفًا وشبه مرتعش وسط هذا السكون، وكأنه صوت أحد آخر غيرها.

- كانت صوفي ليفيفر امرأة شجاعة وجديرة بالاحترام وأعتقد- بل أتمنى أن يصبح هذا واضحًا من خلال ما استمعت إليه المحكمة.

كانت منتبهة إلى حد ما لوجه جاني ديكنسون وهي تشطب شيئًا في مفكرتها، وإلى همهمات محامي المرافعات التي تنم عن السأم. أطبقت بأصابعها على الإطار وأجبرت نفسها على الاستمرار.

- كان زوجي الراحل ديفيد رجلًا صالحًا أيضًا، رجلًا صالحًا بحق. وأنا أومن الآن أنه إن كان يعلم أن لوحة صوفي -اللوحة التي أحبها- قد واجهت كل هذا، وهذه أفكاره المحافظة، لكان أعادها منذ فترة طويلة. والطعن على أن هذه القضية قد تسببت في أن يُرفع اسمه من على المبنى الذي كان بمنزلة حياته وكل أحلامه، وذلك الأمر مصدر ندم شديد بالنسبة لي، لأن هذا المبنى -مبنى جولدستاين- كان تخليدًا لذكراه.

لمحت الصحفيين ينظرون نحوها ورأت موجة الاهتمام التي اجتاحت مقاعدهم، وأخذ بعضهم يتشاورون وبدأوا في تسجيل الملاحظات.

- لقد حطمت هذه القضية -وهذه اللوحة- ما سيمثل إرثه كما حطمت صوفي ذاتها، وبهذا الشكل فقد أخطأت في حقهما هما الاثنين.

بدأ صوتها ينهار، ونظرت حولها واستطردت قائلة: «لهذا السبب أود أن أسجل أن قرار المواجهة كان قراري وحدي. وإن كنت أخطأت، فأنا آسفة للغاية. هذا كل شيء. أشكركم».

خطت خطوتين جانبًا في ارتباك، ورأت الصحفيين منهمكين في التدوين سريعًا، وكان أحدهم يدقق كلمة جولدستاين إملائيًّا، وكان هناك اثنان من المحامين يتحدثان في عجالة.

قال هنري برقة وهو يميل نحوها: «خطوة ذكية. تصلحين أن تكوني محامية جيدة».

قالت لنفسها: «لقد فعلتها، فقد ارتبط اسم ديفيد بالمبنى على الملأ الآن مهما فعل إخوة جولدستاين».

طلب القاضي من الحضور أن يصمتوا وقال في سأم: «سيدة هالستون، هل انتهيت من كلمتك قبل أن أصدر حكمي؟».

أومأت برأسها وقد جف حلقها، وهمست جاني بشيء إلى المحامي الذي يعمل معها.

- وهذه اللوحة هي موضوع القضية، أليس كذلك؟

- نعم.

كانت لا تزال تمسكها بإحكام وكأنها درع يحميها.

التفت إلى موظف المحكمة وقال: «هل يمكن أن يرتب أحدهم لكي توضع في مكان آمن؟ أنا لست واثقًا من أنها يجب أن تظل هكذا سيدة هالستون».

أعطت ليف اللوحة لموظف المحكمة، ولدقيقة شعرت وكأن أصابعها لا تقوى على إفلات اللوحة كما لو أن أعماقها قد قررت أن تتجاهل الأمر. وحينما أفلتت اللوحة في النهاية، وقف الموظف متسمرًا في مكانه كما لو أنها قد أعطته شيئًا مشعًّا.

قالت: «أنا آسفة صوفي». وفجأة كشفت اللوحة، وكانت الفتاة تنظر إليها مباشرة.

سارت ليف وقد ترنحت خطواتها قليلًا، وكان الغطاء الخاوي مكورًا تحت ذراعها وبالكاد كانت تسمع الضجة المتزايدة حولها. تبادل القاضي الحديث مع محامي المرافعات. دخل بعض الأشخاص من الباب؛ ربما كانوا الصحفيين، ومن فوقهم كانت قاعة الجمهور تضج بالمناقشات. لمس هنري ذراعها وهمس لها بشيء ينم عن قيامها بعمل رائع.

جلست ونظرت في حجرها، ثم إلى خاتم الزواج وراحت تديره عدة مرات حول إصبعها وتساءلت عن مدى شعورها بهذا الخواء.

ثم سمعته.

- أستميحك عذرًا؟

رددها مرتين قبل أن تسمعها وسط تلك الفوضى. نظرت إلى أعلى وهي تتبع نظرة الأشخاص التي اتجهت نحو الصوت من حولها وقد وقف بول مكفرتي عند عتبة الباب.

كان يرتدي قميصًا أزرق وقد نبت شعر خفيف في ذقنه، كانت تعبيراته غامضة، وفتح الباب على مصراعيه ودفع بكرسي متحرك ببطء إلى داخل القاعة. وجال ببصره حول المكان يبحث عنها، وفجأة لم يكن سواهما. حرك

شفتيه بعبارة هل *أنت بخير*؟ وأومأت برأسها، وأخرجت نفسًا عميقًا لم تكن تدري أنها كانت تكتمه.

نادى ثانية وكان صوته مسموعًا من خلال الضوضاء المحيطة وقال: «أستميحك عذرًا سيدي القاضي؟».

شقت مطرقة القاضي المنصة مثل طلقة الرصاص فغرقت القاعة في الصمت. وقفت جاني ديكنسون واستدارت لترى ما يحدث. كان بول يدفع بامرأة عجوز على كرسي متحرك خلال الممر الرئيسي للقاعة. كانت طاعنة في السن بدرجة كبيرة ومحنية وكأنها عصا راعٍ معقوفة وكانت يدها تستند إلى حقيبة صغيرة.

وأسرعت من خلف بول امرأة أخرى ترتدي لباسًا أزرق داكنًا أنيقًا وراحت تتشاور معه في همس.

قالت المرأة: «إن جدتي لديها معلومات مهمة تتعلق بالقضية».

كانت تتحدث بلكنة فرنسية قوية، وبينما كانت تسير عبر الممر المركزي، نظرت بارتباك إلى الأشخاص الذين يجلسون على الجانبين.

أشاح القاضي بيديه وقال: «لم لا؟» ثم تمتم بصوت مسموع وقال: «كل فرد يريد أن يتحدث، دعونا نرى إن كانت عاملة النظافة تريد أن تعرض وجهة نظرها، لم لا نسمعها؟».

انتظرت المرأة فقال في سخط: «سيدتي، بحق السماء اقتربي من المنصة».

تبادلا بضع كلمات، واستدعى القاضي محامي المرافعات وامتد النقاش.

ظل هنري يردد بجوار ليف: «ما هذا؟ ماذا يجري هنا بحق السماء؟».

ساد السكون القاعة.

قال القاضي: «يبدو أنه لا بد أن نستمع إلى ما ستقوله هذه السيدة».

ثم أمسك بقلمه وتصفح المذكرات التي أمامه.

- إنني أتساءل إن كان أحد هنا يهتم بشيء عادي كالحكم الفعلي؟

أدار أحدهم مقعد السيدة العجوز وجعله في منتصف القاعة. تحدثت كلماتها الأولى بالفرنسية وترجمتها حفيدتها.

- قبل أن يتحدد مصير اللوحة، هناك شيء ينبغي أن تعرفوه، فهذه القضية مبنية على افتراضات خاطئة.

توقفت وانحنت لتسمع كلمات السيدة العجوز ثم اعتدلت ثانية وقالت: «إن لوحة الفتاة التي تركتها لم تُسرق».

مال القاضي إلى الأمام قليلًا وسألها: «ومن أين علمت سيدتي؟».

رفعت ليف وجهها نحو بول. كانت نظراته مباشرة وثابتة وتشي بالانتصار.

رفعت السيدة العجوز يدها كما لو أنها تبعد حفيدتها ثم تنحنحت وتحدثت ببطء وبوضوح ولكن هذه المرة بالإنجليزية وقالت: «لأنني أنا الشخص الذي أعطاها للقائد هنكن، واسمي هو إديث بيتون».

35

1917

غادرت الشاحنة بعد الفجر بقليل، ولا أدري كم مكثنا في الطريق؛ فقد داهمت الحمى جسدي منذ أيام، وأصبحت أحلامي مشوشة، ولم أعد واثقة إن كنت ما زلت على قيد الحياة أم لا، أم أنني مثل الشبح أتنقل هنا وهناك وسط حياة أخرى. حينما أغلقت عيني رأيت أختي ترفع ستارة نافذة الحانة وتستدير نحوي بابتسامة وقد أضفت الشمس بعض البريق على شعرها، ورأيت ميمي تضحك، ورأيت وجه إدوارد ويديه، وسمعت صوته يتردد في أذني ناعمًا عميقًا. مددت يدي لألمسه ولكنه اختفى. استيقظت على أرضية الشاحنة، وكان مستوى عيني عند حذاء الجندي الطويل، ورأسي يدق بشدة حينما كنا نمر فوق كل حفرة من حفر الطريق.

ورأيت ليليان.

كان جسدها بالخارج في مكان ما في طريق مدينة هانوفر Hannover حيث ألقوا به -وهم يلعنونه- كما لو أنها كيس من أكياس الرمل. لقد مكثت ساعات منذ أن تناثرت الدماء بل وشعرت بما هو أسوأ. فقد تلطخت ملابسي بالدماء وشعرت بمذاقه على شفتي، كان متجمدًا لزجًا على الأرض حيث استلقيت ولم تعد لديَّ الطاقة لكي أنهض من فوقه. كنت فاقدة الشعور، ولم أكن أفضل حالًا من جثة ليليان فلم تعد تدب في جسدي الحياة.

ابتعد عني الجندي الذي يجلس قبالتي بقدر الإمكان، وقد تملكه الغضب بسبب بقع الدماء التي طالت زيه الرسمي، ووابل التوبيخ الذي تلقاه من رؤسائه بسبب سرقة ليليان لمسدسه، وقد أدار وجهه نحو فتحة الغطاء التي تسمح بدخول بعض الهواء. ولمحت نظرته؛ نظرة توحي بالاشمئزاز، فلم أعد بالنسبة له إنسانًا، حاولت أن أتذكر متى كنت أكثر من مجرد شيء، وحتى في المدينة التي تمتلئ بالألمان كنت أمتلك الكرامة، وأفرض بعضًا من الاحترام، وكان الأمر صعبًا. أما الآن أضحى عالمي يقتصر على تلك الشاحنة بأرضيتها المعدنية القاسية، وهذا القميص الصوفي الملطخ بالبقع الحمراء الداكنة.

راحت الشاحنة ترتج وتترنح خلال الليل، وتتوقف لفترات قصيرة. وكنت تارة أفقد الوعي وتارة أسترده، وأستيقظ من فرط الألم أو من شدة الحمى. تنفست الهواء البارد، ورائحة السجائر، وسمعت الرجال يتحدثون أمام العربة وتساءلت هل سأسمع صوت فرنسي مرة ثانية!

ثم توقفت الشاحنة عند الفجر، ففتحت عيني الملتهبة ولم أقو على الحراك، وسمعت صوت جندي يندفع خارج الشاحنة يتمطى متأوهًا، وسمعت صوت ضغطة يده على مشعل السجائر، وأصواتًا ألمانية في أحاديث خافتة. وترامت إلى مسامعي أيضًا أصوات حادة غليظة لرجال يقضون حاجتهم، وأصوات العصافير وحفيف أوراق الأشجار.

أدركت حينها أنني سأموت هناك، لكنني لم أعد أبالي.

اجتاح الألم جسدي كله، وشعرت بوخز في جميع أنحائه من شدة الحمى، وآلمني فكي، وأحسست بثقل في رأسي. ارتفع الغطاء وانفتح الباب الخلفي، وأصدر لي الحارس أوامره بأن أغادر السيارة. بالكاد كنت أستطيع أن أتحرك، لكنه جذبني من ذراعي كما يفعل أحدهم مع طفل عنيد. خف جسدي بشدة وكدت أطير عبر خلفية الشاحنة.

استطعت أن أرى من خلال غلالة الضباب التي انتشرت في الصباح حاجزًا من الأسلاك الشائكة، وبوابات ضخمة كتب فوقها بالألمانية: جمع القش ströhen وعرفت ماذا كان المكان من قبل.

أشار لي حارس آخر بأن أبقى في مكاني وسار نحو أحد أكشاك الحراسة. دار نقاش ومد أحدهم جسمه إلى الخارج ونظر إليَّ. استطعت أن ألمح من

خلف البوابات صفوفًا عدة وراء بعضها من الحظائر الطويلة داخل المصنع. كان مكانًا كئيبًا ساكنًا تظلله سحابة واضحة من البؤس وانعدام الأمل.

واستقر في كل زاويةٍ برج مراقبة بمنصة لمنع الهروب، لكنهم ليسوا بحاجة إلى القلق بشأن هذا.

هل تعرف شعور أن يستسلم أحدهم لمصيره وتقريبًا يرحب به؟ حيث لا مزيد من الألم، والخوف، والاشتياق. إنه موت الأمل الذي يأتي كأعظم راحة. بعد قليل أستطيع أن أعانق إدوارد، ونلتقي في الحياة الأخرى لأنني أعلم أن الله عادل ولن يحرمنا من ذلك المفاز.

وبالكاد انتبهت للمناقشة العنيفة الدائرة في كشك الحراسة، وظهر رجل وطلب أوراقي، كنت في شدة الضعف فاستغرق مني الأمر ثلاث محاولات لكي أجذبها من جيبي، وأشار لي لكي أظهر بطاقة الهوية، ولأن القمل كان يزحف على كل جزء من جسدي فلم يرغب في أن يلمسني.

وضع علامة في قائمة الأوراق التي يمسك بها ثم صاح بالألمانية نحو الجندي الذي يمسك بي. تبادلا حوارًا قصيرًا. وراحت صورتهما تظهر وتختفي أمامي ولم أعد واثقة إن كانا يخفضان من صوتيهما أم أن عقلي يخونني. كنت مطيعة ووديعة كحمل؛ مجرد شيء على استعداد أن يتلقى الأوامر للتحرك في أي اتجاه. لم أعد أرغب في أن أفكر، أو أتخيل الأهوال التي تنتظرني. كان رأسي يطن من أثر الحمى وعيناي تحرقانني. كنت في شدة الإنهاك. وسمعت صوت ليليان وأدركت من على بعد أنه ينبغي لي أن أشعر بالخوف ما دمت على قيد الحياة؛ *ليس لديك فكرة عما سيفعلونه بنا*، لكنني لم أستطع أن أحمل نفسي على الشعور بالخوف. إذا لم يكن الحارس بجواري يمسكني من ذراعي، كنت سأهوي على الأرض.

فتحت البوابات وخرجت منها شاحنة، وأغلقت مرة أخرى، كنت أشعر بالوقت مرات ومرات أخرى أغيب عنه. أغلقت عيني وشاهدت رؤيا قصيرة، فكنت أجلس في مقهى في باريس ورأسي يميل إلى الوراء وأستشعر الشمس فوق وجهي وزوجي جالس بجواري، وصدى ضحكاته يتردد في أذني، ويده الضخمة تمتد نحو يدي على المائدة.

يا إلهي، إدوارد. بكيت بصمت وأنا أرتعش في هواء الفجر البارد. أبتهل إلى الله ألا تكون قد عانيت من كل هذا الألم، أدعو الله أن تكون الأمور مرت بسلام.

دفعني الحارس إلى الأمام ثانية، وصاح أحدهم بي، وتعثرت في تنورتي وأنا لا أزال أحاول التشبث بحقيبتي. فتحت البوابات ثانية ودفعوا بي بشدة داخل المعسكر، وبمجرد اقترابي من كشك الحراسة أوقفني الجندي ثانية.

دعوني أدخل السقيفة. دعوني أرقد على الأرض.

كنت في شدة الإنهاك، ورأيت يد ليليان، ورأيت طريقتها الدقيقة المتعمدة التي رفعت بها المسدس بجانب رأسها. كانت عيناها مثبتتين على عيني في اللحظات الأخيرة من حياتها. كانت فجوات سوداء لا نهائية، نوافذ تطل على هوة سحيقة. أخبرت نفسي أنها لا تشعر بشيء الآن، وما زال هناك جزء حي مني يعترف بأن ما أشعر به هو حسد.

وبينما كنت أعيد البطاقة إلى جيبي لمست يدي الطرف المسنن لقطعة الزجاج. أستطيع أن أرفع تلك الحافة إلى حلقي. أنا أعرف مكان الشريان، وكيفية الضغط على هذا المكان. إنني أتذكر كيف كان الخنزير يتلوى في سان بيرون؛ ثم بضربة سريعة أغمض عينيه فيما بدا وكأنه نشوة ساكنة. وقفت هناك ورحت أغذي عقلي بتلك الفكرة. يمكنني أن أفعل ذلك قبل حتى أن يلاحظوا ماذا فعلت. أستطيع أن أحرر نفسي.

ليس لديك فكرة عما سيفعلونه بنا.

أطبقت أصابعي ثم سمعت الصوت.

صوفي.

كنت أعرف أن الخلاص قادم. وأسقطت الشظية من يدي. إنه هو. صوت زوجي العذب وهو يصطحبني إلى المنزل. كدت أبتسم، إنني أشعر بارتياح عظيم. تمايلت قليلًا وجعلت الصوت يتردد في داخلي.

صوفي.

وضع جندي ألماني يده عليَّ ودفعني نحو البوابة. ولشعوري بالارتباك تعثرت ونظرت خلفي. ثم رأيت الحارس يظهر وسط الضباب ويسير أمامه

رجل طويل محني الظهر يتشبث بربطة أمام معدته. حدقت إليه وأنا أشعر أن هناك شيئًا مألوفًا به، لكن الضوء كان خلفه ولم أستطع أن أراه.

صوفي.

حاولت أن أركز، وفجأة سكن العالم من حولي، وسكت الألمان، وتوقفت المحركات، حتى الأشجار تلاشى صوت حفيف أوراقها. استطعت أن ألمح أن هذا الأسير كان يعرج وهو يتقدم نحوي، وكانت هيئته غريبة، وكتفاه نحيلتين للغاية، لكنه كان يخطو بإصرار كما لو أن هناك مغناطيسًا يجذبه نحوي، وبدأت أرتجف بشدة كما لو أن جسدي أدرك من هو قبل أن أعرف أنا.

- إدوارد؟

بح صوتي وأنا أنادي باسمه. لم أستطع أن أصدق. لم أجرؤ على تصديق ذلك.

- إدوارد؟

أصبح يهرول الآن وشبه يجري ناحيتي، وقد أسرع الحارس من خطواته وراءه. وقفت متجمدة في مكاني خشية أن تكون هذه خدعة مخيفة فأستيقظ وأجد نفسي ما زلت على ظهر الشاحنة وحذاء الجندي بجوار رأسي. أرجوك يا إلهي إنك عادل.

توقف على بعد سنتيمترات مني. كان نحيفًا للغاية، ووجهه متعبًا، وشعره الجميل حليقًا، والندبات تملأ وجهه.

لكن يا إلهي إنه وجهه. وجهه. وجه حبيبي إدوارد. هذا كثير. رفعت وجهي إلى السماء، وسقطت الحقيبة من يدي، وانحنيت نحو الأرض. وبينما كنت أفعل شعرت بيده تحيطني بقوة.

- صوفي؟ صوفي. ماذا فعلوا بك؟

مالت إديث بيتون إلى الوراء في مقعدها المتحرك وسط القاعة الصامتة. أحضر لها الموظف بعض المياه وأومأت برأسها لتعبر عن شكرها. حتى الصحفيون توقفوا عن الكتابة وجلسوا في أماكنهم وقد توقفت أقلامهم عن الكتابة وكانت أفواههم شبه مفتوحة.

لم نعلم شيئًا عما حدث لها. كنت أعتقد أنها ماتت، وقد ظهرت شبكة جديدة من المعلومات بعدما أخذوا أمي بعدة شهور وتلقينا أخبارًا بأنها كانت ضمن عدد من الأشخاص الذين ماتوا في المعسكرات وظلت هيلين تبكي لأسبوع بسبب تلك الأخبار.

وفي صباح يوم ما تصادف أن هبطت لأسفل في الفجر وأنا على استعداد لبدء تحضيرات اليوم -كنت أساعد هيلين في المطبخ- ورأيت خطابًا دفعه أحدهم من أسفل عتبة باب حانة الديك الأحمر. كنت على وشك أن ألتقطه، لكن هيلين كانت خلفي واختطفته أولًا.

قالت: «إنك لم تري هذا».

انتابتني الصدمة لأنها لم تكن حادة معي بهذا الأسلوب من قبل وقد شحب وجهها تمامًا.

- هل تسمعينني؟ إنك لم تري هذا إديث، ولن تخبري أحدًا حتى أوريلين، وبخاصة أوريلين.

أومأت برأسي موافقة، لكني لم أتحرك، كنت أريد أن أعرف ما بداخل الخطاب. كانت يد هيلين ترتعش حينما فتحت الخطاب. وقفت أمام النضد، وقد أضاء ضوء الصباح وجهها، وكانت يداها ترتعشان بدرجة جعلتني غير واثقة من أنها يمكنها قراءة الكلمات، ثم انحنت وضغطت بيدها على فمها وبدأت تبكي بصوت خفيض وتقول: «أشكرك يا إلهي، أشكرك يا إلهي».

كانا في سويسرا، وقد مُنحا بطاقات هوية مزيفة نظير «خدمات لدولة ألمانيا». ثم أخذوهما إلى غابة بالقرب من الحدود السويسرية. كانت صوفي مريضة للغاية حينها لدرجة أن إدوارد حملها آخر خمسة عشر ميلًا حتى نقطة التفتيش. وأخبرهما الحراس الذين كانوا ينقلونهما أنه ليس مسموح لهما بالاتصال بأي شخص في فرنسا وألا يخاطرا بالكشف عن أولئك الذين ساعدوهما، وكان الخطاب موقعًا باسم ماري ليفيل.

نظرت حولها في القاعة.

- ظلت هناك في سويسرا، وعلمنا أنها لا يمكن أن تعود ثانية لسان بيرون، لكننا كنا سعداء بشأن تلك المعلومات فيما يخص الاحتلال الألماني. إذا ظهرت في البلدة فسيبدأ الأشخاص في التساؤل. وبالطبع فهمت حينها من الذي ساعدهما على الهرب معًا.

- من هو سيدتي؟

زمت شفتيها كما لو أن الأمر يكلفها الآن لتقوله.

- القائد فريدريك هنكن.

قال القاضي: «لكن اسمحي لي، إنها رواية غريبة. أنا لا أفهم ما علاقة ذلك باللوحة؟».

استجمعت إديث بيتون شتات نفسها وقالت: لم تُرِني هيلين الخطاب، لكني كنت أعلم أنه يشغل بالها. كانت تشعر بالتوتر حينما يكون أوريلين بالجوار بالرغم من أنه نادرًا ما كان يمضي وقتًا في الحانة بعد أن غادرت صوفي، لكن بعدها بيومين حينما خرج أوريلين، وبينما كان الصغار نائمين في الغرفة المجاورة استدعتني إلى غرفتها وقالت: «إديث، أريدك أن تفعلي شيئًا من أجلي». كانت تجلس على الأرض وتسند اللوحة بيد واحدة. كانت تحدق إلى الخطاب الذي في يدها كما لو أنها تتحقق من شيء، ثم هزت رأسها ببطء، وأمسكت بالطبشور وخطت بضع كلمات على ظهر اللوحة، ثم تراجعت إلى الوراء وجلست القرفصاء كما لو أنها تتأكد من أنها صاغتها على النحو الصحيح. لفت اللوحة بعناية في غطاء وأعطتني إياها.

قالت: «إن القائد يصطاد في الغابة في وقت ما بعد الظهيرة، أريدك أن تعطيه تلك اللوحة».

- لا يمكن أن يحدث هذا.

كنت أكره هذا الرجل من أعماقي، فهو المسؤول عن فقدي لأمي.

- افعلي ما أقوله لك. أريدك أن تأخذي هذه إلى القائد.

- لا.

لم أكن أخشاه -فهو قد اقترف بالفعل أسوأ شيء يمكن تخيله بالنسبة لي- لكني لن أمضي دقيقة في صحبته.

حدقت إليَّ هيلين، وأعتقد أنها رأت كم أنا جادة. جذبتني إليها ولم أرها من قبل عازمة على شيء هكذا وقالت: «إديث، يجب أن يأخذ القائد هذه اللوحة. أنا وأنت نتمنى له الموت، لكن علينا الامتثال...».

ترددت للحظة وأكملت قائلة: «لرغبات صوفي».

- خذيها أنت.

- لا أستطيع. إذا ما فعلت، ستتحدث المدينة كلها، ولا نستطيع أن نخاطر بتلطيخ اسمي كما حدث مع أختي. إلى جانب هذا، سيخمن أوريلين أن شيئًا ما يجري. وهو يجب ألا يعرف الحقيقة. ولا يجب أن يعرفها أحد لسلامتها، وسلامتنا جميعًا. هل تفعلين ذلك؟

لم يكن لديَّ خيار. وفي وقت ما بعد الظهيرة أعطتني هيلين إشارة، فأخذت اللوحة ووضعتها تحت ذراعي وسرت عبر الشوارع الضيقة، ومن خلال الأراضي المقفرة حتى بلغت الغابة. كانت اللوحة ثقيلة والإطار يغرز في إبطي.

كان يقف هناك بصحبة جندي آخر. واصطكت ركبتاي من الخوف حينما رأيتهما يحملان البنادق في أيديهما. حينما رآني أمر الرجل الآخر بالابتعاد. سرت بين الأشجار ببطء وقدماي باردتان على الأرض الملأى بالثلوج. بدا قلقًا بعض الشيء وأنا أقترب وتذكرت أنني قلت حينها لنفسي: «حسنًا، أتمنى أن أشعرك دومًا بعدم الراحة».

قال: «هل تريدين التحدث إلي؟».

لم أكن أريد أن أسلمها له، لم أكن أريد أن أعطيه أي شيء. لقد أخذ بالفعل أغلى شيئين في حياتي. إنني أكره ذلك الرجل وكان ذلك حينما فهمت المغزى.

- تقول خالتي هيلين إنني يجب أن أعطيك هذه.

أخذ اللوحة مني وأزال غطاءها ونظر إليها غير متأكد، ثم أدارها، وارتسمت على وجهه تعبيرات غريبة، ولانت ملامحه لدقيقة، وتغرغرت عيناه كما لو أنه سيبكي من السعادة.

قال بعذوبة: «شكرًا، شكرًا».

ثم أدارها ثانية لينظر إلى وجه صوفي، وقلبها مرة أخرى ليقرأ الكلمات لنفسه وقال بلطف لها أو لي: «شكرًا». لم أكن واثقة.

لم أكن أتحمل أن أرى سعادته وراحته الشديدة حينما حطم أي فرصة للسعادة بالنسبة لي. إنني أكره ذلك الرجل أكثر من أي شيء آخر. لقد دمر كل شيء. ثم سمعت صوتي واضحًا يتردد كالجرس في الجو الهادئ وأنا أقول: «صوفي ماتت. لقد ماتت بعد أن تلقينا تعليماتها بأن نعطيك اللوحة. لقد ماتت بسبب إصابتها بالإنفلونزا الإسبانية في المعسكرات».

اهتز حينها بالفعل من فرط الصدمة وقال: «ماذا؟».

لا أعلم من أين أتيت بتلك المعلومات، لكني تحدثت بطلاقة دون خوف مما يمكن أن يحدث.

- لقد ماتت لأنهم أخذوها بعيدًا بعد أن أرسلت الرسالة بأن نعطيك هذه اللوحة.

اختنق صوته وهو يقول: «هل أنت واثقة؟ أعني ربما تكون هناك تقارير بأن...».

- واثقة تمامًا وربما ما كان يجب عليَّ أن أقول لك هذا. إنه سر.

وقفت هناك وأضحى قلبي قاسيًا كالحجارة، وراقبته وهو يحدق إلى اللوحة وقد شاخ وجهه فجأة وارتخى جسده من فرط الحزن.

قلت له: «أتمنى أن تكون اللوحة قد أعجبتك». ثم سرت ببطء عبر الغابة عائدة للحانة ولا أعتقد أنني يمكن أن أخاف من أي شيء آخر بعد الآن.

مضى القائد تسعة أشهر أخرى في البلدة ولكنه لم يأت قط إلى الحانة، وشعرت أن هذا بمنزلة انتصار.

غرقت القاعة في الصمت، وكان الصحفيون يحدقون إلى إديث بيتون، كما لو أتى فجأة ليتجسد هنا في تلك الحجرة الصغيرة. جاء صوت القاضي هادئًا هذه المرة.

- سيدتي هل يمكن أن تخبرينا بما هو مكتوب على ظهر اللوحة؟ فيبدو أنها نقطة مهمة في تلك القضية. هل يمكن أن تتذكري المكتوب بوضوح؟

نظرت إديث بيتون حولها نحو المقاعد المكتظة وقالت: «نعم، أتذكر ذلك بوضوح لأنني لم أكن أفهم حينها ماذا تعني. كانت العبارة المكتوبة بالطبشور تقول: «إلى القائد الذي سيفهم أن الأشياء لا تؤخذ، بل تُمنح».

36

سمعت ليف أصوات الضجيج من حولها ترتفع كأصوات مجموعة من الطيور، ورأت الصحفيين يحتشدون حول السيدة العجوز وأقلامهم تتحرك كهوائي الاستقبال، وراح القاضي يتحدث في عجالة مع المحامين ويطرق بمطرقته لكن دون جدوى. نظرت إلى أعلى نحو مكان تجمع الجماهير العادية صوب الوجوه المتحركة وسمعت أصوات تصفيق غريبة ربما كانت من أجل السيدة العجوز أو من أجل الحقيقة؛ لم تكن واثقة.

شق بول طريقه عبر الحشود، وحينما وصل إليها جذبها نحوه وأسند رأسه إلى رأسها وصوته يتردد في أذنيها: «إنها ملكك ليف، ملكك». كان الارتياح يغلف صوته.

قالت وكانت تضحك وتبكي في الوقت نفسه: «لقد عاشت، لقد وجدا بعضهما بعضًا».

ومن خلال ذراعه نظرت حولها نحو الفوضى، ولم تعد تخشى الحشود من الأشخاص. كان الناس يبتسمون وكأن هذه نتيجة جيدة، وكأنها لم تعد عدوة لهم. رأت أبناء ليفيفر وهم ينهضون ليغادروا وكانت تعلو وجوههم الكآبة كمن يحملون نعشًا، وقد غمرتها الراحة لأن صوفي لن تعود معهم لفرنسا. رأت جاني ديكنسون تلملم أشياءها ببطء، وقد تجمدت تعبيرات وجهها كما لو أنها لا تصدق ما حدث لتوه.

ربت هنري على كتفيها وكانت الابتسامة تغطي وجهه وهو يقول: «ماذا عن ذلك؟ لم يبال أحد بأن ينصت إلى حكم العجوز بيرجر المسكين».

وضع بول ذراعه حول كتفيها ليحميها وقال: «هيا لنخرج من هنا».

ظهر الموظف يشق طريقه وسط هذا الكم الهائل من الأشخاص. وقف أمامها واعترض طريقها وقد تقطعت أنفاسه بسبب الرحلة القصيرة التي قطعها.

قال وهو يعطيها اللوحة: «ها هي سيدتي، أعتقد أنها ملكك».

أطبقت ليف أصابعها على الإطار الذهبي ونظرت إلى صوفي، وكان شعرها زاهيًا وسط ضوء المحكمة الخافت وابتسامتها غامضة كعهدها دائمًا.

أضاف الموظف قائلًا: «أعتقد أنه من الأفضل أن نصحبك من الباب الخلفي». وقد ظهر حارس الأمن بجواره وراح يدفعهم نحو الباب وكان يتحدث في اللاسلكي.

كان بول على وشك أن يخطو خطوة للأمام لكنها وضعت يدها على ذراعه لتوقفه وقالت ليف: «لا».

أخذت نفسًا وشدت كتفيها للخلف حتى تبدو أطول قليلًا وقالت: «لا، هذه المرة سنخرج من الباب الأمامي».

خاتمة

ما بين عام 1917 و1922 عاش كل من أنطون ليفيل وماري ليفيل في منزل صغير بالقرب من حافة بحيرة في بلدة مونترو السويسرية Montreux. كانا زوجين هادئين لا يحبان استقبال الضيوف، ويبدو أنهما كانا يسعدان بصحبة بعضهما بعضًا. تعمل السيدة ليفيل نادلة في مطعم محلي، ويذكر أنها كانت ماهرة وودودة لكنها كانت شخصية لا تقدم من تلقاء نفسها على الكلام (يقول المالك وهو ينظر جانبًا نحو زوجته إنها صفة نادرة في النساء).

وفي مساء كل يوم في الساعة التاسعة والربع، كان يرى المحيطون السيد أنطون ليفيل –وهو رجل طويل ذو شعر أسود خطواته بها عرج خفيف– وهو يسير لنحو خمس عشرة دقيقة حتى يصل إلى المطعم فيرفع قبعته لتحية المدير وهو يدلف من الباب ثم ينتظر حتى تظهر زوجته، ويمد لها ذراعه فتمسك به ويعودان معًا للمنزل، وقد يسيران ببطء بين الحين والآخر ليسجلا إعجابهما بوقت الغروب على البحيرة أو بواجهة متجر مزينة. كان هذا –طبقًا لروايات جيرانهم- روتين حياتهم اليومية ونادرًا ما كانا يحيدان عنه. وبين الحين والآخر كانت السيدة ليفيل تبعث بطرود بريدية وهدايا صغيرة إلى عنوان في شمال فرنسا. ولكن بعيدًا عن هذا، لم يكن لديهما اهتمام كبير بالعالم الأكبر من حولهما.

وفي عطلات نهاية الأسبوع يميل الزوجان إلى البقاء في المنزل، وكانا كل حين وآخر يذهبان إلى المقهى المحلي حيث يقضيان عدة ساعات هناك –إذا

ما كان اليوم مشمسًا- يلعبان بالبطاقات أو يجلسان بجانب بعضهما بعضًا في صمت مؤنس ويحيط يدها بيده الضخمة.

قالت آنا بارتشي التي نشأت في المنزل المجاور: «كان أبي يمزح مع السيد ليفيل بأن السيدة لن تفلت منه في النسيم إذا ما أطلق سراحها لدقيقة، وقد اعتاد أبي أن يقول لأمي إنه يعتقد أنه من غير اللائق بعض الشيء أن يتشبث المرء بزوجته هكذا وسط العامة على هذا النحو».

لم يكن أحد يعرف الكثير عن الشؤون الخاصة للسيد ليفيل سوى أن صحته ليست على ما يرام، ويقال إن له دخلًا خاصًا، وقد عرض أن يرسم لوحات لاثنين من أطفال الجيران لكن بالنظر إلى اختياره الغريب للألوان واستخدامه غير التقليدي لفرش الألوان لم تلق رسوماته استقبالًا حسنًا.

وقد اتفق معظم سكان البلدة فيما بينهم على أنهم يفضلون ألوانًا أكثر تنظيمًا وصورًا أكثر واقعية تشبه صور السيد بلم الذي يقطن بالقرب من منزل صانع الساعات.

وصل البريد الإلكتروني عشية عيد الميلاد.

«إنني لا أجيد التكهنات وربما الاحتفاظ بالصداقات، لكن حقًا أريد أن أراك. إن لم تكوني قد استخدمت مهاراتي التي علمتك إياها في صنع عرائس الفودو (وهذا ممكن بالطبع، لأني أعاني نوبات صداع شديدة في الآونة الأخيرة. إن كان هذا بسببك فإنني أعبر لك على مضض عن إعجابي).

إن الأمور مع رانيك لا تسير على نحو جيد. اتضح أن مشاركة حجرة بغرفتين مع خمسة عشر رجلًا من عمال الفنادق من شرق أوروبا ليست بتجربة ممتعة. من يدري؟ لقد عثرت على مكان جديد من خلال موقع الإعلانات جم تري Gumtree وشاركته مع محاسب لديه سمات تشبه مصاص الدماء، ويعتقد

أن العيش مع شخصية مثلي سيجعل منه حضاريًّا أصيلًا. أعتقد أنه يشعر ببعض الخيبة لأنني لم أملأ ثلاجته بجثث الحيوانات الميتة على الطريق أو لأنني لم أعرض عليه وشمًا محلي الصنع. لكن لا بأس، فلديه تلفزيون متصل بطبق استقبال والمنزل لا يبعد دقيقتين سيرًا على الأقدام حتى منزل الرعاية، لذا فليس لديّ عذر بعد الآن في إهمال كيس حفاضات السيدة فينسنت (لا تسألي عن التفاصيل).

على أي حال، أنا سعيدة لأنك احتفظت باللوحة حقًّا. وأنا آسفة لأنني ليس لديّ زر للباقة. أفتقدك».

مو

قال بول وهو ينظر من خلال كتفها: «ادعيها إلى المنزل، فالحياة قصيرة، أليس كذلك؟».

طلبت رقمها حتى قبل أن تفكر في الأمر.

قالت قبل أن تتحدث مو: «ماذا لديك غدًا؟».

- هل هذا سؤال مخادع؟

- هل تريدين أن تأتي إلى هنا؟

- وأفتقد المناقشات الخبيثة لأبي وأمي، وجهاز التحكم المعطل، ونسخة عيد الميلاد من برنامج راديو تايمز Radio Times. هل تمزحين؟

- سأنتظرك في العاشرة. يبدو أنني سأطهو لخمسة آلاف شخص. أريد مساعدة في إعداد البطاطس.

لم تستطع مو أن تخفي سعادتها وقالت: «سأكون في الموعد، وربما أحضر لك هدية، هدية اشتريتها بالفعل. لكني سأنسحب قرابة السادسة لكي أغني لكبار السن».

- إنك شخصية عطوفة.

- نعم. لقد فاتك أن تضعي السيخ الأخير.

مات الصغير جين مونبلييه بسبب إصابته بالإنفلونزا في الشهور الأخيرة من الحرب. انتابت هيلين مونبلييه حالة من الصدمة، فلم تبك حينما جاء الحانوتي لأخذ جسده الصغير أو حينما واراه الثرى. استمرت في ممارسة حياتها الطبيعية، وفتحت الحانة في الساعات المخصصة ورفضت كل عروض المساعدة، ولكنها كما استرجع العمدة في مذكراته «امرأة باردة».

وقد وصفت إديث بيتون –التي كانت تأخذ على عاتقها العديد من مسؤوليات هيلين في صمت– يومًا ما في وقت ما بعد الظهيرة بعد مرور عدة أشهر حينما وقف عند الباب رجل نحيف يبدو عليه التعب يرتدي زيًّا رسميًّا، ويضع ذراعه اليسرى في حمالة كتف. كانت إديث تجفف الكؤوس، وانتظرته ليدخل، لكنه وقف عند العتبة ونظر إليها وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب. عرضت عليه كوبًا من المياه وحينما لم يدخل سألته: «هل أحضر لك السيدة مونبلييه؟».

قال وهو يحني رأسه وقد اختنق صوته بعض الشيء: «نعم يا صغيرتي، أرجوك».

تحدثت عن خطوات هيلين المتثاقلة نحو الحانة، ووجهها الذي بدا أنه لا يصدق ما يراه، وكيف سقطت منها المكنسة وكيف لملمت تنورتها وألقت بنفسها في أحضانه كالقذيفة، وعلا صوت بكائها وتردد صداه عبر الباب المفتوح وعبر شوارع سان بيرون، مما جعل الجيران التي تحجرت قلوبها نتيجة لفقد أحبائها ترفع بصرها وتمسح دموع أعينها.

تتذكر كيف كانت تجلس على السلالم خارج غرفة نومهما تستمع إلى بكائهما المكتوم، حيث كانا يبكيان ابنهما المفقود. وقد أشارت –دون أي إشفاق على الذات– إلى أنه بالرغم من حبها الشديد لجين فإنها تتذكر أنها لم تذرف أي دمعة. فقالت إنه بعد موت أمها لم تبك ثانية.

سجل التاريخ أنه طوال السنوات التي امتلكت فيها عائلة مونبلييه فندق الديك الأحمر وأشرفت على إدارته فإنه لم يغلق أبوابه إلا مرة واحدة لمدة ثلاثة أسابيع خلال عام 1925. يتذكر سكان البلدة أن هيلين وجين ميشيل وميمي وإديث لم يخبروا أحدًا بأنهم سيسافرون، ولكنهم أنزلوا مصاريع النوافذ وأغلقوا الأبواب واختفوا وتركوا لافتة على الباب تفيد بأنهم في إجازة،

ولم يؤدِّ هذا إلا إلى درجة قليلة من الخوف داخل البلدة الصغيرة، وخطابيْ شكوى إلى الصحف المحلية، ومزيد من الزبائن في حانة لو بار بلانك. وحينما عادت العائلة سأل سكان البلدة هيلين عن المكان الذي ذهبت إليه فردت بأنها سافرت إلى سويسرا.

قال السيد مونبلييه: «لقد رأينا أن الجو مناسب هناك من أجل صحة هيلين».

ردت هيلين بابتسامة: «هو كذلك بالطبع. إنه مجدد للنشاط».

وقد وردت في السجلات أن السيدة لوفير أشارت في مذكراتها إلى أنه قد حدث واختفى أصحاب الفنادق حينما غلبتهم النزوة للسفر إلى الدول الأجنبية دون أي إجازة رسمية، لكنهم عادوا وقد بدا عليهم السرور الشديد لأنهم قد أقدموا على هذا.

لم أعلم ما الذي حدث لصوفي وإدوارد. لقد علمت أنهما مكثا في مونترو حتى عام 1926، لكن هيلين كانت الوحيدة التي على صلة دائمة بها وقد توفيت عام 1934 فجأة. بعد ذلك كانت خطاباتي تعود ويكتب عليها ترد إلى المرسل.

تبادلت كل من ليف وإديث بيتون أربعة خطابات تداولتا خلالها معلومات سرية كثيرة سدت هوة التساؤلات. شرعت ليف في تأليف كتاب عن صوفي وتقدم إليها اثنان من الناشرين. وكان هذا شيئًا مخيفًا وقد سألها بول عن الأكثر كفاءة فيهما لكتابته.

كان خط يد السيدة العجوز ثابتًا بالنسبة لامرأة في سنوات عمرها المتقدمة، وكانت هناك مسافات بين الأحرف المتشابكة المائلة. اقتربت ليف من المصباح الموضوع على المنضدة الجانبية للفراش لتقرأ.

«لقد كتبت لإحدى الجيران التي قالت إنها سمعت أن إدوارد قد أصابه المرض، لكنها لم تستطع تقديم

دليل على هذا. وخلال السنوات التالية قادتني بعض الاتصالات الأخرى لأصدق ما هو أسوأ؛ فقد تذكر البعض أنه قد مرِض، وتذكر البعض الآخر أن صوفي هي من ضعفت صحتها. وقال أحدهم إنهما قد اختفيا. وقد اعتقدت ميمي أنها قد سمعت أمها تقول إنهما ذهبا إلى مكان أكثر دفئًا. وقد تنقلت عدة مرات حينها فلم يكن لدى صوفي أي وسيلة للاتصال بي.

أدرك أن الحس الجيد هو ما كان سيجعلني أومن بشخصين ضعيفين عوقب جسداهما بالتجويع والأسر. لكني كنت أفضِّل أن أفكر أن سبع أو ثماني سنوات بعد الحرب دون أي مسؤوليات على عاتق أي شخص، ربما جعلتهما يشعران بأمان كاف لكي ينتقلا ويحزما أمتعتهما ببساطة ويفعلا ذلك. كنت أفضل أن أتخيل أنهما هناك بالخارج، ربما في طقس مشمس، سعداء كما كانا في إجازتنا، هانئان بصحبة بعضهما بعضًا».

أصبحت المساحة التي حول فراشها أكثر فراغًا عن المعتاد، فهي تستعد للانتقال الأسبوع القادم. ستقيم في شقة بول الصغيرة، لكن لم يكن أي منهما في عجالة لمواصلة الحديث بشأن هذا. نظرت إليه وهو نائم بجوارها. ما زالت مبهورة بوسامته، وبهيئته، وبفرحتها لوجوده بجانبها. فكرت في شيء قاله والدها حينما أتى في حفلة عيد الميلاد وقد بحث عنها في المطبخ وراح يجفف الصحون بينما كانت هي تغسلها، وكان الآخرون مشغولين بلعب الأوراق في الحجرة الأمامية. نظرت إليه وهالها صمته غير المعتاد.

- أتعلمين؟ أعتقد أن ديفيد كان سيعجب به.

لم ينظر إليها وإنما استمر في تجفيف الصحون.

مسحت عينيها كالمعتاد حينما تفكر بشأن هذا (وهي عاطفية بشدة في تلك اللحظة). ثم عادت ثانية لقراءة الخطاب.

«إنني سيدة عجوز الآن، فربما لا يحدث ذلك في حياتي، لكني أومن بأنه في يوم ما ستظهر مجموعة من اللوحات دون أصل معروف؛ لوحات جميلة وغريبة وبألوان غير متوقعة وغنية، وستبرز امرأة ذات شعر أحمر تجلس في ظل نخلة، أو ربما تتطلع إلى الشمس، وقد بدا وجهها أكبر قليلًا في العمر، وربما خط الشيب شعرها لكن ابتسامتها عريضة وعيناها تمتلئان حبًّا».

نظرت ليف إلى اللوحة الموضوعة قبالة فراشها، ونظرت إليها الصغيرة صوفي يغمرها ضوء المصباح الذهبي الباهت. قرأت الخطاب ثانية، وتفحصت الكلمات، والمسافات التي بينها، وتذكرت نظرة ليليان بيتون؛ نظرة ثابتة فطنة ثم شرعت في قراءته مرة ثانية.

اقترب بول منها ومد ذراعه وجذبها إليه وقال: «ماذا تفعلين؟».

- أفكر.

- هذا يبدو شيئًا خطيرًا.

وضعت ليف الخطاب جانبًا واندست تحت الغطاء حتى واجهته.

- بول.

- ليف.

ابتسمت كما تبتسم في كل مرة تنظر إليه، وأخذت نفسًا عميقًا وقالت: «أتعلم كم أنت رائع في العثور على الأشياء...».

شكر وتقدير

يدين هذا الكتاب بالكثير لكتاب هيلين ماكفيل الرائع الصمت الطويل: الحياة المدنية في ظل الاحتلال الألماني لشمال فرنسا في الفترة من 1918-1914 The Long Silence: civilian life under the German occupation of northern France, 1914-1918, a الذي تناول جوانب كثيرة لم تُسجل عن تاريخ الحرب العالمية الأولى (على الأقل في هذه البلاد).

أود أيضًا أن أشكر جيريمي سكوت شريكًا في شركة ليبمان كاراس Lipman Karas لمساعدته الكريمة بخبراته في قضايا الاسترداد والإجابة عن العديد من أسئلتي برحابة صدر شديدة. لقد اضطررت إلى إدخال بعض التعديلات على بعض النقاط القانونية والإجراءات من أجل الحبكة، وأي أخطاء أو انحرافات عن الممارسات الفعلية هي بالقطع أخطائي.

الشكر موصول للناشرين: دار نشر بنجوين Penguin وبخاصة لويز موور، وماري إيفانز، وكلير بورون، وكاتيا شيبستر، وإليزابيث سميث، وسيلين كيلي، وفيفيان باسيت، وراوين دافيس، وروب ليلاند، وهازل أورمي.

أشكر وكالة كورتيس براون Curtis Brown وبخاصة وكيلة أعمالي شيلا كرولي. وأشكر كذلك جوني ججيللير، وكاتي ماكجوان، وتالي جارنر، وسام جرينوود، وسفين فان دام، وأليس لوتينز، وصوفي هاريس، وريبيكا ريتشي.

ودون أي ترتيب معين، أود أن أشكر أيضًا ستيف دوهرتي، ودرو هازل، وداميان بار، وكريس لاكلي.

وأشكر عائلتي في الكتابة دار نشر Writersblock، والكتاب الداعمين بصورة رائعة على موقع التواصل تويتر. هناك الكثير مما لا يتسع ذكرهم هنا.

جزيل الشكر لجيم مويس، وليزي وبريان ساندرز، عائلتي ساسكيا، وهاري، ولوكي، وشارلز آرثر المدقق اللغوي، الذي أدخل بعض التعديلات على الحبكة وعانى طويلًا من كثرتها. والآن تعلمون كيف تسير الأمور.





ماذا حدث للفتاة التي تركتَها؟

في عام 1916 تركَ الرسام الفرنسي إدوارد ليفيفر زوجته صوفي وذهب ليحارب على الجبهة. وحينما وقعت مدينتها في قبضة الاحتلال، حركت لوحةُ إدوارد التي رسمها لصوفي قلبَ القائد الألماني، وجعلها ذلك تخاطر بكل شيء: عائلتها، وسمعتها، وحياتها على أمل رؤية حُبِّها الحقيقي للمرة الأخيرة.

وبعد مرور ما يقرب من قرن، حصلت ليف على لوحة صوفي هديةً من زوجها الشاب قبل وفاته بمدة قليلة، وعبَّر جمالُ اللوحة عن حياتيْهما القصيرة معًا، ولكن حينما ظهر تاريخ اللوحة المظلم المليء بالآلام. اكتشفت ليف أن هناك ما يُهدِّد شرارة الحب التي شعرت بها منذ فقدانه.

الفتاة التي تركتَها روايةٌ لامرأتين شابتين يفصل بينهما قرنٌ من الزمان، لكن يجمعهما الإصرار على النضال من أجل الشيء الذي تعشقانه مهما كان الثمن.

هذه الرواية مكتوبة ببراعة ومليئة بالشخصيات المرسومة رسمًا رائعًا مع أسلوب سرد عبقري يجعلك تفكر طويلًا بعد أن تنتهي من آخر صفحات الرواية.

غلاف: عبد الرحمن الصواف



aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb